

تفسير الكاشف، ج ۴، ص ۷

الجزء الرابع

الجزء العاشر

سورة التوبة

و تسمى أيضا براءة و الفاضحة لأنها فضحت أمر المنافقين، عدد آياتها ۱۲۹، و هي مدنية. و اتفق الصحابة و القراء على إسقاط البسملة من أولها، لأن السورة نزلت لرفع الأمان، و البسملة أمان، لمكان الرحمن الرحيم، و قيل: انها و الأنفال سورة واحدة.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۱ الى ۴]

بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (۱) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (۲) وَ أَذَانَ مِّنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تَبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ الْيَمِّ (۳) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْفُصُواكُمْ شَيْئًا وَ لَمْ يَظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (۴)

تفسير الكاشف، ج ۴، ص ۸

اللغة:

المراد بالبراءة هنا انقطاع العصمة. و السيح السير على مهل. و الاخزاء الإذلال. و الأذنان الاعلام.

الإعراب:

براءة خبر لمبتدأ محذوف أي هذه براءة. و اربعة أشهر ظرف متعلق بفسيحوا. و اذان خبر لمبتدأ محذوف أي و هي اذان. و رسوله مبتدأ و الخبر محذوف أي و رسوله بريء، و يجوز أن يكون معطوفا على الضمير في بريء لأنه اسم فاعل. الا الذين عاهدتم (الذين) منصوب على الاستثناء من المشركين. و شيئا مفعول مطلق.

المعنى:

في العام الثامن للهجرة فتح النبي (ص) مكة، و في التاسع نزلت هذه السورة، و في العاشر حج النبي حجة الوداع، و في الحادي عشر توفي صلى الله عليه و آله.

فهذه السورة ليست آخر سورة نزلت من القرآن، و لكنها من الأواخر، و لذا تضمنت أحكاما نهائية في العلاقات بين المسلمين و المشركين .. قال طه حسين في كتاب «مرآة الإسلام»:

«زاد اقبال العرب على الإسلام بعد الحجة التي حجها ابو بكر سنة تسع، ففي هذه الحجة أرسل النبي عليا ليلحق بأبي

بكر، و يتلو على الناس قرآنا، فكان فصلا بين عهدين: عهد كان يقوى الإسلام فيه شيئا فشيئا، و كان للشرك مع ذلك بقاء في بعض قبائل العرب، و عهد آخر خلصت فيه الجزيرة كلها للإسلام .. و هذا القرآن - أي الذي تلاه عليّ على الناس و الذي فرق الله به بين هذين العهدين - هو هذه الآيات الكريمة من سورة التوبة، فأعلن فيها براءة الله و رسوله من المشركين و حرم فيها أن يقرب المشركون البيت، أو يلتموا به، أو يطوف به عرياناً.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٩

(بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ). قدمنا ان هذه السورة نزلت في العام التالي للفتح، حيث عظم أمر الإسلام، و انتشر في الجزيرة العربية كلها، و كانت له الكلمة العليا، و مع ذلك بقي للشرك جيوب في بعض قبائل العرب، و كيلا تكون هذه الجيوب طابورا خامسا في المجتمع الاسلامي أمر الله نبيه - في هذه السورة - أن يعلن البراءة من المشركين، و بالأصح أن ينذر بالحرب كل مشرك يقيم في الجزيرة العربية، حتى يقول: لا إله إلا الله، و يدخل فيما دخل فيه الناس. و يشمل هذا الانذار جميع المشركين، حتى الذين عاهدهم النبي (ص) على الهدنة و المسالمة إلا في حال واحدة أشار إليها سبحانه بقوله: **(إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا)** و يأتي التفسير.

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ). فسبحوا أي قولوا أيها المسلمون للمشركين: سيروا في الأرض آمين طوال هذه المدة .. بعد إعلان الحرب على المشركين أمهلهم الله سبحانه أربعة أشهر يتنقلون فيها آمين، حيث يشاءون لا يمسه أحد بسوء، فإن أسلموا بعدها فقد سلموا، و فازوا دنيا و آخرة، و ان أصروا على الشرك فجزاؤهم القتل في الدنيا، و العذاب الأليم في الآخرة، و لن يجدوا من ذلك مهربا. و تسأل: ان قتال المشرك، حتى ينطق بكلمة التوحيد لا يتفق مع قوله تعالى في الآية ٢٥٦ من سورة البقرة: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» و قوله في الآية ٩٩ من سورة يونس: «أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» .. ان الإسلام دين السلم لا دين الحرب؟.

الجواب: أجل، ان الإسلام لا يكره أحدا على قول لا إله إلا الله، و انما يدعو اليه بالحكمة و الدليل: «وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ - ٢٩ الكهف». و لكن قد تستدعي مصلحة المجتمع الاسلامي في ظروف خاصة ان لا يكون فيه مشركون، لأنهم يسعون في الأرض فسادا .. و في هذه الحال يجوز للمسلمين أن يكرهوا المشركين على النطق بكلمة التوحيد .. و مشركو الجزيرة العربية كانوا انذاك طابورا خامسا في المجتمع الاسلامي الجديد. و من أجل

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٠

هذا كان الحكم فيهم القتل أو اظهار الإسلام، و به يكون لهم ما للمسلمين، و عليهم ما عليهم. و بكلمة ان الحكم خاص بمشركي الجزيرة آنذاك، لسبب خاص، و تقدم الكلام عن ذلك في ج ١ ص ٣٩٦ عند تفسير الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.

(وَإِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْنَا الْكِتَابَ وَاللَّهُ يَسِّرُ الْبُرْءَ لِلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ آلِهِمْ أَضْحٰكٌ وَأَلَّوْا بِاللَّهِ وَاللَّهُ يَهْدِي الْبُرْءَ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ الْيَمِّ). يوم الحج الأكبر هو يوم النحر، أي العاشر من ذي الحجة، و كان ابتداء الأشهر الأربعة بهذا اليوم من سنة تسع للهجرة، و انتهواها في عاشر ربيع الآخر من سنة عشر، و بعد هذه المهلة تعين مصير المشركين في الجزيرة العربية الإسلام أو القتل، و الخيار لهم بين

هذين، لأن الأوضاع في الجزيرة آنذاك كانت تستدعي ذلك كما أشرنا.

و ذكر المفسرون، و منهم الطبري و الرازي و ابو حيان الأندلسي: انه لما نزلت سورة التوبة امر النبي (ص) عليا ان يذهب الى اهل الموسم في مكة ليقرأها عليهم، ف قيل له: لو بعثت بها أبا بكر. فقال: لا يؤدي عني إلا رجل مني. و قام علي يوم النحر عند جمرة العقبة، و قال: ايها الناس اني رسول رسول الله إليكم، و تلا الآيات.

(إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُواكُمْ شَيْئًا وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ). بعد أن امر نبيه ان يمهل المشركين اربعة أشهر، حتى الذين نقضوا عهد المسلمين و غدروا بهم- بعد هذا استثنى سبحانه من المشركين قوما كان بينهم و بين المسلمين عهد المهادنة و المسالمة إلى أمد، و حافظوا على هذا العهد، و لم يغدروا و يخونوا، استثنى هؤلاء، و لم يمهلهم اربعة أشهر فقط، بل امهلهم الى مدتهم، مهما بلغت جزاء على و فائهم.

و قال كثير من المفسرين «ان هؤلاء المشركين الأوفياء هم قوم من كنانة، و كان قد بقي من عهدهم تسعة أشهر، فأتى النبي (ص) لهم العهد.

و تدل هذه الآية على ان المعاهد لا يجب عليه الوفاء بالعهد إلا إذا و في به الطرف الآخر نسا و فحوى، فان اخل بشيء منه يعدّ خائنا و ناقضا له، و لا عهد لمن خان العهد **(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)** و هم الذين يتقون نقض العهد و سائر المفاسد.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١١

[سورة التوبة (٩): الآيات ٥ الى ٨]

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحَرَامَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خَذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَ إِن أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَ إِن يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يُرْقِبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَ لَا ذِمَّةٌ يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ تَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨)

اللغة:

انسلاخ الأشهر انقضواها. و الحصر المنع من الخروج. و المراد بالمرصد هنا الممر و المجاز الذي يرصد فيه. و ظهر عليه غلبه و ظفر به. و المراد بالمراقبة هنا المحافظة. و الإل الجوار و قيل القرابة. و الذمة و الذمام العهد.

الإعراب:

كل مرصد منصوب على الظرفية متعلقا باقعدوا، تماما كالصراط في قوله:
لأقعدن لهم صراطك المستقيم. و أحد فاعل فعل محذوف دل عليه ما بعده، أي

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٢

و ان استجارك أحد من المشركين استجارك. كيف يكون (كيف) خبر كان، و عهد اسمها. فما استقاموا لكم (ما) مصدرية ظرفية، و الظرف متعلق بفاستقيموا لهم، و التقدير فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم. و كيف و إن (كيف) خبر كان

محذوفة هي واسمها أي كيف يكون لهم عهد. وإلا مفعول يرقبوا.

المعنى:

(فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ). وجدتموهم ادرکتموهم، وخذوهم ائسروهم، واحصروهم احبسوهم، واقعدوا لهم كل مرصد راقبوهم و ترصدوهم في كل طريق يمرون به، ولا تدعوا أحدا يفلت منهم. أما الأشهر الحرم فقد ذكرنا عند تفسير الآية ١٩٤ من سورة البقرة: ان الله حرم القتال في أربعة أشهر:

ذي القعدة، وذي الحجة، والمحرم، ورجب. وهذه الأشهر غير مرادة هنا، وانما المراد بالأشهر الحرم في هذه الآية الأشهر الأربعة التي حرم الله فيها قتال مشركي الجزيرة العربية، وأباح لهم طوال هذه المدة ان يسيحوا في الأرض آمينين ابتداء من عاشر ذي الحجة سنة ٩ هـ الى عاشر ربيع الآخر سنة ١٠ هـ، وبعدها أمر المسلمين بقتل المشركين وأسرههم وحبسهم وملاحقتهم انى اتجهوا إذا لم يسلموا او يهاجروا من الجزيرة قبل انتهاء المدة اتقاء لشركهم وفسادهم.

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

أي ان أظهروا الإسلام قبل انقضاء الأجل المضروب لهم، وأقاموا الشعائر الاسلامية وأهمها اقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ان فعلوا ذلك فهم في أمن و أمان يجري عليهم ما يجري على المسلمين، دون تفاوت.

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ).

ان اي مشرك ممن يجوز قتله إذا استجار و طلب الأمان من المسلمين فعليهم ان يجيروه و يعطوه الأمان على نفسه و ماله، و ان يدعوه إلى الإسلام بالحكمة و الموعظة الحسنة، فان قبل جرت عليه أحكام المسلمين، و ان رفض فلا يحل قتله، و يجب

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٣

أن يوصله المسلمون إلى مكان يأمن فيه على نفسه **(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ)** ذلك اشارة إلى اجارة المسلم للمشرك، و إسماعه كلام الله، و إبلاغه مأمنه، و قوله:

(بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ) بيان للسبب، و هو جهل المشركين المستجيرين بالإسلام و حقيقته.

و أفتى الفقهاء بأن للمسلم ان يؤمن حين القتال أحادا من المشركين المقاتلين شريطة عدم المفسدة في الأمان بأن لا يكون المستجير جاسوسا، و لا يتعطل الجهاد و القتال بأمانه.

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ). هذه الآية مكملة للآية الأولى و الرابعة من هذه السورة، فقد

أوجب سبحانه في الآية الأولى نقض العهد مع المشركين الذين خانوه و لم يفوا به، و هؤلاء الناكثون هم المعنيون بقوله تعالى هنا: **(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ).** و أوجب سبحانه في الآية الرابعة الوفاء بعهد

المشركين الذين وفوا بالعهد و لم ينقضوا منه شيئا، و هم قوم من كنانة كما أشرنا، و هؤلاء الأوفياء هم المعنيون بالاستثناء في قوله تعالى: **(إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ**

الْمُنَافِقِينَ). أي ابقوا معهم على عهد المهادنة و المسالمة ما بقوا عليه، لأن الله يكره أهل الخيانة و الغدر، و يحب الأوفياء و الأتقياء، و قوله: عند المسجد الحرام يشير الى المكان الذي تم فيه الاتفاق مع كنانة، لأن النبي (ص) عاهدهم مع من

عاهد في الحديبية، و هي قريبة من مكة المكرمة.

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ). ضمير يظهروا ويرقبوا يعود الى الناكثين، وقد وصفهم عظمت صفاته أولا باللؤم والشراسة، لأنهم لو قدروا على المسلمين لفعلوا بهم الأفاعيل في غير مراعاة لعهد ولا لانسانية، و وصفهم ثانياً بالنفاق وانهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وثالثا وصفهم بالفسق، وكل صفة من هذه الثلاث تقضي عليهم بأشد العقوبات، وبإسقاطهم من جميع حقوق الانسانية، لا من حق الوفاء لهم بالعهد فقط، فكيف إذا اتصفوا بالذائل الثلاث مجتمعة! وتساءل: ان الكفار كلهم فاسقون، لأن الكفر فسق وزيادة، فكيف استثنى سبحانه البعض بقوله: **(وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)؟**

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٤

الجواب: ان معنى قوله **(وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)** ان اكثرية الكفار يستمرون على الكفر والفسق ولا ترجى هدايتهم بحال، و قليل منهم من يرجع عن غيئه، و على هذا يكون المراد بالفسق هنا الاستمرار عليه و عدم الرجوع عنه، و هذا النوع من التعبير كثير في القرآن الكريم.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٩ الى ١٥]

اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفَّصْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) إِلَّا تَقَاتِلُوا قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُّوْكُمْ أَوْلَٰ مَرَّةٍ أَخَشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيَذْهَبُ غِيظَ قُلُوبِهِمْ وَ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٥

الإعراب:

ساء فعل ماض، و ما مصدرية، و المصدر المنسبك فاعل لساء أي ساء عملهم. و إخوانكم خبر لمبتدأ محذوف أي فهم إخوانكم. و أول مرة منصوب على الظرف متعلقا ببدء وكم. و المصدر المنسبك من ان تخشوه مجرور بحرف جر محذوف، و المجرور متعلق بأحق أي فالله أحق بالخشية. و يعذبهم مجزوم جوابا للأمر، و هو قاتلوهم. و يتوب بالرفع، لأن الكلام مستأنف، و لا يجوز عطف يتوب على يعذبهم لأن قبول التوبة ليست جوابا للقتال كالتعذيب و الخزي.

المعنى:

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

الضمير يعود الى المشركين الذين أمر الله بقتلهم، و المعنى ان هؤلاء رفضوا الإسلام و حاربوه و صدوا عنه خوفا على مصالحهم التي آثروها على ما جاءهم من آيات الله و بيناته .. و لا تختص هذه الآية بالمشركين و أهل الكتاب، بل تشمل الذين يحرفون الدين وفقا لهواء المستعمرين و المستغلين، و سبق نظير هذه الآية في سورة آل عمران الآية



(لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَاُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ). و تسأل: ان هذه الآية نظير الآية السابقة ٨، و هي (وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَاُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ). فلما ذا أعاد؟.

الجواب: خاطب الله سبحانه في الآية السابقة صحابة النبي (ص)، و قال لهم:

لو ظفر المشركون بكم لفعلوا الأعاجيب .. و ربما توهم متوهم ان المشركين يضمرون الحقد و العداة للنبي و الصحابة بالخصوص، أي لأشخاصهم فقط، فدفع سبحانه هذا التوهم بأن عداة المشركين للمسلمين آنذاك هو عداة مبدائي لا شخصي، انه عداة الكفر للايمان، و الباطل للحق: «وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ - ٨ البروج».

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفَصُ الْآيَاتِ)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٦

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ). تتفق هذه الآية مع الآية الخامسة من هذه السورة في فعل الشرط، و هو (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ) و تفتقر في جواب الشرط، فالجواب في السابقة (فَخَلَوْا سَبِيلَهُمْ) أي دعوهم و شأنهم و لا تتعرضوا لهم بسوء، و الجواب في هذه الآية (فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ) أي أنتم و هم سواء في الحقوق، لا سيد و مسود، و آكل و مأكول، كما كانت الحال بين المشركين. و مع الاختلاف في جواب الشرط ينتفي التكرار، على ان التكرار في القرآن غير عزيز.

(وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ). الايمان بفتح الهمزة العهود و المواثيق، و الإمام هو السيد و القائد، و عبر سبحانه عن قتال أهل الكفر بقتال أئمتهم لأنهم هم الذين يقودونهم إلى الحرب، و ينكثون العهد، و يطعنون و يجروون أتباعهم على الطعن في النبي و القرآن، و قوله تعالى: (لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ) يشير إلى ان القصد من القتال هو ردع المشركين عن الإصرار على قتال المسلمين: «وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا - ٢١٧ البقرة».

(أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَوُكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ) الأداة طلب مثل هلا، و الخطاب موجه للمسلمين، و ضمير نكثوا و هموا و بدأوا عائد إلى كفار قريش لأنهم عاهدوا رسول الله (ص) على ترك القتال عشر سنين، يأمن فيها الفريقان على أنفسهم و حلفائهم، و كان ذلك سنة ست للهجرة و لكنهم لم يلبثوا ان نكثوا العهد، و أيضا هم الذين هموا بقتل الرسول حتى اضطروه إلى الهجرة، و هم الذين بدأوا القتال يوم بدر.

و بعد ان ذكر سبحانه المسلمين بما فعل المشركون من نكث العهد، و إخراج الرسول و بدء القتال - حثهم على الجهاد و القتال، حيث لا رادع سواه، ثم أذهب سبحانه الخوف من قلوب المسلمين بقوله: (أَتَخَشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ). و قوله: (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) يشير إلى ان الخوف من الله حقا و واقعا لا يكون و لن يكون إلا ممن يؤمن بالله حقا و واقعا، اما غيره فإنه لا يخاف الله إطلاقا، و ان خافه فخوفه خيال عابر. قال الإمام علي (ع): «كل خوف محقق إلا خوف الله فإنه معلول» أي ان خوف الإنسان من غير الله له واقع

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٧

لملموس، أما خوفه من الله فلا واقع له، و انما هو مجرد خيال يعبر و يزول بأدنى شاغل.

(قَاتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يَخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَ يَذْهَبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ). هذه الأوصاف تناسب فتح مكة، لأن الله أذل و اخزى به صناديد قريش، و نصر المسلمين، و شفى صدور المؤمنين الذين استضعفهم جبابرة الشرك قبل الهجرة، و أذاقهم ألوانا من العذاب و التنكيل.

(وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ). كانت مكة عاصمة الحجاز، و مركز كل نشاط في الجزيرة العربية، و كان سادتها يشهرون سيف البغي و الإرهاب على كل من تحدته نفسه بالانضمام إلى محمد (ص)، و بعد أن فتحها انتشرت عليها ظلال الإسلام و استسلم أولئك السادة الطغاة، بل ان بعضهم أسلم طوعا، لا خوفا، و ظاهرا و واقعا، و هؤلاء هم الذين تاب الله عليهم، و أثابهم على إخلاصهم و صدق إيمانهم.

و بعد، فإن كل حكم تضمنته هذه الآيات فهو خاص بمشركي العرب آنذاك، لأنهم هم الذين أخرجوا الرسول (ص) و حاربوه و خانوا عهده .. و على افتراض انها توجب جهاد المشركين في كل زمان و مكان: فإن هذا الجهاد لا يجوز إلا بقيادة دولة اسلامية برئاسة المعصوم أو من ينوب عنه .. فأين هي الآن؟. و قد دعا إليها من دعا، و ألف حزبا من أجلها بزعمه، ثم تبين انه عميل، فحوكم على عمالته و خيانتته للأمة و الوطن، و تخلى عنه من خدع به من المغفلين، و لم يعرف أين مكانه الآن .. أجل، ان جهاد الإنسان و دفاعه عن حريته و ماله و وطنه لا يتوقف على وجود دولة اسلامية، و لا يحتاج إلى الإذن من المعصوم، و غير المعصوم، لأن الدفاع عن النفس و الوطن، و نضال المستعمرين و المستثمرين حق تقده جميع الشرائع و القوانين، و أشرنا الى ذلك في ج ١ ص ٢٩٩ و ج ٢ ص ٩٠، و عند تفسير الآية ٤٩ من الأنفال، فقرة: هل الفدائيون مخربون؟.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٨

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٦ الى ١٨]

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)

اللغة:

وليجة الرجل خاصته و بطانته من دون الناس، و المراد بها هنا بطانة السوء و تعلق على الواحد و الكثير.

الإعراب:

قال الطبرسي: أم حسبتم معطوف على قوله: الا تقاتلون في الآية ١٣.

و شاهدين حال من فاعل يعمروا. و في النار متعلق بخالدون، و فيه تقديم، و الأصل و هم خالدون في النار.

المعنى:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ). تقدم تفسيره في ج ٢ ص ١٦٥ الآية ١٤٢ من سورة آل عمران.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٩

(وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً). أفضل الطاعات عند الله جهاد المبطلين أعداء الحق

و الانسانية، و إلى هذا الجهاد أشار بقوله سبحانه:

(وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ). و أكبر المعاصي الركون اليهم، و اليه أشار تعالى بقوله: **(وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ**

دُونِ ... الخ)، و كل من يلجأ الى أهل البغي و العدوان و يربط مصلحته بمصالحهم فهو عدو لله و لرسوله و للمؤمنين، و على كل مخلص أن يشهر به، و يكشف عن دوره في التخريب و العمالة، ليميز الناس بينه و بين المكافح الأمين، و يضعوا كلا في المكان الذي يستحقه. **(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)**.

أجل، انه خبير عليم، و لكنه لا يعاقب أحدا على ما يعلم منه، بل على ما تكشف عنه بفعله و سلوكه.

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ). جاء في كتب اللغة. يقال:

عمر المنزل بأهله أي صار مسكونا بهم، و عمر فلان ربه أي عبده. و شاع على السنة الناس: المساجد عامرة بذكر الله. و في الحديث: «قال الله: بيوتي في الأرض المساجد، و ان زواري فيها عمارها». و على هذا المعنى يحمل قوله تعالى: **(يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ)** أي ليس للمشركين أن يدخلوها، و يقيموا فيها عبادتهم الوثنية، كما كانوا يفعلون أيام الجاهلية، و بالأولى أن لا يكون لهم التولية عليها، و يؤيد ارادة هذا المعنى قوله تعالى: **(شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ)** لأن عبادتهم الأصنام و دعاءهم اللات و العزى شهادة من أنفسهم على أنفسهم بأنهم كافرون بالله، و من كفر بالله لا يحق له ان يدخل بيوت الله **(أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)** لأن الله لا يقبل مع الشرك عملا **(وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ)** لأن الشرك أحبب جميع أعمالهم، حتى ما كان حسنا لولا الشرك.

(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ). أي لا يجوز لأحد أن يدخل المساجد و يتعبد فيها أو يتولى شيئا من أمورها إلا إذا اجتمعت فيه هذه الصفات، و هي الإيمان بالله و اليوم الآخر، و إقامة الشعائر الدينية، و أهمها إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة، و الخوف من الله أي الإخلاص له في الأقوال و الأفعال **(فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)** إلى الحق و العمل به، و كلمة عسى من الله تفيد اليقين، لأن الشك محال عليه.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٠

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٩ الى ٢٣]

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يَبْشِرُهُمُ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)

اللغة:

تطلق السقاية على الآلة تتخذ لسقي الماء، و ايضا تطلق على سقي الناس الماء، و هذا المعنى هو المراد هنا.

الإعراب:

سقاية الحاج على حذف مضاف اي اصحاب سقاية الحاج. و درجة تمييز، و خالدين حال من الضمير في لهم.

المعنى:

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ). المراد

بسقاية الحاج سقي الناس الماء في الحج، و بعمارة المسجد

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢١

هنا خدمته. وجاء في اكثر التفاسير، ومنها تفسير الطبري و الرازي و النيسابوري و السيوطي:
 «ان العباس بن عبد المطلب كان يسقي الناس في الحج، و ان طلحة بن شيبه من بني عبد الدار كان يحمل مفتاح الكعبة، فقال طلحة: انا صاحب البيت معي مفتاحه، و قال العباس: انا صاحب السقاية، فقال علي بن ابي طالب:
 لا ادري ما تقولان، لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، و انا صاحب الجهاد. فانزل الله جعلتم سقاية الحاج الخ». فعلي هو المقصود بقوله تعالى: **(كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)** هذا هو ميزان الفضل عند الله: الايمان به و الجهاد في سبيله، اما الوظائف و المناصب فكثيرا ما قادت أصحابها إلى المفساد و المهالك **(لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ)** في الجزاء و الثواب **(وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)** بعد ان دعاهم إلى الهدى، فرفضوا بسوء اختيارهم. **(الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)**. و اين تقع سقاية الحاج و عمارة المسجد من الايمان و الهجرة و الجهاد، و مرّ نظير هذه الآية في سورة الأنفال الآية ٧٢. و كلمة أعظم هنا لا تعني المفاضلة، و إنما تعني مجرد ثبوت الفضل للمؤمنين، لأن الكافرين لا شيء لهم عند الله من الدرجات.

(يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوَانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ). قال صاحب (البحر المحيط): «اتصف المؤمنون بصفات ثلاث: الايمان و الهجرة و الجهاد فقابلهم الله بثلاث: الرحمة و الرضوان و الجنان.» و أطال الرازي الكلام في بيان الفرق بين هذه الأوصاف .. اما نحن فنرى انها هي و الفوز و الأجر تعبر عن معنى واحد، و هو ان المؤمنين العاملين هم في رعاية الله و امانه، و كلمة رضوان الله تعني عن الجميع: «و رضوان من الله اكبر» و لكنه جل شأنه أراد التعظيم من شأنهم، و ترغيب عباده في الايمان و العمل الصالح.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٢

[سورة التوبة (٩): الآيات ٢٣ الى ٢٤]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَ إِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ وَ إِخْوَانُكُمْ وَ زُرَّاجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَ تِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَ مَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)

اللغة:

استحب و أحب بمعنى واحد، مثل استجاب و أجب. و الاقتراف هنا الاكتساب. و التربص الانتظار. و المراد بأمر الله هنا عقوبته.

المعنى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَ إِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ). المراد بالولاية هنا النصرة. لقد امر الإسلام بصلة الرحم، و حث عليها، و اعتبر عقوق الوالدين من الكبائر، و اوصى بالجار، و بالوفاء للأصدقاء و بكل عقد و عهد، و أباح للمسلمين ان يبروا و يقسطوا إلى المشركين، كل أولاء جائز على شريطة ان لا



تحرم حلالا، او تحلل حراما، فإذا وقف الأب في جانب الباطل - مثلا- فلا يجوز للابن ان يناصره في موقفه هذا، بل عليه ان يقاومه و يردعه ان استطاع، فقله تعالى: **(إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَىٰ**

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٣

الإيمان). يشمل كل معصية بطبيعة الحال، فإذا كان أبوك أو أخوك مسلما، و ظلم سواء فعليك ان تنصر المظلوم على الظالم، و ان كان أبك أو أخاك **(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)**. جاء في الحديث: «العامل بالظلم و المعين عليه و الراضي به شركاء». و بكلمة ان الحق فوق القرابة و الصداقة.

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ). قيل: نزلت هذه الآية في حادثة خاصة، و قد يكون هذا حقا، و لكن لفظها عام، و كذلك حكمها، فهي تحدد المؤمن بحد واضح و دقيق، فمن أثر الحق على مصلحته الخاصة عند صراعهما و اصطدامهما فهو مؤمن و طيب، و من أثر مصلحته على الحق فهو منافق و خبيث .. هذا هو مفترق الطريق بين المؤمن و غير المؤمن، كما حددته الآية، و ما جاء فيها من ذكر الأرحام و الأموال و المساكن انما ذكر على سبيل المثال لمن قدم منفعة على الحق الذي عبر عنه تعالى بحب الله و رسوله، و إلا فإن هناك منافع اخرى كالحرص على الحياة، و حب الجاه و السلطان، و ما اليهما.

و الإنسان بفطرته يحب نفسه و اهله و أمواله، و الدين لا يأبى ذلك، و لا يحجر على احد ان يستمتع بما يشاء، و يحب من يريد، شريطة ان يتقي الله في هذا الاستمتاع و الحب، و ان يكون على حساب جهوده، لا على حساب الآخرين .. فعن البخاري ان عمر بن الخطاب قال للنبي (ص): «لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبي، فقال النبي (ص): لا و الذي نفسي بيده، حتى أكون أحب اليك من نفسك التي بين جنبيك». و لا معنى لحب النبي (ص) الا طاعته و العمل بشريعته. و تكلمنا عن هذا الموضوع في ج ٢ ص ٤٥٧ عند تفسير الآية ١٣٥ من سورة النساء.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٢٥ الى ٢٧]

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٤

اللغة:

مواطن جمع موطن، و هو مقر الإنسان و محل إقامته، و استوطن بالمكان اتخذه موطنًا. و حنين واد بين مكة و الطائف. و الرحبة السعة. و السكينة الطمأنينة.

الإعراب:

مواطن ممنوع من الصرف لأنه على وزن مفاعل. و يوم معطوف على محل مواطن، لأن كل مجرور لفظا فهو منصوب محلا، أي و نصركم يوم حنين.

و إذ بدل من يوم. بما رحبت ما مصدرية، و المصدر المنسبك مجرور بالباء متعلقا بمحذوف حالا من الأرض، و الباء هنا بمعنى مع. و مدبرين حال من الضمير في وليتم.

قصة حنين:

حنين واد بين مكة و الطائف، و تسمى غزوته بغزوة حنين، و غزوة أو طاس و غزوة هوازن، و كانت في شوال سنة ثمان للهجرة.

لما فتح النبي (ص) مكة خافته هوازن و ثقيف، فجمعوا لحربه الأتوف، و بلغ رسول الله ما أجمعوا عليه، فتهيأ للقائهم باثني عشر ألف رجل، عشرة من

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٥

أصحابه الذين فتح بهم مكة، و ألفان من الطلقاء، و منهم ابو سفيان و ابنه معاوية. و توجه النبي (ص) إلى هوازن، و كان طريقه على وادي حنين، و كان ضيقا منحدرًا، و كان جيش العدو قد سبقهم إلى احتلال مضايقه، و كمن فيها، و ما ان وصل المسلمون إلى قلب الوادي، حتى أمطروهم العدو بوابل من سهامه، فانهزم الناس، و أولهم ابو سفيان. قال الشيخ الغزالي في فقه السيرة: «و عاد إلى بعضهم كفره بالله و رسوله، فقال ابو سفيان: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، و لا عجب فإن الأزام التي كان يستقسم بها في جاهليته لا تزال في كنانته». و ثبت مع رسول الله علي شاهرًا سيفه بين يدي رسول الله (ص) و العباس أخذًا بلجام بغلته، و الفضل بن العباس عن يمين النبي، و المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب و زيد بن أسامة، و أيمن بن ام أيمن، و قتل بين يدي الرسول (ص). و حين رأى المشركون انهزام المسلمين خرجوا من شعاب الوادي، و قصدوا رسول الله، فقال لعنه العباس، و كان جهوري الصوت: ناد القوم، و ذكرهم العهد، فنادى بأعلى صوته: يا أهل بيعة الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة اين تفرون؟

اذكروا العهد الذي عاهدتم عليه رسول الله، فلما سمع الأنصار نداء العباس عطفوا و كسروا جفون سيوفهم، و هم يقولون: لبيك، لبيك فاستقبل بهم النبي الأعداء و اقتتل الفريقان قتالا شديدا.

و كان حامل راية المشركين و طليعتهم رجل يدعى أبا جرول، فكان يكر على المسلمين و ينال منهم، فبرز له علي بن أبي طالب و قتله، و بقتله تفرقت جموع المشركين، و تم النصر للنبي و المؤمنين، و لما علم الطلقاء بانتصار المسلمين و كثرة الغنائم رجعوا إلى رسول الله. و في تفسير البحر المحيط ان الطلقاء فروا و قصدوا بذلك إلقاء الهزيمة في المؤمنين. و قال الشرقاوي في كتاب (محمد رسول الحرية):

«إن الفين من قريش، على رأسهم ابو سفيان أسلموا خوفا أو طمعا قد جاءوا اليوم لا لينصروا الإسلام، بل ليخذلوه، و ليشبعوا الانهزام بين المجاهدين القدماء!!».

و هكذا المنافقون و الانتهازيون يتظاهرون بالإخلاص، و يندسون في صفوف الأحرار يدبرون المؤامرات، فان نجحت بلغوا ما يريدون، و ان نجح الأحرار

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٦

قالوا لهم: نحن و أنتم شركاء. و تقدم الكلام عن هؤلاء في ج ٢ ص ٤٦٦.

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ) منها وقعة بدر و قريظة و النضير و الحديدية و خيبر و فتح مكة: **(و يَوْمَ حُنَيْنٍ)**



إِذْ أَعْجَبَكُمْ كَثْرَتَكُمْ) قال الرازي: «ان رجلا من المسلمين قال: لن نغلب اليوم من قلة، فساء ذلك رسول الله (ص)، و قيل: انه هو قالها، و قيل: قالها أبو بكر، و اسناد هذه الكلمة إلى الرسول بعيد».

(فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلِيْتُمْ مُدْبِرِينَ).

فمن الاعجاب بالكثرة إلى ابشع الهزائم التي لم يجدوا معها في الأرض مكانا ينجيهم من عدوهم، و هذه نهاية كل من تاه بغروره، و استهان بعدوه.

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ) السكينة الثقة و الاطمئنان، و معنى إنزالها على النبي (ص)

بقاؤه ثابتا في قلب المعركة ساكن الجأش، شديد البأس يدبر الأمر و يحكمه على الرغم من فرار جيشه الذي بلغ ١٢ ألفا إلا نفرًا لا يتجاوزون العشرة، و جيش العدو يعد بالألوف .. قال الرواة: كان النبي يدفع ببغلة نحو العدو و لا يبالي، و هو ينادي المنهزمين، و يقول: إلي عباد الله أنا رسول الله أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب .. و المؤمنون الذين أنزل الله سكينته عليهم هم الذين ثبتوا مع رسول الله و لم يفروا عنه، و الذين عادوا إلى المعركة بعد الهزيمة، و استجابوا لنداء النبي مخلصين، و معنى إنزال السكينة عليهم تسكين قلوبهم، و إزالة الخوف و الرعب منها.

(وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا) قال الرازي: «لا خلاف ان المراد إنزال الملائكة». أما نحن فنعتقد ان لله جنودا من الملائكة

و غير الملائكة لا تحصى أنواعها فكيف أفرادها! و من تلك الأنواع قوى النفس و غرائزها، و منها قوى خارجية، و الآية لم تبين نوع هذه الجنود التي أنزلها الله يوم حنين، لذلك نترك علمها لله الذي قال: «وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ - ٣١ المدثر». **(وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)** عذبهم في الدنيا بالقتل و الأسر و الهزيمة و أخذ الأموال، و عذبهم في الآخرة بنار جهنم و سوء المصير.

(ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ). ان الله كريم

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٧

لا يتعاضمه غفران الذنب العظيم، و بابه مفتوح لكل طارق، فمن فر عن رسول الله من المسلمين، ثم تاب فان الله يحب التوابين، و من كفر و حارب الله و رسوله، ثم تاب و آمن و عمل صالحا فهو من المفلحين. قال المورخون: بعد ان انتهت المعركة، و وزعت الغنائم جاء وفد من هوازن مسلما، و قالوا:

يا رسول الله أنت خير الناس و أبرهم، و قد سبي أهلونا و أولادنا و أخذت أموالنا.

فقبل إسلامهم، و رد عليهم النساء و العيال.

[سورة التوبة (٩): آية ٢٨]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَ إِن خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)

اللغة:

النجس القذر، و هو مصدر يطلق بلفظ واحد على المذكر و المؤنث و المفرد و المثنى و الجمع. و العيلة الفقر يقال عال الرجل إذا افتقر.

المعنى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا). أي العام التاسع للهجرة،

وهو العام الذي قرأ فيه علي (ع) على الناس آيات البراءة. وكلمة المشركين يستعملها القرآن - غالباً - في عبدة الأوثان بخاصة مشركي العرب، ويستعمل كلمة أهل الكتاب في اليهود والنصارى، وقد

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٨

عطف المشركين على أهل الكتاب في الآية ١٠٥ من سورة البقرة: «مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ». والآية ١ من البينة: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ» والعطف يشعر بأن المعطوف غير المعطوف عليه، مع العلم بأن كلا من عطف التفسير، وعطف الخاص على العام، والعام على الخاص جائز، ولكن مع القرينة.

واختلف الفقهاء في منع الكفار من المساجد. قال الشافعي: يمنعون من المسجد الحرام دون غيره. وقال مالك: يمنعون من كل مسجد. وقال أبو حنيفة:

لا يمنعون إطلاقاً، لا من المسجد الحرام ولا من غيره (الرازي عند تفسير هذه الآية).

والذي نراه ان النجس يجب منعه من كل مسجد، وان كان فيه وجب إخراجه منه، سواء أكان النجس إنساناً، أم حيواناً، أم غيرهما، وسواء أكانت النجاسة متعدية تستلزم تلوّث المسجد وهدمته، أم لم تكن، والدليل على ذلك ان الآية أطلقت حكم التحريم، ولم تقيد به بشيء.

ونريد بالإنسان النجس الجاحد وعابد الأوثان، أما أهل الكتاب فقد أثبتنا طهارتهم عند تفسير الآية ٥ من سورة المائدة. وتساءل: ان قوله تعالى: **(فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ)**. يدل على صحة قول الشافعي من ان المنع خاص بالمسجد الحرام، دون غيره، لأنه لم يقل: فلا يقربوا كل مسجد.

الجواب: ان مجموع الآية يدل على العموم، لا على الخصوص، لأن المتبادر إلى الأذهان من الآية بمجموعها ان علة المنع من الدخول هي النجاسة واحترام المسجد عند الله، وليس من شك ان كل مسجد هو محترم عند الله لأنه منسوب اليه جلت عظمته.. والحكم يدور مع علته اثباتاً ونفيًا. ولذا أجمع الفقهاء على تحريم الوسكي، مع أنه لا نص عليها بالخصوص اكتفاء بالنص على التحريم، وهو الإسكار.

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

كان المشركون في جميع أنحاء الجزيرة العربية يقصدون مكة للحج والتجارة،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٩

وكان أهل مكة ينتفعون بذلك، فيبيعونهم ويشترون منهم، ويؤجرون لهم المساكن، ومكة تقع في واد غير ذي زرع، ولما منع الله المشركين منها خاف بعض أهلها الفقر، فقال لهم سبحانه: **(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ)** أي ان خفتم الفقر بسبب انقطاع المشركين عن مكة فإن الله يعوض عليكم بوجه آخر، لأن أسباب الرزق عنده بعدد قطرات المطر، كما في الحديث، وصدق الله العظيم، فقد فتح على المسلمين البلاد والغنائم، ودخل الناس في دينه أفواجا، وتوجهوا بقلوبهم وأموالهم إلى مكة بالملايين، ورأى أهلها من الغنى ما لم يحلموا به من قبل. وتساءل: ما هو الغرض من قوله تعالى: **(إِنْ شَاءَ)** مع العلم بأنه قد شاء؟.

الجواب: قد يكون القصد الإشارة إلى انه يجري المسببات على أسبابها، وقد يكون المراد مجرد تعليم عباده ان يتكلموا



في جميع أعمالهم على الله، و يعلقوا تحقيق أهدافهم على مشيئته مع السعي: كما في قوله: «وَلَا تَقُولنَّ لشيءٍ إني فاعلٌ ذلكَ غداً إلا أن يشاءَ اللهُ - ٢٣ الكهف».

[سورة التوبة (٩): الآيات ٢٩ إلى ٣٣]

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٠

اللغة:

الجزية الضريبة على الرووس والأشخاص، لا على الأرض أو التجارة أو الماشية. والصغار الذل. ويضاهون يشابهون ويحاكون. ويؤفكون يصرفون عن الحق إلى الباطل. والأحبار جمع حبر بفتح الحاء وكسرهما، وهو العالم. والرهبان جمع راهب وهو المنقطع للعبادة.

الإعراب:

عن يد قائم مقام الحال أي نقدا، وصاحب الحال الواو في يعطوا. وأنى في محل نصب على الحال. وعمما يشركون (ما) مصدرية، والمصدر المنسبك مجرور بعن متعلقا بسبحانه، والمصدر المنسبك من ان يتم نوره منصوب بياي لأنها بمعنى لا يريد اي لا يريد الله إلا إتمام نوره بإعلاء كلمة التوحيد.

المعنى:

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ). بعد ان أمر سبحانه بقتال المشركين إذا لم يسلموا ولم يخرجوا من

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣١

الجزيرة العربية - أمر في هذه الآية بقتال أهل الكتاب إذا لم يعطوا الجزية و يخضعوا لحكم الإسلام. وقد وصفهم الله بأنهم لا يؤمنون بالله و اليوم الآخر، و لا يحرمون حرام الله، و لا يدينون بالحق. و تجدر الإشارة الى أن (من) في قوله تعالى: **(مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ)** هي لبيان الجنس، تماما كما في قوله: **(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ).**

وقيل: هي للتبعيض مثل منهم كذا، و منهم كذا.

و هنا سؤالان: الأول ان الآية نفت عن أهل الكتاب الإيمان بالله و اليوم الآخر، مع العلم بأنهم يؤمنون بوجود الله، لأن كلمة أهل الكتاب تدل بذاتها على إيمانهم بالله الذي أنزل التوراة و الإنجيل، و كذلك يؤمنون باليوم الآخر بنص الآية

٨٠ من سورة البقرة: «وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً» .. اجل، انهم لا يدينون دين الحق، فاليهود يعبدون المال، و الكنيسة تبيع صكوك الغفران، و تقول بالحلول و الاتحاد.

و نجد الجواب في الآية التي بعد هذه الآية بلا فاصل، و هي قوله تعالى:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ). و وجه الجواب ان اليهود و النصارى جعلوا لله ولدا، و معنى هذا انهم يؤمنون بالله لا وجود له الا في اوهامهم، أما الإله الموجود حقا و واقعا فإنهم لا يؤمنون به .. فلقد تصوروا من عنديانهم إلهها موصوفا بأنه يلد أولادا، و نظموا علاقاتهم معه وفقا لهذا التصور الخاطي، أما الإله الحقيقي، و هو الذي لم يلد و لم يولد، فإنهم لا يؤمنون به، و لا تربطهم به أية رابطة قريبة أو بعيدة. و بكلمة أخصر و أوضح ان الإله الموجود لا يؤمنون به، و الإله الذي يؤمنون به لا وجود له.

و النتيجة الحتمية لذلك انهم لا يؤمنون بالله، و بديهة ان من لا يؤمن بالله لا يؤمن بالآخرة إيمانا صحيحا، و لا يدين دين الحق، و ان خيل اليه انه من المؤمنين بالآخرة، و المتدينين بالحق، لأن الإيمان بالله هو الأصل، و ما عداه فرع، أي انه يؤمن بالآخرة و الدين اللذين لا عين لهما و لا اثر إلا في خيالهم، كقولهم: لا تمسنا النار إلا أياما معدودة .. و هذا هو الدين الذي يصدق فيه قول من قال: ان الدين من صنع الوهم و الخيال، و انه يتعد بصاحبه عن حقيقته و واقعه.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٢

السؤال الثاني: ان الإسلام لا يكره أحدا على اعتناقه بدليل قوله تعالى:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ). و قوله: (أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ).

فكيف أمر بقتال أهل الكتاب حتى يؤمنوا أو يدفعوا الجزية عن يد و هم صاغرون؟.

و قد ذكرنا هذا السؤال عند تفسير الآية ٢ من هذه السورة التي أمرت بقتال المشركين، و أجبنا عنه بأن الأمر بقتالهم كان حكما خاصا آنذاك لسبب خاص، و هو ان المجتمع الاسلامي كان في بدء تكوينه، و ان المشركين كانوا طابورا خامسا يكيدون للإسلام و أهله، فاقترضت المصلحة إخراجهم من الجزيرة أو قتلهم ..

و الأمر هنا بقتال أهل الكتاب أمر خاص بالذين كانوا في الجزيرة لسبب خاص ايضا، و هو ان أهل الكتاب كانوا يتحالفون مع المشركين على محاربة المسلمين، كما فعل يهود المدينة و ما حولها بعد تأمين النبي لهم، و جعلهم حلفاء له.

و فوق ذلك فإن محور هذه السورة يقوم على غزوة تبوك، كما يأتي في الآية ٣٨ و ما بعدها، و قد بلغ النبي (ص) ان الروم، و هم في الشام على اطراف الجزيرة، يجمعون الجيوش للانقضاض على الإسلام و أهله، و كانت كل القرائن و الدلائل تؤكد ان أهل الكتاب في الجزيرة كانوا عينا و عونا للروم النصارى على المسلمين، و انهم يتآمرون معهم على النبي و من اتبعه من المؤمنين. و من أجل هذا كان الحكم فيهم القتل أو إلقاء السلاح و الخضوع لحكم الإسلام، مع إعطاء الجزية التي تعبر عن مسالمتهم و الوفاء بعهدهم، فان اختاروا الجزية و جب تأمينهم و حمايتهم و الدفاع عنهم و اعطاؤهم الحرية في دينهم و معاملاتهم، و إذا اسلموا كان لهم ما للمسلمين، و عليهم ما عليهم، و إلا فالقتل اتقاء لشركهم. و أطال المفسرون و الفقهاء الكلام عن محل الجزية و تقديرها و شروطها، و كان حديثهم عنها فيما مضى مجديا حيث كان للإسلام دولته و قوته، أما اليوم فالحديث عن الجزية تكثير كلام.



(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ) .. أما قول النصارى بأن المسيح ابن الله فمعروف، و تكلمنا عنه عند تفسير الآية ١٧ من سورة المائدة، أما قول اليهود عزير ابن الله فقد نقل صاحب تفسير المنار ان اسم عزير جاء في اسفار اليهود المقدسة، و أيضا نقل عن دائرة المعارف اليهودية

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٣

ان عصر عزرا هو ربيع التاريخ الملي لليهودية. و في تفسير الطبري و الرازي و الطبرسي ان جماعة من اليهود قالوا للنبي (ص): كيف نتبعك و قد تركت قبلتنا، و أنت لا تزعم ان عزيرا ابن الله. فنزلت الآية. و على آية حال، فان النبي (ص) قد جابه يهود عصره بهذه الآية، و ما نقل أحد انهم كذبوا و أنكروا مع شدة حرصهم على تكذيب النبي، فدل ذلك على انهم كانوا يؤمنون بذلك آنذاك.

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ قَاتِلِهِمُ اللَّهُ أَنِّي يُؤْفِكُونَ). يضاهئون يشابهون، و قاتلهم الله أنى يؤفكون اي لعنهم الله كيف يصرفون عن الصدق إلى الافك، و المعنى ان قول اليهود و النصارى يشبه قول المشركين العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله و قول الوثنيين من قدامى الرومان و اليونان و البوذيين و غيرهم. **(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ)**. هذا دليل آخر بأنهم لا يؤمنون بالله، بل بما يقول رجال دينهم و عقيدتهم. قال الإمام جعفر الصادق (ع): انهم ما صاموا و لا صلوا لهم، و لكنهم أحلوا لهم حراما و حرموا عليهم حلالا فاتبعوهم، و عبدوهم من حيث لا يشعرون. و هذا عين ما جاء في الحديث من ان عدي بن حاتم قال لرسول الله (ص): لسنا نعبدهم.

فقال له النبي: اليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، و يحلون ما حرم فتستحلونه؟

قال عدي: بلى. قال النبي فتلك عبادتهم. و قال «فولتر»: لا يعلم قسيسونا شيئا سوى اننا سريعو التصديق لما يقولون.

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) قال الرازي في تفسيره: المعنى ظاهر. و لكن مفسرا آخر أبى إلا ان يقول: اي يعبدون إلها عظيم الشأن.

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ) المراد بنور الله هنا الإسلام، و المعنى ان أهل الكتاب حاولوا القضاء على الإسلام بالدسائس و الأكاذيب فكان مثلهم في ذلك مثل من يحاول إطفاء النور الذي عم الكون بنفخة من عنده **(وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)** هذا وعد من الله على لسان نبيه بأن ينصر

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٤

الإسلام، و يظهره في مشارق الأرض و مغاربها، و صدق الله و رسوله، و تحقق الوعد الذي دل على نبوة محمد (ص) و صدقه في كل ما اخبر به.

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ). هذه الآية بيان و تفصيل للآية التي قبلها، و قد أظهر الله المسلمين على المشركين في البلاد العربية، و على اليهود حيث أخرجهم المسلمون منها، و على النصارى في الشام و المغرب، و على المجوس في فارس. قال الإمام علي (ع): ان هذا الإسلام أذل الأديان بعزته، و وضع الملل برفعته، و أهان أعداءه بكرامته.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٣٤ الى ٣٥]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)

الإعراب:

والذين يكنزون مبتدأ، والخبر فبشرهم، و الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب، و يوم ظرف و العامل فيه اليم، و عليها قائم مقام نائب الفاعل، و ضمير عليها و بها عائد إلى المكنوزات. و هذا إشارة إلى الكي، و هو مصدر مفهوم من فتكوى، و محله الرفع بالابتداء، و ما كنزتم خبر، و الجملة مفعول لقول محذوف أي فيقال لهم: هذا ما كنزتم الخ.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٥

المعنى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ). في الآية السابقة وصف سبحانه اليهود و النصارى بأنهم يتخذون رؤساءهم الدينيين أربابا من دون الله، و في هذه الآية وصف أولئك الرؤساء بأكل المال بالباطل، و الصد عن سبيل الله، و المراد بأكل المال بالباطل أخذه بغير وجه شرعي، كالرشوة على الحكم بغير الحق، و الربا الذي فشا بين اليهود، و بيع صكوك الغفران عند الكاثوليك، و ما إلى ذلك. قال المؤرخون:

مر على رجال الكنيسة عهد كانوا فيه من أغنى الفئات.

و المراد بصددهم عن سبيل الله تحجيرهم على العقول، و منع الناس من اعتناق الإسلام، بل و حملهم على الطعن فيه و في نبيه .. لقد ثار فولتر على الكنيسة، و نعى على رجالها تكالبهم على المال، و طعن في التوراة لما فيها من التناقض و الاحالة و القحة على حد تعبيره، فحرمته الكنيسة، و طالب بعض رجالها بسجنه مدى الحياة (١) فانهارت أعصاب الأديب الفرنسي من الخوف، و لم يجد وسيلة للخلاص إلا أن يستشفع لدى البابا بنوا الرابع عشر بكتاب يؤلفه في سب محمد (ص)، ففعل و عفت عنه الكنيسة، و باركت الكتاب و الكاتب.

أبو ذر و الاشتراكية:

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ). لقد كثر الكلام حول هذه الآية، حتى ان بعضهم استدل بها على ثبوت الاشتراكية في الإسلام، و شطح آخرون في زعمهم ان أبا ذر كان اشتراكيا، لأنه كان يهدد بهذه الآية الذين استأثروا بمال الله دون عياله .. و فيما يلي نعرض معنى الآية، و كل ما يتصل به من قريب أو بعيد، و في ضوئه نحاكم قول من استدل بالآية على اشتراكية أبي ذر.

(١). كتاب فولتر لجوستاف لانسون ترجمة محمد غنيمي هلال.



١- قال معاوية بن أبي سفيان: هذه الآية نزلت في اهل الكتاب، ولا تشمل المسلمين، اي ان للمسلمين في نظره ان يكتنوا من المال ما يشاءون ولا ينفقوا منه شيئاً في سبيل الله، ونقل هذا القول عن عثمان بن عفان .. فعن «الدر المنثور» للسيوطي ان عثمان لما كتب المصاحف أرادوا ان يحدفوا الواو من قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ) ليكون الكانزون صفة للأخبار و الرهبان، فعارض بعض الصحابة، و قال: لتلحقن الواو، او لأضعن سيفي على عاتقي فالحقوها.

و الصحيح ان الآية تشمل كل من يكتنز المال و لا ينفقه في سبيل الله مسلماً كان او غير مسلم عملاً بعموم اللفظ، فقد روي عن زيد بن وهب انه مر بالربذة، فرأى أبا ذر، قال له: ما أنزلك هنا؟ قال: كنت بالشام، فقرأت و الذين يكتنزون الذهب و الفضة، فقال معاوية: ليست هذه الآية فينا، انها في اهل الكتاب، فقلت: انها فينا و فيهم، فشكاني إلى عثمان، فأبعدني إلى حيث ترى.

٢- الكنز في اللغة الجمع، يقال: كنز المال إذا جمعه، و لفظ الذهب و الفضة خاص، و لكن الحكم عام يشمل المال بشتى اصنافه، حتى الأرض و المعادن و الشجر و البناء و الماشية و المعامل و المراكب، لأن الذين هددهم الله بعذاب اليم هم الأثرياء الأشحاء، و ليس خصوص مالكي الذهب و الفضة المضرويين نقداً .. و الا كان ملوك النفط و من اليهم اسعد الناس و أكرمهم عند الله دنيا و آخرة، و الذي يدلنا على ارادة العموم انه لما نزلت هذه الآية كبر ذلك على المسلمين، لأنهم فهموا منها جميع الأموال، و لما سألو النبي (ص) أفرهم على فهمهم، و قال لهم: ان الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، و إنما فرض المواريث عن أموال تبقى بعدكم.

٣- الإنفاق في سبيل الله يشمل الجهاد للدفاع عن الدين و الوطن، و بناء المدارس و المصحات و دور الأيتام، و الصدقات على الفقراء، و الإنفاق على الأهل و العيال، و أفضل موارد الإنفاق ما فيه إعزاز الحق و اهله.

٤- أجمعت المذاهب الأربعة على انه ليس في المال حق غير الزكاة.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٧

(احكام القرآن لأبي بكر المعافري الأندلسي). و قال اكثر فقهاء الشيعة الإمامية:

ليس في المال حق غير الخمس و الزكاة. و قال الشيخ الطوسي: ان فيه حقاً آخر، و هو ما أشار اليه الإمام جعفر الصادق بقوله: ان الله فرض في اموال الأغنياء حقوقاً غير الزكاة، لأنه قال: «وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ - ١٩ الذاريات». و الحق المعلوم هو شيء يفرضه الرجل على نفسه بقدر طاقته وسعته، فيؤدي الذي فرض، ان شاء في كل يوم، أو في كل جمعة، او في كل شهر، قل أو كثر غير انه يداوم عليه .. و لكن قول الإمام:

(يفرضه الرجل على نفسه) يشعر بالاستحباب، لا بالوجوب لأن الواجب فرض من الله لا من سواه.

و الذي نراه- بعد ان تتبعنا آي الذكر الحكيم- ان على الأغنياء وجوباً لا استحباباً ان يبذلوا من أموالهم- غير الخمس و الزكاة- للدفاع عن الدين و الوطن عند الاقتضاء، و على ولي المسلمين ان يجبرهم على ذلك، بل و على الجهاد بالنفس إذا اقتضت الحال. و آيات هذا الباب تعد بالعشرات.

٥- **(يَوْمَ يَحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)**. هذا كناية عن شدة العذاب و هوله، و هو نظير الآية ١٨٠ من سورة آل عمران: «سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

٦- تبين مما قدمنا ان الآية تدل نضا و فحوى على ان الأغنياء يجب عليهم أن ينفقوا جزءا من أموالهم في سبيل الله، و ان من أمسك يده عن الإنفاق عاقبه الله بالعذاب الأليم، أما مقدار هذا الجزء، و هل هو الخمس أو العشر، أو أقل أو أكثر، أو هو من الزكاة أو من غيرها، اما هذا فلا تدل عليه الآية بالعبارة و لا بالإشارة، فإين- إذن- مكان الدلالة فيها على الاشتراكية؟ ان الاشتراكية نظام اقتصادي ينظر قبل كل شيء إلى وسائل الانتاج كالأرض و ما إليها، و يحدد مالكيها، ثم ينظر إلى الانتاج نفسه و طرق نموه و زيادته و كيفية توزيعه .. و هذا شيء. و حث الأغنياء على البذل شيء آخر. و بهذا يتبين ان قول من قال: ان أبا ذر كان اشتراكيا لأنه هدد الأغنياء بهذه

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٨

الآية، يتبين ان هذا القول خطأ و اشتباه .. ان أبا ذر لا يعرف الاشتراكية، و لا شيء إلا الإسلام، مثله في ذلك مثل اي مسلم، و لكنه كان مخلصا لدينه، أخلص للإسلام، و نبذ الأطماع و الأغراض. و هذا التجرد و الإخلاص هو الذي جراه على ان يتحدى قريشا، و يسخر من أهتهم يوم أسلم، حيث وقف في الكعبة مناديا بأعلى صوته: لا إله إلا الله محمد رسول الله .. نادى بكلمة الإسلام على رؤوس قريش يوم لا حول و لا قوة للمسلمين، و لا يجرا احد منهم على النطق باسم الله الواحد و محمد إلا في الخفاء .. و تكرر منه هذا الموقف، و أعاد نفسه مع عثمان و معاوية، و كما لاقى من المشركين الضرب الدامي، فقد لاقى من عثمان الطرد و النفي .. و لكنه لم يابه، لأنه ما غضب في حياته كلها إلا لله و وحده.

و الخلاصة ان كل ما فعله ابو ذر انه طالب الفئة الحاكمة بالعدل و انصاف المحكومين، و خوفها من العذاب الأليم، و حث المظلومين على مقاومة الظالمين، و استرداد حقوقهم ممن ظلمهم .. فإين هذا من الاشتراكية؟ و تكلمنا عن نسبة الاشتراكية لأبي ذر في كتاب «مع الشيعة الإمامية» بعنوان «هل ابو ذر اشتراكي»؟ و في كتاب «مع علماء النجف الأشرف» بعنوان «ابو ذر».

[سورة التوبة (٩): الآيات ٣٦ الى ٣٧]

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَمَا يَقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَ يَحْرِمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٩

اللغة:

القيم المستقيم. و النسيء التأخير. و يواطئوا يوافقوا.

الإعراب:

عند الله متعلق بـ عِدَّة. و اثنا عشر في محل رفع خبرا لأن. و في كتاب الله متعلق بمحذوف صفة لاثنا عشر. و يوم خلق متعلق بكتاب على ان يكون بمعنى الكتابة. و كافة حال من فاعل قاتلوا لأنها بمعنى جميعا. و عاما مفعول فيه. و المصدر المنسب من ليواطئوا مجرور باللام، و العامل في الجار و المجرور يحرمونه.

الأشهر القمرية هي الأشهر الطبيعية:

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ). المراد بعند الله و في كتاب الله ان للاثني عشر شهرا وجودا حقيقيا في عالم الطبيعة، تماما كالأرض و السماء، لا في عالم الاعتبار و التشريع كالحلال و الحرام، و المراد بيوم خلق السموات و الأرض انه تعالى خلق الكون على حال تكون فيه عدة الشهور اثني عشر شهرا منذ اللحظة الأولى لوجود السموات و الأرض أي ان عدة الشهور هذه ليست من وضع الإنسان، و من مواليد أفكاره و مخترعاته و إنما هي نتيجة حتمية لسنن الكون و نظام الخلق.

هذا هو معنى الآية. و بديهية ان الإنسان يقيس الوقت و يحدده بما يراه حسا و عيانا .. و إذا نظرنا إلى الكائنات الطبيعية التي تهدينا إلى معرفة الوقت لم نجد إلا الشمس و القمر، و الشمس تجري دائما و في كل يوم على و تسيرة واحدة شروقا و غربا، لا فرق بين يوم و يوم، و كل ما نعرفه بواسطتها هو وقت الصباح و المساء و الظهيرة، و لا يتصل هذا بمعرفة الشهر من قريب أو بعيد. بخلاف كوكب القمر فانه يظهر للعيان على شكل خاص في اليوم الأول من كل شهر، و بهذا اليوم

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٠

نحدد الشهر، و متى عرفنا الشهر عرفنا السنة.

و على هذا تكون الأشهر القمرية هي الأشهر الجارية على سنن الطبيعة دون غيرها، و من أجل هذا وقت الله بها الحج و الصيام و عدة المطلقات و الرضاع، كما وقت الصلاة اليومية بالشمس لأنها السبيل لمعرفة أجزاء اليوم. و بكلمة ان الشمس لمعرفة الساعات، و القمر لمعرفة الأشهر. و على هذا الأساس كان الإنسان الأول يحسب أوقاته. قال الرازي: «ان مذهب العرب من الزمان الأول أن تكون السنة قمرية، لا شمسية، و هذا حكم و رثوه عن إبراهيم و اسمعيل». و في بعض التفاسير ان الحكمة من جعل الحج و الصيام في الشهر القمري هي أن يدورا في جميع فصول السنة و أجزاءها، سهلان تارة و يشقان أخرى .. و لا يستند هذا الاجتهاد إلى أصل، و لكن لا مانع منه، حيث لم يقصد به إثبات حكم شرعي: و إنما هو لبيان مصلحة الحكم الثابت شرعا.

(مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ) من هذه الأربعة ثلاثة متتابعة: ذو القعدة، و ذو الحجة و المحرم، و شهر واحد فرد، و هو رجب، و سميت حرما لتحريم القتال فيها في الجاهلية و الإسلام، و سبق الكلام عن ذلك أكثر من مرة. **(ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)** أي ان تقسيم الأشهر إلى اثني عشر شهرا على الحساب القمري هو التقسيم الصحيح، و لا يجوز التحريف فيها و لا في الأشهر الحرم بالهوى و الغرض **(فَلَا تَظَلِّمُوا فِيهَا أَنْفُسَكُمْ)** باستحلال القتال في الأشهر الحرم، و لا باعتداء بعضكم على بعض في أي وقت من الأوقات، و كل من عصى الله في كبيرة أو صغيرة فقد ظلم نفسه بتعرضها لعذاب الله و غضبه.

(وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً). هذا هو الداء الشافي و العلاج السليم .. النفير العام، و الجهاد الشامل سنة الله في خلقه، و لن تجد لسنة الله تبديلا، أما أنصاف الحلول فخضوع و استسلام للظلم و العدوان .. لقد تظاهر الصهاينة و المستعمرون كافة على العرب و المسلمين كافة بلا استثناء، و أقاموا على أرض العرب قاعدة عسكرية عدوانية، أطلقوا عليها اسم دولة إسرائيل، لينطلقوا منها للاعتداء على البلاد العربية و الاسلامية .. نحن الآن في شهر تشرين الأول من سنة ١٩٦٨، و الاتصالات مستمرة داخل الأمم المتحدة و خارجها لحل مشكلة الشرق الأوسط

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤١

حلا سلميا أي على أساس انصاف الحلول التي يحصل عن طريقها المعتدي على شروط و مكاسب تشجعه على العدوان كلما سنحت الفرصة، ثم يتعود انصاف الحلول، و يحصل بها على ما يبتغي، و هكذا دواليك، حتى تتم له السيطرة على الجميع .. و السبيل الوحيد لاستئصال الداء من جذوره هو ما رسمه الله لنا بقوله:

(وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) الذين تحرروا من الأحقاد و المطامع، و وحدوا صفوفهم كافة لقتال عدوهم و عدو الله و الانسانية.

(إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ عَامًا وَيَحْرِمُونَ عَامًا). النسيء مصدر بمعنى الانساء أي التأخير، و المراد به هنا ان المشركين كانوا يؤخرون حرمة شهر الحرام إلى شهر آخر لا حرمة له كصفر، فإذا كان من مصلحتهم أن يقاتلوا في الشهر الحرام قاتلوا فيه و لم يبالوا، و لكنهم يحرمون بدلا عنه شهرا آخر من أشهر الحلال لتكون الأشهر المحرمة أربعة من كل عام **(لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلِلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ)**. و أوضح تفسير لهذا ما نقل عن ابن عباس: انهم ما أحلوا شهرا من الحرام إلا حرموا مكانه شهرا من الحلال، و ما حرموا شهرا من الحلال إلا أحلوا مكانه شهرا من الحرام، لأجل أن يكون عدد الأشهر الحرام أربعة مطابقة لما ذكره الله، و هذا هو المراد من المواطة.

(زَيْنَ لَهُمْ سَوْءَ أَعْمَالِهِمْ). الأهواء و الاغراض هي التي تعمي صاحبها عن سوء عمله فتريه الشر خيرا، و الحسن قبيحا **(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)**.

أي تركهم لما هم فيه بعد اليأس من هدايتهم. انظر ج ٢ ص ٣٩٩. الإضلال من الله سلبي. لا ايجابي.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٣٨ الى ٤٠]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٢

اللغة:

النفر من الشيء الفرار منه، و إلى الشيء الاقدام عليه، و هذا المعنى هو المراد هنا. و التثاقل التباطؤ ضد التسرع. و الاستبدال جعل أحد الشئيين بدلا من الآخر مع طلبه. و السكينة سكون النفس و اطمئنانها.

الإعراب:

اتألتم أصلها تئاتلتم، ثم ادغمت التاء في التاء، وجيء بألف الوصل ليتمكن الابتداء بها. و إلا تنفروا (إلا) مركبة من كلمتين: إن و لا، و مثلها إلا تنصروه. و إذ أخرجه (إذ) ظرف متعلق بنصره، و إذ الثانية بدل من إذ الأولى، و إذ الثالثة بدل ثان. و ثاني اثنين حال من الهاء في أخرجه. و كلمة الذين كفروا بالنصب مفعولا لجعل. و كلمة الله بالرفع على الابتداء، و الجملة مستأنفة، لأن كلمة الله لا تعطف على كلمة الذين كفروا، و لأنها عليا بذاتها، لا بجعل جاعل.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٣

غزوة تبوك:

هذه الآيات إلى القريب من آخر السورة نزلت في غزوة تبوك، و ما لابسها من الأحداث، و تتلخص بأن الروم كانوا يملكون الشام، و هي على حدود الجزيرة و قد سمعوا بقوة الإسلام و نمو، فخاف هرقل ملك الروم على دولته من المسلمين، و قال: لئن تركتهم حتى يقبلوا فلن تقوم لدولتي في الشرق قائمة، و عزم أن يكون هو البادي.

و رأى النبي (ص) أن لا ينتظر حتى يأتي هرقل بجنوده إلى المدينة، فاستنفر الناس إلى قتال الروم، و كان الحر في الجزيرة آنذاك على أشده، فوجد المنافقون الفرصة للتخذيل، و خوفوا المسلمين من بعد السفر، و قسوة القيظ، و كثرة العدو، و لاقت دعوتهم هوى في نفوس ضعاف الايمان، فاعتذروا و تعلقوا .. و لكن النبي (ص) أعلن الجهاد و النفير العام، و لم يأذن بالتخلف إلا للمرضى و الذين لا يجدون ما ينفقون.

و على الرغم من تخذيل المنافقين و تثبيطهم فقد تطوع لقتال الروم حوالي ٣٠ ألفا .. و قبل أن يخرج النبي (ص) بجيشه إلى الروم خلف على أهله و عياله علي ابن أبي طالب، قال مسلم في صحيحه ج ٢ ص ١٠٨ طبعة ١٣٤٨ هـ: «فقال له علي: يا رسول الله خلفتني مع النساء و الصبيان؟. فقال رسول الله (ص): أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟».

و مضى جيش المسلمين، و انطلقوا جميعا يخوضون الصحارى في لهيب يشوي الوجوه و الأبدان .. و على الطريق لحق بهم الصحابي الجليل أبو ذر ماشيا، إذ لم يجد ما يركبه. بينما انسحب رأس النفاق ابن أبي بجزء من الجيش، و عادوا إلى المدينة، فاستقبلتهم النساء بالعويل، و حثون في وجوههم التراب.

و بعد سبعة أيام من السير المضني بلغ جيش الإسلام حدود الدولة الرومانية، و تقدم أمير المنطقة يعرض على النبي (ص) الصلح على أن يدفع الجزية، فقبل النبي، و تقدم بجيشه، حتى بلغ مدينة تبوك، و تقع في منتصف الطريق بين المدينة المنورة و دمشق، و كان ذلك في رجب سنة تسع للهجرة، و صادف أن حاكم تبوك كان خارجا للصيد، فأسره المسلمون، و استسلمت المدينة، و انتقل

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٤

الرسول (ص) من موقعة إلى موقعة، حتى قهر حاميات الحدود الرومانية، و حرر القبائل العربية هناك من حكم الروم .. حدث هذا كله في ٢٠ يوما.

و عاد المسلمون إلى المدينة محملين بالغنائم، و قرر النبي (ص) مقاطعة من تخلف عن جيش الإسلام، و حرم على الناس أن يكلموهم أو يعاملوهم، حتى الزوجات و الأبناء، و التفصيل في الآيات الآتية بخاصة عند تفسير الآية ١١٧ و ١١٨.

المعنى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ). و لما استنفر النبي (ص) المسلمين لغزوة تبوك شق ذلك على البعض منهم، و آثروا الميل إلى الخلود و الإقامة في أرضهم و بيوتهم، و كان من عادة النبي إذا خرج إلى غزوة أن يوهم الناس انه خارج إلى غيرها لمصلحة الحرب التي تستدعي الكتمان .. و لكنه صرح

بهذه الغزوة ليكون الناس على بصيرة مما يلاقه فيها من المشاق والمصاعب، واعتذر بعض المفسرين عمّن تباطأ و تناقل بأن الوقت كان شديد الحرارة، و الناس في ضيق من قلة الطعام، و بأن ثمار المدينة كان قد تم صلاحها، و آن وقت قطافها .. و مهما يكن، فإن الخطاب - بطبيعة الحال - موجه إلى المتناقلين عن الجهاد، و قد عاتبهم الله بقوله: **(أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)**. أي هل يليق بإيمانكم و عقولكم أن تؤثروا نعيم الدنيا الحقيقير الزائل على نعيم الآخرة العظيم الدائم؟.

(إِلَّا تَتَّقُوا يَعْذِبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا).

(الا) مركبة من ان الشرطية، و لا النافية. و المعنى ان لم تستجيبوا لدعوة النبي و الخروج معه إلى قتال الروم فإن الله ينزل بكم العذاب الأليم أيها المتناقلون و المنافقون، و ينصر نبيه بأيدي غيركم، و لا يضر الله و رسوله تباطؤ المتناقلين و لا نفاق المنافقين **(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)** لا يعجزه عقابكم، و لا نصرة دينه و نبيه بأصحاب خير منكم.

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا). يشير إلى حادثة

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٥

المكر و المؤامرة التي دبرها كفار قريش لقتل النبي (ص)، و هو نائم في فراشه، و إلى نجاته منهم بمبيت علي في مكانه، و هجرته من مكة إلى المدينة بعد أن أطلعه الله على كيدهم و مكرهم .. و تكلمنا عن ذلك عند تفسير الآية ٣٠ من سورة الأنفال. **(ثَانِيًا اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)**.

المراد بثنائي اثنين و الصاحب، أبو بكر، لأنه كان مع النبي في هجرته، و قد اختبأ معا من المشركين في غار جبل ثور. قال الرازي: «لما طلب المشركون الأثر و قربوا من الغار بكى أبو بكر خوفا على النبي، فقال له: لا تحزن إن الله معنا. فقال أبو بكر: إن الله معنا. فقال الرسول: نعم».

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا). قال أبو حيان الأندلسي في تفسيره (النهر المارد من البحر):

«قال ابن عباس: السكينة الرحمة و الوقار.

و الضمير في عليه عائد على رسول الله (ص)، إذ هو المحدث عنه» و يتفق هذا مع قول شيخ الأزهر المراغي، حيث قال في تفسيره ما نصه بالحرف: «أي فأنزل الله طمأنينته التي يسكن عندها القلب على رسوله، و قواه بجنود من عنده و هم الملائكة». و أيضا يتفق مع سياق الآية لأن الضمائر في نصره و أخرجه و أيده كلها تعود إلى النبي (ص). **(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى، وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)**. كلمة الله هي التوحيد، و كلمة الذين كفروا هي الشرك و الكفر. **(وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)** و قد اقتضت حكمته أن ينصر نبيه بعزته، و يظهر دينه على جميع الأديان.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٤١ إلى ٤٣]

انْفِرُوا خِفَافًا وَ ثِقَالًا وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَ سَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَ لَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٦



الخفة هنا استعارة لمن يمكنه السفر بسهولة، و الثقل لمن يمكنه بصعوبة، و المراد بهما النفر على كل حال. و العرض ما يعرض للإنسان من متاع غير دائم. السفر القاصد الهين: من القصد و هو الاعتدال. و الشقة الطريق التي يشق سلوكها.

الإعراب:

خفافاً و ثقلاً حال من الواو في انفروا. و لو كان عرضاً اسم كان محذوف أي لو كان ما دعوا اليه. و لم متعلق بأذنت و مثلها لهم. و يتبين منصوب بأن مضمرة بعد حتى، و المصدر المنسب مجرور بحتى متعلقاً بمحذوف أي هلا اخرتهم إلى أن يتبين لك.

النفي العام:

(انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ). الخفاف جمع خفيف، و المراد به هنا من يستطيع الجهاد بيسر، و الثقال جمع ثقل، و هو من يستطيع الجهاد بشيء من المشقة. و الآية تدل على وجوب النفي العام، و اليك البيان.

إذا حاول العدو أن يعتدي على دين الإسلام بتحريف كتاب الله و ما ثبت من سنة نبيه، أو بصد المسلمين و منعهم عن إقامة الفرائض و الشعائر الدينية، أو حاول الاستيلاء على بلد من بلادهم - إذا كان الأمر كذلك و جب على المسلمين

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٧

أن يجاهدوا هذا العدو، و يردعوه عن غيه و ضلاله، فإن أمكن ردعه بجهاد بعض المسلمين و جب الجهاد به كفاية إذا قام البعض سقط عن الكل، و إذا أهملوا جميعاً فهم مسؤولون و مستحقون للعقاب بلا استثناء، و إذا توقف الردع على النفي العام كان الجهاد عينا على الشبان و الشيوخ و النساء و المرضى، من كل حسب قدرته. قال صاحب الجواهر: «إذا داهم المسلمين عدو من الكفار يخشى منه على بيضة الإسلام، أو يريد الكافر الاستيلاء على بلاد المسلمين و أسرهم و سبيهم و أخذ أموالهم، إذا كان كذلك و جب الدفاع على الحر و العبد و الذكر و الأنثى و السليم و المريض و الأعمى و الأعرج و غيرهم إن احتيج اليهم، و لا يتوقف على حضور الإمام و لا أذنه، و لا يختص بالمعتدى عليهم و المقصودين بالخصوص، بل يجب النهوض على كل من علم بالحال، و إن لم يكن الاعتداء موجهاً إليه .. هذا إذا لم يعلم بأن من يراد الاعتداء عليهم قادرون على صد العدو و مقاومته».

هذا هو عهد الله أخذه على كل مسلم باتفاق جميع المذاهب، تماماً كاتفاقهم على وجوب الصوم و الصلاة، و الحج و الزكاة .. و قد ابتلي المسلمون و العرب الآن بعصاة صهيونية استعمارية اعتدت على دينهم و بلادهم، و قتلت و شردت و سجنت الألوف .. فعلى كل عربي و مسلم في مشارق الأرض و مغاربها أن يجاهد بكل طاقاته ضد هذه العصاة المسماة بدولة إسرائيل. أي النفي خير للمسلمين في دينهم و دنياهم. **(إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)**. أجل، نحن نعلم بأن النفي لجهاد إسرائيل واجب على كل مسلم، و لكن الذي يمنعنا عن جهاد إسرائيل هم القادة الخائنون، فعلياً أن نجاهد هؤلاء قبل كل شيء لأنهم علة العلل، و لولا خيانتهم لدينهم و أممتهم، و طاعتهم العمياء للصهيونية و الاستعمار ما كان لإسرائيل عين و لا أثر.

(لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَ سَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ) ضمير اتبعوك يعود إلى من تخلف عن الخروج مع النبي (ص) في غزوة تبوك، و العرض القريب الغنيمة الباردة، و السفر القاصد هو السهل القريب، و المعنى لو دعوتهم يا محمد إلى المنفعة العاجلة لأسرعوا إلى تليبتك **(وَ لَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ)**. فالسفر إلى الشام، و دونها الصحراء بعواصفها

الرملية، و هجيرها اللاهب، و العدو و دولة الروم أقوى دول

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٨

الأرض آنذاك .. فكيف يستجيبون لدعوتك، و الحال هذه؟ و لا يختص هذا الوصف بمن تخلف عن غزوة تبوك، فإن النفس تميل بطبعها إلى الراحة و المنفعة، و لكن أهل الايمان يروضون أنفسهم بالتقوى، فتستهيئ بكل شيء يرضي الله و رسوله. قال الإمام علي (ع): أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه. و تقدم ما يتصل بذلك في ج ٢ ص ٣٢٣ عند تفسير الآية ٣٧ من سورة النساء.

(و سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ). هذا إخبار من الله لنبيه بأن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك قد أعدوا له عند رجوعه الأعداء و الأيمان الكاذبة .. و بديهة ان صفة الكذب لا تنفك عن المنافق و إلا لم يكن منافقا **(يَهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ)** لأنهم أهلكوا دينهم بالكذب و النفاق **(وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)** في أعتادهم و ايمانهم .. و قيل: لا يكذب إلا جبان، و نعطف على الجبان من أهلكته المطامع.

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ).

حين دعا النبي (ص) الناس إلى الجهاد استأذن بعضهم بالتخلف، و تعللوا بالمعاذير، فأذن النبي لهم قبل أن يعلم صدقهم من كذبهم فيما اعتذروا به، فعاتبه الله سبحانه على ذلك، و قال له: كان الأولى أن تترث في الأذن لهم حتى تنكشف حقيقتهم هذا ما يعطيه ظاهر الآية.

و تسأل: ان النبي (ص) معصوم عن الخطأ، و قوله تعالى: **(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ)** يستدعي وجود الذنب، و كذلك الإنكار في قوله: **(لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ)؟**

الجواب: ان العفو من الله لا يستدعي وجوب الذنب، فكثيرا ما يكون تعبيرا عن ثوابه و رحمته، و قد كان جميع الأنبياء يطلبون العفو منه تعالى .. أما الاستفهام الانكاري فالأمر فيه سهل، حيث يصح في العمل المباح و غيره، فتقول لصاحبك: لم فعلت هذا؟ و أنت لا تريه انه ارتكب منكرا، و إنما تريد شيئا آخر، و الغرض هنا من عتاب الله لنبيه هو بيان كذب المنافقين في اعتذارهم، و انه كان لمجرد الفرار من الجهاد، و هذا الأسلوب أبلغ في الدلالة على نفي العذر من كل أسلوب .. هذا، إلى ان سبحانه قال في الآية ١١٧ من هذه السورة:

«لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ».

و إذا كانت التوبة لا تدل وجود الذنب فبالأولى العفو و الاستفهام.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٩

[سورة التوبة (٩): الآيات ٤٤ إلى ٤٨]

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنفُسِهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَ قَلْبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كَارِهُونَ (٤٨)

اللغة:

العدة الأهبة. وانبعاثهم خروجهم. فثبطهم أو هن عزمهم. و الخبال الاضطراب في الرأي. و خلالكم بينكم. و المراد بالفتنة هنا التشكيك في الدين و التخويف من الأعداء. و قلبوا لك الأمور أي دبروا لك المكاييد من كل وجه.

المعنى:

(لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ). و ما هو السبب المبرر للاستئذان ما دام الجهاد واجبا؟. و هل يستأذن المؤمن حقا بأن يصلي و يصوم و ان يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله؟.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٠

(إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ). ان كلا من هذه الآية و التي قبلها تدل بالمفهوم على معنى الأخرى، لأن معنى: المؤمن لا يستأذن في التخلف عن الجهاد أن غير المؤمن يستأذن، و معنى غير المؤمن يستأذن ان المؤمن لا يستأذن .. و جمع الله بين الآيتين لتأكيد المعنى و تقريره.

(وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَمَنْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ). أي انهم يتظاهرون بالإسلام، أما في الواقع فهم مشككون لا يجزمون بصدقه و لا بكذبه، و هذا هو النفاق لأن الصادق المخلص يتصرف بما يمليه عليه عقله، و يعلنه على الملأ شكا كان أو يقينا.

(وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ) مع رسول الله إلى غزوة تبوك **(لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً)** من الزاد و الراحلة. و قد كانوا قادرين على ذلك **(وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ)** مع المؤمنين، لأنهم لا يخرجون إلا للفساد و الفتنة، كما فعلوا في غزوة حنين، حيث خرج أبو سفيان و من لف لفه مع الرسول، و لما حمى الوطيس و لوا الأدبار و تضعع جيش المسلمين **(فَثَبَطَهُمْ)** ان الله سبحانه أمرهم بالخروج لأجل الجهاد، فعزموا على الخروج للفساد و اشاعة الذعر و الاضطراب في جيش المسلمين، كما قال في الآية التالية: **«لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا»** فثبطهم الله عن هذا الخروج الذي أرادوا به الفتنة و الفساد، و لم يثبطهم عن الخروج للجهاد و القتال، كيف و قد أمرهم به **(وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ)** أي مع النسوة و الأطفال و العجزة. و لم يبين سبحانه من الذي قال لهم هذا، هل هي أنفسهم الأمانة، أو لسان الحال، أو بعضهم لبعض؟. الله العالم.

و تسأل: قال تعالى لنبية في الآية ٤٣: «لم أذنت لهم». و في هذه الآية قال: «كره الله انبعاثهم فثبطهم» فكيف تجمع بين الآيتين؟.

و تعرف الجواب مما قلناه في تفسير قوله تعالى: «لم أذنت لهم» و انه ليس عتابا و استفهاما حقيقيا، و إنما الغرض منه بيان كذب المنافقين في معاذيرهم.

(لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ).

هذا بيان للحكمة في كراهيته تعالى خروج المنافقين في جيش المسلمين، و انهم يندسون بينهم للكيد و بث التفرقة و الفوضى بين الصفوف .. و هؤلاء موجودون في كل مكان و زمان، و يعرفون اليوم بالطابور الخامس **(وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ)** و هم

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥١

السذج البسطاء الذين يؤخذون بالكواذب، و يعقون مع كل ناعق **(لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ)**. يشير سبحانه إلى مكرهم و كيدهم للرسول قبل تبوك، و منه فرار أبي سفيان في غزوة حنين، و اعتزال ابن أبي بثلث الجيش في غزوة أحد.

(حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كَارِهُونَ) كل ما أَرَادَهُ اللَّهُ فهو حق، و كل ما عَدَاهُ فهو باطل، و قد أَرَادَ سبحانه النصر للإسلام و نبيه، فتم ما أَرَادَ و هِيَ لَهُ الْأَسْبَابُ بفتح مكة، و الظفر في حنين، و تبوك، و بتطهير الجزيرة من اليهود الغدرة الفجرة، و المراد بقوله: **(وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ)** ان هذا النصر قد شهدته الناس، كل الناس .. و ما زال حتى اليوم و إلى آخر يوم يقترن اسم محمد ابن عبد الله باسم الله في مشارق الأرض و مغاربها.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٤٩ إلى ٥٢]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لَا تَفْتِنِّي الْأَفِي الْفِتْنَةَ سَقَطُوا وَ إِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَ عَلَى اللَّهِ فليتوكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٢

الإعراب:

الأ في الفتنة (ألا) أداة تنبيه. و ترَبَّصُونَ أصلها ترَبَّصُونَ. و المصدر المنسب من أن يصيبكم مفعول ترَبَّصُونَ.

المعنى:

(وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لَا تَفْتِنِّي) أجمع المفسرون على أن رسول الله (ص) لما دعا إلى غزوة تبوك قال له جد بن قيس - و كان من شيوخ المنافقين -: ائذن لي يا رسول الله في القعود، فإني رجل أحب النساء و أخشى أن أنا رأيت الروميات أن أفتتن بهن .. فنزلت الآية .. زعم هذا المنافق أنه يخاف الإثم بالتعرض للنساء إذا غزا مع النبي (ص) و لم يتأثم من التعرض لغضب الله و رسوله **(الْأَفِي الْفِتْنَةَ سَقَطُوا)** أي زعموا الفرار من الإثم فوقعوا فيما فروا منه، أو أشد **(وَ إِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)** من جميع الجهات، و لا يجدون عنها محيصا .. لقد دعاهم الرسول إلى الخلاص بالتوبة من ذنوبهم التي أحاطت بهم من كل جهة، فرفضوا دعوته، فأحاط بهم العذاب من كل جانب.

(إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ) كما هو شأن الخبيث اللئيم يموت بغيظه إذا أصاب الطيبون الأبرار ما يحبون، و يطير فرحا إذا نالهم ما يكرهون **(وَ إِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ)** و يدل السياق أن المراد بالمصيبة هنا انكسار جيش المسلمين، لأن قولهم: **(قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا)** معناه ان المنافقين كانوا يتحدثون فيما بينهم فرحين مستبشرين بما حل بالمسلمين من مكروه و يقول بعضهم لبعض: لقد أخذنا حذرنا و تيقظنا إلى ما صار إليه جيش محمد ..

و تقدم نظيره في الآية ١٢٠ من سورة آل عمران: **(إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا)**. و في قوله تعالى: **(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هُوَ لَاءِ دِينِهِمْ - ٤٩ الأنفال)**.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) معناه قل أيها الرسول لأولئك المنافقين:

نحن الذين تيقظوا و أخذوا حذرهم، لا أنتم، لأنكم قعدتم مع القاعدين، أما نحن

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٣

فجاهدنا في سبيل الله بعد أن أعددنا للجهاد عدته .. و قد جرى صراعنا مع أعداء الحق على سنة الله في المعارك، يوم لنا، و يوم علينا، و الحرب بيننا و بينهم ما زالت قائمة، و الأمور بخواتيمها، و النصر لنا في النهاية، و كل آت قريب **(هُوَ مَوْلَانَا وَ عَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون)** الذين يعدون العدة، ثم يسيرون على اسم الله، فان أصابتهم حسنة قالوا: هذه من فضل الله و رحمته، و ان أصابتهم مصيبة قالوا: انها بقضاء الله و قدره، و هم في الحالين على إخلاصهم، و على يقين من دينهم، و ان الله مظهره على الدين كله و لو كره الكافرون.

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ). و هما النصر أو الشهادة، و في النصر إذلال الكافرين و المنافقين، و في الشهادة الثواب العظيم، و كلاهما عزة و كرامة **(وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُونَ)** ان عاقبة المؤمنين المجاهدين إحدى الحسينيين على سبيل مانعة الخلو: اما النصر و الغلبة، و اما الفوز بالشهادة في سبيل الله، و عاقبة المنافقين و الكافرين إحدى السوءيين: اما العذاب من الله، و اما التنكيل بأيدي المؤمنين حين يأذن الله لهم في ذلك.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٥٣ الى ٥٧]

قُلْ أَنْفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَ مَا مَنَعَهُمْ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَ هُمْ كَسَالَى وَ لَا يَنْفِقُونَ إِلَّا وَ هُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَ لَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَعُونَ (٥٧)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٤

اللغة:

الطوع الانقياد بالارادة و الاختيار. و الزهق الخروج بصعوبة، و كل هالك زاهق. و الفرق بفتح الراء الخوف. و الملجأ المكان الذي يتحصن فيه، و مثله المعقل و الموئل و المعتصم و المعتمد. و مغارات جمع مغارة، من غار الشيء في الشيء. و المدخل بتشديد الدال السرب في الأرض يدخله الإنسان بمشقة. و الجماع السرعة التي تتعذر مقاومتها.

الإعراب:

أنفقوا لفظه الأمر و معناه الخبر، و طوعاً أو كرها قائم مقام الحال، أي سواء أنفقت طائعين أم كارهين فلن يقبل منكم. و تسبك ان تقبل بمصدر على انه مجرور بمن محذوفة. و نفقاتهم نائب فاعل. و المصدر المنسبك من انهم كفروا فاعل منعهم أي ما منعهم من تقبل نفقاتهم الا كفرهم.

المعنى:

(قُلْ أَنْفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ) بعد أن تجهز النبي (ص) لغزوة تبوك طلب منه بعض المنافقين ان يعفيه من الجهاد. و عرض عليه شيئاً من ماله، فأمر الله رسوله الكريم ان يقول لهذا المنافق و أمثاله: لا حاجة لله في أموالكم، و انها مردودة عليكم، سواء أبدلتموها عن رضا، ام عن كره.

و تسأل: لقد عرفنا وجه الرد، مع البذل عن كره، فما هو الوجه لردّها.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٥

مع البذل عن رضا؟.

الجواب: لأنهم ما أرادوا بالبذل عن رضا وجه الله، و إنما أرادوا الشهرة و الجاه، و لا فرق بين البذل عن رضا لهذه الغاية، و بين البذل عن كره خوفا ان ينكشفوا على حقيقتهم، لأن كلا منهما لغير الله، و من أجل هذا خاطبهم الله بقوله: **(إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ)**. و وصفهم بالفسق يشير الى ان الفسق هو العلة لعدم القبول، و يعبر الأصوليون عن هذا و أمثاله بمناسبة الحكم للموضوع.

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلُ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ) لقد بذل المنافقون أموالهم لا لشيء الا ليقال: انهم بذلوا لله، و هم به كافرون .. و هذا النفاق و الرياء هو السبب في عدم قبول ما يبذلون، و لو أنفقوا لوجه الانسانية فقط، كالملحد يطعم جائعا بدافع الشفقة و الرحمة لا يمكن القول: هل جزاء الإحسان الا الإحسان، أما النفاق فهو سوء، و من يعمل سوءا يجز به .. راجع ج ٢ ص ٢١١ فقرة «الكافر و عمل الخير».

(وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَىٰ وَ لَا يَنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ) و هذه الحال نتيجة حتمية للكفر، لأن الصلاة لله و الإنفاق في سبيله فرع عن الايمان به.

(فَلَا تُعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).

و تسأل: ان الأموال و الأولاد قد تكون سببا لعذاب الآخرة، فقد اشتهر أناس بالوداعة و الصلاح ايام بؤسهم، حتى إذا آتاهم الله من فضله طغوا و بغوا ..

قال تعالى: **(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ لِيَطْغَىٰ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ - ٦ العلق)**، و قال:

(وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ - ٢٨ الأنفال) .. أما ان تكون الأموال و الأولاد سببا لعذاب الدنيا فالأمر على العكس عند الناس بخاصة المال الذي بحثوا عنه تحت الأرض و في اعماق البحار، و حين تقدم العلم أخذوا يبحثون عنه في كوكب القمر و غيره .. هذا، الى ان قوله: **(لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)** لا يتفق مع قوله **(الْمَالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا - ٤٦ الكهف)**. و على افتراض ان الأموال و الأولاد سبب العذاب في هذه الحياة فإن هذا العذاب لا يختص بالمنافقين و حدهم، بل يعم الناس أجمعين بطبيعة الحال؟.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٦

الجواب: أجل، ان هذا السؤال او الإشكال محكم، و لا مفر منه لو أريد بالآية العموم و الشمول، اما لو أريد بها واقع معين فلا يتجه الإشكال من الأساس، و سياق الكلام الذي قبل الآية و بعدها يدل بوضوح على ان الضمير في ليعذبهم عائد الى خصوص المنافقين الذين كانوا في عهد رسول الله (ص)، و بصورة أخص المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، و كانوا بضعة و ثمانين رجلا - كما قيل - و فيهم من له الكثير من الأموال، و العديد من الأولاد .. و كيلا يقول قائل: كيف يكون هؤلاء من القوم الفاسقين و قد أنعم الله عليهم بالمال و البنين، كيلا يقال هذا قال سبحانه: **(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).**

و قد عذب الله أولئك المنافقين بأولادهم، لأن أبناءهم اعتنقوا الإسلام و اخلصوا له على العكس من آبائهم، و لا شيء أشد حسرة على الوالد من أن يكون ولده على غير دينه و عقيدته .. فلقد أسلم ابن عبد الله بن أبي، و عرض على النبي

(ص) أن يقتل أباه عبد الله كبير المنافقين فرفض النبي (ص).

و أيضا عذبهم الله بأموالهم، لأنهم كانوا على يقين انها ستؤول من بعدهم الى الذين هم على غير دينهم و طريقهم .. فالآية مختصة بالمنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله (ص) و لا تتعدى الى غيرهم، و بهذا يتبين انه لا وجه لما ذكره المفسرون من أن الله عذبهم بالأموال لأنهم قد تعبوا في جمعها، و عذبهم بالأولاد لأنهم يتألمون لمرضهم و فقدهم .. و بديهة ان هذا الألم، و ذلك التعب لا يختصان بالمنافقين، بل يشملان كل ذي مال و أهل.

(و تَزْهَقَ أَنْفُسَهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ) أي يموتون على الكفر، فيعذبهم الله بكفرهم في الآخرة، كما عذبهم بأموالهم في الدنيا على النحو الذي ذكرنا. قال الطبرسي في مجمع البيان: ان ارادة الله تعلقت بزھوق انفسهم، لا بكفرهم، و هذا كما تقول: أريد أن اضربه، و هو عاص، فالارادة تعلقت بالضرب، لا بالعصيان.

(و يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمُنْكَمٌ وَ مَا هُمْ بِمُنْكُمْ). و آية جدوى لهم في هذا الحلف، و قد شهد الله بأنهم أسلموا خوفا، لا اقتناعا **(و لَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ)** و الفرق الخوف و الرعب، و قد امتلأت به قلوب المنافقين من قوة المسلمين **(لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَحُونَ)**. أي يسرعون لا يرد

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٧

وجوههم شيء .. لم يستطع المنافقون الخروج من المدينة، و أيضا لم يجرءوا على الجهر بالكفر، لأن الإسلام قد دخل في كل دار من دور الأوس و الخزرج، فاضطروا الى أن يسلموا بأطراف ألسنتهم، و هم كافرون في أعماق قلوبهم يتحينون الفرص للكيك بالإسلام، و الغدر بالمسلمين.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٥٨ الى ٥٩]

و مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩)

اللغة:

اللمز العيب و الطعن في الوجه.

الإعراب:

إذا هم يسخطون (إذا) حرف مفاجأة، و تختص بالجملة الاسمية، و لا تحتاج الى جواب، و ما بعدها مبتدأ و خبر، و الجملة جواب ان لم يعطوا، و قد وقعت إذا في جواب الشرط كالفاء. و جواب لو محذوف أي لكان خيرا لهم.

المعنى:

(و مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ). ضمير منهم يعود الى المنافقين، و المعنى

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٨

ان بعض المنافقين يعيب النبي (ص) و يطعن عليه في قسمة الزكاة، و يزعم انه يحابي فيها، و جاء في تفسير الطبري عن أبي سعيد الخدري قال: بينما رسول الله (ص) يقسم قسما إذ جاءه ابن ذي الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله. فقال له: و يملك و من يعدل ان لم اعدل. فقال عمر: ائذن لي يا رسول الله بضرب عنقه. قال الرسول (ص): دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاته، و صيامه مع صيامه يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ..

آيتهم رجل اسود احدى يديه مثل ثدي المرأة، يخرجون على حين فترة من الناس فنزل قوله تعالى: **(و مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ**

فِي الصَّدَقَاتِ». قال ابو سعيد: أشهد اني سمعت هذا من رسول الله (ص)، و أشهد ان عليا رحمة الله عليه حين قتلهم جيء بالرجل على النعت الذي نعت رسول الله (ص) ..

(فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ). كان النبي (ص) يوزع الصدقات كما بينها الله في الآية التالية، فيرضى المؤمنون، و يسخط المنافقون، و يلمزونه في قسمته .. و الحق ان أكثر الناس على حق، و الآية تشمل كل من لا يرضى بنصيبه، و لو رضى كل انسان بما يستحق لعاش الجميع في أمن و رخاء.

(وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) في ان يغنينا عن الصدقات و غيرها من صلوات الناس و الحاجة اليهم .. و هذه الآية تحث الإنسان على ان يعف عما في أيدي الناس، و يتكل على الله، و كد اليمين و عرق الجبين. قال الإمام علي (ع): الغنى الأكبر اليأس مما في أيدي الناس .. و لا أعرف أحدا يستحق الازدراء و الاحتقار أكثر ممن يرجو الناس، و هو قادر ان يستغني عنهم و لو بالصبر.

[سورة التوبة (٩): آية ٦٠]

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسَاكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَ فِي الرِّقَابِ وَ الْغَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٩

الإعراب:

للفقراء اللام للتمليك أو الاختصاص، أي ان الله سبحانه ملك او خصّ قسما من الزكاة للفقراء. و في الرقاب (في) ظرفية اي ان قسما من الزكاة ينفق في فك العبيد من الرق. و فريضة حال من الصدقات أي مفروضة، و يجوز ان تكون مفعولا مطلقا، أي فرض الله الصدقات فريضة.

المعنى:

المراد بالصدقات هنا الزكاة المفروضة، و تكلم الفقهاء عن حكمها و شروطها و الأعيان التي تجب فيها و المستحقين لها، و عرضنا ذلك مفصلا في الجزء الثاني من كتاب فقه الإمام جعفر الصادق. و في ج ١ من التفسير الكاشف ص ٤٢٨ تكلمنا عن الزكاة كمبدأ أقره الإسلام، و نتكلم هنا تبعا للآية الكريمة عن أصناف المستحقين لها، و هم ثمانية:

١- **(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ)**. قال الإمامية: الفقير الشرعي من لا يملك مئونة السنة له و لعياله. و قال الحنفية: من يملك أقل من نصاب الزكاة. و قال الشافعية و الحنابلة: من وجد نصف كفايته لا يعد فقيرا. و قال الإمامية و الشافعية و الحنابلة: من قدر على الاكتساب لا تحل له الزكاة. و قال الحنفية و المالكية: بل تحل.

٢- **(وَالْمَسَاكِينِ)**. قال جماعة: ان كلمة فقير و كلمة مسكين إذا اجتمعتا عبرت كل منهما عن معنى غير معنى الأخرى، و إذا افتردتا عبرتا عن معنى واحد، و قالوا: ان الفرق عند الاجتماع هو ان الفقير لا يسأل، و المسكين يسأل،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٦٠

و مهما يكن، فإن العبرة بالحاجة، و كل منهما محتاج.



٣- **(وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا)**. وهم الجبابة الذين يعينهم الإمام أو نائبه للقيام بتحصيل الزكاة وحفظها، ثم تأديتها الى من يقسمها على المستحقين، و ما يأخذه الجبابة يعتبر اجرا لهم على عملهم لا صدقة، ولذا تعطى لهم، وان كانوا أغنياء.

٤- **(وَالْمَوْلَفَةَ قُلُوبِهِمْ)**. وهم قوم يراد استمالتهم الى الإسلام، أو ليستعين بهم المسلمون فيما يعود بالنفع على الإسلام.

٥- **(وَفِي الرِّقَابِ)**. أي تبذل الزكاة لفك العبيد و تحريرهم من الرق.

و لا موضوع اليوم لهذا الصنف.

٦- **(وَالْغَارِمِينَ)**. وهم الذين تحملوا ديونا عجزوا عن وفائها، فتؤدي عنهم من الزكاة، على شريطة أن لا يكونوا قد صرفوها في الإثم و المعصية.

٧- **(وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ)**. و سبيل الله كل ما يرضيه، يتقرب به اليه كائنا ما كان، كشق طريق أو بناء مصح أو معهد، و أفضله الدفاع عن الدين و الوطن.

٨- **(وَأَبْنِ السَّبِيلِ)**. و هو المنقطع في سفره عن بلده، فيعطى ما يستعين به على العودة الى وطنه، و ان كان غنيا فيه، على شريطة أن لا يكون سفره في معصية.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٦١ الى ٦٣]

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذْنٌ قُلَّ أذْنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ يَوْمُنَّ بِاللَّهِ وَيَوْمُنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَ اللَّهُ وَ رَسُولَهُ أَحَقُّ أَنْ يَرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَان لَه نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٦١

اللغة:

يقال: رجل اذن، أي يسمع كل ما يقال له و يصدقه. و المحادة المخالفة.

الإعراب:

اذن خير لكم (اذن) خبر لمبتدأ محذوف أي هو اذن خير، و (خير) مجرور بالاضافة مثل رجل صدق. و يؤمن للمؤمنين اللام زائدة، لأن يؤمن بمعنى يصدق المؤمنين. و الله مبتدأ و الخبر محذوف أي الله أحق بالرضا. و رسوله أحق مبتدأ و خبر. و المصدر المنسب من أن ترضوه مجرور بالباء المحذوفة متعلقا بأحق.

و الهاء في انه ضمير الشأن اسم ان، و خبرها الجملة من من يحادد، و المصدر المنسب من ان و ما بعدها سد مسد المفعولين ليعلموا. و فان له بفتح الهمزة، و المصدر منها و اسمها و خبرها خبر لمبتدأ محذوف أي فجزاؤه ان له نار جهنم.

المعنى:

(وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذْنٌ). كان النبي (ص) يعامل كل انسان بظاهره، و لا يبحث عن باطنه عملا بمبدأ الظاهر للناس، و الباطن لله، و هذا اصل من أصول الشريعة الإسلامية يبتني عليه كثير من الأحكام، و قد استغله المنافقون، فكانوا يفلتون من طاعة الله و رسوله، و يعتذرون فيقبل منهم الرسول و يعفو.. و الغريب انهم اتخذوا

من هذه الفضيلة وسيلة للطعن فيه، و نسبوه الى سرعة التصديق و التأثير بكل ما يسمع، دون ان يتدبر و يميز بين ما هو جدير

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٦٢

بالقبول، و ما هو جدير بالرفض .. و لو انه (ص) واجههم بكذبهم و نفاقهم، و عاملهم بما يستحقون من العقوبة لكان شرا لهم، و لقالوا: فظ غليظ .. لقد عابوه فيما يعود عليهم بالخير و النفع، و هنا مكان الغرابة .. لكن اللئيم لا يكثر عليه شيء، لأنه ينظر الى كل شيء بمرآة نفسه السوداء، حتى الى من يحسن اليه .. و صدق الذي قال:

من تكن نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئا جميلا

(قُلْ أَذْنٌ خَيْرٌ لِّكُمْ)

هذا رد من الله على أولئك المنافقين، و يتلخص الرد بأن النبي اذن خير، لا اذن شر .. يقبل منكم ما لا ضرر فيه على انسان، و يرفض ما فيه الضرر، كالغيبة و النميمة (يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) أي يصدق الصادقين منهم تصديق تسليم و اقتناع، أما المنافقون فيصدقهم فيما لا ضرر فيه تصديق ملاطفة و مجاملة (وَ رَحْمَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ)

. رحمة معطوف على اذن خير، و هو من باب عطف العام على الخاص لأن اذن الخير رحمة أيضا (وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) لأن من آذى رسول الله فقد آذى الله.

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَ اللَّهُ وَ رَسُولَهُ أَحَقُّ أَنْ يَرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ).

كما يزعمون، و الضمير في يحلفون عائد إلى الذين قالوا: هو اذن. و الخطاب في لكم و في ليرضوكم للنبي و المؤمنين، فلقد أخبرهم الله تعالى في هذه الآية ان المنافقين حين علموا باطلاعكم على ما قالوه في حق النبي (ص) خافوا منكم فالتجأوا إلى اليمين الكاذبة ليرضوكم، و كان الأولى بهم أن يرضوا الله و رسوله بالتوبة و الإخلاص. و في الحديث من حلف على يمين، و هو يعلم انه كاذب فقد بارز الله بالمحاربة .. و في التعبير بيرضوه دون يرضوهما اشعار بأن إرضاء الرسول هو عين إرضاء الله، كما ان ايذاءه عين إيذاؤه.

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يَحَادِدِ اللَّهِ وَ رَسُولُهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ). يحادد أي يخالف. و



هذه الآية تأكيد لقوله في الآية السابقة: و الذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم. قال الشيخ إسماعيل حقي في تفسيره روح البيان، و هو يشرح هذه الآية:

«كل نبي أؤذي بما لا يحيط به البيان، و كان محمد (ص) أشدهم في ذلك كما قال: ما أؤذي نبي مثل ما أؤذيت. و لما كانت الأذية سبب التصفية كان

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٦٣

المعنى ما صفى نبي مثل ما صفيت .. و انما كان الحسن مسموما، و الحسين مذبوحا رضي الله عنهما بسبب ان كمال تعينهما كان بالشهادة، و كان النبي (ص) قادرا على تخليصهما بالشفاعه من الله، و لكنه رأى كمالهما في رتبتهما راجحا على الخلاص، حتى انه دفع قارورتين لواحدة من أزواجه المطهرة، و قال لها: إذا اصفر ما في إحداهما يكون الحسن شهيدا بالسم، و إذا احمر ما في الأخرى يكون الحسين شهيدا بالذبح .. فكان كذلك».

[سورة التوبة (٩): الآيات ٦٤ الى ٦٦]

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهِزُوا إِنَّ اللَّهَ مَخْرُجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَلَا بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤْنَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعْدِبُ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)

اللغة:

مخرج أي مظهر. و الخوض في الشيء الدخول فيه.

الإعراب:

المصدر المنسب من ان تنزل مفعول يحذر، و يجوز جره بمن محذوفة. أبا لله متعلق بيستهزئون.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٦٤

المعنى:

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهِزُوا إِنَّ اللَّهَ مَخْرُجٌ مَا تَحْذَرُونَ). لم يحذر المنافقون حقيقة و واقعا من نزول الوحي في شأنهم، و إنما أظهروا الحذر على وجه الاستهزاء و السخرية .. كانوا يطعنون في النبي (ص) فقال بعضهم لبعض ساخرا: احذروا ان تنزل في شأنكم سورة .. و الدليل على ان هذا هو المراد قوله تعالى مهددا: **(قُلْ اسْتَهِزُوا)**. هذا من جهة، و من جهة أخرى ان المنافقين لا يؤمنون بالوحي فكيف يحذرون منه على وجه الحقيقة؟. و ذهب أكثر المفسرين إلى أن الضمير في عليهم و في تنبئهم يعود إلى المؤمنين، و ان الضمير في قلوبهم يعود إلى المنافقين.

و يلاحظ أولا: ان المؤمنين لم يرد لهم ذكر في الآية، و ان المذكورين فيها صراحة هم المنافقون، كما ان الآية التي قبلها تحدثت عن المنافقين، دون غيرهم ..

ثانيا يلزم من هذا التفسير التفكيك بين الضمائر، مع عدم الدليل على ذلك.

ومن أجل هذا نرجح الرأي القائل بأن الضمائر كلها تعود الى المنافقين، وان على في (عليهم) بمعنى في كما هي في قوله تعالى: (وَ اتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ) أي في ملكه، ومثلها أيضا فيما يقال: كان هذا على عهد مضى، وعليه يكون المعنى يحذر المنافقون - تهكما - ان تنزل سورة تكشف عما يضمرون من العداة للإسلام و المسلمين. فتوعددهم الله سبحانه بأن السورة التي سخروا من نزولها نازلة لا محالة، وانها تقابلهم وجها لوجه، فيعتذرون حيث لا تنفعهم المعاذير.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ). تكلم قوم من المنافقين بما لا ينبغي في حق رسول الله (ص)، و لما سألهم قالوا: كنا هازلين لا جادين ..

و اختلف المفسرون في أسماء من قالوا هذا، و نوع ما قالوا .. و الآية لا تشير الى شيء من ذلك، و نحن نسكت عما سكت الله عنه **(قُلْ أَلْبَابُهُ و آيَاتُهُ و رَسُولُهُ كُنْتُمْ تُسْتَهْزَؤُنَ).** ان قولهم: كنا نخوض و نلعب أقبح من الذنب الذي اعتذروا منه .. فهل الله جلت عظمتة لعبة للتسلي و التلهي؟ و هل أرسل أنبياءه للسخرية

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٦٥

و الاستهزاء؟ .. و تدل الآية ان كل من استهزا بالدين و أحكامه الثابتة بالبداهة فهو كافر.

(لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ). و تسأل: ان هذا يدل على انهم كانوا مؤمنين قبل الاستهزاء، و ان السبب الموجب هو الاستهزاء، مع العلم بانهم كانوا كافرين من قبل في سرهم و واقعهم، و ان كفرهم هو السبب الموجب للاستهزاء؟.

الجواب: كانوا قبل اعترافهم بالاستهزاء بالدين كافرين واقعا مسلمين حكما، لأنهم اظهروا الإسلام، فجرى عليهم ما يجري على المسلمين من الأحكام التي تبنى على الظاهر، لا على الواقع، و بعد ان اعترفوا بالاستهزاء صاروا كافرين واقعا و حكما يجري عليهم أحكام المرتدين.

(إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ) كان المنافقون صنفين: الرؤساء المتبوعين الذين يترصون بالإسلام، و يكيدون لنبيه، و يسخرون منه، و الضعاف التابعين، فأمر الله سبحانه نبيه الأكرم بالعفو عن هؤلاء لضعفهم و بعقاب أولئك لأنهم علة العلل .. و قيل: ان الله سبحانه عفا عن تاب منهم، و عاقب من أصر على الكفر و النفاق.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٦٧ الى ٧٠]

الْمُنَافِقُونَ وَ الْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَ عَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتُ وَ الْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَ لَعْنَهُمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخُلُقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخُلُقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخُلُقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أَوْلَيْكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أَوْلَيْكُمُ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبِيُّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادَ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكَاتِ اتَّهَمُوا رُسُلَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٦٦

اللغة:

نسوا الله تركوا طاعته فنسيهم ترك ثوابهم. والخلاق النصيب. و خضم دخلتم في الباطل. و أصحاب مدين قوم شعيب. و المؤتفكات جمع مؤتفكة من اتفكت بهم الأرض أي انقلبت. و المراد بالمؤتفكات هنا قرى قوم لوط.

الإعراب:

المنافقون و المنافقات مبتدأ أول، و بعضهم مبتدأ ثان و من بعض خبر، و الجملة خبر الأول. كالذين من قبلكم الكاف بمعنى مثل في محل نصب صفة لمفعول مطلق محذوف أي وعد الله المنافقين وعدا مثل وعد الذين من قبلكم. و مثله كما استمتع، و كالذي خاضوا، أي استمتعتم بخلاقتكم استمتعوا مثل استمتع الذين من قبلكم، و خضتم خوضا مثل خوض الذي خاضوا، و الذي هنا اسم جنس بمعنى الذين.

و قوم نوح بدل من الذين المجرور بإضافة نبا. و المصدر المنسب من ليظلمهم متعلق بمحذوف خبرا لكان أي: فما كان الله مريدا لظلمهم.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٦٧

المعنى:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) كناية عن تشابههم و صفا و عملا، ثم بين وجه التشابه بقوله: **(يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ)**. و المنكر الذي أمروا به هو الكفر و النفاق، و المعروف الذي نهوا عنه هو الإيمان و طاعة الله و رسوله، أما أيديهم فإنهم قبضوها عن الإنفاق في سبيل الله، و نسيانهم لله تركهم لطاعته، و نسيانه لهم حرمانهم من رحمته **(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)** الناكبون عن سبيل الرحمن الى سبيل الشيطان.

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا). بعد ان بين سبحانه مساوى المنافقين توعدهم و توعد كل كافر بنار الجحيم **(هِيَ حَسْبُهُمْ)** أي جزاء كاف واف على أعمالهم **(وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ)** أبعدهم عن رحمته **(وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ)** لا يخف و لا ينقطع.

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا). يقول سبحانه: أنتم أيها المنافقون المعاصرون لمحمد (ص) مثل المنافقين الذين خلوا استمتعوا بنصيبتهم من ملاذ الدنيا، و كانوا أقوى منكم و أكثر مالا و أولادا، فاستمتعتم أنتم أيضا بنصيبتكم من حطام هذه الحياة، و خضتم في الباطل كما خاض الأولون **(أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ)** أي بطلت حسناتهم، ان كان لهم حسنات كالعيش بكد اليمين و عرق الجبين .. و بطلانها في الآخرة بعدم الثواب عليها، أما بطلانها في الدنيا فلأنها لا ترفع من شأن الكافر و المنافق عند أهل الوعي و الإيمان **(وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)** لأنهم أتبعوا أنفسهم في تدبير الدسائس و المؤامرات على المؤمنين الطيبين، ثم دارت عليهم الدائرة دنيا و آخرة.

و الخلاصة ان الله سبحانه قال للمنافقين المعاصرين للرسول الأعظم (ص)، اتركوا الكفر و النفاق، و اتعظوا بالذين خلوا قبلكم من أمثالكم قبل ان يتعظ بكم من يأتي بعدكم.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٦٨

(الْمَ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) أصحاب مدين قوم شعيب، و المؤتفكات قوم لوط. (انظر فقرة اللغة) .. لقد ذكر الله سبحانه المنافقين بهؤلاء الأقسام، لأن بلادهم كانت قريبة من بلاد العرب، وكانوا في كثرة من المال والولد، وقوم ابراهيم اهلكوا بسلب النعمة، وعاد بالريح، وقوم نوح بالغرق، و ثمود بالصيحة، و مدين بعذاب الظلة، و المؤتفكات بجعل عاليها سافلها، و تقدم الكلام عن ذلك في سورة الأعراف (فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) بإصرارهم على الخطايا و الذنوب.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٧١ الى ٧٣]

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)

اللغة:

العدن الإقامة و الخلود، و الرضوان مصدر رضي.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٦٩

المعنى:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) المراد بالولاية هنا النصرة، بعد ان ذكر سبحانه المنافقين برذائلهم ذكر المؤمنين بفضائلهم، و ان بعضهم يناصر بعضا، و من ادعى الايمان بالله و رسوله، و لم يناصر اخوانه في هذا الايمان فهو منافق، تشمله الآيات السابقة التي نزلت في المنافقين (يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) على عكس المنافقين الذين يأمرون بالمنكر، و ينهون عن المعروف (وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ) حقيقة لا رياء كالمنافقين (وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) و لا يبخلون بها كما يبخل المنافقون (وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) و يستمرون على هذه الطاعة مهما كانت النتائج (أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ) أما المنافقون فقد لعنهم و أعد لهم نار جهنم خالدين فيها (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) قادر على إعزاز المؤمنين، و إذلال الكافرين و المنافقين.

(وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرَ) و عدن الإقامة، و كل من أرضى الله في أعماله و مقاصده فالله يرضى عنه (ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) ذلك اشارة الى الجنات و المساكن الطيبة و الرضوان. و تقدم نظيره في ج ٢ ص ٢٣ عند تفسير الآية ١٥ من سورة آل عمران.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٧٣ الى ٧٤]

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَاوَاهِمْ جَهَنَّمَ وَاوَاهِمِ الْمَصِيرَ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتُوبُوا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٧٠

اللغة:

الغلظة الخشونة في المعاملة. وهم بالشيء إذا أراد، وهم دون العزم الا ان يبلغ نهاية القوة في النفس.

الإعراب:

المصدر المنسب من ان اغناهم مفعول نغموا، أي ما كرهوا الا اغناء الله إياهم. ومن ولي (من) زائدة و ولي مبتدأ.

المعنى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَاوَاهِمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ). استعمل النبي (ص) اللين مع المنافقين فما أجدى، بل جرَّاهم التسامح على الطعن فيه و القول بأنه أذن، فأمره الله سبحانه ان يغلظ عليهم و يجاهدهم ..

و لكنه لم يبين نوع الجهاد: هل هو بالسيف أو باللسان أو بطريق آخر؟. و معنى هذا ان الله قد ترك ذلك الى تقدير النبي (ص) فيجاهدهم بما يراه من الحكمة و المصلحة.

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ). الضمير في يحلفون و قالوا عائد الى قوم من المنافقين، فإنهم نطقوا بكلمة الكفر في حق رسول الله (ص)، و لما سألهم خافوا و حلفوا، فكذبهم الله، و ثبت صحة ما نسب اليهم .. و لم يذكر جل و عز أسماء الذين حلفوا اليمين الكاذبة، و لا كلمة الكفر التي نطقوا بها، كيلا يتعبد المسلمون بتلاوتها. و قال الشيخ المراغي في تفسيره:

«و أصح ما روي ان رسول الله (ص) كان جالسا في ظل شجرة فقال:

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٧١

انه سيأتىكم انسان ينظر اليكم بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلموا، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه الرسول، فقال له: علام تشتمني أنت و أصحابك؟

فانطلق الرجل، فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، فتجاوز عنهم، فأنزل الله: يحلفون بالله ما قالوا الخ».

(وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ). هذا مثل قوله تعالى: (لَا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) و مر تفسيره في الآية ٦٦ من هذه السورة.

(وَهُمْ أُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ لَمَّا لَمْ يَنْتَهِوا). في تفسير الرازي و البحر المحيط و المنار و المراغي و غيره: ان جماعة من المنافقين اتفقوا على الفتك بالرسول، فأخبره الله بذلك، فاحترز منهم، و لم يصلوا الى مقصودهم. و في الجزء الثاني من كتاب «الأعيان» للسيد محمد الأمين:

«رجع رسول الله (ص) من تبوك الى المدينة، حتى إذا كان ببعض الطريق مكر به ناس من أصحابه، فتأمروا أن يطرحوه من عقبه في الطريق، فأخبر رسول الله (ص) خبرهم».

(وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ). ضمير نغموا و اغناهم يعود الى المنافقين، و قد كان كثير منهم في ضنك من العيش يقاسون مرارة البؤس و الفقر قبل أن ينطقوا بكلمة الإسلام، و بعد أن قالوها بأطراف السنتهم تدفقت عليهم الأرزاق، لأن النبي (ص) كان يساويهم في الغنائم بسائر المسلمين، و وفى ديون بعضهم، فكان جزاؤه

منهم ان قالوا عنه ما قالوا: ثم هموا باغتياله .. فوبخهم سبحانه على عقوبهم و كفران النعم بهذا الأسلوب، و هو مثل قولك لمن عَقَّك بعد إحسانك اليه: ما لي عندك ذنب الا الإحسان اليك.

(فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ). ان باب الله مفتوح على مصراعيه لكل طارق، و السبيل اليه سهل يسير، حتى على الكافرين و المنافقين، لا يكلفهم سوى الاعتذار عما سلف، و الصدق فيما يأتي.

(وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذِبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ) أما عذابهم في الآخرة فمعلوم، و اما عذابهم في الدنيا فلأن المنافقين في خوف دائم ان يفتضح أمرهم،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٧٢

و ينتهك سترهم، و من أجل هذا يرهبون كل شيء، و يحسبون كل صيحة انها عليهم، لا على غيرهم، كما وصفهم تعالى بقوله: «وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَعَجَّبُوا أَجْسَامَهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ - ٤ المنافقون». **(وَ مَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ)**. و من ينصر أو يجرا ان ينصر من تكشفت عوراته و سيئاته على عيون الملا.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٧٥ الى ٧٨]

وَ مِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لِنِئَانَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَاعْتَبِهِمْ نَفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَامُ الْغُيُوبِ (٧٨)

اللغة:

أعقبهم أورثهم. و النجوى الكلام الخفي.

الإعراب:

فلما آتاهم (لما) هنا حرف وجود لوجود أي لما وجد الفضل وجد البخل، و تختص لما بالماضي، و من فضله سد مسد المفعول الثاني لآتاهم. و لنصدقن أصله لتصدقن، فأدغمت التاء بالصاد. و فاعل أعقبهم ضمير مستتر يعود الى البخل،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٧٣

و هو مصدر متصيد من بخلوا. و الهاء في يلقونه تعود إلى الجزاء على البخل، و المعنى انهم يموتون على النفاق.

المعنى:

(وَ مِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لِنِئَانَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ، فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ). قال أهل التفاسير:

«ان هذه الآيات نزلت في رجل من الأنصار، اسمه ثعلبة بن حاطب، قال لرسول الله (ص): ادع الله ان يرزقني مالا. فقال له: يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه، أما لك في رسول الله اسوة حسنة، و الذي نفسي بيده لو أردت ان تسير الجبال معي ذهابا و فضة لسارت .. و لكن ثعلبة لم يقنع، فأعاد على النبي و الحج، و قال: و الذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه. فقال النبي: اللهم ارزق ثعلبة مالا. فاتخذ ثعلبة بعض غنيمات، فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها إلى واد من أوديتها، ثم كثرت، حتى تباعد عن المدينة و أوديتها، و انقطع عن الجمعة و الجماعة .. و بعث اليه رسول الله (ص) من يأخذ الزكاة منه، فأبى و بخل و قال: ما هذه إلا أخت الجزية.

فقال رسول الله: يا ويح ثعلبة، و أنزل الله هذه الآيات».

و سواء أنزلت هذه الآيات في ثعلبة، أم في غيره فإن هذه الحادثة أو الحكاية تبين المراد من هذه الآيات بأوضح أسلوب، و تكلمنا عما يتصل بذلك في ج ٢ ص ١٦٧، فقرة تغيير الأخلاق و الأفكار عند تفسير الآية ١٤٣ من آل عمران.

(فَاعْقِبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ). جاء في تفسير البحر المحيط:

ان الحسن و قتادة و أبا مسلم قالوا: ان فاعل أعقبهم ضمير مستتر يعود الى البخل ..

و اختار هذا الطبرسي و المراغي، و عليه تعود الهاء في يلقونه الى جزاء البخل، و المعنى ان البخل أورثهم نفاقا لا يفارقهم حتى الموت، و ذكر تعالى لذلك سببين:

الأول **(بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ).** و الثاني **(وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ).** و هذان

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٧٤

الوصفان أي الخلف بالوعد، و الكذب في الحديث من أخص أوصاف المنافقين، قال الرسول الأعظم (ص): «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، و إذا وعد أخلف، و إذا أوتى من خان».

(الْمَ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ). السر ما تنطوي عليه الصدور، و النجوى الكلام

الخفي يتناجى به اثنان أو أكثر، و الغيوب جمع غيب، و هو ما غاب عن جميع الخلق، و المعنى كيف تجرأ هؤلاء المنافقون على إضمار الكفر، و التناجى به؟ ألم يعلموا ان الله مطلع على ما تخفي صدورهم و ما يدور على ألسنتهم، و انه لا تخفى عليه خافية في الأرض و لا في السماء.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٧٩ الى ٨٠]

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جَهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)

اللغة:

لمزه عابه. و المطوع أصله المتطوع، فأدغمت التاء في الطاء، و المراد به هنا من يؤدي ما يزيد على الوجوب في أمواله. و الجهد بفتح الجيم و ضمها الطاقة.

الإعراب:

الذين يلمزون مبتدأ و خبره سخر الله منهم، و في الصدقات متعلق بيلمزون.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٧٥

و سبعين قائم مقام المفعول المطلق، لأن المعنى سبعين استغفاراً.

المعنى:

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ). اللمز العيب، و المراد بالتطوع هنا بذل المال تفضلاً لا

وجوباً. و ما زال الحديث عن المنافقين، و هاتان الآيتان تعرضان لونا آخر من آثامهم و أذاهم المتصل للنبي و المؤمنين .. في ذات يوم حث النبي (ص) على البذل في سبيل الله، فاستجاب المؤمنون من صحابته، و تطوع بعضهم بالآلاف. و بعضهم بصاع من تمر، كل حسب طاقته، فعابهم المنافقون، و قالوا عن المكثر: انه يبذل رثاء، و عن المقل: انه يذكر

بنفسه ..

ان شأن المنافقين الرياء فيما يقولون و يفعلون، ففاسوا الغير على أنفسهم، و وصفوه بوحى من واقعهم.
 و قوله تعالى: **(وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جَهْدَهُمْ)** يشير الى الفقراء الذين تصدقوا بالقليل لأنه مبلغ طاقتهم **(فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ)** استخفا بما بذلوه. و من كلام الإمام علي (ع): لا تستح من إعطاء القليل فإن الحرمان أقل منه. **(سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)** و معنى سخرية الخالق جل و علا انه يجازي الساخر بالعذاب الأليم على سخريته.
(اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) سبعين مرة كناية عن الكثرة، و ما زال العرب يبالغون بالسبعة و السبعين. و قال قائل: ان الله سبحانه ترك الخيار للتنبيه في ان يستغفر للمنافقين أو لا يستغفر لهم لأن (أو) في الآية للتخيير بزعمه .. و هذا اشتباه، فإن قوله تعالى: **(فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ)** دليل قاطع على انه لا سبيل لهم الى العفو و المغفرة. و عليه تكون (أو) للتسوية .. و في رواية ان الله سبحانه حين أنزل في المنافقين **(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ)** طلبوا من النبي أن يستغفر لهم، فأنزل الله عليه **(اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ)**.

و تسأل: ان الله يحب التوابين، و يغفر لهم ذنوبهم مهما عظمت، فما هو السر في قوله: **(فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ)؟**

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٧٦

و قد أجاب سبحانه عن هذا في الآية نفسها، حيث قال: **(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)**. انهم اعتذروا، و طلبوا من النبي (ص) ان يستغفر لهم، و لكن نفاقا و رياء، أما في واقعهم فإنهم مصرون على الكفر و العناد .. و انما يتقبل الله من المتقين، لا من المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٨١ الى ٨٣]

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فليضحكوا قليلا و ليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكُ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُواكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣)

اللغة:

المخلفون جمع مخلف، و هو المتروك اسم مفعول، أي ان رسول الله (ص) هو الذي تركهم. و بمقعدهم بصيغة اسم المصدر و المراد به المصدر، أي بقعودهم.

و خلاف تأتي مصدرا بمعنى المخالفة، و ظرفا بمعنى بعد. و رجعت الله ردك الله.

فاقعدوا مع الخالفين أي مع القاعدين أو الباقين، و هم النساء و الصبيان و العجزة.

الإعراب:

خلاف رسول الله ان كان بمعنى بعد فهو ظرف منصوب و العامل فيه مقعدهم،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٧٧

و ان كان مصدرا بمعنى المخالفة فهو مفعول لأجله لفرح. و حرا تمييز. و اللام في ليضحكوا لام الأمر و عملها الجزم، و مثلها اللام في ليبكوا. و قليلا صفة لمفعول مطلق محذوف أي ضحكا قليلا. و مثله كثيرا أي بكاء كثيرا. و جزاء مفعول

لأجله ليكبوا. وأبدا منصوب على الظرفية، ومعناه الاستقبال. وأول مرة قائم مقام الظرف، أي في أول مرة.

المعنى:

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ). حكى الله سبحانه فيما سبق قول بعض المنافقين للنبي ائذن لي في القعود عن الجهاد، وأخبر في هذه الآية عن فرحهم بهذا القعود مخالفة لرسول الله، وكرهية للجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله بعامته، وفي غزوة تبوك بخاصة، لأن الآيات نزلت فيها.

(وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ).

اشفقوا على أنفسهم من حر الدنيا، ولم يشفقوا عليها من نار جهنم، وهي أشد حرا، وأطول أمدا.. هذا، إلى أن من ترك جهاد الطغاة البسه الله ثوب الذل في الدنيا، وسيم الخسف ومنع النصفة.. وما غزي العرب والمسلمون في عقر دارهم إلا حين تواكلوا وتخاذلوا، وأثروا الخزي والمذلة على الاستشهاد من أجل العزة والكرامة.

(فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ). الأمر بالضحك والبكاء معناه الإخبار بأن المنافقين، و ان فرحوا بمقعدهم عن الجهاد فان هذا الفرح ليس بشيء بالنسبة الى ما سيلقونه من الخزي والذل في الدنيا، وهم في الآخرة أذل وأخزى.

(فَإِنْ رَجَعَكُمُ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ) الخطاب للنبي (ص)، ومعنى رجعتك ردك من غزوة تبوك الى المدينة، والمراد بالطائفة جماعة المنافقين، و ضمير منهم يعود إلى من تأخر في المدينة عن الغزو، فإن بعض هؤلاء تأخر لعذر صحيح

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٧٨

(فَاسْتَأْذِنُوا لِلْخُرُوجِ) معك الى الغزو أو غير الغزو **(فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا).** لقد تخلفوا عن الجهاد الواجب، فعاقبهم الله بالحرمان من صحبة النبي (ص)، والخروج معه الى الحرب وغيرها، وهذا النوع من العقاب أشد على النفس من وقع السهام، و يأتي في الآية ٩٥ قوله تعالى:

(فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنْهُمْ رَجَسُوا) ثم بين سبحانه سبب النهي عن إخراجهم مع النبي، و اشراكهم في قتال العدو بقوله: **(إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوْلَ مَرَّةٍ فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ)** قعدوا عن النبي (ص) في ساعة العسرة فلن يقبلوا بعدها.. و من اختار لنفسه الهوان يدعه الله و ما اختار، و المراد بالخالفين الصبيان و العجزة و النساء.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٨٤ الى ٨٩]

وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ أَمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنُوا أُولَئِكَ الطَّوَلُ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨)

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٧٩

اللغة:

الطول بالفتح و التشديد الغنى و القوة. و الخوالب النساء لتخلفهن عن الجهاد.

و طبع على قلوبهم ختم عليها.

الإعراب:

منهم متعلق بمحذوف صفة لأحد، و جملة مات صفة ثانية. و أبدا ظرف متعلق بتصل. و ان آمنوا (ان) للتفسير بمعنى أي.

الصلاة على جنازة المنافق و الفاسق:

(وَ لَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَ لَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ مَاتُوا وَ هُمْ فَاسِقُونَ).

الخطاب في لا تصل للنبي، و ضمير منهم يعود الى المنافقين .. و كان من عادة النبي (ص) إذا مات أحد أصحابه ان يصلي عليه، و يقف على قبره يستغفر له و يقول لمن حضر: استغفروا لأخيكم، و سلوا التثبيت له، فإنه الآن يسأل. و بعد أن نزلت هذه الآية امتنع النبي (ص) عن الصلاة على المنافقين، لأنها صريحة في النهي عن الصلاة عليهم، و الوقوف على قبورهم للدعاء لهم، أما سبب هذا النهي فهو إصرارهم على الكفر بالله و رسوله، و موتهم على هذا الإصرار و العناد الذي عبر عنه تعالى بقوله، **(وَ مَاتُوا وَ هُمْ فَاسِقُونَ).**

هذا هو المعنى الظاهر من الآية، و تتصل به المسائل التالية:

١- المنافق قسم من أقسام الكافر، بل هو أسوأ حالا منه، لأنه يبطن الكفر، و يظهر الإسلام، و من أجل هذا تحرم الصلاة على جنازته، و قوله تعالى:

(وَ لَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ) صريح في ذلك، و أوضح منه أو مثله في الوضوح قوله: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ - ١١٤ التوبة». أما الفاسق فهو

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٨٠

قسم من أقسام المسلم، لأنه يؤمن بالله و رسوله ظاهرا و باطنا، و لكنه يعصي الله في أحكامه، فتجب عليه الصلاة، و لا يجوز تركها بحال.

في ذات يوم جاءني أحد علماء جبل عامل، و قال: دعيت الى الصلاة على جنازة رجل أعلم بفسقه، فهل تجوز لي الصلاة عليه؟ قلت: بل تجب عليك كفاية. قال: و الفسق؟ فرويت له قول الإمام جعفر الصادق (ع): «صل على من مات من أهل القبلة، و حسابه على الله». قال: و لكن المصلي لا بد أن يدعو للميت بعد التكبيرة الرابعة، و المعروف أن يقول في دعائه له: اللهم لا تعلم منه إلا خيرا، فان قلتها كنت كاذبا. قلت له: قل: اللهم نعلم منه خيرا، و اقصد بالخير الإسلام.

٢- اختلف المفسرون تبعا لاختلاف الروايات: هل صلى النبي (ص) على جنازة رأس النفاق عبد الله بن أبي؟ و الأقوال في ذلك ثلاثة: الأول أنه صلى، حيث كان يأمل أن يدخل بسبب هذه الصلاة خلق كثير في الإسلام ..

و هذا مجرد حدس، و لا يجوز أن نثبت أو نفسر به شيئا من أفعال المعصوم.

القول الثاني: ان النبي (ص) أراد أن يصلي عليه، فأخذ جبريل بثوبه، و تلا عليه الآية: و لا تصل على أحد منهم. القول الثالث: انه ما صلى عليه.

و جاء في مجمع البيان: «و الأكثر في الرواية انه لم يصل عليه». و خير ما قرأت في هذا الباب ما جاء في تفسير الشيخ



المراغي، قال ما معناه: ان البخاري وغيره رووا ان النبي (ص) صلى على ابن أبي، ولما سئل قال: ان الله خيرني في الصلاة على المنافقين، لأنه قال لي: استغفر لهم أو لا تستغفر. ثم علق المراغي على هذا الحديث بأن كثيرا من العلماء قد حكموا بعدم صحته، لأن آية النهي عن الصلاة على المنافقين نزلت قبل موت ابن أبي، ومحال أن يخالف الرسول الأعظم (ص) كتاب الله، وأيضا محال أن يقول: ان الله خيرني بقوله: استغفر لهم أو لا تستغفر لأن قوله تعالى: (فَلَنْ يَعْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) دليل قاطع على أن (أو) هنا ليست للتخيير، فالحديث بنفسه يدل على انه كذب و افتراء على الله و رسوله.

٣- قال الطبرسي في مجمع البيان: «في هذه الآية دلالة على ان القيام على

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٨١

القبر للدعاء عبادة مشروعة». ولا يختلف احد من فقهاء المسلمين في ان الدعاء للأموات يجوز شرعا، تماما كالدعاء للأحياء، بل الأموات أحوج، ما دما نعتقد بالبعث و حسابه و عقابه، ولا فرق بين أن يكون الدعاء على القبور، أو على غيرها.

أما زيارة القبور فقد أجمع الفقهاء على جوازها ما عدا أئمة الوهابية .. و قد روى السنة في ثلاثة كتب من أصحابهم أحاديث تنطق صراحة بالجواز، قال مسلم في صحيحه القسم الثاني من الجزء الأول، باب استئذان النبي (ص) ربه في زيارة قبر أمه: «زار النبي (ص) قبر أمه، و قال: استأذنت ربي في زيارة قبر أمي، فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكرك بالموت». و قال ابن حجر العسقلاني في ج ٣ من كتاب فتح الباري بشرح البخاري، باب زيارة القبور: «أخرج مسلم عن النبي (ص) انه قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها» .. و زاد أبو داود و النسائي - و هما من أصحاب الصحاح - فإنها تذكرة الآخرة، و للحاكم من حديث عن النبي: و ترق القلب، و تدمع العين، فلا تقولوا هجرا .. و تزهد في الدنيا». و تكلمنا عن ذلك في كتاب: هذه هي الوهابية. ثم عقدنا فصلا بعنوان زيارة القبور في كتاب، من هنا و هناك. أما حساب القبر فقد تكلمنا عنه في المجلد الأول من هذا التفسير ص ٤٠٧ عند تفسير الآية ٢٥٩ من سورة البقرة. و قد نعود ثانية الى هذا الموضوع عند الاقتضاء.

(وَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ). تقدم

نظيره في الآية ٥٥ من هذه السورة، و قال المفسرون: إنما أعاد سبحانه تأكيدا للتحذير من الإعجاب بالمال و الولد و الاشتغال بهما، و قلنا أكثر من مرة: ان التكرار في القرآن غير عزيز.

(وَإِذَا أَنْزَلْنَا سُورَةً أَنْ آمَنُوا بِإِلَهِهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُو الطُّولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذُرْنَا نَكُنْ مَعَ

الْقَاعِدِينَ). و أولو الطول هم الطغاة المترفون الذين يتفادون كل ما يمس مصالحهم من قريب أو بعيد .. و الإيمان بالله

معناه المساواة بينهم و بين سائر الناس، و الجهاد مع رسوله معناه الجهاد ضد البغي و الفساد،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٨٢

أي ضدهم .. و إذا كان الإيمان بالله، و الجهاد مع رسوله يعرضان مصالحهم للخطر فهم حرب على الله و رسوله فوق الأيؤمنوا بالله و يجاهدوا مع رسوله .. و لكن قد اعترضتهم مشكلة، و هي كيف يرفضون دعوة الرسول للجهاد معه، و في الوقت نفسه يزعمون الإيمان بنبوته، و أخيرا وجدوا الحل، و هو أن يستأذنوه في القعود ..

و لكن هذا الاستئذان قد فضحهم و كشف عن كفرهم و نفاقهم، و انهم يتسترون باسم الإسلام خوفا على أنفسهم.

(رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) وهم العجزة والصبيان والنساء، وكفى بذلك خزيا وهوانا **(وَطَبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)** طبع مبني للمجهول، أي ان الأغراض والأهواء قد أعمت قلوبهم عن الحق، وصدتهم عن اتباعه.

(لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ). أي إذا تخلف المنافقون عن الجهاد فقد قام به النبي، والذين أخلصوا لله في إيمانهم، فهو نظير قوله تعالى: «فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ - ٨٩ الانعام». **(وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)** والخيرات والفلاح دنيا و آخرة نتيجة حتمية للايمان بالله و الجهاد في سبيل الحق و العدل، و لا تختص كلمة الخيرات بالخير المادي فقط، بل تشمل المادي و المعنوي معا، و طريف قول بعض المفسرين: ان المراد بالخيرات هنا الحور العين دون غيرهن معبرا بذلك عن أحب الأشياء الى قلبه، كما يبدو.

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) تقدم نظيره في الآية ٧٢ من هذه السورة، و السورة ١٥ من آل عمران.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٩٠ الى ٩٣]

وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلْتُمْ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتُمْ لَا آجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَعَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٨٣

اللغة:

المعذرون جمع معذر بفتح العين و تشديد الذال، و له معنيان: الاول المعذر من اعتذر، سواء ا كان له عذر أم لم يكن. الثاني من التعذير، و هو التقصير أي يريك العذر، و لا عذر له. و الأعراب سكان البادية. و نصحو أخلصوا.

الإعراب:

حرج اسم ليس مؤخر، و على الضعفاء خبر مقدم. و إذا ظرف متعلق بمحذوف أي لا يخرجون. و لتحملهم أي على الإبل أو غيرها. و حزنا مفعول لأجله لتفيض. و المصدر المنسبك من الأجدوا مجرور بحرف جر محذوف أي لعدم وجود النفقة.

المعنى:

بعد ان بين سبحانه أحوال المنافقين الذين كانوا في المدينة تعرض هنا للمتخلفين عن الجهاد من أهل البادية، و انهم صنفان: الأول قصد النبي (ص) و اعتذر اليه

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٨٤

و استأذنه في التخلف، و هذا الصنف هم المعنيون بقوله تعالى: **(وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ)**. الصنف

الثاني: قعدوا كاذبين على الله ورسوله، واليهم أشار بقوله: **(وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)**. و تقسيم المتخلفين إلى معذرين و كاذبين يدل على ان المراد بالمعذرين من تخلف لعذر صحيح، ولذا سكت الله عن المعذرين، و لم يهددهم بالعذاب الأليم، كما هدد الكاذبين بقوله:

(سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

و تسأل: ان سياق الآية يقتضي حذف (منهم) لأن الكاذبين على الله ورسوله كلهم كافرون، لا بعضهم؟ و أجاب الرازي بأنه تعالى كان عالما ان البعض منهم سيؤمن، و يتخلص من العقاب، فذكر لفظة (من) للدلالة على التبعض .. و الذي نراه نحن في الجواب:

ان الذين قعدوا كاذبين على الله ورسوله على صنفين: منهم من كذبوا في اعتذارهم طلبا للراحة و فرارا من أعباء الجهاد، مع إيمانهم بالله ورسوله ظاهرا و باطنا، و هؤلاء ليسوا بكافرين بل متهاونين. و صنف اعتذروا مع إنكارهم باطنا نبوة محمد (ص). و هؤلاء كافرون مستحقون للخلود في العذاب. فجاءت كلمة منهم للدلالة على ان الكافرين هم الذين تخلفوا منكبين الرسالة، دون الذين تخلفوا تهاونا، لا جحودا.

(لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ). استنفر النبي (ص) الناس للجهاد، فبادر اليه قوم، و تخلف آخرون، و من هؤلاء المنافقون و الكاذبون على الله ورسوله، و تقدم الحديث عنهم، و يأتي أيضا، و منهم اصحاب الاعذار الحقيقية، و هؤلاء لا اثم عليهم و لا لوم، و هم ثلاثة أصناف:

١- الضعفاء العاجزون عن القتال لشيخوخة، أو لعدة في أصل تكوينهم، كمن خلق ضعيفا في بدنه لا يطيق القتال بحال.
٢- المرضى، و الفرق بين المريض و الضعيف ان علة المريض غير ملازمة لخلقه و تكوينه، مع العلم بأن كلا منهما يجوز إطلاقه على الآخر.

٣- الفقراء الذين لا يجدون النفقة و لا من يضمونها لهم .. فإن وجود مثل هؤلاء بين المقاتلين يخلق لهم مشكلة تعوقهم عن بلوغ الهدف المطلوب.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٨٥

لقد أباح الله سبحانه لهؤلاء الأصناف الثلاثة أن يتخلفوا عن الجهاد **(إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ)** بأن يكونوا مخلصين في إيمانهم قائمين ببقية ما عليهم من الواجبات، كحراسة المدينة، و المحافظة على عيال المجاهدين و أموالهم، و ما إلى ذلك.

(مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ). و كل من قام بواجبه كاملا فهو محسن في نظر الإسلام أيا كان نوع الواجب، و كل من أخل به فهو مسيء.

و قد أسقط الله الجهاد عن المرضى و الفقراء، فإن قاموا بما عليهم من الواجبات الآخر فهم محسنون، و ليس لأحد عليهم من طريق لمواخذتهم. و قد اتخذ الفقهاء من هذه الآية أصلا شرعيا فرعوا عليه كثيرا من الأحكام، منها إذا استودع انسان مالا عند غيره، فتلف المال فلا يضمن الوديع إلا إذا قصر في حفظ المال أو تعدى عليه، و منها ان الحاكم الجامع للشروط إذا أخطأ في الحكم فلا شيء عليه إذا كان قد بذل الجهد لمعرفة الحق، و منها إذا رأى انسان مال غيره معرضا للهلاك المؤكد، بحيث إذا تركه لم يبق منه شيء، فأتلف بعضه بقصد ان يسلم البعض الآخر لصاحب المال، إذا كان كذلك فلا يضمن المتلف شيئا في مثل هذه الحال، لأنه محسن، و ما على المحسنين من سبيل، إلى غير ذلك من

الأحكام.

(وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَعَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ). اتفق الرواة والمفسرون على أن هذه الآية نزلت في جماعة من المسلمين أتوا النبي (ص) وهو يتهيأ لغزوة تبوك، وقالوا له: يا رسول الله لا نملك راحلة للذهاب معك إلى الجهاد، وطلبوا منه مركبا يحملهم. فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فسحّت أعينهم بالدمع لحرمانهم من الجهاد بين يدي الرسول الأعظم (ص) .. ثم اختلف المفسرون في أسماء هؤلاء وعددهم .. وليس ذلك بالشيء المهم، ما دامت الآية واضحة الدلالة على الواقعة، ولا قائل بنفيها.

و تسأل: ان هؤلاء يدخلون في صنف الفقراء المشار إليهم بقوله تعالى: **(وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ)** فما الفائدة من الإعادة؟.

و أجاب بعض المفسرين بأن الفقراء لا يجدون مأكلا ولا محملا، و البكاؤون يجدون المأكل دون المحمل .. و قد تكون الفائدة التنويه بصدق البكائين وإخلاصهم ومكانتهم عند الله .. و على أية حال، فإن الله سبحانه نفى المسؤولية عن كل

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٨٦

من تخلف عن الجهاد لعجزه عنه، سواء أتمثل هذا العجز في المرض أم في عدم المأكل، أم المحمل.

(إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ). و معنى هذه الآية يتفق مع مضمون الآيتين السابقتين ٨٦ و ٨٧ .. و خلاصة المعنى المقصود ان الله سبحانه بعد أن نفى المسؤولية عن الفقراء والمرضى أثبتها على الأغنياء الأصحاء الذين يتخلفون عن الجهاد، و محال أن يعمل هؤلاء للصالح العام، و يتعاونوا مع المخلصين فيما يمس بمصالحهم من قريب أو بعيد، و هم على استعداد في كل حين أن يبيعوا دينهم و وطنهم للشيطان إذا ضمن لهم الربح والاستغلال .. و هكذا منذ القديم يناضل المستضعفون في بسالة لتحطيم الكفر و البغي، و يقود أصحاب الطول و الحول الثورة المضادة ان سحّت لهم الفرصة، و الاقبعوا في الزوايا يتربصون الدوائر بالمجاهدين.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٨٧

الجزء الحادي عشر

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٨٩

[سورة التوبة (٩): الآيات ٩٤ إلى ٩٦]

يَعْتَدِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَدِرُوا لِنُؤْمِنُ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَ سَيَّرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولَهُ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَ مَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)

الإعراب:

نبأنا بمعنى عرفنا تتعدى إلى مفعولين الأول ضمير (نا) والثاني محذوف أي طرفا و من اخباركم صفة للمفعول المحذوف. و جزاء مفعول لأجله لماواهم لأنه بمعنى تحرقهم جهنم.

المعنى:

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ) يدل سياق الآية على انها نزلت في أثناء عودة جيش المسلمين من غزوة تبوك، حيث أخبرهم الله سبحانه أنهم حين يصلون إلى المدينة يستقبلهم المنافقون معتذرين اليهم عن تخلفهم وقعودهم .. انهم يعتذرون، و لكن بالكواذب و الأباطيل، و لذا قال الله لنبيه:

(قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ). هذا نهي منه تعالى أن يقبلوا عذرا من المنافقين، و أمر للنبي (ص) أن يقول لهم: لا أصدقكم في

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٩٠

شيء مما تعتذرون، لأن الله قد أوحى إلي بما تخفي صدوركم من الشر و النفاق **(و سِيرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولَهُ)** أي لا تقبل اعتذاركم، حتى تثبتوا- فيما سيأتي - بالأفعال لا بالأقوال انكم صادقون في نواياكم و أهدافكم، و مخلصون في الإيمان بالله و رسوله، كما تزعمون.

(ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). الغيب ما غاب علمه عن غير الله، و الشهادة ما نعرفه و نشاهده. و المعنى انكم ستقفون غدا بين يدي الله الذي لا تخفى عليه خافية، فيخبركم بأعمالكم، و يجازيكم عليها، ان خيرا فخير، و ان شرا فشر.

(سِيحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ) أي رجعتم من غزوة تبوك **(لِتُعْرَضُوا عَنْهُمْ)** المراد بالإعراض هنا السكوت عن نفاقهم و عدم توبيخهم عليه **(فَاعْرَضُوا عَنْهُمْ)** و المراد بهذا الإعراض إهمالهم احتقارا و ازدراء، و في بعض الروايات ان النبي أمر المسلمين أن يقاطعوهم، ثم بين سبحانه علة إهمالهم و احتقارهم بقوله: **(إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)** الرجس القذر، و في الحديث: أحكم الناس من فر من جهال الناس. و في حديث آخر: إياكم و مجالسة الموتى. فقيل:

من هم يا رسول الله؟ قال: كل ضال عن الايمان، جائر عن الأحكام.

(يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ) حلفوا أولا- كما في الآية السابقة- طلبا للصفح و عدم مؤاخذتهم على الذنب، كما دل قوله: **(لِتُعْرَضُوا عَنْهُمْ)**. و حلفوا ثانية طلبا للرضا و حسن المعاملة، كما جاء في هذه الآية **(لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ)** .. و من علامات المنافق كثرة الحلف لشعوره بأنه متهم بالكذب: **(وَ يَحْلِفُونَ عَلَى الكَذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ - ١٤ المجادلة)**. ثم خاطب تعالى المؤمنين بقوله:

(فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ). هذا التلطف في النهي أبلغ الاساليب على الإطلاق **(فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)** .. ان رضا المؤمن من رضا الله، و الله لا يرضى عن الفاسقين، فكيف يرضى المؤمن عنهم؟ و من ادعى الايمان بالله، و هو راض على من غضب الله عليه فإنه منافق .. ما في ذلك ريب.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٩١

[سورة التوبة (٩): الآيات ٩٧ الى ٩٩]

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)

اللغة:

العربي عام، و الأعرابي خاص بمن يسكن البادية. و المغرم الغرامة. و التربص الانتظار. و الدائرة المصيبة. و قربات جمع قربة، و هي طلب الثواب و الكرامة من الله بحسن الطاعة. و المراد بالصلاة هنا الدعاء.

الإعراب:

كفرا و نفاقا تمييز. و المصدر المنسب من الأ يعلموا مجرور بالباء المحذوفة أي أجدر بعدم العلم. و ما ينفق مفعول أول ليتخذ، و قربات مفعول ثان، و صلوات الرسول معطوف على قربات، و قيل: على ما ينفق. و الأ أداة تنبيه.

البدوي و الحضري:

(الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٩٢

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ). ليس هذا تقسيما للناس على أساس البداوة و الحضارة، و تفضيلا للحضري على البدوي، كيف؟. و قد أخبر سبحانه في الآية الآتية ان قوما من الأعراب قد أخلصوا في إيمانهم و أعمالهم .. و لو كانت البداوة إنما بما هي لحرمتها الله، تماما كما حرم الظلم و البهتان .. ان القرآن يقسم الناس على أساس التقوى أي الايمان بالله و العمل الصالح، و قد بين هذه الحقيقة و أكدها بشتى الأساليب، بل هي الغاية الأولى من انزال القرآن و دعوته و تعاليمه و شريعته. و الآية التي نحن بصدها تومئ الى ذلك، فإن قوله تعالى: الأعراب أشد كفرا و نفاقا الخ .. يشعر بأن سبب الذم هو الكفر و النفاق، و الجهل بأحكام الله التي أنزلها على نبيه .. و ليست البداوة بما هي سببا للذم .. أجل، ان حياة البداوة و بعدها عن أسباب الحضارة و المعرفة توجب غلظة الطبع و جفوته، و التجاوز عن الحد .. فالذنب - اذن - هو ذنب الظروف و البيئة .. و ليس ذنب البدوي المسكين. و في بعض الروايات: «تفقهوا في الحلال و الحرام و إلا فأنتم أعراب» أي مثلهم في الجهل و البعد عن الحضارة، و في رواية ثانية: «من لم يتورع في دين الله ابتلاه بسكنى الرساتيق» أي مع أهل الجهل و الغلظة.

و بعد هذا التمهيد نعود إلى الآية. و المعنى المقصود منها ان في أهل البادية كفارا و منافقين، تماما كما في أهل الحضرة، و لكن كفار البادية و منافقيهم أشد كفرا و نفاقا من أمثالهم المتحضرين. هذا محصل المعنى الظاهر من الآية، و نعطف عليه و إذا كان السبب الموجب هو الجهل و الطبع الغليظ فينبغي أيضا أن يكونوا أشد إيمانا إذا آمنوا، و إخلاصا إذا أخلصوا، لأن السبب واحد.

و بهذه المناسبة نشير إلى ما جاء في ميزان الشعراني باب الشهادات: «ان الحنابلة لا يقبلون شهادة البدوي على الحضري مطلقا، و المالكية يقبلونها في الجراح و القتل خاصة، و لا يقبلونها فيما عدا ذلك من الحقوق» .. و قد فهمنا وجه الدليل



لقول من قال: لا تقبل شهادة غير المسلم على المسلم، أما مساواة البدوي المسلم لغير المسلم في الشهادة فلا نعرف لها وجها.. قال تعالى: «وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ - ٢ الطلاق».. ولم يقل من أهل الحضرة.. ان العبرة من قبول الشهادة بالعدالة، لا بالحضارة وغيرها.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٩٣

(وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا). بعد أن ذكر سبحانه ان في الأعراب منافقين ذكر ان هؤلاء ينفقون من أموالهم، ولكن يرون هذا الإنفاق غرامة ظالمة، لا شيء وراءها غير الخسران. وان الثواب و الجزاء عليها يوم القيامة حديث خرافة. **(وَيَتْرَبُّصُ بِكُمْ الدَّوَائِرُ)** ينتظرون أن يتغلب أعداء الإسلام على المسلمين، و يتمنون القضاء عليه و عليهم، ليستريحوا من هذه الغرامة الظالمة الخاسرة في عقيدتهم **(عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ)** قال جماعة من المفسرين: هذا دعاء على المنافقين أن يصيبهم ما تمنوه للمؤمنين. و يجوز أن يكون إخبارا عن الحال التي يكون عليها المنافقون يوم القيامة من العذاب و الوبال **(وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)** يسمع ما يقولون، و يعلم ما يكتُمون.

(وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ). ان أهل البادية كغيرهم، منهم المنافق الذي يظهر خلاف ما يضمُر، و يرى ما ينفق مغرما، لا واجبا، كما أشارت الآية السابقة، و منهم المؤمن المخلص الذي ينفق لوجه الله و ثوابه، و رغبة في دعاء الرسول له بالبركة و الاستغفار، كما أشارت هذه الآية **(إِنَّا إِنَّا قُرْبَةً لَهُمْ سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)**. ضمير انها يعود إلى النفقة المدلول عليها بـينفق، و قرابة أي ان هذه النفقة تقربهم من الله زلفى، و المعنى ان الذين آمنوا و أنفقوا تقربا إلى الله فإنه يقبل نفقتهم، و يدخلهم بسببها في جنته، و يغفر لهم ما فرط منهم من الزلل و الخطيئات.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٠٠ الى ١٠٢]

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٩٤

اللغة:

مردوا على النفاق أي ثبتوا عليه، و اتقنوا أساليبه، و يقال: شيطان مارد و مريد أي عات و عنيد.

الإعراب:

السابقون مبتدأ و الأولون صفة، و رضي الله خبر المبتدأ. و ممن حولكم خبر مقدم، و منافقون مبتدأ مؤخر. و من أهل المدينة خبر لمبتدأ محذوف، أي من أهل المدينة قوم مردوا، و جملة مردوا صفة لقوم. و آخرون مبتدأ، و اعترفوا صفة، و خلطوا خبر.

المعنى:

ذكر سبحانه في هذه الآيات الثلاث أربعة أصناف من الأمة، ثم أضاف إليها صنفا خامسا في الآية الآتية ١٠٦، و نتكلم عنه

حين نصل اليه. أما الأَصْناف الأربعة فهي:

١- **(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ)** الأولون صفة للسابقين، وقد جعلت كلا من المهاجرين و الأنصار صنفين: سابق و لاحق، و ليس من

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٩٥

شك ان المراد السابق في الهجرة و النصره، لان الوصف يشعر بهما، و لكن الله سبحانه لم يحدد زمن هذا السابق، و لذا اختلف المفسرون، فمن قائل: ان المراد الهجرة و النصره قبل يوم بدر، و قائل: قبل بيعة الرضوان، و هي التي حصلت تحت الشجرة يوم الحديبية، و قال ثالث: من صلى القبلتين .. و الذي نراه ان المراد بالسابقين الأولين من سبق في الهجرة و النصره قبل ان يملك المسلمون القوة الرادعة لمن يعتدي عليهم، و يفتن ضعيفهم عن دينه، كما كان يفعل المشركون في بدء الدعوة، و على هذا يكون القول الاول هو الراجح، لان قوة المسلمين انما ظهرت يوم بدر، و فيه أحس المشركون بمناعة الإسلام و بأسه.

٢- **(وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ)** و هم كل من سار على طريق السابقين المخلصين. قال الطبرسي: «يدخل في ذلك من يجيء بعدهم الى يوم القيامة».

و قد جاء تحديد التابعين بإحسان في الآية ١٠ من سورة الحشر: **(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ)**. و نرجو ان يتعظ بهذه الآية من يدعون الايمان، و هم غارقون في غل التحاسد الى الآذان.

و هذان الصنفان: السابقون، و التابعون **(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)** رضي الله عنهم بطاعتهم و إخلاصهم و رضوا عنه بما أفاض عليهم من نعمه **(ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)** اي لا فوز بالمعنى الصحيح الا بمرضاة الله.

و تسأل: الظاهر من الآية ان مجرد السابق الى الهجرة و النصره كاف و اف في رضوان الله، و انه حسنة لا تضر معه سيئة، فهل هذا الظاهر حجة ملزمة، بحيث يجب علينا ان نقدر كل من سبق الى الهجرة و النصره، حتى لو ثبتت عليه المعصية.

الجواب: ان المراد بالسابقين الأولين من أقام على طاعة الله، و مات على سنة رسول الله (ص)، أما من عصى و أساء بعد السابق فلا تشمله مرضاة الله، كيف؟

و هو القائل: **(مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَ لَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا- ١٢٢ النساء)**. و القائل: **(لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ-**

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٩٦

٥١ ابراهيم». و روى البخاري في الجزء التاسع من صحيحه، كتاب الفتن:

«ان رسول الله (ص) يقول يوم القيامة: أي ربي أصحابي .. فيقول له:

لا تدري ما أحدثوا بعدك .. فأقول: سحقا سحقا لمن بدل بعدي».

و ليس من شك ان للسابق في الهجرة و النصره الافضلية على اللاحق، و لكن هذا شيء، و السماح له بالمعصية، أو عدم الحساب عليها شيء آخر.



(وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ). ذكر سبحانه المنافقين في العديد من الآيات، وذكرهم هنا لمناسبة ذكر المؤمنين السابقين واللاحقين، وليخبر نبيه الأكرم بمكانهم و موطنهم:

وانهم محيطون به من كل جانب، فهم موجودون في المدينة التي يقيم فيها، وفي البادية التي حولها، وان منافقي المدينة بوجه خاص قد مهرروا في فن النفاق، و أتقنوه الى أن استطاعوا التكتم به عن الرسول رغم ملازمتهم له، و مخالطته لهم.

ثم بين سبحانه جزاء المنافقين بقوله: (سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ). وهذا العذاب الأخير الذي يردون اليه معروف، و هو عذاب جهنم، أما نوع العذاب و زمنه في المرة الأولى و الثانية قبل عذاب جهنم - فلم تشر اليه الآية ..

و غير بعيد أن يكون العذاب في المرة الأولى عند الموت لقوله تعالى: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» - ٥٠ الانفال. أما العذاب في المرة الثانية فهو عذاب القبر للأحاديث الكثيرة:

ان قبر الكافر حفرة من حفر جهنم، و قبر المؤمن روضة من رياض الجنة.

(وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا). و هؤلاء هم المؤمنون الذين يحسنون أحيانا بدافع من إيمانهم، و يتغلب الهوى حيناً على إيمانهم، فيسيئون، و هم الأكثرية الغالبة «و من ذا الذي ترضى سجاياه كلها» و لا ينتقل من خير الا الى خير .. الا من عصم ربك.

ثم بين سبحانه حكم هؤلاء بقوله: (عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) لأنهم شعروا بالخطيئة، و اعترفوا بها، فأصبحوا بذلك محل الرجاء لرحمة الله و غفرانه (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ). و في مجمع البيان: «قال المفسرون: عسى من الله واجبة،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٩٧

و إنما قال عسى، حتى يكونوا بين طمع و اشفاق، فيكون ذلك أبعد عن الاتكال على العفو و إهمال التوبة».

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٠٣ الى ١٠٦]

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَأَخْرُونَ مَرَجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

اللغة:

المراد بالسكنى هنا راحة النفس و اطمئنانها. و الإرجاء التأخير.

الإعراب:

خذ خطاب للنبي، و كذلك تطهرهم و تزكيتهم، و جملة تطهر خبر لمبتدأ محذوف، أي فانت تطهرهم، و لا يستقيم الكلام إلا بهذا الإعراب مع وجود كلمة (بها) لأن تطهرهم و تزكيتهم و ردتا بالرفع، فلو جعلت الجملة صفة للصدقة لكان المعنى صدقة مطهرة و مزكاة بالصدقة لأن ضمير (بها) يعود إلى الصدقة.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٩٨

أما قول من قال: ان الناء في تطهرهم للصدقة و في تزكيتهم للنبي فهو تفكيك بين الكلام الواحد مع عدم الدليل. و هو مبتدأ و يقبل التوبة خبر، و الجملة خبر ان، و لا يجوز ان يكون هو ضمير الفصل لأن ما بعده فعل.

المعنى:

(خَذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا). اتفقوا على أن ضمير (بها) يعود إلى الصدقة، و اختلفوا في ضمير (أموالهم)، فقيل: يعود إلى الذين خلطوا عملا صالحا و آخر سيئا. و قيل: بل يعود إلى جميع الأغنياء، لأن الآية نزلت في الزكاة المفروضة. و هذا القول أقرب إلى الاعتبار، و عليه يكون المعنى خذ يا أيها الرسول الزكاة من أموال الأغنياء فإنها مطهرة لهم من دنس البخل بحق الله. و تكلمنا عن الزكاة عند تفسير الآية ٦٠ من هذه السورة، و في ج ١ ص ٤٢٨ عند تفسير الآية ٢٧٤ من سورة البقرة.

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنْ صَلَاتِكَ سَكَنَ لَهُمْ). المراد بالصلاة هنا الدعاء، و السكن راحة النفس، و المعنى ادع أيها الرسول لمن يؤدي الزكاة بالبركة و المغفرة فإنه يعتبط بدعائك، و تراتح نفسه إليه **(وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)** يسمع و يستجيب دعاءك للمزكين، و يعلم نية من يؤدي الزكاة عن طيب نفس تقربا إلى الله وحده.

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ). و يومئذ السياق إلى أن التوبة ذكرت هنا للإشارة إلى أن من منع الزكاة، ثم تاب و أداها كاملة فإن الله يقبل توبته، و يأخذ صدقته، و معنى أخذه لها انه جلت كلمته يثيب عليها، فقد جاء في الحديث: «ان الصدقة تقع في كف الرحمن قبل أن تقع في كف السائل». و كف الرحمن كناية عن قبوله لها **(وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)** أي يقبل التوبة، و يرحم التائبين.

(وَ قُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ). ذكر هذه الآية محيي الدين بن العربي في الجزء الرابع من الفتوحات المكية، و شرحها بكلام هذا توضيحه و تلخيصه: ان معنى الرواية يختلف باختلاف الرائي، فمعنى الرواية من

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٩٩

الله للشيء ان يحيط به علما من جميع جهاته، و معناها من الرسول (ص) ان يعلم الشيء المرئي من وجهة الوحي الذي نزل عليه، و معناها من المؤمن العارف أن يعلمه بقدر ما علم و فهم من الوحي المنزل على الرسول (ص) .. و على هذا فمن عمل لله فان الله يعلم حقيقة عمله، و يرضى عنه، و الرسول يعلم أيضا أن هذا العمل مرضي عند الله، و المؤمن العارف أيضا يعلم انه مرضي عند الرسول، و النتيجة الحتمية لذلك ان من يعمل صالحا فهو مرضي عند الله و الرسول و المؤمنين.

(وَ سَتَرْدُونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). تقدم نظيره مع تفسيره في الآية ٩٤ من هذه السورة.

(وَ آخَرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَبُوءُ عَلَيْهِمْ). ذكر سبحانه في الآية ١٠٠ و ما بعدها أربعة أصناف: السابقين إلى الهجرة و النصر، و التابعين لهم بإحسان، و المنافقين، و المعترفين بذنوبهم .. و أشار في هذه الآية إلى قوم لم يحدد لهم بصفاتهم كما فعل في الأصناف الأربعة، و لم يصرح بحكمهم في هذه الآية، و انما قال: انهم مؤجلون إلى عذاب الله أو مغفرتهم، أي ان أمرهم موكل إليه وحده، و قد أبهمه عليهم و على الناس، و قد تكون الحكمة في هذا



الإبهام ان يترددوا بين الخوف و الرجاء، فلا يطمعوا و لا يياسوا (و الله عليم حكيم) عليم بما يصلح هؤلاء و غيرهم، و حكيم في إرجاء النص على حكمهم، و في كل ما يفعل.

و قال كثير من المفسرين: ان هذه الآية نزلت في جماعة من المسلمين تخلفوا عن الرسول في غزوة تبوك، ثم ندموا .. و قد نصت الآية الآتية ١١٨ على ان ثلاثة من الصحابة تخلفوا عن الخروج الى تبوك مع رسول الله (ص)، ثم تابوا، و ان الله قبل توبتهم، و أعلن قبولها، و لم يدعهم في التردد بين الخوف و الرجاء ..

هذا ما بدا لنا عند تفسير الآية التي نحن بصددھا، و لا ندري ما نجد من المعاني حين يسيطر جو الآية ١١٨. فالى هناك.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٠٧ الى ١١٠]

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحَسَنَ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨) أَمْ مَنْ أُسِّسَ بِنِيَانِهِ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَ رِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بِنِيَانِهِ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَ اللَّهُ عَالِمٌ حَكِيمٌ (١١٠)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٠٠

اللغة:

الضرار طلب الضرر و محاولته. و الارصاد الارتقاب. و الشفا الحرف، يقال: أشفى على كذا إذا دنا منه. و الجرف جانب الوادي الذي ينحرف بالماء، و أصله الاجتراف. و هار من الانهيار.

الإعراب:

ضرارا مفعول من أجله لاتخذوا، و مثله ما بعده. و لمسجد مبتدأ، و جملة أسس صفة، و أحق خبر، و المصدر المنسبك من أن تقوم مجرور بالباء المحذوفة.

و فيه الاولى متعلقة بتقوم، و فيه الثانية خبر مقدم و رجال مبتدأ مؤخر. و على تقوى متعلق بأسس، و مثله على شفا.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٠١

المعنى:

عرضت الآيات السابقة ألوانا شتى لنفاق المنافقين، و تعرض هذه الآية لونا آخر من نفاقهم و حيلهم، فقد رأى جماعة من منافقي المدينة ان أفضل وسيلة يكيدون فيها للإسلام و نبيه محمد (ص) ان يبنوا مسجدا تحت ستار التجمع لعبادة الله و المناداة فيه بأن محمدا رسول الله، و تحت هذا الشعار يعملون للكفر بالله و رسوله، و الإضرار بالإسلام و المسلمين و تفریق كلمتهم .. و بالفعل بنوا هذا المسجد، و أحكموا بنيانه، و أنفقوا عليه المبالغ، و بعد إتمامه ذهبوا الى رسول الله، و قالوا: ان بيوتنا قاصية عن مسجدك، و يصعب علينا الحضور فيه، و نكره الصلاة في غير جماعة، و قد بنينا مسجدا لهذه الغاية، و للضعفاء و أهل العلة، فإن رأيت ان تصلي فيه لتتيمن و نتبرك بالصلاة في موضع صلاتك .. هذا هو شأن المنافقين و الخائنين في كل عصر، يحملون شعارات البناء، و يعملون وراءها للهدم و التخريب .. و لكن سرعان

ما تتكشف عورتهم، و يفتضحون لدى جميع الناس، كما افتضح أصحاب مسجد الضرار، حيث أنزل الله فيهم على نبيه يخبره بحقيقتهم في قوله:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ).

تقول الآية الكريمة: ان الذين بنوا مسجد الضرار يهدفون من ورائه الى أربعة أغراض: الاول الإضرار بالمسلمين. الثاني الكفر بالله، و الطعن في نبيه. الثالث تفريق كلمة المسلمين و انشقاقهم على رسول الله. الرابع جعل المسجد معقلا لمن حارب الله و رسوله من قبل.

و اتفق المفسرون و كتاب السيرة النبوية على ان المقصود بهذا العدو الذي حارب الله و رسوله من قبل هو رجل من الخزرج يقال له: أبو عامر الراهب، و كان قد تنصر، و كانت له رئاسة و مكانة بين قومه، و لما قدم النبي (ص) الى المدينة بارزه هذا اللعين بالعداوة، و كان رسول الله يسميه الفاسق، و حين رأى أمر النبي في ارتفاع فر الى مكة يحرض قريشا على النبي، و بعد فتحها فر الى الطائف، و لما أسلم أهلها فر الى الشام، و من هناك كتب الى المنافقين من أنصاره أن يستعدوا

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٠٢

و ينوا له مسجدا، لأنه سيأتيهم بجنود قيصر لحرب محمد (ص) «١».

و لما نزلت هذه الآية قال النبي (ص) لبعض أصحابه: «انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه» ففعلوا ذلك، و أمر النبي (ص) ان يتخذ مكانا لإلقاء الجيف و القمامة .. و جاء في بعض الروايات تشبيه مسجد الضرار بالعجل الذي عبده بنو إسرائيل، و موسى حي، و كما أمر سبحانه نبيه موسى بتحطيم العجل فقد أمر رسوله الأعظم محمدا بهدم مسجد الضرار .. و كل مسجد او معهد او ناد يتخذ للفساد و المؤامرات على المؤمنين و المخلصين فهو عجل بني إسرائيل و مسجد الضرار، يجب هدمه و اتخاذه محلا للقطارات.

و منذ ظهر النفط في البلاد العربية، و قامت من أجله الشركات الأجنبية ظهر معها المئات من مساجد الضرار في صور و أشكال شتى، منها ما يحمل اسم المعبد او معهد الدراسات، و منها اسم المكتبة العامة، او الجمعية الدينية، و منها اسم النادي الثقافي أو الرياضي، و منها ما ظهر في شكل كتاب او صحيفة أو محاضرة تذاع و تنشر باسم الدين و الوطن، و لا هدف من ورائها إلا محق الدين و الوطن ..

و ما إلى ذلك من المشاريع التي ظاهرها الرحمة و باطنها العذاب .. و تكلمنا عن الشعارات الدينية في ج ٢ ص ١٦٦ من هذا التفسير.

(وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ). الضمير في ليحلفن يعود الى الذين اتخذوا مسجدا

ضرارا، و المعنى ان هؤلاء المنافقين حلفوا لرسول الله (ص) ان غايتهم من بناء المسجد هي العبادة لله، و منفعة المسلمين، و الله يعلم انهم ما بنوه الا اضرارا بالمصلين، و كفرا بالله، و تفريقا بين المؤمنين، و معقلا لمن حارب الله و رسوله **(لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا)** الخطاب للنبي، و النهي عام، للجميع، تماما مثل قوله تعالى: **«أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ»**. و قال المفسرون:

المراد بالقيام في قوله: **(لَا تَقُمْ فِيهِ)** الصلاة، و الظاهر ان القيام هنا أعم يشمل الصلاة و غيرها .. و على أية حال، فإن قوله تعالى: **(لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا)** دليل

(١). كان لأبي عامر هذا الفاسق ابن، اسمه حنظلة، من اجل الصحابة وخلصهم لله ورسوله، و قتل معه يوم احد، و كان جنبا، فغسلته الملائكة، فسمي غسيل الملائكة. [...]

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٠٣

قاطع على عدم صحة الصلاة في كل مسجد بني اضرارا بالمسلمين، و تفريقا لكلمتهم، و ان من صلى فيه فصلاته باطلة، و عليه ان يعيدها في مكان آخر، لأن النهي في العبادة يدل على الفساد.

(لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ). قيل: ان المراد به مسجد رسول الله (ص) لأنه هو الذي بني من أول يوم بالمدينة. و قيل:

بل مسجد قبا الذي بناه بنو عمرو بن عوف .. و قبا موضع في جنوب المدينة، و يبعد عنها حوالي ميلين، و الظاهر ان المراد به كل مسجد بني على التقوى، لأن (مسجدا) نكرة منوثة، و هي لا تختص بواحد معين، و قوله: **(مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ)** معناه انه بني للإسلام منذ اللحظة الأولى لوجوده و بنائه، و أحق هنا بمعنى حقيق و جدير، و ليست للترفضيل، لأن مسجد الضرار لا تصح الصلاة فيه بحال.

(فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ) أي ان هذا المسجد الذي أسس على التقوى يومه المخلصون للصلاة و عبادة الله، لا للنفاق و التأمير على الإسلام و نبيه كالذين يؤمنون مسجد الضرار .. و عبر سبحانه عن الصلاة هنا بالطهارة لأنها تطهر من الذنوب، فقد جاء في الحديث: «ان الصلاة كالنهر الجاري، من اغتسل فيه كل يوم خمس مرات لم يبق في بدنه شيء من الدرن كذلك من صلى كل يوم خمس مرات لم يبق عليه شيء من الذنوب». هذا ما فهمناه من الآية، مع الاعتراف بأن أحدا من المفسرين لم يفسر الطهارة بالصلاة - كما نعلم - و ان أكثرهم او الكثير منهم فسرها بطهارة الغائط بالماء.

(أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شِقَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ). بينا معاني المفردات في فقرة اللغة، و المقصود من الآية بيان الفرق بين مسجد التقوى، و مسجد الضرار، فإن ببيان هذا لا ثبات له، و سرعان ما ينهار بأهله في نار جهنم، تماما كالذي بني على حافة النهر أو في معرض السيل، أما ببيان مسجد التقوى فتأبت الأساس لا يزعه شيء، و اهله في أمن و أمان، فالآية نظير قوله تعالى: **(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ)**

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٠٤

- ٢٠ الحشر) .. و طريف قول بعض المفسرين بأن نار جهنم إشارة الى ما حدث في الدنيا، حيث خرجت نار جهنم من مسجد الضرار، و بقي دخانها الى زمان أبي جعفر المنصور.

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ). المراد بالريبة هنا ان المنافقين لم يؤمنوا بنبوة محمد (ص). و تقطع قلوبهم كناية عن موتهم، و المعنى انهم بنوا المسجد مرتابين غير مؤمنين بمحمد، و سيقون على هذا الريب حتى الموت.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١١١ الى ١١٣]

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)

الإعراب:

وعدا منصوب على المصدرية أي وعدهم وعدا. والتائبون خبر لمبتدأ محذوف أي هم التائبون.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٠٥

المعنى:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ).

المشتري هو الله سبحانه، والبائع المؤمنون، والتمن الجنة، والتمن الأنفس والأموال، والواسطة في إتمام الصفقة بين البائع والمشتري هم الأنبياء، على أن يسلم البائع الشيء المبيع عند الطلب، أما الثمن فموجبل، والله هو الضامن له، إذ لا أحد أوفى منه وأغنى.

و تسأل: ان الله خالق الأنفس، و رازق الأموال، فكيف يشتري المالك ما هو ملك له؟.

الجواب: ليس هذا شراء بالمعنى المعروف، وإنما هو حث و ترغيب في الطاعة .. و عبر سبحانه عنه بالشراء لأمريين: أن يثق المطيع بالجزاء و الثواب على طاعته، تماما كما يثق البائع باستحقاقه الثمن بدلا عن سلعته. الثاني: التنبيه الى ان الايمان ليس مجرد كلمات تمضغها الأفواه، و صورة تمر بالأذهان، و عاطفة تحس في القلوب، و إنما هو بذل و تضحية بالنفس و المال النفيس رغبة في ثواب الله الذي هو أغلى و أبقي، تماما كما يتنازل البائع عن ملكه مختارا طمعا في الثمن الذي يراه أنفع و أجدى.

ان أعز شيء على الإنسان حياته و نفسه التي بين جنبيه، أما حبه للمال فلأنه الوسيلة لحفظها و تحقق أهوائها و رغباتها، و قد امتحن الله سبحانه من يدعون الايمان، امتحنهم بأعز الأشياء لديهم، لتمييز الصادق في إيمانه من الكاذب، و لا يحتج هذا غدا بصومه و صلاته، و قد بخل و أحجم عن العطاء و البذل من نفسه و ماله.

(وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا) هذا مثل قوله تعالى: «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» أي هو الذي أوجبها على نفسه، فصارت حقا عليه بهذا الإيجاب، و قد وعد سبحانه المجاهدين بالجنة فصارت حقا لهم عليه بهذا الوعد، بخاصة بعد أن سجله **(فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)** و الغرض من هذا التأكيد ان يكون المجاهدون على يقين من الجزاء و عظيم الثواب، حتى كأنهم يرونه رأي العين، فيفرحون و يستبشرون. **(فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)** هذا تأكيد آخر للوعد بالجزاء و حسن الثواب، و قال علماء الكلام: إذا

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٠٦

وعد الله بالثواب فهو منجز ما وعد، و إذا توعد بالعقاب فهو بالخيار ان عقاب فبعده، و ان عفا بفضله، و ما الله بظلام للعبيد .. و تكلمنا عن ثمن الجنة في ج ١ ص ٢٤٢ عند تفسير الآية ١٥٥ من سورة البقرة .. ثم وصف سبحانه الذين

باعوا أنفسهم و أموالهم بجنته، وصفهم بالأوصاف التالية:

(التَائِبُونَ) من كل تقصير، و لو من فعل ما يكره فعله و لا يجب تركه (العَابِدُونَ) أي المخلصون لله في جميع أعمالهم، (الحَامِدُونَ) الله في السراء و الضراء، (السَّائِحُونَ) في الأرض لطلب العلم أو الرزق الحلال، (الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ) أي المصلون، (الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّهْيُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ) أي ينشرون الدعوة الى الله و طاعته، و يجاهدون كل من يحاول العبث بحق من حقوقه و حقوق عباده و عياله، (وَ الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ) و حدوده تعالى هي حلاله و حرامه، (وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) الموصوفين بهذه الصفات بأن لهم من الله فضلا كبيرا.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١١٣ الى ١١٤]

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كَانُوا أَوْلِيَا قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَ مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)

اللغة:

الأواه كثير التأوه و التحسر مأخوذ من أوه كلمة توجع.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٠٧

النزول:

تكلم الناس كثيرا حول إسلام أبي طالب عم النبي (ص)، و اختلفت فيه الأقوال، و وضعت فيه الكتب قديما و حديثا، و أثير هذا الموضوع على صفحات مجلة العربي في العدد ١٠٨ و ١١٠. و استدلل القائلون بإسلامه بما لاقاه في سبيل الرسول الأعظم (ص) من سراء قوميه و صنائدهم، و بأقواله في مدح الرسول شعرا و نثرا. أما القائلون بأنه مات على الشرك فقد استدلوا بروايات تقول: ان هاتين الآيتين نزلتا في شأن أبي طالب.

و حين بلغت في التفسير الى هنا تتبعت الروايات و الأقوال في صفحات الماضي و الحاضر حول السبب لنزول الآيتين فخرجت بأن الرواة و المفسرين اختلفوا في سبب نزول الآيتين الى ثلاثة أقوال.

القول الأول:

ان جماعة من المؤمنين قالوا: نستغفر لموتانا المشركين، كما استغفر ابراهيم (ع) لأبيه. فنزلت الآيتان. ذكر هذا القول الطبري و الرازي و أبو حيان الأندلسي في تفسير البحر المحيط، و صاحب تفسير المنار و غيرهم. و هذا القول أرجح من قول الآخرين، لأن في الآيتين كلمات تشعر به، منها قوله تعالى: (.. وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كَانُوا أَوْلِيَا قُرْبَىٰ) فهي المؤمنين عن الاستغفار لأقربائهم المشركين يشعر بأنهم كانوا يستغفرون لهم، أو حاولوا ذلك و منها قوله:

(وَ مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ) فإنه يحسن جوابا عن قول المؤمنين: كما استغفر ابراهيم لأبيه.

القول الثاني:

ان النبي (ص) أتى قبر أمه، و بكى عنده، و استأذن ربه أن يستغفر لها، فنزلت الآيتان، ذكر هذا القول الذين نقلنا عنهم

القول الأول. و هذا القول

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٠٨

أي ان الآيتين نزلتا حين بكى النبي عند قبر أمه أرجح من القول انهما نزلتا حين وفاة عمه أبي طالب، لأن أبا طالب مات في مكة عام الحزن، أي قبل الهجرة بثلاث سنوات، و سورة التوبة التي جاءت فيها الآيتان نزلت بالمدينة سنة تسع للهجرة أي بعد وفاة أبي طالب بحوالي ١٢ سنة.

القول الثالث:

ان الآيتين نزلتا في أبي طالب بدعوى ان النبي قال لعمه أبي طالب، و هو يحتضر: أي عم قل لا إله إلا الله فامتنع ... فقال النبي: لأستغفرن الله لك ما لم أنه عنك.

و رد هذا القول جماعة من العلماء أولا بأن الآيتين - كما أشرنا - نزلتا بعد وفاة أبي طالب. ثانيا: بأن أبا طالب مات بعد أن أسلم و أخلص في إسلامه (انظر الغدير للأميني ج ٧ ص ٣٦٩ و ما بعدها طبعة سنة ١٩٦٧).

طبيعة الحال:

و لو صرفنا النظر عن أقوال المفسرين و الرواة، و عللنا عقيدة أبي طالب تعليلا يستمد مقوماته من طبيعة الحال، لو فعلنا ذلك ل جاءت النتيجة ان أبا طالب كان يؤمن بصدق محمد (ص) في جميع أقواله و أفعاله ... و هذا هو الإسلام بالذات. نشأ النبي (ص) يتيم الأبوين ... مات أبوه، و هو حمل، و قيل: كان في المهد فكفله جده عبد المطلب، و ماتت أمه: و له من العمر ست سنوات، و بقي في كنف جده ثمانين سنوات، و لما حضرته الوفاة أو كل الجد أمر حفيده الى عمه أبي طالب، و لم يكن أبو طالب أكبر أولاد عبد المطلب، و لا أكثرهم مالا، و انما كان أعظم اخوته قدرا، و أكرمهم خلقا، و أندهم يدا، فقام أبو طالب برعايته أحسن قيام، و أحبه حبا شديدا، و أثره على نفسه و أولاده، و نظم في مدحه القصائد الطوال و القصار، و كان يتبرك به، و يلجأ اليه في الملمات، لما ظهر على يده من الكرامات. فعن ابن عساكر ان أهل مكة قحطوا، فخرج أبو طالب،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٠٩

و معه محمد، و هو غلام، فاستسقى بوجهه، فأغدقت السماء و اختصبت الأرض، فقال أبو طالب:

و ابيض يستسقى الغمام بوجهه شمال اليتامى عصمة للأرامل

قال إسماعيل حقي في «روح البيان» عند تفسير الآية ٥٤ من سورة يوسف:

«لقد آسى أبو طالب رسول الله (ص) و ذب عنه ما دام حيا»، فالأصح انه ممن أحياه الله للايمان كما سبق في المجلد الأول.

ما هو السر؟

و إذا كان أبو طالب يحب محمدا، و يؤثره على نفسه، و يستميت في نصرته، و يثق بصدقه و استقامته، و قد رأى ما رأى من كراماته قبل النبوة و بعدها، إذا كان ذلك كله فلما ذا - يا ترى - لم يؤمن بنبوته؟ فإن صح الزعم بأن أبا طالب غير مسلم فينبغي أن يكون هناك سر منعه من الإسلام ... و ما هو هذا السر؟



هل رأى أبو طالب من محمد، و هو يعرف سره و حقيقته، هل رأى منه ما يتنافى مع النبوة؟ حاشا خاتم النبيين و سيد المرسلين، و من ادعى هذا فما هو من الإسلام في شيء .. ثم كيف استطاع محمد (ص) أن يقنع رعاة الإبل بنبوته، و من لا يعرف عنه شيئاً من قبل، و عجز عن اقناع عمه أبي طالب الذي يعرف مصدره و مخبره؟ هل كان أبو طالب أقل ذكاء من أعراب البادية، أو كان في نفسه هوى يمنعه من الإسلام، كما منع أصحاب الأغراض و الأهواء؟.

و الهوى الذي يمنع أبا طالب من اعتناق الإسلام - على فرض وجوده - لا يخلو أن يكون واحداً من اثنين: إما الخوف على ماله و ثروته، و المفروض أن أبا طالب عاش فقيراً، و مات فقيراً، و إما الخوف أن تذهب الرئاسة من بيت هاشم الى غيره، و المفروض العكس .. و إذا انتفى هذا و ذلك انتفى المانع من اسلام أبي طالب، و إذا عطفنا انتفاء المانع على وجود المقتضي للإسلام، و هو حبه لمحمد و علمه بحقيقته، كانت النتيجة أن أبا طالب من السابقين الى الإسلام لا من المسلمين فحسب.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١١٠

و إذا بطل القول بأن الآيتين نزلتا في أبي طالب، و لم تثبت صحة الرواية بأنهما نزلتا في أم النبي (ص) تعين القول الأول، اي انهما نزلتا في قوم من المؤمنين كانوا يستغفرون أو يحاولون الاستغفار لموتاهم المشركين. و ظاهر الآيتين صريح في ذلك.

المعنى:

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ).

جاء في تفسير الطبري: «ان رجالا من أصحاب النبي (ص) قالوا: يا نبي الله ان من آبائنا من كان يحسن الجوار، و يصل الأرحام، و يفك العاني، و يوفي بالذمم، أفلا تستغفر لهم؟. قال: بلى و لأستغفرن لأبي كما استغفر ابراهيم لأبيه. فانزل الله .. ما كان لنبي الخ».

و تسأل: كيف اذن النبي (ص) لأصحابه بالاستغفار لأبائهم المشركين، و هو محرم؟.

الجواب: كل شيء جائز حتى يرد النهي عنه، و حين اذن النبي بالاستغفار لم يكن النهي عنه قد نزل من السماء، و بعد نزوله منعهم عنه.

ثم بين سبحانه سبب النهي في قوله: **(مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ).** تدلنا هذه الآية على ان الإنسان يحكم عليه بظاهر حاله كفراً و إيماناً، و ان من كان ظاهره الكفر لا يجوز الاستغفار له، و لا الترحم عليه.

و تسأل: إذا كان الاستغفار للمشركين محرماً فكيف استغفر النبي لقومه حين كسروا رباعيته، و شجوا وجهه، فلقد ثبت انه قال: اللهم اغفر لقومي انهم لا يعلمون؟

و أجاب عن هذا السؤال كثير من المفسرين بأن الآية نهت عن الاستغفار للمشركين الأموات، دون الأحياء الذين يرجى إيمانهم. و الذي نراه في الجواب ان الاستغفار منه (ص) كان لإسقاط حقه الشخصي عن المشركين، لا لإسقاط حقوق الله، و طلب الغفران عن الشرك. و ليس من شك ان لكل انسان أن يسقط حقه الخاص عن المسلم و الكافر.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١١١

سؤال ثان: كان ابراهيم يدعو أباه إلى الإيمان، و يلح عليه في هذه الدعوة، و وعده ان يستغفر له: **(إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ - ٤ الممتحنة).** و قد وفى ابراهيم بوعدده و استغفر له: **(رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ**

لِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ - ٤١ ابراهيم). فكيف استغفر ابراهيم لابيه مع العلم بأن الاستغفار للمشركين غير جائز؟

فاجاب سبحانه عن ذلك بقوله: **(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ اِبْرَاهِيمَ لِابِيهِ اِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَا اِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ اَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّٰهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ)** أي ان ابراهيم (ع) إنما استغفر لابيه لأنه كان قد وعده أن يؤمن بالله، فلما نكث بالوعد، و تبين انه غير صادق بوعده تبرأ منه .. و غير بعيد أن يكون دعاء ابراهيم لابيه، تماما كدعاء محمد (ص) لقومه المشركين، أي لإسقاط حقه الشخصي، لإسقاط حق الله و طلب المغفرة من الشرك. و يشعر بذلك قوله تعالى: **(إِنَّ اِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)** و الأواه الخاشع المتضرع، و الحليم من يعفو عند المقدرة، و قد عفا ابراهيم (ع) عن قول أبيه له: «لئن لم تنته لأرجمنك و أهجرني ملياً - ٤٦ مريم».

[سورة التوبة (٩): الآيات ١١٥ الى ١١٦]

وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بَكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (١١٦)

المعنى:

(وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ) المراد بـ **(لِيُضِلَّ)** الحساب و المؤاخذه، و بـ **(قَوْمًا)** المؤمنون خاصة بدليل قوله: **(بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ)**

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١١٢

و المعنى ان المؤمنين إذا عملوا عملاً لا يعرفون: هل هو حلال او حرام، كما لو استغفروا لمشرك او ترحموا عليه جهلاً بالتحريم - فان الله سبحانه لا يواخذهم **(حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ)** بيانا واضحا، فإن عصوا بعد البيان استحقوا العقاب، و خير تفسير لهذه الآية قول الرسول الأعظم (ص): «أيما امرئ ركب أمرا بجهالة فلا شيء عليه». و قول الإمام جعفر الصادق (ع): كل شيء مطلق، حتى يرد فيه نهى.

(إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ). الآية واضحة المعنى، و تقدمت أكثر من مرة، و تأتي مرات، و الغرض أن يكون الإنسان دائما مع الله، و على ذكر من عظمته، و انه المالك وحده لناصيته، كي لا يتجاوز حدا من حدوده.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١١٧ الى ١١٩]

لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)

اللغة:

العسرة الشدة و الضيق. و الزيع الميل. و خلفوا تخلفوا و تأخروا. و الرحب السعة، و منه مرحبا أي وسعك المكان.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١١٣

الإعراب:

اسم كاد ضمير الشأن، و جملة يزيغ خبر، أي من بعد ما كاد الشأن أو الحال يزيغ قلوب فريق. و على الثلاثة عطف على النبي أي و تاب على الثلاثة.

و بما رحبت (ما) مصدرية أي برحبها. و الا كلمتان: ان المخففة من الثقيلة و لا، و اسم ان ضمير الشأن، و لا نافية للجنس، و ملجأ اسمها، و من الله خبر، و المصدر المنسب من ان و ما بعدها ساد مسد مفعولي ظنوا.

المعنى:

ما زال الحديث عن غزوة تبوك و ما يتصل بها من أحداث، و لهذه الغزوة خصائص تميزها عن سائر الغزوات، منها او أهمها ان جيشها كان في جهد من الحر و الجوع و العطش و العري و الركب، و من أجل هذا سمي جيش العسرة. قال الرواة: كان العشرة من جيش المسلمين يعتقدون بعيرا واحدا، يركب الرجل ساعة ثم ينزل، فيركب صاحبه، و كان زادهم الشعير المسوس، و التمر المدود، و كان الواحد منهم يلوك التمرة، حتى إذا وجد طعامها أعطاهها صاحبه، أما الماء فقد كانوا ينحرون البعير على قلة الراحلة، و يعتصرون الفرث الذي في كرشه، و يبلون به أسنثهم. و قد تخلف عن هذه الغزوة المنافقون، و تقدم الحديث عنهم، أما المؤمنون الذين اتبعوا النبي (ص) في غزوة تبوك فأشار سبحانه اليهم بقوله:

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ).

إذا قيل: تاب فلان فهم الناس من هذا القول ان المذكور كان قد ارتكب ذنبا ثم ندم و عزم جادا على تركه و عدم العودة اليه، و إذا قيل: تاب الله عليه فهموا ان الله قبل توبته، و قد يراد من توبة الله على الإنسان رحمته تعالى و رضوانه مع القرينة الدالة على ذلك، و المعنى الأول أي قبول الله سبحانه التوبة هو المراد بتوبته على الثلاثة الذين خلفوا، و المعنى الثاني أي الرحمة و الرضوان هو المراد بتوبته تعالى على النبي و الصحابة الذين اتبعوه و ائتمروا بأمره حتى في ساعة العسرة، أما القرينة على ارادة الرضوان من توبته تعالى على النبي و صحابته فهي طبيعة الحال، و نعني

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١١٤

بها عصمة النبي (ص) عن الذنوب، و طاعة من تابعه في ساعة العسرة.

(مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ) تخلف عن النبي من تخلف، و تبعه المؤمنون من المهاجرين و الأنصار، و لكن جماعة من هؤلاء عند ما قاسوا الشدة و القسوة في سفرهم انهارت أعصابهم، و هموا أن يفارقوا الرسول (ص)، و لكن الله سبحانه ثبتهم و عصمهم، فصبروا و احتسبوا **(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ)** مما كانوا قد هموا به من مفارقة النبي (ص). و المراد بالتوبة هنا ان الله سبحانه يعاملهم معاملة من لم يهمل بالذنب، لأن من هم بالسيئة و لم يفعلها فلا تكتب عليه **(إِنَّهُ بِهِمْ رَوْفٌ رَحِيمٌ)** لأنه علم منهم الصدق في ايمانهم، و الإخلاص في نياتهم، و ان ما هموا به كان مجرد عارض لم يترك أي أثر.

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَّتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ۙ) اتفق المفسرون و الرواة على ان ثلاثة من مؤمني الأنصار تخلفوا عن النبي في غزوة تبوك كسلا و تهاونا، لا نفاقا و عنادا، و هم كعب بن مالك الشاعر، و مروان بن الربيع، و هلال بن أمية الواقفي .. و نترك الحديث عن هؤلاء لطفه حسين، فقد لخص ما اتفق عليه الجميع و دلت عليه الآية بأسلوبه المعروف، قال في كتاب

«مرآة الإسلام»:

«كان هؤلاء الثلاثة أشد إيماناً بالله ورسوله، وأصدق حبا لهما من أن يضيفا إلى تخلفهم خطيئة الكذب، فآثروا الصدق وفاء لدينهم، وإشفاقاً أن يفضح الله كذبهم، فاعترفوا بذنوبهم، وسمع النبي منهم، وأعلن أنهم قد صدقوه، ومع ذلك لم يعف عنهم، وأمر المؤمنين أن لا يكلموهم. وينظر هؤلاء فإذا هم قد اقتطعوا من الناس اقتطاعاً، وإذا هم في عزلة بغیضة إلى أنفسهم كان السجن أهون منها.. وفي ذات يوم أرسل النبي إليهم من يبلغهم أنه يأمرهم أن يعتزلوا نساءهم، وليس في هذا شيء من الغرابة، فنساءهم مؤمنات، وقد صدر الأمر إلى المؤمنين باعتزالهم، فليعتزلهم نساءهم أيضاً، وبعد أن مضت عليهم خمسون ليلة في هذه العزلة، وقد أخذ الندم من قلوبهم أقوى مأخذ أنزل الله توبته عليهم، وابتهج المؤمنون كلهم لذلك، فكانوا يهثون هؤلاء الثلاثة بتوبة الله عليهم. وقد فرح كعب، وهو أحد الثلاثة فرحاً شديداً، وهم أن يتصدق بماله كله، فأمره

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١١٥

النبي أن يمسك بعضاً، ويتصدق ببعض، وعاهد كعب النبي ألا يكذب في حديث حتى يموت». **(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)** التواب مبالغة في قبوله تعالى لتوبة التائبين، وتساءل: ان الظاهر من قوله تعالى: **(تَابَ عَلَيْهِمْ)** أنهم قد تابوا، وقبل توبتهم، والظاهر من قوله: **(لِيَتُوبُوا)** أنهم لم يتوبوا بعد، فما هو وجه الجمع؟

وأجيب بأجوبة أرجحها أن المراد بتاب عليهم أنه تعالى يقبل توبتهم لكي يتوبوا ولا يصروا على الذنب، ويقولوا: لو قبل الله منا التوبة لتبنا، فهو أشبه بما لو أساء اليك من تحب، وأنت تريد أن تغفر له، ولكن بسبب، فتلقنه العذر ليعتذر هو و تغفر أنت. وعقدنا فصلاً خاصاً للتوبة في ج ٢ ص ٢٧٥ الآية ١٧ من سورة النساء. **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)**. والصادقون هم النبي ومن أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وبتعبير ثان ليس المراد بالصدق هنا مجرد عدم الكذب في الحديث، لأن كثيراً من الناس لا يكذبون، ومع ذلك لا يجوز الاقتداء بهم في كل شيء، وإنما المراد به الصدق في القول والعلم والعمل الذي يوهل صاحبه لامامة الناس واقتدائهم به.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٢٠ إلى ١٢١]

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١١٦

اللغة:

النصب التعب. والمخمصة المجاعة وامرأة خمصانة ضامرة البطن. والموطئ الأرض.

المعنى:



(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ).
 ما كان لأهل المدينة، اللفظ إخباري، ومعناه النهي أي لا يجوز لهم التخلف، وكلمة محمد اسم لشخص الرسول الأعظم (ص)، والمراد بها هنا دين الله والحق، لأن دين الحق مجسم في شخصه الكريم. ونصرة الحق تجب على كل مسلم، ولا تختص بأهل المدينة ومن حولهم، وإنما خص هؤلاء بالذكر لقربهم وجوارهم ولمناسبة الحديث عن غزوة تبوك، والمعنى أن على كل مسلم أن يناصر الحق، ويكافح الباطل، ولا يؤثر منافعه ومصالحه على دين محمد متعللاً بالكواذب كما فعل المنافقون.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُنَّ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ).

ذلك إشارة إلى النهي عن التخلف، والعودة عن جهاد المبطلين وكفاحهم، والظمأ العطش، والنصب التعب، والمخمصة الجوع، والموطئ الأرض .. والم شيء للإنسان أن تطأ أقدام عدوه تراب بلده ووطنه مسلماً كان أو غير مسلم، اللهم

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١١٧

الإ إذا كان عميلاً، لا دين له ولا ضمير .. والإسلام لا يجيز لأحد كائناً من كان أن يطأ أرضاً لغيره إلا لسببين: الأول أن يكون ذلك لدفع الضرر عن أهلها، كما إذا شبت النار في بيت من البيوت، فتدخله لإطفاء الحريق ودفع الضرر عن المالك والمجاورين. السبب الثاني: أن تدخل قوة عادلة بلداً لتردع أهله عما يبيتون من الظلم والعدوان على بلد آخر، تماماً كما فعل النبي (ص) في غزوة تبوك بعد عزم الروم على غزو المدينة والقضاء على الإسلام ونبه.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ). وكفى المرء عظمة أن يراه الله محسناً، ولا شيء أيسر على الإنسان من عمل الإحسان، ما دام الله يكتب قعوده وقيامه بل وموطئاً واحداً يطأه طاعة لله، يكتب ذلك كله حسنات.

(وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).
 هذا وما قبله يتلخص بقوله تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ»، والغرض من هذا التفصيل الترغيب في عمل الخير، والتحريض على جهاد من يسعى في الأرض فساداً.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٢٢ إلى ١٢٣]

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)

اللغة:

النفر الخروج للجهاد. والفرقة الجماعة الكثيرة. والطائفة الجماعة القليلة. والتفقه تعلم الفقه. والذين يلونكم أي من كانت بلادهم قريبة لبلدكم. والغلظة الشدة.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١١٨

الإعراب:

كافة حال. و لولا إذا دخلت على الفعل كما هي في الآية، فمعناها الطلب مثل هلا. وإذا دخلت على الاسم فهي حرف يدل على امتناع شيء لوجود غيره. و المصدر المنسب من ليتفقوا مجرور باللام يتعلق بنفر.

المعنى:

(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً). هذه الآية تتصل بالآية السابقة، و هي مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ.

و وجه الاتصال بين الآيتين انه حين نزلت الآية السابقة قالت القبائل المسلمة:

و الله لا نتخلف بعد اليوم عن الغزو مع رسول الله، و تدفقوا على المدينة لهذه الغاية. فأنزل سبحانه: **(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً)** أي لا يطلب منهم أن ينفروا جميعا في كل سرية تخرج للجهاد، بل يختلف ذلك باختلاف الغزوات و المقتضيات، فتارة يجب الجهاد عينا على كل فرد، و لا يسقط عن الكل بفعل البعض، و تارة يجب كفاية متى قام به البعض سقط عن الآخرين، أما تعيين أحد الواجبين فموكول لأمر النبي (ص). .. ينفر المسلمون كافة إذا استنفرهم كافة، و ينفرون جماعة دون جماعة إذا استنفرهم كذلك.

(قُلُوا لَا نَفَرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ). بعد ان بين سبحانه ان النفي العام لا يجب في كل غزوة بين ان هناك واجبات أخرى غير الجهاد يجب القيام بها تماما كما يجب القيام بالجهاد، منها أن ينفر من كل بلد أو قبيلة جماعة الى المدينة المنورة أو غيرها ليتفقوا في دين الله، و يعرفوا حاله و حرامه، ثم يعودوا الى قومهم، فيرشدوهم و يحذروهم من عذاب الله على معصيته و مخالفة أمره **(لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)** و معنى لعل هنا الطلب، لا الترجي، أي يجب عليهم أن يسمعوا من المرشدين و يطيعوا.

هذا ما نذهب اليه في تفسير هذه الآية مخالفين أكثر المفسرين أو الكثير منهم

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١١٩

الذين جعلوا التفقه في الدين صفة للطائفة المقيمة، لا للطائفة النافرة، و قالوا في شرح الآية: ان على المسلمين أن ينقسموا طائفتين: طائفة تنفر للجهاد، و أخرى تبقى في المدينة تتعلم السنن و الفرائض .. و التفسير الذي ذهبنا اليه له أصل في روايات أهل بيت الرسول (ص)، و هم أدري بالقرآن و أسراره، من تلك الروايات: ان سائلا سأل الإمام جعفر الصادق (ع) عن معنى قول النبي (ص):

اختلاف امتي رحمة؟. فقال: ليس المراد بالاختلاف النزاع، و إلا كان اتفاهم عذابا، و إنما المراد به التردد في الأرض لطلب العلم، ثم استدل الإمام على ارادة هذا المعنى بقوله تعالى: **(قُلُوا لَا نَفَرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ خ ..)** و ليس من شك ان هذا الاستدلال لا يتم إلا إذا كان التفقه صفة للطائفة النافرة، لا الطائفة المقيمة.

و استدل علماء الأصول بهذه الآية على ان خبر الواحد المنقول عن المعصوم حجة يجب العمل به في الأحكام الشرعية، و وجه الاستدلال بالآية ان الله سبحانه أوجب على العالم أن يعلم و ينذر، و إذا وجب هذا على العالم وجب على الجاهل أن يقبل قول العالم و يعمل به، و إلا كان وجوب التعليم و الانذار لغوا .. و أيضا إذا وجب على الجاهل أن يتعلم فقد وجب على العالم أن يعلم، و إلا كان وجوب التعلم على الجاهل لغوا .. قال الإمام علي (ع): «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا، حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا».



(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ) تحث هذه الآية المسلمين على تحصين الحدود و صيانتها من أعداء الله و أعدائهم. فقد جاء في مجمع البيان في تفسير قوله تعالى: **(الَّذِينَ يَلُونَكُمْ)**: «أي قاتلوا من قرب منكم من الكفار الأقرب منهم فالأقرب الا ان تكون هناك موادة- أي هدنة أو معاهدة- .. و في هذه دلالة على انه يجب على أهل كل ثغر الدفاع عن أنفسهم إذا خافوا على بيضة الإسلام- أو على بلد من بلاد المسلمين- و إن لم يكن هناك إمام عادل».

و في المجلد الأول من هذا التفسير ص ٢٦٩ تكلمنا مفصلا عن مقاتلة الكفار بعنوان «الإسلام حرب على الظلم و الفساد».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٢٠

الإمام زين العابدين و مقومات الحرب:

(وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً) الغلظة هنا كناية عن القوة و المنعة، و تحصين الحدود تحصينا محكما **(وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)** الذين آمنوا به إيمانا صادقا، و أخلصوا في قتال أعدائه و أعدائهم، و أعدوا له ما استطاعوا من قوة، تماما كما أمرهم الله جلت حكمته.

و من روائع ما جاء في هذا الباب دعاء للإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع) ناجى به ربه، و دعا لأصحاب الثغور و حماة البلاد الاسلامية، و قد ضمنه الخطوط العريضة للانتصار في الحرب على العدو، قال فيما قال:

«اللهم صل على محمد و آل محمد، و كثر عدتهم، و اشحذ أسلحتهم، و احرس حوزتهم، و امنع حومتهم، و ألف جمعهم، و دبر أمرهم، و توحد بكفاية مؤنهم، و اغنهم بالصبر، و الطف لهم بالمكر، و عرفهم ما يجهلون، و علمهم ما لا يعلمون، و أنسهم عند لقاءهم العدو ذكر دنياهم الخداعة الغرور، و امح عن قلوبهم خطرات المال الفتون، و اجعل الجنة نصب أعينهم».

هذه الخطوط التي ذكرها هي المقومات الأساسية للنصر التي انتهى اليها العلم الحديث- فيما نظن-: كثرة السلاح، فمهما تحطم منه يبقى ما فيه الكفاية، و شحذه و مضاهه، و يدخل فيه جميع الأسلحة الحديثة، حتى الذرة و الصواريخ الموجهة، و المؤنثة الوافرة لكل جندي، و العلم بفنون الحرب و استعمال السلاح و بكل ما يتصل بالحرب من التدبير و الاقدام أو الاحجام و معرفة طرق المكر و الكيد بالعدو و تضليله عما يبيت له، و توحيد الصفوف و جمع القلوب على الإخلاص في القتال و الصبر على الآمه حتى الموت، و نسيان الدنيا و حطامها عند اللقاء و الطعن و الضرب، و الايمان بأن شهادة الإنسان في سبيل دينه و وطنه هو الربح و الفوز الأكبر .. أما بيت القصيد في هذه المناجاة فقول الإمام: «و امح عن قلوبهم خطرات المال الفتون و اجعل الجنة نصب أعينهم».

و هل أتى العرب و المسلمون قديما و حديثا، و صاروا أكلة لكل آكل الا عن طريق المال الفتون؟. و كفى بنكسة ٥ حزيران سنة ١٩٦٧ شاهدها و دليلا .. لقد مضى على هذه الكلمات ثلاثة عشر قرنا، و مع هذا لو ان قائدا عظيما من قادة

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٢١

الحرب في هذا العصر وضع كتابا في أسباب النصر لما كان الا شرحا لهذه الكلمات الموجزة التي نطق بها الإمام زين العابدين و سيد الساجدين.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٢٤ الى ١٢٧]

وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوْ لَا يَرُونَ أَنَّهُمْ يَفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧)

الإعراب:

إذا ما (ما) زائدة. و أما بفتح الهمزة، و تشديد الميم حرف شرط و تفصيل، و يجب أن يربط جوابها بالفاء. و إيمانا تمييز. و هل يراكم من أحد الجملة مفعول لقول محذوف أي يقولون: هل يراكم من أحد، و من زائدة، و أحد فاعل.

المعنى:

(وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا). ضمير منهم يعود إلى المنافقين، و المعنى ان بعض المنافقين كانوا يستخفون بالقرآن، و يتساءلون:

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٢٢

أي عجب في هذا؟. فيجعلون من أنفسهم التي سودتها المطامع و الآثام مقياسا للحق و الصدق .. و الغريب ان المشركين كانوا يعترفون بعظمة القرآن و تأثيره البالغ في النفوس، و يوصي بعضهم بعضا بعدم الاستماع اليه مخافة أن يجذبهم الى الإسلام من حيث لا يشعرون: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ - ٢٦ فصلت». و ان دل هذا على شيء فإنما يدل على ان النفاق اسوأ أثرا، و أشد جرما من الشرك.

و أجاب سبحانه المنافقين بقوله: **(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا)** أي إذا لم تجدوا أيها المنافقون في نفوسكم أثرا طيبا لسور القرآن و آياته بعد أن طبعت عليها الأهواء و الأغراض فإن المؤمنين يزدادون بها هدى و يقينا لأن نفوسهم نقية زاكية لم تدنسها الأقدار و الأرجاس كنفوسكم **(وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)** كلما نزلت سورة أو آية من القرآن لأنها تبشرهم بالجنة، و ترشدهم الى الطريق القويم.

(وَإِنَّمَا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ). كل من ابتعد عن الحق و الواقع و استمد إيمانه و آراءه من ذاته و تصوراته فهو مريض القلب و العقل، و إذا دعي إلى النزول على حكم الواقع و رفض - ازداد مرضه و تفاقم .. و النفاق مرض لأنه تزييف و تحريف، و المنافق يزداد مرضا كلما أوغل في الجحود و العناد للحق و آياته .. و ينطبق على المنافق الحديث الذي يشبه الحريص على الدنيا مثل دودة القز، كلما ازدادت على نفسها لفا كان أبعد لها من الخروج، حتى تموت غما **(وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ)** بسوء اختيارهم، تماما كما ماتت دودة القز بصنع يديها.

(أَوْ لَا يَرُونَ أَنَّهُمْ يَفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ). المراد بالفتنة هنا افتضاح المنافقين و إظهار أمرهم لدى الجميع، و تتصل هذه الآية بالآية التي قبلها و هي **(وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ الخ)** و وجه الاتصال ان المنافقين كانوا يبيتون الشر للنبي (ص)، و يطعنون به، من ذلك قولهم: هو أذن - كما سبق - و كان الله سبحانه يخبر نبيه الأكرم بما يبيتون و يطعنون، و النبي (ص) يعاتبهم و يفضحهم، و قد تكرر هذا في كل عام مرة أو أكثر، و فيه دلالة قاطعة على صدق الرسول، و ان القرآن من عند الله، فكان عليهم أن يتعظوا و يؤمنوا، و لا يقولوا ساخرين و مستهزئين:

أيكم زادته هذه إيمانا .. **(ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ)**

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٢٣

وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ) وما يذكر إلا أولو الألباب، وقد أعمت الشهوات قلوبهم و البابهم.

(وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ). هذا هو شأن المنافقين في كل زمان و مكان، إذا عجزوا عن مجابهة الحق، و مواجهة الحجة بالحجة، تسارقوا النظر و تغامزوا و تضاحكوا معبرين بذلك عن رسوخهم في الكفر و الضلالة، و عدم الارعواء عن الباطل .. **(هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ)** أي يقولون هذا بلسان المقال أو الحال: «يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَ هُوَ مَعَهُمْ إِذْ يَبْتَئُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ - ١٠٧ النساء».

(ثُمَّ أَنْصَرَفُوا) أي فعلوا فعلتهم و انصرفوا إلى شأنهم غافلين عن جريمتهم كأن لم يفعلوا شيئا **(صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)**. صرف الله قلوبهم عن الحق بعد أن أقام عليه الحجج و البيّنات، و بعد أن عاندوه و رفضوا التسليم له، فهم السبب المباشر للصرف، و أسند إلى الله بواسطتهم، و قد جرت عادة القرآن الكريم ان يضيف إلى الله الكثير من أفعال عباده بالنظر إلى انه خالقهم و المتصرف في الكون و أشيائه.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٢٨ إلى ١٢٩]

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)

اللغة:

عزيز عليه أي شاق عليه. و العنت الشدة و المشقة. و الحرص على الشيء الشح به لشديد الرغبة فيه.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٢٤

الإعراب:

عزيز صفة للرسول. و ما عنتم (ما) مصدرية، و المصدر المنسبك فاعل لعزير.

و حريص و رؤوف و رحيم صفات مثل عزيز، و بالمؤمنين متعلق براءوف. و حسبي بمعنى كافيني مبتدأ و لفظ الجلالة فاعل ساد مسد الخبر، و يجوز أن يكون حسبي خبرا مقدما، و الله مبتدأ.

المعنى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) هذا الخطاب موجه لكل آدمي يبحث عن الحقيقة، و يريد الهداية إليها، و الرسول هو محمد بن عبد الله (ص) بعثه الله للبشرية جمعاء، لينقذها من الجهالة و الضلالة، و يرشدها إلى طريق الحق و الخير، و ما على من يبتغيهما إلا ان ينظر بوعي و تجرد إلى سيرة محمد (ص) و سنته و الكتاب الذي جاء به من عند الله، فلقد آمن به مئات الملايين قديما و حديثا، و فيهم العلماء و الفلاسفة الذين تركوا دين الآباء و الأجداد و اعتنقوا الإسلام بعد ان ارتاحت إليه عقولهم و قلوبهم، و بعد أن رأوا نبيه الأكرم كما و صفه الله بقوله:

(عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ). عزيز عليه ان يلقي كائن على وجه الأرض مكروها، حتى و لو كان حيوانا، حريص على هداية كل الناس و سعادتهم و صلاح شأنهم، أما رأفته و رحمته فقد عمت الناس أجمعين:

«وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ - ١٠٧ الأنبياء». و من أحاديثه: «أنا رجمة مهداة .. الراحمون يرحمهم الله .. ارحموا من

في الأرض يرحمكم من في السماء».

و تسأل: قال سبحانه في هذه الآية: **(بِالْمُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَحِيمٌ)** وقال في سورة الأنبياء: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)** أي المؤمنين و غير المؤمنين، فما هو وجه الجمع بين الآيتين؟.

الجواب: ان المراد بقوله: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)** ان دين محمد هو دين الانسانية، و شريعته رحمة بكل الناس لو اتبعوها و عملوا بها لملاّت الأرض خيرا و عدلا، أما قوله: **(بِالْمُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَحِيمٌ)** فمعناه انه شديد الرأفة

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٢٥

و الرحمة بمن آمن بالحق، و كف آذاه عن الناس، أما من يعتدي عليهم، و يعث بحق من حقوقهم فإنه يقسو عليه قسوته على الباطل و الفساد، و لا تأخذه فيه هوادة و رأفة، و هذا هو دين الانسانية و الرحمة، فقد نهى سبحانه عن الرأفة في اقامة الحدود على المجرمين، قال تعالى: **﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ - ٢ النور﴾**.

و قال ابن العربي في الجزء الرابع من «الفتوحات المكية»: المراد بالمؤمنين من آمن بالحق و بالباطل، لا خصوص من آمن بالحق .. و هذه شطحة صوفية.

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ). هذه هي مهمة الرسول: التبليغ، و كفى. فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه و من ضل فإنما يضل عليها، و كان النبي (ص) على يقين قاطع بأن الله كافيهِ و مقويه بنصره و عنايته، لأنه توكل عليه وحده لا إله إلا هو .. و نختم هذه السورة بما ختمها صاحب تفسير المنار، قال: «أما اصطفاؤه تعالى لبني هاشم على قريش فقد كان بما امتازوا به من الفضائل و المكارم، فهاشم هو صاحب إيلاف قريش الذي أخذ لهم العهد من قيصر الروم على حمايتهم في رحلة الصيف الى الشام، و من حكومة اليمن في رحلة الشتاء، و هو أول من هشم الثريد للفقراء من قومه و لأهل موسم الحج كافة، و قد أربى عليه بالسخاء و الكرم ولده عبد المطلب. و جملة القول ان بني هاشم كانوا أكرم قريش أخلاقا، و أبعدهم عن الكبر و الأثرة، لا ينازعهم احد في ذلك».

و في بعض الروايات ان آخر آية نزلت من السماء قوله تعالى:

«حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٢٧

سورة يونس

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٢٩

سورة يونس مكية، و آياتها ١٠٩، و قيل: ان ثلاث آيات منها أو أربعا مدنية، و موضوعها كموضوعات السور المكية يدور على اثبات أصول العقيدة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة يونس (١٠): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الر تَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) ا كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا اَنْ اَوْحَيْنَا اِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ اَنْ اَنْذِرَ النَّاسَ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ اٰمَنُوا اَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالِ الْكَافِرُونَ اِنْ هٰذَا لَسٰحِرٌ مُّبِينٌ (٢)

اللغة:

الآية العلامة. و المراد بالكتاب هنا القرآن. و يستعمل الحكيم بمعنى الحاكم و المحكم و ذي الحكمة، و هذا المعنى أظهر. و قدم صدق أي سابقة حسنة.

الإعراب:

المصدر المنسب من ان أوحينا اسم كان، و عجا خبرها، و للناس حال من العجب. و ان انذر (ان) مفسرة بمعنى أي. و المصدر المنسب من ان لهم قدم صدق مجرور بالباء المحذوفة، و يتعلق ببشر.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٣٠

المعنى:

(الر) سبق الكلام عن هذه الحروف في أول سورة البقرة **(تلك آيات الكتاب الحكيم)**. تلك إشارة الى أن كل آية من آيات القرآن تشتمل على الحكمة و فصل الخطاب.

(ا كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا اَنْ اَوْحَيْنَا اِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ). لقد استكثر الجاحدون ان يتصل الله بعبد من عباده، و يصطفيه من دونهم .. و لهذا الاستبعاد أسبابه:

أولها: انهم قاسوا محمدا (ص) على انفسهم، فإذا لم يتصل الله بهم فينبغي ان لا يتصل بغيرهم .. و نجد الجواب عن ذلك في الآية ١٢٤ من الأنعام: «اللَّهُ اَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» اي ان لمحمد (ص) من الصفات و المكرمات ما يؤوله للرسالة من دونهم.

ثانيها: انهم جهلوا نوع الاتصال بالله، و حسبوا ان اتصاله تعالى بمحمد، تماما كاتصال بعضهم ببعض، و هذا ما ترفضه العقول .. و نجد الجواب عن هذا الوهم في قوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يَكْلِمَهُ اللهُ اِلَّا وَحْيًا اَوْ مِنْ وَّرَآءِ حِجَابٍ اَوْ يُرْسِلَ رَسُوْلًا - ٥١ الشورى».

ثالثها: و هو الأهم، ان محمدا (ص) قد جاءهم بما لا يعتقدون و لا يالفون:

«مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي اَبَانَا الْاَوَّلِيْنَ - ٢٤ المؤمنون» .. و الجواب قوله تعالى:

«قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ اَنْتُمْ وَاٰبَاؤُكُمْ فِي ضَلٰلٍ مُّبِيْنٍ - ٥٤ الانبياء».

(اَنْ اَنْذِرَ النَّاسَ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ اٰمَنُوا اَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ). بعد ان بين سبحانه عجب الكافرين من الوحي

الى محمد (ص) بين حقيقة ما أوحى به اليه، و انه إنذار و تبشير، إنذار لمن خالف و عصى أمر الله بالعذاب الأليم، و تبشير لمن امتثل و أطاع بالثواب الجزيل، و عبّر عن هذا الثواب بقوله: **(اَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ)**. و إذا كان هذا هو الوحي أو الموحى به، و كان محمد (ص) أهلا لتحمله و تبليغه فأين مكان العجب؟. ان الله سبحانه لا يترك الناس من غير رسول أمين يبلغهم عنه ما يريد لهم من الخير، و يكرهه من الشر، ليجتنبوا هذا، و يفعلوا ذلك، و لكيلا تكون لهم الحجة عليه لو خالفوا،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٣١

و محمد (ص) هو الأمين على هذه الرسالة و التبليغ من دون الناس، فوجب أن يكون هو الرسول المبلغ عن الله من دونهم.

(قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ). وصفوا محمدا (ص) بالساحر، لأنهم أنكروا ان يكون القرآن وحيا من الله، و أيضا عجزوا ان يأتوا بسورة من مثله، فلم يبق في زعمهم إلا السحر .. و جهلوا أو تجاهلوا ان كل ما في القرآن حقائق لا ريب فيها، و ان السحر كواذب لا تبتنى على أساس.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٣ الى ٤]

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ لِيُجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)

الإعراب:

جملة يدبر حال من الضمير في استوى. و ما من شفيع (من) زائدة و شفيع مبتدأ، و من بعد اذنه (من) زائدة. و جميعا حال من الضمير في مرجعكم. و عد الله منصوب على المصدر. و مثله حقا. و بما كانوا متعلق بمحذوف خبرا لمبتدأ محذوف اي ذلك بما كانوا.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٣٢

المعنى:

(إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ). ان ايام الله تعالى ليست كايامنا هذه، و من اين تأتي الايام قبل ان يوجد الكون؟. اذن، فالمراد بالايام هنا الدفعات او الأطوار، اما العرش فالمراد به الاستيلاء، و تقدمت هذه الآية مع تفسيرها في سورة الأعراف الآية ٥٤.

(مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) هذا كقوله تعالى: «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ - ٢٥٥ البقرة»، و تفسيره في ج ١ ص ٣٩٤.

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ) لأنه هو الذي يستحق العبادة، اما المال و الأنساب و السلطان فليست بألهة تعبد، و لا قوة يخضع لها **(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)** اي أفلا تعقلون بأن الله وحده هو الجدير بالطاعة و العبادة.

الحساب و الجزاء حتم:

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ). ان مسألة بداية الخلق و إعادته هي احدى المشكلات الفلسفية الكبرى .. فبعض الناس يقولون:

ان الكون وجد من تلقاء نفسه و من غير موجد .. و هؤلاء أشبه بمن رأى كلاما مكتوبا، فقال: انه وجد صدفة، لا لشيء الا لأنه لم ير الكاتب رأي العين.

ان الذي خط سطور الكون اعظم بكثير من الذي خط حبرا على ورق، و العيون احقر من ان تراه، و رآته العقول من الطرق التي تؤدي حتما الى الايمان .. و قد وضعنا في هذه الطرق كتابين: «الله و العقل» و «و فلسفة المبدأ و المعاد»، و لخصنا بعضها في ج ١ ص ٥٩ و ج ٢ ص ٢٣٠ من هذا التفسير.



اما بعث الأموات و اعادتهم ثانية للحساب و الجزاء فقد نزل به الوحي، و لا ياباه العقل فوجب التصديق و الايمان به. و قد بين سبحانه الحكمة من اعادة الموتى بقوله: **(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)**. أقدر الله سبحانه الإنسان على الفعل، و منحه عقلا

يميز به بين

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٣٣

الخير و الشر، و نهاء عن هذا، و أمره بذلك، فأطاعه من أطاع، و عصاه من عصى، ثم مضى كل الى حفرته، دون ان يثاب المطيع و يعاقب العاصي، بل ان كثيرا من العصاة طغوا و بغوا، و ملأوا الأرض ظلما و جورا، و لم يحاسبهم محاسب، و يسألهم سائل، فإن افترض انه لا بعث و لا حساب غدا فمعنى هذا ان الظالم و المظلوم، و المؤمن و الكافر عند الله سواء، بل الكافر به خير و أفضل عنده من المؤمن، و الطاغية المفسد أكرم على الله ممن استشهد في سبيل مرضاته .. و لا شك في ان هذا يتنافى مع عدل الله و حكمته و قدرته، بل و مع وجوده ..

تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .. و قد رأينا كثيرا من المظلومين يصرخون من الأعماق قائلين: لو كان الله موجودا لما أبقي طاغية على وجه الأرض .. و ليس هذا القول الا انعكاسا عن غريزة الايمان بوجود عادل قادر يقتص للمظلوم من الظالم، و لكنهم تعجلوا القصاص لحرقة الألم، و ذهلوا عن فطرتهم التي فطرهم الله «١» فقالوا ما قالوا.

كتبت في اثبات البعث و الحساب و الجزاء مؤلفات و مقالات و عند تفسير الآيات المتصلة بذلك، و تعيدني اليه الآن الآية التي أفسرها، و قد اوحى إلي بان أقوى الأدلة على ثبوت البعث قوله تعالى: «اليوم تجزي كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب - ١٧ غافر». و هي بمعنى الآية التي نفسرها، و لكنها أوضح .. انها تحمل برهانها معها، و تدل على نفسها بنفسها .. اليوم تجزي كل نفس بما كسبت. و لما ذا؟ لأنه لا ظلم عند الله، بل هو سريع الحساب. و التحليل العقلي لهذه القضية انه لو لا هذا اليوم الذي تجزي فيه كل نفس بما كسبت لكان الله ظلما، و وجوده نقمة، و تكليفه عبثا .. سبحانه و تعالى عما يصفون .. و النتيجة الحتمية لهذا المنطق ان كل من أنكر البعث و الحساب و الجزاء فقد أنكر وجود الله من حيث يريد أو لا يريد.

(١). انظر تفسير الآية ٤١ من الأنعام، فقرة «الله و الفطرة».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٣٤

[سورة يونس (١٠): الآيات ٥ الى ١٠]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُورًا وَ قَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)

اللغة:

قدر الشيء جعله على مقدار معين. والغفلة النسيان. والمراد بدعواهم هنا دعواؤهم.

الإعراب:

الياء في ضياء منقلبة عن واو لأن الأصل ضوء. وقدره بمعنى صيره، والهاء مفعول أول، و منازل مفعول ثان. آيات لقوم يتقون (آيات) اسم ان مؤخر، وفي اختلاف الليل خبر مقدم. أولئك ماوهم النار فأولئك مبتدأ أول، وماوهم

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٣٥

مبتدأ ثان، والنار خبره، والجملة من الثاني وخبره خبر الأول، والأول وخبره خبر ان الذين لا يرجون. ودعواهم مبتدأ، وسبحانك منصوب على المصدر وهو ساد مسد الخبر، أو ان خير المبتدأ محذوف تقديره قولهم سبحانك. وان الحمد (ان) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن المحذوف، أي انه الحمد، والجملة خبر آخر ودعواهم مجرور بالاضافة.

المعنى:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا). قيل: ان الضياء والنور كلمتان مترادفتان تعبر ان عن معنى واحد. وقيل: ان معنى كل يختلف عن معنى الأخرى، فكلمة الضوء تدل على ما كان نوره ذاتيا، وليس مستمدا من غيره كضوء الشمس، وكلمة النور تدل على ما كان نوره مكتسبا من الغير كنور القمر، فإنه مكتسب من الشمس.. ويلاحظ بأن الآية لم ترد لبيان شيء من ذلك، وانما القصد التنبيه على وحدانية الله وقدرته، تماما كالأية التي بعدها بلا فاصل، وان الحكمة من كوكب الشمس والقمر ما اشار اليه بقوله:

(وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابِ). الضمير في قدره يعود الى القمر، والمعنى ان الله سبحانه جعل للقمر منازل ثابتة لا تتغير ولا تبدل، تماما كغيره من سنن الطبيعة، والقصد من هذا الثبات هو ضبط الأوقات الذي لا تتم الحياة الا به، وتكلمنا عن ذلك عند تفسير الآية ٣٦ من سورة التوبة والآية ٩٦ من سورة الأنعام. **(مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)**. لقد فصل سبحانه آيات الكون خلقا وإيجادا، وشرحا وبيانا ليتدبرها كل من وهبه الله الاستعداد للتأمل والتعقل الذي يؤدي الى الايمان بالله وقدرته وحكمته.. وسبق أكثر من مرة انه جل وعز يسند اليه الظواهر الكونية، والتغيرات الجارية على سننها الطبيعية، يسندها اليه من باب اسناد الفعل الى سببه الأول الكامن وراء الظواهر، ليبقى الإنسان دائما على تذكّر من الخالق المتصرف في الكون.

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٣٦

يتقون). سبق نظيره مع التفسير في ج ١ ص ٢٥١ الآية ١٦٤ من سورة البقرة.

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ) هذه الآية تهديد وعيد لمن لا يؤمن بالآخرة وحسابها، ويقول:

من مات فات، مندفعاً مع أهوائه وشهواته، غافلاً عن الكون وما فيه من عبر وعظات، وعن دعوة الأنبياء والمصلحين، منصرفاً عن كل شيء الا عن الدنيا وملذاتها **(أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)**. هذا جزاء من كذب باليوم الآخر، واتخذ إلهه هواه غير مكترث بحق ولا بعدل.. وتجدر الإشارة الى ان هذا التهديد والوعيد لا يختص بمن كفر



بلقاء الله قولاً و عملاً، فإنه يشمل أيضاً من آمن به نظرياً، و جحدته عملياً.. فالذين يصلون و يصومون و يؤمنون بالحساب و العقاب، ثم لا يتورعون عن حرمة الله فهم في نار جهنم مع من جحد و عاند جزاء بما كسبت يده.

أين المتقون؟

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ). المراد بالهداية هنا الثواب، أي ان الله يثيبهم بسبب إيمانهم ..

ذكر سبحانه في الآية السابقة الجاحدين و أوصافهم و مآلهم، و ذكر في هذه الآية المؤمنين و أوصافهم و مآلهم، كعادته جل ثناؤه من المقابلة بين الأضداد و صفا و مآلاً، فالمؤمنون على عكس الجاحدين يرجون لقاء الله، و يتورعون عن محارمه عملاً بمقتضى دينهم و إيمانهم، و الله سبحانه يثيبهم بجنات تجري من تحتها الأنهار ..

و قد جاء في الحديث: ان الله تبارك و تعالى يقول يوم القيامة: اليوم أضع نسبكم و أرفع نسبي .. أين المتقون؟. هذا هو نداء الله يوم الحق و الفصل: أين المتقون الصادقون في أقوالهم، المخلصون في أعمالهم، أما نداء الشيطان في هذه الدار، دار الظلم و الفساد فإن الطغاة المجرمون المتهتكون المفسدون؟.

و كل من أكرم مؤمناً تقياً لإيمانه و تقواه فقد نادى بنداء الله: أين المتقون؟.

و كل من احترم طاغية لاجرامه فقد نادى بنداء الشيطان: أين المجرمون؟. قال

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٣٧

الإمام الصادق (ع): يكره القيام تعظيماً إلا لرجل في الدين، و قال: لا تقبل يد أحد إلا يد رسول الله (ص) أو من أريد به رسول الله (ص).

و الحكم في تعظيم الرجال يختلف باختلاف الموارد، فان كان تشجيعاً للإثم و معصية الله فهو حرام، و ان كان للتحبيب و التآلف، و دفع الضرر أو قضاء حاجة محتاج فهو حسن، و إلا فمكروه، أما تعظيم المجاهد لجهادته، و المخلص لاختلاصه، و المصلح لإصلاحه، و العالم لعلمه و عمله به فهو من تعظيم شعائر الله و حرماته الذي أشار اليه بقوله: «و مَنْ يَعْظُمُ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ - ٣٢ الحج». و قوله: «و مَنْ يَعْظُمُ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ - ٣٠ الحج».

(دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ). هذه الآية بجملتها إخبار بأن أهل الجنة في روح و ريحان لا يشغلهم شيء مما كان يهتمهم في الحياة الدنيا من جلب مصلحة أو دفع مضرة ..

فلا يطالبون بإقامة العدل و السلام، و لا بإقرار الأمن و النظام، و لا بزيادة الأجور و المرتبات، و لا بشيء على الإطلاق، فكل شيء مما تشتهي النفس، و تلذه العين جاهز متوافر، و ما عليهم إذا أرادوا شيئاً إلا أن يستحضروا صورته في أذهانهم، و من أجل هذا تفرغوا للتسبيح و التحميد، و التحيات الزاكيات: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَ لَا تَأْتِيهِمُ إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا - ٢٦ الواقعة». و قد سمعوا هذا السلام من الله حين لقائه: «تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ - ٤٤ الأحزاب».

و سمعوه من الملائكة: «وَ قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا - أي الجنة - سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ - ٧٣ الزمر». و سمعه بعضهم من بعض. و تكلمنا عن تحية الإسلام عند تفسير الآية ٥٤ من الأنعام.

[سورة يونس (١٠): الآيات ١١ الى ١٤]

وَلَوْ يَعَجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)
وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَانٌ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ
لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٣٨

اللغة:

الطغيان مجاوزة الحد في الشر. و العمه التحير و التردد في الضلال. و القرون جمع قرن، و هو أهل كل عصر. و الخلائف جمع خليفة، و هو من يخلف غيره في شيء.

الإعراب:

بالخير الباء للتعدية، لجنبه في موضع الحال أي دعانا مضطجعا. و كان مخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير الشأن المحذوف أي كأنه لم يدعنا. و كذلك الكاف بمعنى مثل في موضع نصب صفة لمفعول مطلق محذوف أي تزيينا مثل ذلك. و مثله كذلك نجزي. و المصدر المنسب من ليوئمنا متعلق بمحذوف على انه خبر لكانوا أي و ما كانوا يريدون للايمان. و كيف محل نصب بتعملون.

المعنى:

(وَلَوْ يَعَجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ) المراد

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٣٩

بالخير هنا ما ينتفع به الإنسان في هذه الحياة، و من أجل هذا يستعجل به، و لا يصبر عنه، و المراد بالشر ما يتضرر به، و هو ياباه و يكرهه بفطرته الا لسبب عارض كدرء ما هو أشد، قال الشاعر:

تحملت بعض الشر خوف جميعه كذلك بعض الشر أهون من بعض

أو يكون الإنسان في حال غير طبيعية كمن يقدم على الانتحار، أو في حال عناد يواجه خصما عجز عن مقاومة حاجته بحجة مثلها، كما عجز المشركون عن الرد على محمد (ص) حين أظهر الله على يده ما أظهر من المعجزات، و قالوا: اللهم ان كان ما يقوله محمد حقا فأمطر علينا حجارة من السماء، أو اتتنا بعذاب اليم .. و قد أجاب سبحانه كل من يستعجل الشر و نزول العذاب من السماء، أجابه بأن الحكمة تقتضي أن لا يستجيب الله الى طلبه، و أن يستبقيه الى حين، فربما زال العارض الذي تمنى معه الشر، و تحقق بعده الخير، كما حصل من كثير من الذين قالوا: اللهم أمطر علينا حجارة من السماء، فقد أسلم منهم جماعة، و خرج من صلب آخرين كثير من المؤمنين، و لو عجل الله بأجلهم لما حصل شيء من ذلك.

و الخلاصة انهم استعجلوا وقوع الشر، تماما كما يستعجلون الخير، و لكن الله سبحانه أخرجهم الى ما أراد لهم من الخير.



(فَنذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ). أي انه تعالى لا يعجل العذاب لمن لا يوقنون بالبعث ممن كفر بنبوة محمد (ص)، بل يتركهم و شأنهم، حتى لو تمردوا على أمره سبحانه، و ترددوا في الطغيان و العصيان.

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا). لجنبه و قاعدا و قائما كناية عن خضوعه و تضرعه في جميع حالاته و حركاته و سكناته، و المعنى لو نزل أدنى مكروه بمن استعجل الشر لفقد الصبر، و انهارت أعصابه، و لجأ إلينا خاضعا متذللا في جميع أحواله لنكشف عنه الضر **(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ).** ان الأوضاع الفاسدة قد تضطر الإنسان الى الكذب و الرباء و التملق لمن حاجته في يده، و لكن ما الذي يضطره الى العقوق و نكران

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٤٠

الجميل، و التنكر لمن دعاه بالأمس الى قضاء حاجته خاضعا متذللا، حتى إذا استجاب له، و حصل منه على ما يريد تجاهله، و مر به كأن لم يدعه الى ضر مسه؟ .. و لا يصح تفسير هذا العقوق بالأوضاع الفاسدة، و لا بشيء الا بالاستهتار، و الكفر بالحق و القيم، و الإسراف في هذا الاستهتار و الكفر **(كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).** و الذي زين لهم سوء أعمالهم هو اللامبالاة بشيء الا بمنافعهم و أطماعهم.

(وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ). هذا تهديد من الله للذين كذبوا محمدا (ص) بأن يحل بهم من العذاب ما حل بمن كان قبلهم من الأمم الذين كذبوا رسلهم.

و مر نظير هذه الآية مع تفسيرها في سورة الأنعام الآية ٦.

(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ). تمضي أمة و تخلفها أخرى، أما الغاية من وجوه الإنسان في هذه الأرض فهو العلم و العمل النافع ..

و تسأل: ان الله سبحانه يقول: **(وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ - ٥٦ الذاريات).** و تقول انت: ان الله خلق الإنسان للعلم و العمل النافع؟.

الجواب: ان المراد بالعبادة في الآية المذكورة العمل الصالح بدليل قوله تعالى:

(وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ - ١٠ فاطر). بل ان سبحانه خلق الكون بأرضه و سمائه من أجل العمل الصالح، قال جلّت عظمتة: **(وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا - ٧ هود).** و بينا معنى الابتلاء و الاختبار من الله عند تفسير الآية ٩٤ من المائدة.

[سورة يونس (١٠): الآيات ١٥ الى ١٧]

وَ إِذَا تَتَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٤١

اللغة:

من تلقاء نفسي أي من عند نفسي، و يستعمل بمعنى الاتجاه، يقال: جلس تلقاء أي تجاهه. العمر بضم العين و الميم البقاء، و بفتح العين و سكون الميم يستعمل في البقاء، و في القسم، تقول: لعمرى ما فعلت أي لديني ما فعلت.

الإعراب:

المصدر المنسب من ان أبدله اسم يكون، ولي خبر. و ان اتبع (ان) نافية. و أدراكم فعل ماض من دريت. و عمرا على حذف مضاف أي مقدار عمر، ثم حذف الظرف و أقيم المضاف مقامه.

المعنى:

(وَ إِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ). المراد بالذين لا يرجون لقاء الله المشركون .. و كان النبي (ص) يحتج عليهم و على اليهود و النصارى بالقرآن، و يجادلهم بالتي هي أحسن، و كان الجدل بينه و بين المشركين و اليهود عنيفا، لأنهم كانوا أشد الناس عداوة له، و إعراضا عنه، و سبق الكلام عن ذلك في العديد من الآيات، أما النصارى فمنهم من وفد

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٤٢

عليه، و دفع له الجزية كنصارى نجران، و منهم من هم بغزو المدينة، فقطع النبي (ص) الطريق عليهم و غزاهم في أرض الشام.

و كان المشركون يقترحون على النبي (ص) ألوانا من جهلهم و عبثهم، من ذلك ما أشارت اليه الآية ١١٨ من سورة البقرة، حيث طلبوا من النبي أن يكلمهم الله مشافهة، أما الآية التي نفسرها فهي تحكي اقتراحهم على رسول الله (ص) أن يأتيهم بقرآن غير هذا في جملته، أو يحرفه بالتقليم و التطعيم، لأن هذا القرآن قد آتاهم بدين جديد: فهو يدعو الى التوحيد و الإيمان بالبعث و الجزاء، و يقر مبدأ العدالة و المساواة، و يلغي الطبقات و الامتيازات، و يحرم الربا و الظلم، و هم يدينون بتعدد الآلهة، و ينكرون البعث، و يبيحون ما يشتهون، فطلبوا من محمد (ص) أن يأتيهم بقرآن يقرهم على دينهم و تقاليدهم، أو يحذف من القرآن الذي آتاهم به ما لا يرتضونه - على الأقل - ..

و أي فرق بين هذا الطلب من مشركي الجاهلية، و بين الكثير من شباب حضارة القرن العشرين الذين يقولون: و لما ذا الدين، و الحلال و الحرام؟ .. أجل، ان في حضارة المنيحوب و الميكروجوب غنى عن كل مبدأ و دين.

(قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ). الرسول ناقل عن الله، لا مشرع، تماما كراوي الحديث عن الرسول. و قد جاء في الحديث عنه انه قال: «من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار» فكيف يكذب هو على الله؟ حاشا لصاحب العصمة عن الخطأ و الزلل .. و في الآية تعريض بمن يفتي و يحكم بغير دليل من الشرع، و فيها أيضا الدليل القاطع على ان النبي ما حكم قط باجتهاده، و ان جميع أحكامه كانت بوحي من الله، و ان من أجاز الاجتهاد عليه فقد قاسه بغيره من الفقهاء .. و بالمناسبة نشير الى ان الشيعة منعوا الاجتهاد على النبي (ص). و اختلف السنة فيما بينهم، فمنهم من وافق الشيعة، و كثير منهم أجاز الاجتهاد على النبي.

(قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ). و ضمير تلوته و به يعودان إلى القرآن، و المعنى لو شاء الله إلا يرسلني إليكم لتعلموا و تعملوا بالقرآن ما دعوتكم اليه، و لكني فعلت ما فعلت تنفيذا لمشيئة الله **(فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ**

عَمْرًا مِنْ قَبْلِهِ

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٤٣

أَفَلَا تَعْقِلُونَ). ان من عاش في قومه أربعين عاما من قبل ان يوحى اليه لم يقرأ فيها كتابا، و لم يلقي من أحد علما، و لا بدرت منه أية بادرة يواخذ عليها، بل كانت حياته كلها فضائل و مكرمات، و صدقا و أمانة حتى سمي الصادق الأمين، أفلا تعقلون ان من كان هذا شأنه فهو أبعد الناس عن الكذب و الافتراء؟ ..

هذا، إلى أن حقائق القرآن حجة كافية وافية في الدلالة على صدقه و عظمته.

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ). معنى افترى على الله كذبا انه نسب إلى دين الله ما هو بريء

منه، و معنى كذب بآياته انه نفى عنه ما هو منه في الصميم، و هذه هي البدعة التي قال عنها الرسول الأعظم:

«كل بدعة ضلالة، و كل ضلالة في النار» **(إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ)** لأن طريق الفلاح و النجاة هو الصدق و الإخلاص، أما الكذب و الافتراء فهو طريق الهلاك و الخذلان، و لا يسلكه إلا شقي مجرم.

[سورة يونس (١٠): الآيات ١٨ إلى ٣٠]

و يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هُوَ لَنَا شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَ تَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) وَ يَقُولُونَ لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠)

المعنى:

(و يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ). هؤلاء هم الذين قالوا

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٤٤

لرسول الله (ص): ائت بقرآن غير هذا أو بدله. فقد كانوا يعبدون الأصنام معتقدين انها تنفع و تضر بدليل قوله تعالى: **(و يَقُولُونَ هُوَ لَنَا شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ)** و لكن اعتقادهم لا يقوم على أساس سوى الوهم و الخيال .. و قد أمر الله محمدا (ص) أن يقول مكذبا زعمهم: **(أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)**. ادعى المشركون ان أصنامهم تشفع لهم عند الله، و لو كان هذا حقا لعلم الله بهذه الشفاعة، و حيث انه لا يعلم بها و يجب أن تكون دعوى المشركين كذبا و افتراء.

(وَ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً) على فطرة الله التي فطر الناس عليها، ثم شتتهم الهوى عن أصلهم، و فرقهم شيعا في دينهم بعد أن اهدوا الى ملذات الحياة، و تسابقوا الى نيلها **(وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)**.

المراد بكلمة الله هنا عدم التعجيل بالعقوبة للعصاة، و بالمشوبة للطائعين، بل يؤخرهم جميعا الى يوم يعثون، ليلبغ كل انسان بإرادته الى ما يرضيه لنفسه من خير أو شر، و فضيلة أو ذليلة، و لو عجل الله بالعقوبة الى من أساء من الناس لقضي بينهم بالوفاق و عدم الاختلاف، و لكن خوفا لا طوعا .. و ليس من شك ان هذا الجاء يبطل معه الثواب و العقاب، و نقض لحكمته تعالى التي قضت بأن يظهر كل انسان على حقيقته عن طريق ما يزاوله من أعمال، و يختاره لنفسه من كمال .. و مر نظير هذه الآية في سورة البقرة الآية ٢١٣، و في سورة المائدة الآية ٤٨.

(وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ). لقد أنزل الله على محمد (ص) العديد من الآيات والمعجزات، ولكن المشركين الذين قالوا هذا يريدون آية على أهوائهم، ومعجزة هم يقترحونها ويفرضونها مثل قولهم: «لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ - ١١٨ البقرة». وقولهم: «لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا - ٧ الفرقان»، وما إلى ذلك من لغوهم وعبثهم. و سبق الكلام عن اقتراحاتهم الفاسدة في ج ١ ص ١٨٨ عند تفسير الآية ١١٨ من سورة البقرة.

(فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ). أي قل يا محمد لهؤلاء المعاندين: ان الآية التي طلبتموها هي في يد الله، وليس لي من الأمر

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٤٥

شيء، ولا أدري ان كان الله ينزلها أو لا ينزلها من السماء، فأننا و أنتم سواء في ذلك، فلننتظر لنرى أي الفريقين أحق بالأمن من غضب الله و عقابه.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٢١ الى ٢٣]

وَ إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَ جَرِينِ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِهَا جَاءَ تَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لئن أَنجيتنا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)

اللغة:

المراد بمكر الله تدبيره الخفي الذي يفوت على الماكر المخادع مكره و خداعه. و قد يستعمل مكر الله بعذابه. و التسيير التحريك دون اختيار من المتحرك، و منه مسير غير مخير. و الفلك السفن و يطلق على الجمع و الواحد. و العاصف الذي يعصف الأشياء و يكسرها، و منه ريح عاصف و عاصفة. و أحيط به أي هلك.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٤٦

الإعراب:

إذا لهم (إذا) للمفاجأة وقعت في جواب إذا أذقنا. و مكرًا تمييز. و النون في جرّين ضمير الفلك. و ضمير بهم للناس. و مخلصين حال من الضمير في دعوا. و إذا هم (إذا) للمفاجأة وقعت في جواب لما. و متاع الحياة منصوب على المصدر أي تمتعوا متاع الحياة، و يجوز الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف أي ذلك متاع.

المعنى:

(وَ إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا). قيل المراد بالناس هنا المشركون خاصة، و ليس هذا القول ببعيد عن قرينة السياق، فإن الآيات السابقة تحدثت عن المشركين، و لكن هذا لا يمنع من أن يكون التهديد عامًا يشمل كل من جحد أنعم الله، سواء أ كان الجحود من المؤمن أم الكافر، قبل الضراء أم بعدها.. و في جميع



الحالات فإن مضمون هذه الآية يلتقي مع الآية السابقة رقم ١٢، وهي: «وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه». فهذه الآية تقول: ان الإنسان يذكر الله في العسر، وينساه في اليسر، والآية التي نفسرها تقول: إذا جعل الله عسر الإنسان يسرا مكر في آياته، والمراد بهذا المكر انه يجحد آيات الله، ويكذب بأن الله سبحانه هو السبب في كشف الضر والبلوى عنه، ويفسر هذا الكشف بأسباب لا أصل لها ولا أساس، كالأصنام والكواكب والصدفة، وما إلى ذلك من التفسيرات الفاسدة التي تختلف باختلاف الأشخاص واهتمامهم ومعتقداتهم.

(قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ). المراد بمكر الله تعالى انه يجازي الماكرين على مكرهم، وיעذب لهم العذاب الأليم من حيث لا يشعرون.

و تكلمنا عن المراد بمكره تعالى مفصلا في ج ٢ ص ٦٨ عند تفسير الآية ٥٤ من سورة آل عمران، والمراد بالرسول الكاتبين الملائكة، والمعنى انه تعالى يحصي أعمال الماكرين، ويجازيهم عليها بما يستحقون.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٤٧

(هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) أي انه جلت حكمته وهب عباده القدرة على السير فيهما، والغرض من هذه الاشارة التذكير بفضلله وأنعمه لتكون له من الشاكرين .. سبحانه اللهم ما أبين كرمك على من أَرْضَاكَ وَأَغْضَبَكَ .. و من الطريف قول أبي بكر المغافري في أحكام القرآن: ان هذه الآية تدل على ان ركوب البحر جائز و غير محرم، و أطال الكلام في التدليل على جواز ركوب البحر ... و ذهل عن القاعدة الشرعية التي يعرفها الجاهل و العالم بأن التحريم يحتاج إلى الدليل، و ليس الجواز.

(حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكَ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَنُنَّ أَنْجِيَنَّاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ). الريح توث و تذكر لأنه تعالى وصفها بالطيبة و بالعاصف، و هذه الآية تدل على ان الإنسان قد جبل بفطرته على الإيمان بالله لرجوعه إليه عند الشدائد .. انظر تفسير الآية ٤١ من سورة الأنعام، فقرة: الله و الفطرة. و ذكر صاحب المنار عند تفسير هذه الآية ما نصه:

«كان المشركون لا يدعون عند الشدائد الا الله ربهم، أما الكثير من مسلمي هذا الزمان بزعمهم فإنهم لا يدعون الله عند الشدائد، و انما يدعون الأموات كالبدوي و الرفاعي و الدسوقي و الجيلاني و المتبولي و أبي سريع و غيرهم ممن لا يحصى عددهم، و تجد من حملة العمائم الأزهريين و غيرهم و لا سيما سدنة المشاهد المعبودة الذين يتمتعون بأوقافها و نذورها من يغريهم بشركهم، و يتأوله لهم بتسميته بغير اسمه في اللغة العربية كالتوسل و غيره». و مثله تماما في تفسير المراغي.

و قرأت في الصحف المصرية ان المصريين يرمون أوراقا في ضريح الولي يشكون إليه فيها من خصومهم، و يرجون الميت أن يقتص لهم ممن ظلمهم و أساء إليهم، و نقلت طرفا من هذه الشكاوى في كتاب «من هنا و هناك»، أما تدفق الجموع على قبر الولي للاحتفال بمولده فنذع وصفه لجريدة «الجمهورية» المصرية عدد ١ - ١١ - ١٩٦٨: «مثل يوم الحشر كانت الزحمة، كتل بشرية متلاصقة و متدافعة كأنها أمواج متلاطمة: أو كحقل مزروع بالبشر».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٤٨

(فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ). عاهدوا الله أن يتقوه و يشكروه إذا كشف عنهم، و لما فعل نكثوا العهد، و هذا تكرار للآية السابقة بتعبير آخر، قال سبحانه في الآية السابقة: إذا لهم مكر في آياتنا، و قال في هذه الآية: إذا هم يبغون في الأرض، و المعنى واحد أو المعنيان متلازمان متشابكان، و الغاية إبراز عتوهم و تمردهم في أقبح الصور.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ) لأن من سل سيف البغي قتل به **(مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)**. قد يفرح الباغي و يطرب من نشوة النصر، و لكن الى حين، ثم تأتي الزفريات و الحسرات، قال رسول الله (ص): ثلاث هن رواجع على أهلها: المكر، و لا يحيق المكر السيء الا بأهله، و النكث، و من نكث فإنما ينكث على نفسه، و البغي، يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٢٤ الى ٢٥]

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَ أَزْيِنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥)

اللغة:

للزخرف معان، منها الذهب، و منها حسن الشيء في مظهره. و غني بالمكان أقام فيه، و المغاني المنازل. و المراد بدار السلام هنا الجنة.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٤٩

المعنى:

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ).

الباء في (به) للسببية، أي ان الدنيا التي تباهون بها و تفاخرون هي أشبه بمطر نزل على الأرض، فأخصبت و أنبتت من كل زوج بهيج، و اختلط بعض نباتها ببعض لكثرتة و نموه **(مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعَامُ)**. كل الأحياء عيال على الأرض تملأ بطونهم الجائعة، فالناس يأكلون حب الزرع و ثمر الشجر، و الدواب تأكل الحشائش و ما اليها.

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَ أَزْيِنَتْ) كالعروس المجلوة انصرفت عن كل شيء، و تفرغت ليتمتع العريس بها **(وَ ظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)** و يملكون التصرف في ثرواتها، و يملئون بها جيوبهم و خزائنهم - بعد هذا الوثوق و الاطمئنان **(أَتَاهَا أَمْرُنَا)** و هو الهلاك و الآفات **(لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا)** تماما كالأرض المحصودة **(كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ)** بعد ان زال كل شيء حتى الآثار التي تخبر عما كان .. فيالنكد الطالع .. لقد خابت الآمال، و تبخرت الأحلام.

(كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) في ان متاع الدنيا إلى زوال، و ان من ركن اليه وحدها فقد ركن إلى سراب، و انه ليس بشيء تراق له الدماء، و تثار من أجله الحروب، و تسخر لها عقول العباقره و كبار العلماء.

(وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ) قال المفسرون: المراد بدار السلام الجنة، و ليس من شك ان الجنة دار السعادة و السلام، و لكن دعوة الله تعم كل عمل يحقق لعياله الأمن و الراحة، بل ان الله سبحانه حرم الجنة إلا على المتقين و



العاملين في هذه السبيل (وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ). ان دعوة الله سبحانه لعمل الخير تشمل كل بالغ عاقل: دون استثناء، فمن عصى و أهمل فهو الضال و من أطاع و عمل فهو المهتدي، و يصح أن تسند هدايته هذه إلى الله لأن الطريق الذي سلكه إليها كان بأمر الله و عنايته و توفيقه، أما ضلال من ضل فلا تصح نسبتة إليه تعالى بحال، لأنه قد نهاه عنه، و الله لا ينهى عبده عن عمل ثم يلجئه إليه الجاء.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٥٠

[سورة يونس (١٠): الآيات ٢٦ الى ٣٠]

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَ زِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بَمِثْلِهَا وَ تَرَهَّقَهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءِكُمْ فزَيْلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكُفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)

اللغة:

يرهق وجوههم أي يغشاها و يغطيها. و قتر بفتح القاف و الرائ غبار أو دخان أسود، و الذلة الهوان، و العاصم المانع. و زيلنا فرقنا و ميزنا.

الإعراب:

للذين أحسنوا خبر مقدم، و الحسنى مبتدأ مؤخر. و الذين كسبوا مبتدأ، و جزاء سيئة خبر، و بمثلها متعلق بجزاء، و قيل: جزاء مبتدأ ثان، و بمثلها خبره.

و قطعاً مفعول ثان لأغشيت لأنها بمعنى البست. و مظلماً صفة لقطع، و قيل حال.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٥١

و جميعاً حال من ضمير نحشُرهم. و مكانكم في محل نصب قام مقام فعل الأمر أي الزموا. و أنتم توكيد للضمير في الزموا. و كفى بالله الباء زائدة، و الله فاعل، و شهيدا حال، و يجوز أن يكون تمييزاً على معنى من شهيد. و ان كنا (ان) مخففة من الثقيلة، و اسمها (نا) محذوف و جملة كنا خبر، و اللام في لغافلين للفرق بين ان النافية و المخففة. و هنالك ظرف زمان منصوب بتبلو. و مولاهم بدل من الله، و الحق صفة.

المعنى:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَ زِيَادَةٌ) قال الرازي: نظير هذه الآية قوله تعالى:

«هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ». و يلاحظ بأن الإحسان يختص بالفضل على الغير، و الحسن ما كان محبوباً للفظرة سواء أ كان تفضلاً، أم لم يكن، و يدخل فيه حسن العقيدة، و حسن القول و الفعل، و نية الخير، بل و الشعور بالذنب، فكل هذه محبوبة لله و للفظرة، و هو سبحانه يكافئ عليها بالحسنى، اذن، فالآية نظير قوله تعالى: «وَمَنْ يَقْتِرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا» - ٢٣ الشورى.

و اختلف المفسرون في معنى الزيادة، لأنها ان كانت من نوع الحسنى فما هي بزيادة، و ان كانت غيرها فالكلمة مبهمة، و

الذي نفهمه نحن ان المراد بالزيادة هنا انه جل ثناؤه يثيب الذين أحسنوا بأكثر مما يستحقون، قال تعالى: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ» - ١٧٢ النساء.

فعطف الزيادة على توفية الأجور دليل على ما قلناه.

(وَلَا يَرْهَقُ وَجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذَلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

كل ما في القلب من حزن و سرور، و أمن و خوف ينعكس أثره في الوجه بوضوح، و لكن أثر الخوف و القلق أظهر أثرا فيه من غيره، بخاصة و جوه أهل النار إذا عاينوها، فإنها تسود من الرعب، حتى كأنها مغطاة بدخان، أو بغبار أسود، أما أهل الجنة فوجوههم ضاحكة مستبشرة: «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلِيَّةٌ غَبْرَةٌ تَرَهَّقُهَا قَتْرَةٌ - ٤٠ عبس»، أي تغطيها غبرة سوداء.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٥٢

(وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا). ان الله عادل يجزي من أساء بما يستحق، و لا يظلمه مثقال ذرة، بل و يعفو عن كثير، لأنه كريم، و لجوده و كرمه يضاعف لمن أحسن أضعافا كثيرة **(وَتَرَهَّقُهُمْ ذَلَّةٌ)** أي ترهق المسيئين ذلة الفضيحة و كسوف الخزي، و لا أحد أذل و أخزى ممن يفتضح على رؤوس الأشهاد **(مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِمٍ)** يمنع عنهم سخط الله و عذابه.

(كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ). بعد أن قال سبحانه: ان الذين أحسنوا لا يرهق و جوههم قتر و لا ذلة قال: ان الذين أساءوا تسود و جوههم حتى كأنها قطعة من الليل البهيم. قال الإمام علي (ع): ما خير بخير بعده النار و ما شر بشر بعده الجنة، و كل نعيم دون الجنة محقور، و كل بلاء دون النار عافية.

(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا) الذين أحسنوا و الذين أساءوا **(ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ).** يقف غدا للحساب في موقف واحد المشركون و الذين كانوا يزعمونهم شركاء لله، و يتقابلون و جها لوجه ليدلي كل فريق بحجته فتخبب آمال المشركين فيمن كانوا يأملون بهم، و يرجون منهم النفع في هذا الموقف، و يتبين لهم انهم كانوا على ضلال في شركهم و عنادهم لرسول الله و كتبه.

(فَرَيْنَا بَيْنَهُمْ) أي ان الله سبحانه يميز يوم الحساب بين جميع خلقه بصفاتهم التي هم فيها و عليها، و يظهر كل واحد على حقيقته، و عندها يتبين للمشركين انه لا أحد يملك لنفسه و لا لغيره نفعا و لا ضرا، و ان الأمر لله وحده لا شريك له و لا ند **(وَ قَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانًا تَعْبُدُونَ)** حين أوقف الله المشركين و الذين يعبدون في موقف واحد، و قابل بينهم و جها لوجه، قال هؤلاء لأولئك:

ما كنتم لنا عابدين، و انما خيل ذلك إليكم، و صورت لكم الأوهام ان لله شركاء و اننا نحن أولئك الشركاء الذين لا وجود لهم الا في مخيلتكم، فأنتم في الحقيقة تعبدون لا شيء، و نحن شيء، اذن لستم لنا بعبادين **(فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ)** فهو يعلم انكم اخترعتم في أوهامكم شركاء لا وجود لهم، و أيضا يعلم ببراءتنا من شرككم **(إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ)** لا نعرف عنها شيئا، و فيه إيماء الى نفي الأهلية عنهم للعبادة، و انهم عبيد و ليسوا بمعبودين.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٥٣

(هٰنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ). أي انه تعالى

يجمع الناس للحساب، و يجزي كل نفس بما كسبت، و لا تجد شيئا مما كانت تعتقده و تتوهمه ينفعها و يدفع عنها الا العمل الخالص لوجه الله وحده .. و قد تكرر هذا المعنى بأساليب شتى في العديد من الآيات.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٣١ الى ٣٤]

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ مَنْ يَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يَخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يَدْبُرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤)

اللغة:

تصرفون من الصرف عن الشيء إلى غيره، أي كيف تعدلون عن التوحيد إلى الشرك. و هذا المعنى هو المراد من قوله: فأني تؤفكون.

الإعراب:

فأني تصرفون (أني) مجرورة بإلى محذوفة أي إلى أين تصرفون، و العامل

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٥٤

الفعل المذكور، و مثلها فأني تؤفكون. و المصدر المنسب من أنهم و خبرها مجرور باللام المحذوفة، و العامل حقت أي حقت كلمة ربك عليهم لعدم إيمانهم.

المعنى:

أركان الإيمان الحق عند الله ثلاثة: الوجدانية، و النبوة، و البعث، و عرض القرآن الوانا من الأدلة على هذه الأركان، و سبق بيانها مفصلاً، و الآيات التي نفسرها الآن و التي بعدها من هذا الباب، لأنها وردت لإبطال الشرك و زعم المشركين بأن أصنامهم تقربهم من الله زلفى، و انه لا بعث و لا حساب، و ان القرآن افتراه محمد على الله .. و فيما يلي إبطال هذه المزاعم:

١- (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ). كل سبب من أسباب الرزق قريباً كان أو بعيداً لا بد أن يكون سماوياً أو أرضياً، فمن الأسباب السماوية المطر و الضياء و غيرها مما اكتشفه العلماء أو يكشفونه في المستقبل القريب أو البعيد، و من الأسباب الأرضية النبات و الحيوان و المعادن، و جميع الأسباب ترجع إلى الله وحده بواسطة السنن و النواميس الكونية، لأنه تعالى هو خالق الكون، و المشركون يعترفون بهذه الحقيقة، و يقرون بأن الله هو الخالق الرازق .. و هنا يأتي السؤال، و يرد عليهم هذا الاشكال: ما دمتم تعتقدون أيها المشركون بأن الله هو الخالق الرازق فكيف تجعلون له شركاء؟. و كيف يكون الشيء شريكاً مع العلم بأنه لا أثر له على الإطلاق؟. و هل يصح أن تكون شريكاً أيها القاري- في تأليف هذا الكتاب، و أنا الذي فكرت و صبرت و كتبت؟ .. و قد بسطنا القول في هذا الموضوع، و ذكرنا الأدلة الكافية على بطلان الشرك و فساده في ج ٢ ص ٣٤٤ عند تفسير الآية ٤٨ من سورة النساء.

٢- (أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ) خص سبحانه هاتين الحاستين بالذكر لأنهما الوسيلة الأولى لتحصيل العلوم، حتى النظرية منها، لأنها تنتهي إلى الحس و المشاهدة.

و قال الرازي عند تفسير الآية: «كان علي رضي الله عنه يقول: سبحان من بصر بشحم، و أسمع بعظم، و انطق بلحم».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٥٥

٣- (وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) أي يملك الموت والحياة، ومن أمثلة خروج الحي من الميت ما يأكله الحيوان ويمر بمعدته و امعائه وتجري عليه جميع عمليات التحليل، وبالنهاية تتكون منه خلايا جديدة بدلا من الخلايا القديمة، ومن أمثلة خروج الميت من الحي موت الخلايا التي يتخلص منها الجسم الحي بالتنفس والافراز. وتكلمنا عن الحياة عند تفسير الآية ٩٥ من سورة الأنعام، فقرة: «من أين جاءت الحياة».

٤- (وَمَنْ يُدَبِّرِ الْأَمْرَ) في الكون كله بما فيه ومن فيه (فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) الله وتخافونه فيما اخترعتم له من شركاء؟ .. انهم لا ينكرون ان الله وحده هو الذي يرزق ويملك السمع والبصر والموت والحياة والأمر كله، ولكنهم يجعلون لله شركاء .. أما سر هذا التناقض فهو انهم نظروا الى الخالق نظرة موضوعية فأمنوا بأنه المكون والمصور، ثم نظروا الى ما يقربهم منه زلفى نظرة عاطفية ذاتية فأخطأوا الواقع، فبدلا ان يتقربوا اليه بالعمل والإخلاص اخترعوا له في أوهامهم شركاء، وتقربوا بهم اليه.

(فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ) أبدا لا واسطة بينهما اما حق و هدى و اما باطل و ضلال، والله سبحانه هو الذي خلق السموات والأرض بالحق وفيهما أسباب الرزق، و خلق السمع والبصر بالحق، وهما طريق العلم: وهو يملك الموت والحياة بالحق، وهذا الملك دليل القدرة والعظمة، وهو يدبر الأمر بالحق، وهذا التدبير يدل على العلم والحكمة .. فأى شيء بعد هذا الا الضلال والباطل والجهل والعدا (فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) تاركين الحق الى الضلال، والتوحيد الى الشرك.

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ). كذلك اشارة الى ما تقدم من انه ليس بعد الحق الا الضلال، والمراد بكلمة ربك هنا العذاب كقوله تعالى: «وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ - ٧١ الزمر»، والمراد بالذين فسقوا المشركون، والمعنى ان الله سيعاقب المشركين عقاب من عاند الحق ورفض الايمان به بحال من الأحوال، لأن هذا هو شأنهم في الواقع، فلقد دعوا الى التوحيد، وقامت عليه عندهم الدلائل والبيئات، ومع ذلك أصروا على الشرك و ماتوا عليه.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٥٦

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُهِ قُلْ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُهِ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) أي قل يا محمد للمشركين: ان الله يخلق الشيء من لا شيء، و يعيد الحياة لمن مات، فهل يقدر شركاؤكم على ذلك؟ وإذا عجزوا عنه فكيف تتحولون عن التوحيد الى الشرك؟

و تسأل: لقد عرفنا وجه الاحتجاج على المشركين بأن الله يبدأ الخلق لأنهم يعترفون بذلك، أما الاحتجاج عليهم بإعادته فلم نعرف له وجهاً لأن المشركين ينكرون الاعادة والحشر والنشر؟.

الجواب: لقد أقام القرآن في العديد من آياته الحجج الكافية الوافية على الاعادة والحشر والنشر، وعجز المشركون عن ردها والطعن فيها، وعجزهم هذا هو الوجه في إلزامهم و الاحتجاج عليهم بأن الله يعيد الخلق كما بدأه أول مرة. و بكلمة ان الحكم يرتكز على الدليل، لا على تسليم الخصم به.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٣٥ الى ٣٩]

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ



يَهْدِي فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْ يَفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَلْعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٥٧

الإعراب:

هل من شركائكم (من) هنا للتبعيض أي هل بعض شركائكم. و من يهدي إلى الحق (يهدي) و هدى تتعدى إلى مفعولين، إلى الأول بنفسها و إلى الثاني بواسطة إلى أو اللام، و المفعول الأول هنا محذوف أي من يهدي أحدا إلى الحق. و الله يهدي للحق تقديره يهدي من يشاء للحق. و أحق هنا ليست للتفضيل، بل هي بمعنى حقيق. و المصدر المنسب من يتبع مجرور بياء محذوفة أي حقيق بالاتباع.

و المصدر المنسب من أن يهدي في محل نصب على الاستثناء. و أمن لا يهدي بفتح الياء و تشديد الدال معناه لا يهدي في نفسه. فما لكم مبتدأ و خبر، و كيف في محل نصب بتحكمون. و شيئا في قوله: «لا يغني من الحق شيئا» مفعول مطلق. «و ما كان هذا القرآن» هذا اسم كان و القرآن عطف بيان، و المصدر المنسب من أن يفتري خبر كان أي ما كان هذا القرآن افتراء، و تصديق بالنصب خبر كان محذوفة أي و لكن كان القرآن تصديق، و تفصيل الكتاب عطف على تصديق. و ام يقولون (ام) منقطعة أي يقولون. و لما يأتهم أي لم يأتهم. و كيف خبر كان مقدم، و عاقبة اسمها مؤخر.

المعنى:

(قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ). تضمنت هذه الآية الرد على من يعبد مع الله إلهًا آخر، و وجه الرد أن أول صفة يجب أن يتحلى بها المعبود أن يكون هاديا إلى الحق بذاته، دون أن يستمد الهداية من غيره، أما من لا يهدي إلى الحق فلا يصلح للألوهية بحال.. و هذه حقيقة لا تقبل الجدل و النقاش،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٥٨

و لذا أمر الله نبيه محمدا (ص) أن يحتج بها على المشركين، و يلقي عليهم هذا السؤال المحرج: هل يوجد واحد من أصنامكم هذه التي تعبدونها من يهدي إلى الحق؟. و ليس من شك أنهم لم يجروا على الجواب لأن أصنامهم أحجار صماء نحتوها بأيديهم. و بما أن النبي (ص) يملك الدليل القاطع على أن الله يهدي إلى الحق وجه الله إليه هذا الأمر:

(قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ) دون غيره، و هدايته ذاتية غير مكتسبة، و الدليل على أن الله يهدي إلى الحق الرسل الذين أرسلهم إلى عباده مبشرين و منذرين، و الكتب التي أنزلها عليهم، و فيها الآيات البينات التي ترشد الناس إلى خيرهم و سعادتهم، و هذا محمد يقابل المشركين و الجاحدين و جهال لوجه، و يتحداهم بالقرآن الذي فيه تبيان كل شيء، فإين هي رسل شركائكم أيها المشركون و كتبها؟.

و لو كان لله شريك لجاؤنا رسله.

و تجدر الإشارة إلى أنه ليس الغرض من ذلك المقارنة بين الله جلت كلمته و بين الأصنام، كلا.. وإنما القصد إيقاظ

المشركين و تنبيههم إلى جهلهم و ضلالهم عسى أن يؤوبوا إلى رشدهم، و يرجعوا عن غيهم.

(أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى). أحق هنا بمعنى حقيق و جدير، و **(أَمَّنْ لَا يَهْدِي)**

بتشديد الدال معناها لا يهتدي ..

بعد أن ذكر سبحانه ان الله يهدي إلى الحق، و ان غيره لا يهدي إلى الحق، بعد هذه المقدمة أوضح نيتها، و هي ان الله وحده هو الذي يجب أن يتبع دون غيره، و أشار إلى هذه النتيجة بهذا السؤال الذي يحمل معه الجواب:

أيهما يجب اتباعه و الاهتداء بهديه: الله الهادي بذاته، أم شركاؤكم التي لا تهتدي إلا بمعلم و مرشد؟.

و تسأل: ان مشركي مكة المخاطبين بهذا السؤال كانوا يعبدون الأصنام، و هي أحجار لا تهتدي و ان حاول المعلمون و المرشدون هدايتها، فما هو الوجه لقوله تعالى: الا ان يهدي؟.

و أجاب المفسرون بأن هذا على سبيل الفرض، أي لو افترض - جدلا- أن أصنامكم أيها المشركون تهتدي ان هديت فهي لا تصلح أن تهدي إلى الحق،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٥٩

و من كان كذلك فلا يكون إليها .. و الأولى في الجواب ان الآية وردت للرد على جميع المشركين، لا على مشركي مكة فقط الذين يعبدون الأحجار بل عليهم، و على من يعبد إنسانا أو ملكا من الملائكة، و على هذا يكون معنى الآية ان كل من لا يهدي إلى الحق بذاته فهو لا يصلح للألوهية، سواء أ كان فاقدا الأهلية و الاستعداد للهداية كالحجر أم كان قابلا لأن يهتدي بواسطة المعلم و المرشد كالإنسان و الملك. **(فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)** و تؤمنون بالخرافات و الضلالات، مع الأدلة الواضحة على فسادها و بطلانها؟.

(وَمَا يُتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا) الضمير في أكثرهم يعود إلى المشركين، و أخرج بعضهم، لأن فئة من المشركين كانوا يعتقدون بصدق محمد و نبوته، و يعلمون علم اليقين بأن أصنامهم ليست بشيء، و لكنهم عاندوا و كابرنا حرصا على منافعهم و امتيازاتهم، أما الأكثرية الغالبة من المشركين فقد كانوا يعبدون الأصنام تقليدا للآباء .. و عبر سبحانه عن عبادتهم لها بالظن مع انهم كانوا على يقين بأنها تضر و تنفع، لأن يقينهم هذا لا يستند إلى أساس صحيح، و كل يقين يستند إلى التقليد و ما إليه يجوز التعبير عنه بالظن، و تكلمنا عن التقليد مفصلا في ج ١ ص ٢٥٩ عند تفسير الآية ١٧٠ من سورة البقرة.

(إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) ليس المراد بالظن هنا عدم القطع و الجزم، كما يبدو للوهلة الأولى، و إنما المراد به الإيمان بأصل من أصول الدين، أو بفرع من فروع بلا دليل من العقل أو الوحي، حتى و لو بلغ هذا الإيمان مبلغ القطع و الجزم، كتقليد المشركين في عبادة الأصنام، و الحاد الملحد قبل أن ينظروا و يبحثوا عن سبب الكون و وجوده، و ما فيه من نظام و انسجام، و هل كان بالصدفة أو بتدبير عليم حكيم؟.

و هذه الآية واضحة الدلالة على نفي القياس و بطلانه فيما يرجع إلى القضايا الدينية، لأنه عمل بالظن الذي لا يغني عن الحق في أصول العقيدة، و أحكام الشريعة.

أما القضايا الزمنية، و الشؤون الدنيوية فخارجة عن موضوع الآية. و كيف ينهى الله عن اتباع الظن في الزراعة و التجارة و العلاقات الاجتماعية؟ .. و لو وقف الناس في كل شيء عند العلم و اليقين فقط لتعطلت الحياة .. أجل، لا يجوز

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٦٠



إدانة أحد بشيء و تجريمه و الشهادة عليه إلا بعد العلم، و السر هو الحرص على أن تسبر الحياة في طريقها القويم، و بالاختصار ان اتباع الظن حتم في موارد، و نهى في موارد، و صاحبه بالخيار في موارد أخرى .. و من أحب معرفة التفاصيل فليرجع إلى كتاب فرائد الأصول المعروف بالرسائل للشيخ العظيم الأنصاري، فقد تعمق في بحثه، و استغرق حوالي ١٥٠ صفحة بالقياس الكبير.

(إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ). هذا تهديد للمشركين الذين اتبعوا الظن في عبادة الأصنام و تكذيب النبي (ص) دون أن يقيسوا ظنهم هذا بمقياس الفطرة و العقل، و هو أيضا تهديد لكل من يتبع الظن في أمر من أمور الدين.

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ) لا عجزه في الأسلوب، و لما فيه من علوم و شريعة انسانية، و آداب اجتماعية، و إخبار بالغيب، و ما الى ذلك مما يستحيل معه ان يكون من عند غير الله **(وَلَكِنَّ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ)** مما تقدمه من الكتب الإلهية **(وَتَفْصِيلِ الْكِتَابِ)** المراد بالكتاب هنا كل ما شرعه الله مما يحتاجه الإنسان لسعادته دنيا و آخرة **(لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)** أي لا ينبغي لعقل ان يرتاب في كتاب الله، و قد حوى من المعجزات و الآيات ما تدعن له الفطرة الصافية و العقل السليم.

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ). سبق نظيره مع

التفسير المفصل في سورة البقرة الآية ٢٣ ج ١ ص ٦٤.

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) هذا هو شأن الجاهل الأرعن يسرع الى التصديق أو التكذيب قبل أن يتأمل و يتدبر، و في قوله: **(بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ)** اشارة الى ان العاقل لا يثبت شيئا و لا ينفيه الا بعد أن يدرسه بروية و هدوء دراسة شاملة كاملة من جميع جهاته **(وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)** أي ان المشركين كذبوا بالقرآن قبل أن يعرفوا ما فيه من حقائق و أسرار، و لو انهم عقلوا تعاليمه و أحكامه لصدقوا به إن كانوا من طلاب الحقيقة.

و جاء في مجمع البيان: «قيل: ان أمير المؤمنين علي (ع) أخذ من هذه الآية قوله: الناس أعداء ما جهلوا، و أخذ قوله: قيمة كل امرئ ما يحسن

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٦١

من قوله تعالى: «فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدِ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ»، و أخذ قوله: تكلموا تعرفوا من قوله سبحانه: «وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ».

(كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) كقوم نوح و عاد و ثمود، و غيرهم ممن كذبوا رسلهم قبل أن يدركوا حقيقة ما جاؤوهم به من الخير و الرشاد **(فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)** من الهلاك و الوبال: «فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ - ٤٥ الأنعام».

[سورة يونس (١٠): الآيات ٤٠ الى ٤٤]

وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلِكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا عَمِلْتُمْ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ وَ لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَىٰ وَ لَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ (٤٣) إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَ لَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)

المعنى:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ). ضمير منهم يعود الى المشركين، و ضمير به يعود الى القرآن، و المعنى ان المشركين بالنظر الى القرآن على قسمين: قسم ترك الشرك و آمن بكتاب الله مخلصا، و بديهة ان الايمان بكتاب

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٦٢

الله ايمان بالله و بمحمد (ص). و قسم أصر على الشرك عنادا و حرصا على منافعه، و هؤلاء هم الذين هددهم الله بقوله: (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ) و هذا يومئ الى أن كلمة مفسد لا تختص بمن يفتن بين الناس أو يعتدي عليهم، بل تعم كل من عرف الحق، و لم يعمل به.

(وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ). سألني كثير من المؤمنين عن واجبهم الشرعي تجاه أبنائهم الذين جرفتهم تيارات التمدين، و تهاونوا في الدين و أحكامه .. فأجبتهم بأن على الوالد أن يربي أولاده الصغار على الدين، و ينشئهم على مبادئه الضرورية، فيلقنهم أصول العقيدة، و يمرنهم على العبادة الواجبة كالصلاة و الصيام، و معرفة الحرام كالكذب و الغيبة و تعاطي المسكرات و ما اليها الى ان يبلغوا راشدين، فإن قصر في هذا الدور كان مسؤولا أمام الله .. و بعد الرشد يقف معهم موقف البشير النذير، فإن لم يستجيبوا فهو معذور عند الله، ثم اتلوا هذه الآية، أو ما في معناها من الآيات و الأحاديث، كقوله تعالى: «وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ - ٢٩ الكهف»، و قول الرسول الأعظم (ص): «الولد سيد سبع سنين، و عبد سبع سنين، و وزير سبع سنين، فإن رضيت خلانقه لإحدى و عشرين سنة و الا فاضرب على جنبه، فقد أعذرت الى الله تعالى». أي يترك الولد في السبع الأولى لصغر سنه، و يؤدب في السبع الثانية كمن لا ارادة له، و يوجه في السبع الثالثة كمن مستقل، و قوله: فاضرب على جنبه كناية عن اليأس منه، و ان الوالد غير مسؤول عن سيئات ولده.

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ) أي ان من المشركين أو المكذبين من يستمعون الى النبي (ص) بأذانهم فقط، أما قلوبهم و عقولهم فهي غائبة عنه، تماما كمن لا سمع له (أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ) كلام الله و كلامك أيها الرسول .. نزل الله سبحانه من سمع و لم يفهم، أو فهم و لم يعمل - نزله منزلة من لا سمع له، لأن الغاية من حاسة السمع الاستفادة منها، و الانتفاع بها، فإذا لم تتحقق هذه الغاية كان وجود الحاسة و عدمها سواء.

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ) بأبصارهم، و لكنهم لا يعرفون قدرك و مقامك

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٦٣

أيها الرسول، حتى كأنهم بلا أبصار (أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ) أي كما انك لا تقدر ان تجعل الأعمى سميعا، و الأعمى بصيرا كذلك لا تستطيع ان تهدي بالقرآن من يستمع و ينظر اليه و اليك من خلال أهوائه و أغراضه .. و قديما قيل: الهوى يعمي و يصم.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَ لَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ). ما في ذلك ريب، لأن الله أعطاهم القدرة و الإدراك و بين لهم طريق الخير و الشر، فنهاهم عن هذا، و أمرهم بذلك، و جعل الخيار بأيديهم، فمن أطاع فقد اختار لنفسه النجاة، و من عصى فقد اختار لها الهلاك .. و غريب ان تخفى هذه الحقيقة الواضحة على الأشاعرة، و يدركها إبليس اللعين، حيث يقول لأتباعه يوم لا كذب و لا خداع: «فَلَا تُلْمُونِي وَ لَوْ مَا أَنْفَسَكُمْ - ٢٢ ابراهيم».

[سورة يونس (١٠): الآيات ٤٥ الى ٤٧]



و يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَا مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥)
وَأَمَّا نُرَيْنِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧)

الإعراب:

يوم مفعول لفعل محذوف أي أُنذِرهم يوم نحشرهم. و كأن مخففة من الثقيلة، و اسمها محذوف أي كأنهم. و ساعة ظرف متعلق بيلبثوا. و من النهار متعلق بمحذوف

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٦٤

صفة لساعة، و جملة كأنهم و ما بعدها حال من ضمير يحشرهم، أي مشبهين من لم يلبث إلا ساعة. و إنما مركبة من كلمتين ان الشرطية و ما الزائدة، و جواب الشرط فإلينا مرجعهم. و ثم هنا للترتيب لفظاً، لا معنى.

المعنى:

(و يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ). قوله: ساعة من النهار كناية عن ان الحياة و ان طالت و طابت فهي قصيرة الأمد، لأنها إلى فناء ..

و أقوال الناس في ذم الدنيا نثرا و شعرا تستغرق مجلدات .. و غريبة الغرائب انهم يجمعون قولاً على ذمها، و عملاً على حبها، فيجمعون بين الذم و حب المذموم.

بل لو ردوا الى الدنيا بعد الموت و أهواله لعادوا لما نهوا عنه، و ان دل هذا على شيء فإنما يدل على ان الرجال لا تعرف بالأقوال.

(يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ). ظاهر اللفظ يدل على ان المجرمين يعرف بعضهم بعضاً يوم الحشر، و بالأولى الطيبون.

و تسأل: ألا يتنافى هذا بظاهره، مع قوله تعالى: «يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ - ٢ الحج»؟.

الجواب: فرق بين يوم النشر و الحشر، و بين يوم القيامة الذي هو عبارة عن خراب الكون و دماره، و آية الحج تحكي حال الناس يوم القيامة، و قوله تعالى: (يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ) يحكي حالهم يوم الحشر .. هذا، إلى ان مواقف الحشر كثيرة يملك الناس ادراكهم في موقف بخاصة عند الحساب، و يفقدونه في مواقف، كما لو عرضوا على النار (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَا مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ). كل من عمل لشيء لا وجود له، أو أهمل و لم يعمل للشيء الموجود الذي يرتبط بكيانه و مصيره - فهو من الضالين الخاسرين. و هذه حال من عمل للدنيا دون الآخرة، سواء أكذب بها، أم صدق و لم يعمل لها.

(وَأَمَّا نُرَيْنِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ). الخطاب في نرينك و نتوفينك للنبي (ص)، و ضمير نعدهم و مرجعهم للذين كذبوا بنبوته،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٦٥

و المعنى ان الله سبحانه هدد و توعد المكذبين بالخزي و الذل على تكذيبهم، و هذا الخزي واقع بهم لا محالة في حياة الرسول أو بعد وفاته، و في سائر الأحوال فان مصيرهم اليه تعالى، فيعذبهم العذاب الأكبر (ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ).

أي مطلع على جميع أفعالهم، لا يغيب شيء منها عن علمه: و سيجازيهم عليها بما يستحقون.

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ) يبشرها وينذرها، و بعد الانذار و الاعذار يكون الحساب و العقاب، إذ لا عقوبة من غير نص (فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ) و بلغهم ما تجب معرفته عليهم من أمور الدين، و لم يبق من عذر لمعتذر (قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ) فيحكم لمن استجاب لله و رسوله بالفوز و الثواب، و على من أعرض و نأى بالخذلان و العقاب (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) فلا نقصان من ثواب من أطاع، و قد يزداد، و لا زيادة في عقاب من عصى، و قد تشمله الرحمة، و هذا المعنى يدل عليه قوله تعالى: (بِالْقِسْطِ) و لكن من عادة القرآن أن يؤكد كل ما يتصل بالآخرة و ثوابها و عقابها.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٤٨ الى ٥٦]

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَلَمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ الْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢)

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لِحَقٌّ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسْرَوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) إِلَّا إِنْ لَلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَ لَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يَحْيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٦٦

الإعراب:

متى هذا الوعد، هذا مبتدأ مؤخر، و متى خبر مقدم، و الوعد عطف بيان.
و ما شاء الله (ما) مصدرية و المصدر المنسب مجرور بباء محذوفة، أي بمشيئة الله. و بيئات ظرف زمان أي ليلا و العامل فيه أتاكم. و ما ذا يستعجل مبتدأ و خبر أي ما الذي، و يجوز أن تكون ما ذا كلمة واحدة بمعنى أي شيء: و عليه يكون محلها نصب بيستعجل. و ثم حرف عطف و تقدمت همزة الاستفهام كما تقدم على الواو و الفاء بقصد التقرير و التبريع. و الآن كلمتان همزة الاستفهام و الآن ظرف زمان متعلق بآمنتهم محذوفة أي الآن آمنتهم، و لا تتعلق بآمنتهم المتقدمة على همزة الاستفهام لأن النحاة قالوا: الاستفهام يمنع الفعل من العمل فيما بعده. و هو مبتدأ مؤخر، و حق خبر مقدم. و إي حرف جواب بمعنى نعم في القسم خاصة.
و انه لحق جواب القسم. و المصدر المنسب من ان لكل نفس فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت. و الآن (الأ) أداة تنبيه.

المعنى:

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ). في الآية السابقة ٤٥ هدد سبحانه المكذابين بلقائه، هددهم بأنه سيحييهم بعد الموت، و يعاقبهم على تكذيبهم.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٦٧

و في هذه الآية ٤٨ أشار تعالى الى انهم أجابوا عن هذا التهديد بقولهم استخفافا و استهزاء: متى يكون ذلك؟. (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) أي انكم تسألونني عن شيء لا املك من أمره شيئا، بل و لا من أمر نفسي، فبالأولى غيرها. و تقدم نظيره في سورة الأعراف الآية ١٨٧.

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ).

تقدم مثله في سورة الأعراف الآية ٣٣، وتكلمنا عن الأجل مفصلاً في ج ٢ ص ١٧١ فقرة «الأجل محتوم» عند تفسير الآية ١٤٥ من سورة آل عمران.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ).

أرأيتم معناها اخبروني .. كذب المشركون بعذاب الآخرة، واستعجلوه مستهزئين، فأمر الله نبيه ان يقول لهم: اخبروني ما أنتم صانعون إذا نزل بكم العذاب، وأنتم إيقاظ أو نيام، ثم اي عذاب تستعجلون ايها الحمقى؟ هل تستعجلون عذاب الدنيا، او عذاب الآخرة؟ و أيا كان هل تقدرتون على دفعه والخلاص منه؟ و هل من احد يستطيع الفرار من الله الا اليه؟ **(أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ).** لقد شاهدنا كثيرا من الحمقى يحاولون الاقدام على الأخطار والمهالك، او يحجمون عما فيه خيرهم و صلاحهم، فيصحهم العقلاء المشفقون، و يحذرونهم سوء العواقب، فيصمون آذانهم، و يركبون عنادهم، فيفعلون الشر، او يتركون الخير مستخفين بالعاقبة و من حذر منها، حتى إذا وقعت الواقعة قالوا: يا حسرتنا على ما فرطنا في نصح الناصحين .. و هذا هو بالذات حال المكذبين باليوم الآخر، كذبوا به، حيث ينفعهم التصديق و العمل، و صدقوا به، حيث لا عمل و لا جدوى من الاعتراف و التصديق.

(الآنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) الآن و أنتم في يوم الحساب و العقاب الذي لا ايمان فيه و لا عمل تعترفون و تؤمنون، و في يوم الايمان و العمل أنكرتم و أعرضتم؟.

ان الايمان بالله و اليوم الآخر هو الاعتراف بهما في علم الغيب، اما الاعتراف بهما بعد الروية و جها لوجه فما هو من الايمان المطلوب في شيء، و ان استحال الفرض بالنسبة الى رؤيته تعالى.

(ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ). السجن المؤبد في الحياة الدنيا

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٦٨

ينتهي بالموت، اما من سجن في جهنم فلا يقضى عليه فيموت، و لا يخفف عنه من عذابها **(هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ).** و لو عوقبوا بما لم يكسبوا لكان الله ظالما .. حاشا من لا يشغله غضبه عن عدله.

بالله عليك يا محمد أنت نبي؟

(وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ) العذاب الذي وعدتنا به **(قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ).** ذكر القرآن الكثير من الآيات و البينات على نبوة محمد و صدقه في جميع أقواله و أفعاله، منها آية التحدي بالقرآن، و منها آية المباهلة، و منها الآية ١٦ من هذه السورة: «فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

و وجه الدلالة فيها أن من عرفه الناس بالأمانة و الصدق و الاستقامة أربعين عاما فعليهم أن يصدقوه في جميع أقواله، حتى يثبت العكس .. و قد اشتهر النبي (ص) قبل البعثة بالصادق الأمين فعلى من عرفه بهذا الوصف ان يصدقوه في دعوى النبوة انسجاما مع علمه بأمانة محمد (ص) .. و لكن الأهواء و المآرب تحول بين المرء و قلبه و عقله .. أما الذين تجردوا عن الغايات و الشهوات، و طلبوا الحق لوجه الحق فقد آمنوا به منذ البداية، و من هؤلاء من اكتفى بمجرد قوله: أنا رسول الله، و لم يطلب بيعة و لا يمينا معتمدا على السوابق كعلي بن أبي طالب، و منهم من طلب البيعة، و منهم من اكتفى باليمين كضمام بن ثعلبة: قال الرواة: و فيهم الإمام ابن حنبل و البخاري و مسلم:

بينما رسول الله في المسجد إذ دخل رجل، و قال: أيكم محمد؟. فأرشد اليه.

قال الرجل لمحمد (ص): اني أسالك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك.

النبي: سل ما بدا لك.

الرجل: أسالك بربك و رب من قبلك: هل أرسلك الله الى الناس كلهم؟

النبي: اللهم نعم.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٦٩

الرجل: انشدك الله: هل أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم و الليلة؟

النبي: اللهم نعم.

الرجل: انشدك الله: هل أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟.

النبي: اللهم نعم.

الرجل: انشدك الله: هل أمرك أن تأخذ الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟.

النبي: اللهم نعم.

الرجل: آمنت بما جئت به، و أنا رسول من ورائي من قومي .. أنا ضمام ابن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر. ثم خرج الرجل من المسجد، و كان أشعر ذا عقيصتين - العقيصه من الشعر المفتول و المجدول - فقال النبي (ص): ان صدق الرجل يدخل الجنة.

و لما أقدم على قومه اجتمعوا اليه: فكان أول كلامه ان قال: بثست اللات و العزى. فقالوا: صه يا ضمام، اتق البرص و الجذام. قال: ويلكم انهما ما يضران و لا ينفعان، ان الله قد بعث إليكم رسولا، و أنزل كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه، و اني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، و أشهد ان محمدا عبده و رسوله، قد جئتمكم من عنده بما أمركم به و نهاكم عنه.

و كما آمن هو بمحمد من أيسر الطرق و أبسطها كذلك أسلم قومه رجالا و نساء من هذا الطريق بالذات. و هكذا كل من كان الحق بغيته و أمنيته يؤمن به بمجرد أن تلوح دلئلته، من أي نحو أتت، تماما كصاحب الحاجة يعمى عن كل شيء الا عنها .. و قديما قيل: الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها. و المراد بالمؤمن كل من يؤمن بالحق بمجرد ظهوره من غير كلفة و مشقة: «و الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِي حَبَّتْ لَآ يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا - ٥٧ الأعراف».

(وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ) من هول العذاب و شدته، و لا ينفعها الفداء شيئا. و الغرض من هذا الفرض التأكيد على انه لا يجدي في ذلك اليوم شيء الا الايمان و العمل الصالح:

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٧٠

«وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَ لَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ - ١٢٣ البقرة» **(وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ)** و لكن حيث لا ينفع الندم أسروه، أم أعلنوه **(وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يظلمون)** تقدم هذا بنصه الحرفي في الآية ٤٧ من هذه السورة، و ذكر هناك لمناسبة تحذير الرسول للمكذبين، و أعيد هنا لمناسبة عدم الجدوى من الفداء لو أمكن.

(الْإِنِّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ) يحكم و يفعل ما يشاء، و لا راد لمشيئته **(الْإِنِّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)** في مجيء اليوم الآخر و ثوابه و عقابه، و في كل ما وعد **(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)** ان الساعة آتية لا ريب فيها و ان الله يبعث من في القبور .. و أكثر الذين يعلمون و يؤمنون بهذا البعث لا يعملون له. و إذا كانت الأكثرية على وجه العموم لا تعلم،

وأكثرية «الأقلية» التي تعلم لا تعمل فالنتيجة الحتمية ان العالم العامل أندر من الذهب الأحمر. **(هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)**. فيعاقب من علم ولم يعمل بعذاب أشد وأعظم من عذاب من أهمل وقصر في طلب المعرفة من أجل العمل .. ان هذا مسؤول ما في ذلك ريب، ولكن مسؤولية من ترك العمل بعلمه أعظم بكثير ..

ان السعي لوفاء الدين واجب و من تركه فهو آثم، ولكن إثم من ترك، و هو يملك المال بالفعل، أشد و أعظم.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٥٧ الى ٦٠]

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَ حَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَ مَا ظَنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٧١

الإعراب:

شفاء هنا مصدر بمعنى الفاعل أي شاف، مثل رجل عدل بمعنى عادل. و بفضل الله و برحمته متعلق بفعل محذوف دل عليه الموجود، أي قل: ليفرحوا بفضل الله و برحمته. و فبذلك اشارة الى فضل الله و رحمته، و تتعلق بـ ليفرحوا، و الغرض من هذا التأكيد الإيماء الى ان الإنسان لا ينبغي له ان يفرح بشيء الا بفضل الله و رحمته. و ما في قوله تعالى: ما أنزل الله للاستفهام الانكاري، و موضعها النصب بانزل. و الله مركب من كلمتين: همزة الاستفهام، و لفظ الجلالة، أي الله. و ما ظن الذين (ما) مبتدأ، و ظن خبر.

المعنى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ). هذه الأوصاف الأربعة: الموعظة و الشفاء و الهدى و الرحمة هي أوصاف القرآن الكريم، و الغرض من ذكرها الرد على المشركين، و على كل من يرتاب في كتاب الله، و يرفض الاعتراف به، و وجه الرد ان القرآن يعظ الناس بالموعظة الحسنة، و يشفي القلوب من الأهواء و الرذائل، و يهدي للتي هي أقوم، و هو رحمة تنجي من يؤمن به و يعمل من الهلاك و العذاب، و على هذا فمن رفضه فقد رفض هذه المبادئ التي هي دعائم الحق و الخير، و سبل النجاة و الأمان. **(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)**. أي ان العاقل لا يفرح بالمال و أسباب الملذات في هذه الحياة، و انما يفرح و يغتبط بفضل الله و رحمته .. و قد أطال المفسرون الكلام حول معنى فضل الله و رحمته، و بيان

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٧٢

الفرق بينهما .. و سياق الآية يدل على ان المراد بهما هنا الهداية الى طريق الخير و النجاة، تماما كالفصل و الرحمة في قوله تعالى: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ - ١١٢ النساء». فقوله: (أَنْ يُضِلُّوكَ) يدل على ان المراد بفضل الله و رحمته تعالى الهداية أو التثبيت عليها، لأنها ضد الضلال، و مثلها الآية ٦٤ من سورة البقرة: «فَلَوْ لَا

فَضَّلَ اللهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا). هذه الآية قريبة المعنى من الآية ١٠٣ من سورة المائدة التي مر تفسيرها في ج ٣ ص ١٣٧، و محصل المعنى ان الله أمر نبيه أن يقول لمشركي مكة الذين جعلوا في الأنعام بحيرة و سائبة، و ما اليهما، أمره أن يقول لهم: اخبروني أي شيء وهب الله لكم من الرزق الذي جعل فيه حلالا و حراما، حتى قسمتم هذا التقسيم، و الاستفهام هنا للإنكار، أي انه تعالى ما جعل شيئا من هذا، بل هو من عنديا تكم فانتم و حدكم حرمتهم ما حرمتهم **(قُلْ اللهُ أَنْزَلَ لَكُمْ أُمَّ عَلَى اللهِ تَقْتَرُونَ)**، و لا يمكنهم الادعاء بأن الله اذن لهم فتعين انهم مفترون.

(وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). أي هل يتصور الذين يحللون و يحرمون من تلقائهم ان الله يتركهم غدا بلا عقاب على كذبهم و افتراءهم؟

اذن لا فرق عنده بين من اتقى و من عصى .. كيف؟ و هو القائل: «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ - ٢٨ ص». و هذا التويخ و التفرغ من أبلغ أساليب التهديد و الوعيد.

(إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ) بما أنعم عليهم من العقل و الشرع الذي أمرهم بالخير، و نهاهم عن الشر **(وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ)** اي لا يعملون بوحى العقل، و لا بحكم الشرع.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٧٣

[سورة يونس (١٠): الآيات ٦١ الى ٦٤]

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١) إِلَّا أَنْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)

اللغة:

الشأن و البال و الحال بمعنى واحد، تقول: ما شأنك؟ و ما بالك؟ و ما حالك. تفيضون فيه تدخلون فيه. و يعزب يغيب. و الذرة النملة الصغيرة، و تطلق أيضا على الدقيقة من الغبار. و المراد بالكتاب هنا اللوح المحفوظ. و البشرى و البشارة بمعنى واحد، و هي الخبر السار.

الإعراب:

الأداة تنبيه. و الذين آمنوا مبتدأ، و لهم البشرى خبر. و في الحياة الدنيا و في الآخرة متعلق بالبشرى. و لا تبديل (لا) نافية للجنس تعمل عمل ان، و تبديل اسمها و لكلمات الله خبرها.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٧٤

المعنى:

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ).



الخطاب في تكون للنبي (ص)، و الضمير في منه للشأن، و ضمير تعملون للنبي و أمته، و ضمير فيه للعمل، و تفيضون فيه أي تدخلون فيه، و المعنى الجملي أن ما من حال يكون عليها النبي و أمته إلا و هي في علم الله **(وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)**. معنى يعزب يغيب، و الكتاب المبين اللوح المحفوظ، و يتلخص مجموع الآية بأن الله واسع عليم بكل شيء دون استثناء، و المراد بعلمه هنا جزاؤه على أقوال الناس و أفعالهم خيرا كانت أو شرا، كبيرة كانت أو صغيرة، و اطلاق علمه على جزائه تعالى من باب اطلاق السبب و ارادة المسبب، لأن علمه بما يصدر من الإنسان سبب للجزاء عليه، ان خيرا فخير، و ان شرا فشر.

(الْإِنِّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ). و وصف الإمام علي (ع) أولياء الله بقوله: «هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها، و اشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا ما خشوا أن يميتهم - أي الهوى - و تركوا منها ما علموا انه سيتركهم». و قال: «ان أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاءوا به، و ان ولي محمد من أطاع الله و ان بعدت لحمته، و ان عدو محمد من عصى الله و ان قربت قرابته». و معنى هذا ان مجرد التصديق بلا تقوى و عمل لا يجدي نفعا، و اليه يشير قوله تعالى: **(الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ)**. و تكلمنا عن ذلك في ج ١ ص ٣١٤ فقرة: «لا ايمان بلا تقوى» عند تفسير الآية ٢١٢ من سورة البقرة، و في ج ٢ ص ٢٣٧ فقرة «التقوى» في آخر سورة آل عمران.

(لَهُمُ الْبَشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ). ضمير لهم يعود الى المتقين، و بشارتهم في الدنيا من الله تعالى انهم على حق في عقيدتهم و عملهم .. و ليس من شك ان النفس تطمئن و تستشعر الغبطة و السعادة إذا كانت على ثقة من دينها

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٧٥

و أعمالها، أما بشارة المتقين في الآخرة فهي فرحتهم بنعمة الله و فضله: «يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَ فَضْلِهِ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ - ١٧١ آل عمران».

(لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ) لأن الله لا يخلف وعده، و إذا أراد شيئا فلا راد لمشيئته: «وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ - ١٠٧ يونس» **(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)** الذي ليس وراءه فوز، و كل فوز يأتي نتيجة للايمان بالحق و الجهاد في سبيله فهو عظيم.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٦٥ الى ٧٠]

وَ لَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنْ الْعِزَّةُ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) الْإِنِّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مِنْ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلِحُونَ (٦٩)

متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون (٧٠)

اللغة:

العزة الغلبة والقوة، ويعز بفتح العين إذا اشتد و بكسرها إذا صار نادرا. والخرص الحدس والقول بلا علم. ومبصر على سبيل المجاز أي مبصر فيه، مثل ليل نائم أي فيه. والسلطان الحجة والبرهان.

الإعراب:

ان العزة لله جملة مستأنفة، وليست مفعولا للقول لأن النبي (ص) لا يحزنه قولهم: العزة لله. وما يتبع (ما) نافية، و مفعول يتبع محذوف أي ما يتبعون شريك الله حقيقة، لأن الله لا شريك له. إن يتبعون (ان) نافية. وان هم مثلها. والمصدر المنسب من لتسكنوا متعلق بمحذوف مفعولا لجعل أي جعل الليل مظلما لسكنكم فيه. وان عندكم من سلطان (ان) نافية، وعندكم خبر مقدم، ومن زائدة اعرابا، و سلطان مبتدأ مؤخر، وبهذا متعلق بسلطان. و متاع في الدنيا خبر مبتدأ محذوف أي ذلك متاع.

المعنى:

(وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا). جن جنون المرابين و أرباب الامتيازات من دعوة محمد (ص) الى العدل والمساواة، و تحريم الظلم والاستغلال، جن جنونهم من هذه الدعوة التي تؤدي بعزهم و ثرائهم، و هم يملكون السطوة و خزائن الأرض .. فقاوموا النبي (ص) أول ما قاوموه بالافتراءات و الاشاعات، و قالوا: هو مجنون. فما صدقهم أحد، فقالوا: هو ساحر. فكذبتهم الوقائع، فصمموا على اغتياله، و تشاوروا في طريق الاغتيال، فقال الله لبيه الأكرم: لا تبال بما يقولون عنك، و ما يدبرونه لك، فإن القوة و العزة جميعا لله، لا للمال، و لا للجاه، فهو الذي يعز من يشاء، و يذل من يشاء، و سينتقم من الذين كذبوك، و قالوا عنك ما قالوا .. و لا يجدون و ليا و لا نصيرا يدرأ عنهم

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٧٧

نقمة الله و غضبه **(هُوَ السَّمِيعُ)** لافترائهم عليك **(الْعَلِيمُ)** بما يدبرونه لك من الكيد .. و انه لهم لبالمرصاد. و تسأل: لقد دلت هذه الآية على ان العزة بكاملها لله وحده، لا يشاركها فيها أحد، مع ان الآية ٨ من سورة «المنافقون» تقول: «و لله العزة و لرسوله و للمؤمنين»؟.

الجواب: ان عزة الرسول و المؤمنين هي لله، و من الله، فبه يعززون، و منه يستمدون.

(الْأَيْنَ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) و من كان له هذا الملك فهو قادر على نصرته نبيه، و إعزازه و الانتقام من أعدائه. و قال تعالى (من) و لم يقل (ما) لأن الكلام عن المشركين الذين افتروا الكذب على الله و نبيه **(وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ)**. إذا اتبعت إنسانا معتقدا بصلاحه، و هو ضال في الواقع فأنت لا تتبع صالحا، بل ضالا، و هذه هي حال من يعبد الأصنام معتقدا بأنها شريكة لله .. انه لا يعبد شركاء الله لسبب واضح و بسيط، و هو انه ليس لله شركاء، و يوضح ارادة هذا المعنى قوله تعالى: **(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)**. و قوله: ان هم الا يخرصون تأكيد لقوله:

ان يتبعون الا الظن، و الجملتان تفسير و توضيح لقوله: و ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء. و سبق نظير هذه الآية مع البيان في الآية ٢٨ من هذه السورة.



(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ). مبصرا أي نبصر فيه للكدر والكدر، أما الليل فظلام لأنه للسكن من متاع النهار، وأوضح تفسير لهذه الآية قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ - أَي جَعَلْنَاهَا مَظْلَمَةً - وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ - ١٢ الإسراء».

(قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ). سبق مثله مع ذكر الأدلة على نفي الولد عنه تعالى في سورة البقرة الآية ١١٧ ج ١ ص ١٨٦، و تكلمنا عن الأقانيم الثلاثة: الأب و الابن و روح القدس في ج ٢ ص ٣٤٤.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٧٨

(قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ) في الآخرة التي هي خير و أبقى من حياتنا هذه. و يكون عذابهم أشد، و حسرتهم أعظم إذا كان افتراؤهم قولاً في ذات الله و صفاته، و نسبة الشريك له و صاحبة و الولد. (متاع في الدنيا) أي ان ما فيه المشركون من نعم هو متاع حقير، و ان كثر ما لهم، و اتسع جاههم، لأنه قصير الأمد، و مشوب بالمنغصات، و ما هو بشيء إذا قيس بنعيم الآخرة (ثُمَّ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) بالله و نعمه و تكذيب رسله.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٧١ إلى ٧٣]

وَآتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَةً ثُمَّ افْضُوا إِلَيَّ وَ لَا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ مِنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ جَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَ أَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ (٧٣)

اللغة:

النبا الخبر الذي له شأن. و اجمع الأمر عزم عليه من غير تردد. و الغمة

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٧٩

ضيق الأمر الذي يوجب الحزن، و ضده الفرجة، و تستعمل في الستر، يقال:

غم الهلال إذا حال الغيم دون رويته. و خلائف أي يخلفون من مضى.

الإعراب:

إذ ظرف في محل نصب بنبا. و شركاءكم بالنصب عطفا على أمركم بتقدير و أمر شركاءكم. و ان اجري (ان) نافية. و المصدر المنسب من ان اكون مجرور بالباء المحذوفة أي بكوني. و كيف في محل نصب خبرا لكان، و عاقبة اسمها.

المعنى:

(وَآتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ) الخطاب في اتل لمحمد (ص)، و ضمير عليهم لمشركي مكة (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَةً ثُمَّ افْضُوا إِلَيَّ وَ لَا تُنظِرُونِ). ذكر محمد (ص) المشركين من قومه، و أنذرهم بالعذاب الأليم، فثقل عليهم تذكيره و إنذاره، و لكنه أصر على دعوته، فثقل عليهم مقامه، و حاولوا اغتياله، فأمره الله أن يتلو عليهم خبر نوح الذي ذكر قومه و أنذرهم، فكبر عليهم تذكيره و مقامه، تماما كما كبر تذكير محمد و مقامه على مشركي مكة.

ويتلخص نبأ نوح الذي تلاه محمد (ص) هنا على مشركي مكة بأن نوحا تحدى المكذبين له، وقال لهم: اني متوكل على الله واثق بالنصر عليكم، و ان كنتم أكثر عددا، و أقوى عدة، لأن الله وعدني بنصره، و هو لا يخلف الميعاد، أما تهديدكم اياي فإنه لا يثني عن المضي في الدعوة الى الله، و ما عليكم الا ان تجمعوا كل ما تقدرون عليه، و تضموا اليكم من تعبدون من دون الله، و تبلغوا كل غاية في الجهر بالعداء، و مواجهتي بالشر و الإيذاء، و تعجلوا ذلك، و لا تنتظروا.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٨٠

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ) أَي فَإِنْ أَعْرَضْتُمْ عَنْ دَعْوَتِي فَلَسْتُ مَبَالِيَا بِأَعْرَاضِكُمْ، لِأَنَّهُ لَا يَجْلِبُ لِي ضَرَا وَلَا يَفُوتُ عَلَيَّ نَفْعًا **(إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ)** لَا عَلَيْكُمْ، لِأَنِّي عَامِلٌ لَهُ، لَا لَكُمْ **(وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)** وَ قَدْ أَطَعْتُ وَ أُدِيتُ رِسَالَةَ اللَّهِ عَلَى وَجْهِهَا، وَ لَا شَيْءَ بَعْدَ هَذَا اسْلَمْتُمْ أَوْ كَفَرْتُمْ.

(فَكَذَّبُوهُ فَجَبَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا). وَ هَكَذَا يَنْتَهِي كُلُّ شَيْءٍ .. هَلَاكُ الْمَكْذِبِينَ، وَ نَجَاةُ الْمُؤْمِنِينَ، وَ اسْتِخْلَافُهُمْ مَكَانَ الْمَكْذِبِينَ الْهَالِكِينَ **(فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُؤَذَّرِينَ).** الْخَطَابُ لِلنَّبِيِّ (ص)، وَ الْغَرَضُ مِنْهُ أَنْ يَحْذِرَ مُشْرَكَو مَكَّةَ مِنْ أَنْ يَصِيبَهُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ، وَ سَبَقَ نَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ الْآيَةِ ٧٢.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٧٤ الى ٨٢]

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَ هَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَ تَكُونُ لَكُمْ أَلْبَابًا فِي الْأَرْضِ وَ مَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)

وَ قَالَ فِرْعَوْنُ أَتَنْوِينِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مَلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا الْقُوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرَ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَ يَحِقُّ لِلَّهِ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٨١

اللغة:

الملا أشرف القوم. و اللفت بفتح اللام الصّرف عن الأمر أو إلى الأمر.

الإعراب:

المصدر المنسب من ليؤمنوا متعلق بمحذوف خبرا لكانوا أي فما كانوا يريدون للايمان. و مفعول أو تقولون جملة محذوفة أي تقولون للحق هو سحر، ثم استأنف مستنكرا أسحر هذا، و سحر خبر مقدم، و هذا مبتدأ مؤخر، و الجملة لا محل لها من الاعراب. و تكون عطفا على لتلفتنا، و الكبرياء اسم تكون، و لكما خبرها، و في الأرض متعلق بالكبرياء. و بمؤمنين الباء زائدة اعرابا، و مؤمنون خبر نحن.



و ما جئتم به السحر (ما) استفهامية و محلها الرفع بالابتداء، و جملة جئتم خبر، و السحر بدل من (ما) على تقدير الاستفهام أي السحر، مثل كم مالك أعشرون أم ثلاثون؟.

المعنى:

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ). ضمير بعده يعود إلى نوح، و المعنى ثم بعثنا من بعد نوح رسلا مثله إلى قومهم كإبراهيم و هود و صالح، و معهم الدلائل و المعجزات، و لكن هذه المعجزات و الدلائل لم تثبتهم عن الشرك، و تحولهم إلى الايمان بوحدانية الله، و اليوم الآخر، فلقد كذبوا بهما من قبل أن تأتيهم الرسل بالبينات،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٨٢

و ظلوا على هذا التكذيب بعد مجيء الرسل و إنذارهم، تماما كما كانوا مصرين على التكذيب بالوحدانية و البعث قبل مجيء الرسل اليهم، و هذا هو المراد بقوله:

(فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ). و بكلمة انهم لم ينتفعوا بعلم الرسل و هدايتهم.

حول الهداية و الضلال:

(كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ). و تسأل: إذا كان الله هو الذي طبع على قلوبهم فكيف يعذبهم؟.

الجواب: لقد شاء الله سبحانه أن يكون للهداية طريقها الخاص، و هو اتباع رسله، و للضلالة طريقها كذلك، و هو اتباع الهوى، فمن مضى على طريق الرسل بلغ الهدى، و كان حتما من المهتدين: و من مضى على طريق الهوى فهو حتما من الضالين المعتدين، تماما كما قدر الله جل و عز أن من رمى بنفسه من علو شاهق فهو من الهالكين، و ان من ألقى بها في البحر جاهلا بفن السباحة فهو من الغارقين، و بهذا الاعتبار أي ارتباط الطريقين بمشيئة الله صح اسناد الطبع و الختم اليه تعالى، و سبق الكلام عن ذلك أكثر من مرة، و بعبارات شتى.

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ) هذا الضمير يعود إلى الرسل الذين جاءوا بعد نوح (ع) **(مُوسَىٰ وَ هَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ بِآيَاتِنَا)** و هي المعجزات كالعصا و اليد البيضاء، و قوله: **(بَعَثْنَا)** يدل بوضوح على ان هرون نبي مرسل تماما كأخيه موسى، و قيل: ان هرون يكبر موسى بثلاث سنوات **(فَاسْتَكْبَرُوا)** عن قبول الحق **(وَ كَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ)** و كل من استنكف عن قبول الحق و الرضوخ له فهو مجرم **(فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا)** و هو المعجزات التي أظهرها الله على يد موسى (ع) **(قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ)** و هكذا قال مشركو قريش عن محمد (ص) لما جاءهم بالقرآن و اعجازه .. و محال ان يسلم المصلح من افتراءات المفسدين، و هم يكيّفونها بحسب الزمن، كان الناس من قبل يؤمنون بالسحر، فقال المفترون عن المصلح: انه ساحر، أما اليوم حيث لا ايمان بالسحر فإنهم يقولون عنه فوضوي خارج على النظام!.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٨٣

(قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا) كيف؟. و الحق يستهدف هداية الناس الى الواقع، و السحر يزيّف الواقع و يحرفه، و يضلّل الناس عنه **(وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ)** و هل يفلح المشعوذ الدجال؟. **(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا - أي تصرفنا - عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا).** هذه معزوفة يرددها من يحافظ على الأوضاع الفاسدة التي تضمن له منافعه و مكاسبه .. فالمسألة مسألة خوف على المصلح و السلطان، لا مسألة آباء و أصنام .. و الدليل ما حكاه الله عنهم

بقوله: **(وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ)**. هذا قول فرعون و جلاوزته لموسى و أخيه (ع)، و المعنى ان الدافع لكما على ادعاء الرسالة من الله هو ان يكون لكما الملك و السلطنة في أرض مصر من دوننا .. و بهذا يفصح فرعون و ملوؤه عن تخوفهم على ملكهم و طغيانهم، و لذا قالوا لموسى و هرون، **(وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ)** بل مقاومين و محاربين دفاعا عن منافعنا و امتيازاتنا.

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُنُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ) و هو لا يعلم ما ذا يخبى الدهر له فلما جاء السحرة قال لهم موسى **(الْقَوَا مَا أَنْتُمْ مُلْفُونَ)**. قال هذا مستخفا بهم و بسحرهم و فرعونهم لأن الله سبحانه و وعده الفوز و النصر **(فَلَمَّا الْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ)** هو باطل من أصله، و لكن الله سيظهر بطلانه للناس، أما عصا موسى فلا يأتيها الباطل إطلاقا لأنها حق من عند الله **(إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)** بل يزيله و يمحقه **(وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ)** و هي الحجج الدامغة، و البراهين القاطعة **(وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)** لأن كراهيتهم لا تعطل مشيئة الله.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٨٣ الى ٨٩]

فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَن يُفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ لِمَنِ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَ قَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَ نَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَ أَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا وَ اجْعَلُوا بِيوتِكُمْ قِبْلَةً وَ اقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَ قَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَاهَ زِينَةً وَ أَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَ لَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٨٤

اللغة:

الذرية النسل. و الفتنة الابتلاء و الاختبار. و عال في الأرض أي مستبد. و تبوأ المكان أقام فيه. و القبلة ما يكون تلقاء الوجه، و منه قبلة الصلاة. و الطمس الازالة. و اشدد هنا مأخوذة من الشدة ضد الرخاء و الراحة.

الإعراب:

على خوف متعلق بمحذوف حالا من ذرية. و ضمير ملئهم يعود على قوم موسى، لأنهم أقرب من الذرية لفظا، و الضمير يعود الى الأقرب. و المصدر المنسب من ان يفتنهم بدل اشتغال من فرعون. و يا قوم أصله يا قومي، و حذفت الياء تخفيفا. و ان تبوءا (ان) بمعنى أي مفسرة لأوحينا، و تبوءا فعل أمر بمعنى اجعلا، و لقومكما اللام زائدة اعرابا و قومكما مفعول أول و بيوتا مفعول ثان.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٨٥

و مصر ممنوعة من الصرف للعلمية و التانيث، و يجوز ان تصرف لخفتها كما تصرف هند. و الخطاب في اجعلوا و اقيموا لموسى و أخيه و من تبعهما. و الخطاب في بشر لموسى. و اللام في ليضلوا للعاقبة. فلا يؤمنوا عطف على

ليضلوا، و ما بينهما دعاء مفترض. و لا تتبعان اللام ناهية، و الفعل مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، و محله الجزم.

المعنى:

(فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ).

بعد أن ألقى موسى العصا، و اظهر الله الحق على يده في مشهد عام آمن السحرة و خلق كثير، أما قبل إلقاء العصا فقد آمن به الفتيان و الشبان من بني إسرائيل، لأن الشباب من كل قوم كانوا و ما زالوا يتحمسون لكل جديد، و لكنهم آمنوا بموسى، و هم خائفون من فرعون و من رؤوس الاسرائيليين أيضا ان يضطهدوهم و يعذبوهم ليرتدوا عن دينهم، فلقد كان أرباب المصالح من اليهود يتآمرون مع فرعون، و يناصرونه على المستضعفين من قومهم، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من أهل الأديان في كل زمان و مكان **(وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ) أي طاغية مستبد (وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ)** لا يقف في استبداده و طغيانه عند حد.

(وَ قَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ).

موسى (ع) أعزل من كل شيء إلا من الحق، و فرعون يملك كل شيء إلا الحق، و قد تسلط على من آمن بموسى يضطهدهم و ينكل بهم، فقال لهم موسى: لا قوة لي و لا لكم تصد طغيان فرعون عنكم و ظلمه لكم إلا التوكل على الله، و الثقة بوعدده ان العاقبة للمتقين، فسلموا الأمر اليه ان كنتم مطيعين حقا لأوامره.

و قد ذكر لهم ثلاثة أوصاف: الايمان، و هو التصديق في القلب، و الإسلام، و المراد به هنا الانقياد و الاستسلام لأمره تعالى، و التوكل، و هو الإخلاص و التفويض الى الله وحده .. فمن جمع هذه الأوصاف كان الله معه.

(فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا) و تركنا اليه أمرنا، فهو أعلم بحالنا و صالحنا، و هو

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٨٦

على كل شيء قدير. **(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).** المراد بالظالمين هنا الكافرون، و هم فرعون و قومه، أما الفتنة فالمراد بها العذاب، و المعنى لا تجعلنا محلا لعذابهم **(وَ نَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ).** المراد بالكافرين الظالمون، و هم فرعون و قومه الذين اضطهدوا و ظلموا بني إسرائيل، و المراد بالنجاة الخلاص من ظلمهم و اضطهادهم، و عليه تكون هذه الآية تفسيرا للتي قبلها.

(وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا). أي لا تخرجا من مصر، و ابقيا فيها، و اتخذا مساكن لبني إسرائيل ياوون اليها، و يعتصمون بها **(وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً)** الخطاب لموسى و أخيه و من تبعهما. و قيل: معناه اجعلوا بيوتكم متقابلة في جهة واحدة، أي اسكنوا جميعا في حي واحد، و هذا التفسير أرجح من تفسير البيوت بالمساجد، أي اجعلوا بيوتكم مساجد، و وجه الرجحان ان البيوت غير المساجد، فهذه للعبادة فقط، و تلك للسكن **(وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ)** لأنها ترمز إلى الإخلاص لله، و تجمع القلوب على الاحساس المتحد **(وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)** بالنجاة من فرعون و ملئه في الدنيا و بالجنة في الآخرة، و خص الخطاب بموسى وحده لأنه الأصل في الرسالة، و هرون تبع له.

(وَ قَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).

نزلت هذه الآية في زمن لم يكن الناس يعرفون شيئا عما تحتويه قبور الفراعنة، ثم كشف الحفر و التنقيب فيها عن هذه

الأموال و الزينة التي نص عليها القرآن، و هذا شاهد محسوس لا يقبل الشك و الريب في ان القرآن وحي من علام الغيوب.

(رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ) اللام في ليضلوا للعاقبة مثل لدوا للموت و ابنوا للخراب أي كانت نتيجة انعام الله عليهم بالزينة و المال ان عصوه بدلا من أن يطيعوه.

(رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ) بمحقها و تدميرها .. و قد يظن ظان ان في هذا الدعاء إيماء إلى ان موسى طلب من الله ان يمنع الغنى و الترف عن اهل البغي و الضلال كيلا يزدادوا بغيا و طغيانا .. و لكن الذنب ذنب الأوضاع الفاسدة التي نهى الله عنها. و بسطنا الكلام عن ذلك في ج ٣ ص ٩٤ فقرة: «الرزق و فساد الأوضاع عند تفسير الآية ٦٦ من المائدة».

(وَ أَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ) قيل: معناها و اطبع على قلوبهم. و قيل: بل المراد

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٨٧

ثبتهم على المقام في بلدهم، حتى يروا هلاك أموالهم رأي العين، و الذي نراه ان اشدد هنا مأخوذة من الشدة و البلاء ضد الراحة و الرخاء، أي ان موسى (ع) سأل الله تعالى أن ينزل الشدائد على قلوبهم، و هذا يتناسب تماما مع سؤاله ان ينزلها الله على أموالهم. **(فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)**. هذه الجملة معطوفة على ليضلوا عن سبيلك، و المعنى ان عاقبة تغلب فرعون و ملئه في نعم الله ان ضلوا و أصروا على الكفر، و ان لا يؤمنوا إلا عند حلول العذاب حيث لا يقبل الإيمان .. و ليس من شك ان موسى (ع) ما دعا عليهم و قال هذا القول إلا بعد اليأس من صلاحهم.

(قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا) و هي انزال الآفات على أموال فرعون و ملئه، و المصائب و الشدائد على قلوبهم **(فَاسْتَقِيمَا)** على الطريقة التي انتما عليها من الجهاد في سبيل الدعوة الى الحق. **(وَ لَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)** عظمة الله و حكمته .. و جاز هنا نهى المعصوم عن الذنب لأنه من الله، لا من سواه، فإن من شأن الأعلى أن يأمر و ينهى من دونه كائنة ما تكون منزلته.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٩٠ الى ٩٣]

وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْيًا وَ عَدَاً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) الْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) وَ لَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبْأَأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٨٨

اللغة:

ننجيك من النجوة، و هي المكان المرتفع من الأرض. و المراد بآية هنا العبرة و العظة. و مَبْأَأَ صِدْقٍ أي منزلا صالحا، و العرب يضيفون الشيء الجيد إلى الصديق.

الإعراب:

بني إسرائيل الباء للتعدية، و بغيا و عدوا مفعول لأجله لاتبعهم. و الآن مركبة من كلمتين: همزة الاستفهام و الآن اي الآن، و الظرف متعلق بمحذوف اي الآن تؤمن. و مَبْأَأَ صِدْقٍ منصوب على الظرفية ببؤأنا ان أريد به المكان، و ان أريد به

المصدر فهو مفعول مطلق.

المعنى:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا) سبق نظيره في سورة البقرة الآية ٥٠ و سورة الأعراف الآية ١٣٨.

نهاية الطاغية:

(حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ). بالأمس كان ينتفخ فرعون و يقول: أنا ربكم الأعلى. و حين أدركه الغرق قال: آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل، ما كان أغناه عن

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٨٩

الحالين؟. لا هذه و لا تلك، فقد كان باب الطاعة مفتوحا أمامه حين عصى، أما الآن فلا طاعة و لا عصيان، إذ لا ارادة و لا اختيار .. و هذا هو شأن الخسيس اللئيم يتعاطم عند النعماء، و يتصاغر عند البأساء. و التاريخ يعيد نفسه، و أعني بذلك سنة الله في خلقه التي أشار إليها مؤكدا بقوله: «فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا» - ٤٣ فاطر».

و إسرائيل اليوم تسير بمساندة الاستعمار على سنة فرعون بالذات.

كان فرعون يذبح أبناء بني إسرائيل، و يستحيي نساءهم، و فعلت إسرائيل بأبناء الشعب الفلسطيني أكثر بكثير مما فعله فرعون.

و قال فرعون: اليس لي ملك مصر و هذه الأنهار تجري من تحتي؟. و قالت إسرائيل: أليست لي فلسطين و خيراتها، و معها مرتفعات الجولان، و الضفة الغربية؟.

و قال فرعون: أنا ربكم الأعلى. و قالت ربيبة الاستعمار و حربته، «لا غالب لي اليوم». و لم تمض الأيام، حتى بدأت سنة الله تعمل عملها، فمن إغراق ايلات الى موقعة الكرامة، و من تدمير مواقع الصواريخ لاسرائيل الى عمل الفدائيين الذي اضطر «دايان» الى القول: على اليهود ان يستعدوا لتوسيع قبورهم ..

و سيقول عاجلا أو آجلا: آمنت بالذي آمن به العرب و المسلمون، تماما كما قال فرعون من قبل: آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل، لأنها سارت على نفس الطريق الذي سار عليه، و ستكون نهايتها نهايته لا محالة.

و قد يقول قائل: ان الصراع مع إسرائيل طويل و مركز. و نقول في جوابه أجل، و لكن النصر النهائي لأصحاب الحق مهما طال الزمن، و التاريخ البعيد و القريب يشهد بهذه الحقيقة من عهد فرعون و هامان الى عهد هتلر و موسيليني.

(الآن) بعد أن فات ما فات تقول: آمنت (وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ) حيث كان الخيار بيدك في التوبة و الرجوع الى الحق، و لكنك طغيت و بغيت (وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) فذق جزاء عملك بالغرق و الهلاك (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بَبَدْنِكَ) لا بروحك و نلقي بجثتك على نجوة من الأرض ليشاهدها من كان يعظم من شأنك (لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً) يتعظ بها كل من تحدثه نفسه بالسير على طريق الفساد ..

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٩٠

و لكن ما أكثر العبر، و أقل الاعتبار، و من أجل هذا استدرك سبحانه، و قال (وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ) و غير مغفول عنهم.

(وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ). والمراد بالصدق هنا الخصب بدليل قوله تعالى: **(وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ)** والمعنى اسكنناهم بعد هلاك فرعون بلادا خصبة طيبة، واختلف المفسرون في تحديد هذه البلاد، فمنهم

من قال: هي فلسطين. و منهم من قال: هي مصر، وهذا هو الأرجح لقوله تعالى:

«فَأَخْرَجْنَاهُمْ - أي فرعون و قومه - مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونٍ وَ كُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ - ٥٨ الشعراء». فالآية صريحة في ان الله اسكن بني إسرائيل ديار فرعون و قومه.

(فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ). المراد بالعلم هنا التوراة كما نزلت على موسى (ع)، و كان فيها الإخبار بنبوة محمد (ص). و كان بنو إسرائيل قبل نزولها كلمة واحدة في كفرهم و ضلالهم، و بعد ان جاءتهم التوراة اختلفوا فيما بينهم على عهد موسى و بعده، فقد تمرد عليه أكثرهم، و عبدوا العجل، و قالوا له: أرنا الله جهرة .. و اذهب أنت و ربك، الى غير ذلك مما سجله عليهم القرآن **(إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)** حيث لا كذب في ذلك اليوم، و لا رياء، و لا شيء إلا الحق يظهر للجميع جليا واضحا.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٩٤ الى ٩٧]

فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) و لَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) و لَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٩١

الإعراب:

النون في قوله: فلا تكونن للتأكيد، و دخلت على المضارع لمكان لا الناهية. و حتى يروا أي ان يروا. و يروا هنا تتعدى إلى مفعول واحد لأنها بصرية، لا قلبية.

المعنى:

(فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ).

المراد بالذين يقرأون الكتاب علماء الإنجيل و التوراة، و الشيء المسئول عنه هو ما جاء في القرآن من قصة موسى و غيره من الأنبياء بقربنة السياق، لأن الآيات نزلت في قصة موسى مع فرعون.

و تسأل: ما هو الوجه في قوله تعالى لنبيه الأكرم: **(فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ)** مع العلم ان النبي لا يشك في ذلك، كيف؟ و قد تحمل من الأذى في سبيل رسالته ما لم يتحملة نبي و لا مصلح.

الجواب: الوجه ان يقول النبي (ص) لمن يشك فيما ذكره القرآن من قصة موسى و غيره من الأنبياء، ان يقول له: اسأل عن ذلك العلماء المنصفين من أهل الكتاب، فإنه ثابت في التوراة و الإنجيل، تماما كما جاء في القرآن.

(لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ و لَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ). المراد بالامتراء الشك، و المعنى بلغ الناس يا محمد ان من يشك أو يكذب بالحق الذي أنزل اليك فهو

من المعذبين الخاسرين يوم القيامة .. و عبر سبحانه عن هذا المعنى بنهي النبي عن الشك و التكذيب ليقول محمد (ص) للناس: أنا بشر مثلكم و واحد منكم أحاسب و أعاقب كأني انسان يشك أو يكذب بآيات الله إذا أنا شككت و

كذبت .. وهذا الأسلوب هو أبلغ الأساليب و أنجحها في الدعوة الى الحق الذي تتساوى أمامه جميع الناس.
(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَا جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ).

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٩٢

المراد بكلمة ربك هنا العذاب، و لا يؤمنون خير ان الذين حقت عليهم، و المعنى ان الذين يعذبهم الله هم الذين لا يؤمنون بالحق بحال، حتى و لو قام عليه ألف دليل .. اللهم إلا إذا شاهدوا العذاب و أيقنوا به .. و معلوم ان الايمان في هذه الحال لا يجدي شيئا، لأنه تماما كإيمان فرعون حين أدركه الغرق، و تقدم الكلام عنه قريبا في الآية ٩٠.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٩٨ الى ١٠٠]

فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا فَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَجْعَلُ الرُّجْسَ عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٠٠)

اللغة:

الخيبي الذل. و الحين مدة من الزمن، و المراد به هنا العمر الطبيعي للإنسان.
 و الرجس الشيء القذر، و المراد به هنا الكفر.

الإعراب:

لولا بمعنى هلا، و تستعمل على وجهين: الأول الطلب مثل لولا تاتينا.
 الثاني التوبيخ مثل لولا امتنعت عن ضلالك. و قرية على حذف مضاف أي أهل

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٩٣

قرية. و قوم يونس منصوب على الاستثناء المنقطع اي لكن قوم يونس، و يونس ممنوع من الصرف للعلمية و العجمة.

القصة:

وصف الله سبحانه يونس بأنه من المرسلين و الصالحين، و بصاحب الحوت، و بذى النون أي الحوت، و أيضا وصفه بالمغاضب لقومه، لأنه دعاهم إلى الإيمان فلم يستجيبوا له، فدعا الله عليهم، و رحل عنهم يائسا من إيمانهم .. و في سورة القلم أمر الله نبيه محمدا (ص) أن يصبر و لا يتعجل بالدعاء على قومه بالعذاب كما فعل يونس: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَ هُوَ مَكْظُومٌ - ٤٨ القلم».

أما قوم يونس فقد زاد عددهم على مائة ألف: «وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ - ١٤٧ الصافات». و قال الرواة و المفسرون: ان قوم يونس كانوا يقيمون بنيوى من أرض الموصل، و انهم كانوا يعبدون الأصنام، فنهاهم يونس عن الكفر، و أمرهم بالتوحيد، فأصروا على الشرك شأنهم في ذلك شأن من تقدمهم من أقوام الأنبياء.

و بعد ان رحل يونس عن قومه أتتهم نذر العذاب، و طلائع الهلاك من السماء فتابوا الى الله، و دعوه مخلصين ان يكشف عنهم العذاب، ففعل، و أبقاهم الى انقضاء آجالهم، و هذا هو معنى قوله تعالى: **(فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ**

فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ).

و قال المفسرون: ان قوم يونس لبسوا المسوح، و خرجوا الى الصحراء، و معهم النساء و الأطفال و الدواب، و فرقوا بين كل والدة و ولدها إنسانا و حيوانا، فحن بعضها إلى بعض، و علت أصواتها، و اختلطت أصوات الأدميين بأصوات

الحيوانات، فرفع الله عنهم العذاب، ورجعوا الى ديارهم آمنين. أما يونس فقد ضرب في الأرض، حتى انتهى الى ساحل البحر، فوجد جماعة في سفينة، فسألهم ان يصحبوه، ففعلوا، و لما توسطوا البحر بعث الله عليهم

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٩٤

حوتا عظيما حبس عليهم سفينتهم، فأيقنوا انه يطلب واحدا منهم، فاتفقوا على الاقتراع، فوقع السهم على يونس، فألقوه أو ألقى هو نفسه في البحر، فابتلعه الحوت، كما جاء في سورة الصافات: و ان يونس لمن المرسلين إذ ابق - اي هرب - الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين - اي المغلوبين بالقرعة - فالتقمه الحوت و هو مليم، اي و هو يلوم نفسه.

و ألهم الله الحوت ان يطوي يونس في بطنه، دون ان يمسه بأذى، و فزع يونس الى ربه يناديه و يستجير به، و هو في جوف الحوت «١»، و الى هذا أشارت الآية ٨٧ من سورة الأنبياء: «فنادى في الظلمات ان لا إله إلا انت سبحانك اني كنت من الظالمين فاستجبنا له و نجيناه من الغم و كذلك نجى المؤمنين».

ثم نبذه الحوت على ساحل البحر بعد ان لبث في جوفه ما شاء الله ان يلبث.

قال المفسرون: ان يونس خرج من بطن الحوت كالفرخ الممتعظ، و ان الله أنبت عليه شجرة من يقطين يستظل بها، و ذلك حيث يقول عز من قائل: «فلو لا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون فنبدناه بالعراء - اي في مكان خال من النبات - و هو سقيم و أنبتنا عليه شجرة من يقطين - ١٤٦ الصافات».

قالوا، و عاد يونس بعد هذا الى قومه، ففرحوا بقدومه، و فرح هو بإيمانهم.

(و لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا). أي لو شاء الله ان يكره الناس على الايمان و يلجئهم اليه الجاء،

أو يخلقهم منذ البداية مؤمنين - لو شاء ذلك لما وجد كافر على ظهرها، و لو فعل لبطل الثواب و العقاب، و كان فعل الإنسان كالثمرة على الشجرة .. و سبق نظير هذه الآية في سورة الأنعام:

«و لو شاء الله لجمعهم على الهدى - ٣٥ .. (و لو شاء الله ما أشركوا - ١٠٧) و في سورة البقرة: «و لو شاء الله ما اقتتل

الذين من بعدهم - ٢٥٣». و تكلمنا عن ذلك مفصلا في ج ١ ص ٣٨٨.

(أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) الخطاب لمحمد (ص)، و المعنى لقد شاءت حكمته تعالى ان يكون

الخيار في الانقياد الى الحق، او عناده بيد

(١). لو تنبه الى هذه الآية الكريمة الذين ينسبون المخترعات الحديثة الى القرآن لقالوا: ان حوت يونس يشير الى الغواصة. انظر المجلد الأول

من هذا التفسير ص ٣٨، فقرة «القرآن و العلم الحديث».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٩٥

الإنسان، ليطمئن الخبيث من الطيب، و لا احد في مقدوره ان يعاند مشيئة الله ..

فعلام - اذن - تحزن و تذهب نفسك على كفرهم و عدم ايمانهم؟. و القصد من هذا التخفيف عن الرسول الأعظم (ص).

و قد تكرر هذا المعنى في الكثير من الآيات، منها قوله تعالى: «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ - ٤٤ ق» اي بمسلط .. ان عليك الا البلاغ.

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ). ان للإنسان حالات، و لكل سببها، و منها الايمان، و طريقة النظر الى آيات الله بوعى و تجرد، فمن أدركها على وجهها و حقيقتها انتهى حتما الى الايمان بحكم الله و مشيئته، لأنه هو الذي جعل التدبر لآياته سببا للايمان به، و من أعرض عنها انتهى حتما الى الكفر أيضا بحكم الله لأنه هو الذي جعل الإعراض عن آياته سببا للكفر، و لكنه تعالى جعل الخيار في سلوك احد الطرفين بيد الإنسان، و في معنى هذه الآية قوله تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَ قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا - ١٠ الشمس» اي ان الفلاح ثابت حتما لمن طهر نفسه من الأهواء و الشهوات، و الخيبة ثابتة حتما لمن دنسها بالأقذار و الآثام.

(وَ يَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ). المراد بالرجس هنا الكفر المقابل للايمان الذي هو بإذن الله، و المعنى ان الإعراض عن آيات الله و عدم تدبرها يؤدي حتما الى الكفر، كما ان تدبرها يؤدي حتما الى الايمان. و بهذا يتبين ان المراد بإذن الله الايمان اللازم لادراك الدلائل و البيئات التي أقامها الله على وجوده، على أن يكون مع هذا الإدراك الانصاف و التجرد عن الغايات و الأهواء.

[سورة يونس (١٠): الآيات ١٠١ الى ١٠٦]

قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا تُعْجِبُ الْآيَاتُ وَ النَّذِرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فانتظروا إني معكم من المنتظرين (١٠٢) ثم ننجي رسلنا و الذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين (١٠٣) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَ أَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَ لَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَ لَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَ لَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٩٦

اللغة:

الذير جمع نذير، و هو الذي يحذر من العواقب. و الحنيف المائل عن الباطل الى الحق.

الإعراب:

ما ذا (ما) استفهام مبتدأ، و ذا بمعنى الذي، و يجوز أن تكون الكلمتان بمعنى أي شيء مبتدأ و الخبر في السموات. و ما تعني الآيات (ما) نافية و ليست باستفهام. و كذلك الكاف بمعنى مثل مفعول ننج، اي مثل ذلك الانجاء، و الإشارة هنا الى إنجاء قوم يونس، و حقا منصوب على المصدر أي يحق حقا، و علينا متعلق بحق او يبحق. و المصدر المنسب من ان أكون مجرور بالباء المحذوفة.

و مثله و ان أقم اي و بالاستقامة. و حذف الياء من ننج للتخفيف، و حنيفا حال من الدين.

المعنى:

(قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ) لمناسبة ذكر الايمان في الآية السابقة امر سبحانه بالنظر في الكون و عجائبه لأنه السبيل الى معرفة الله و الايمان به.

و تقدمت آيات كثيرة بهذا المعنى **(وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)**

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٩٧

كل دليل على الحق فهو ينذر من يخالفه بالعقوبة، و كل رسول من عند الله تعالى فهو يحمل معه الدليل على رسالته، و لكن الأدلة و الرسل لا ينتفع بها إلا من كان الحق ضالته يأخذه أنى وجده، و لو كان فيه ذهاب نفسه، أما من لا يرى في الدين و الحق و الانسانية إلا مصلحة و منفعه، أما هذا فهو عدو الأدلة و البراهين، و الأنبياء و المصلحين، فكيف ينتفع بها و يؤمن بمبادئها؟.

(فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ). يقال: أيام فلان و يراد أيام دولته او أيام محنته، و المراد بأيام الذين خلوا أيام قوم نوح و عاد و ثمود، و ما حل بهم من الهلاك و العذاب، و ضمير ينتظرون يعود الى الذين كذبوا محمدا (ص) بدليل قوله تعالى: **(قُلْ فَأَنْتَظِرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ)** فانه تهديد لمن كذب محمدا بسوء العاقبة.

(ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا). هذه الجملة عطف على جمل محذوفة و التقدير انه قد جرت سنة الله في خلقه ان يرسل الى الناس رسلا منهم مبشرين و منذرين، فيصدقهم البعض، و يكذبهم آخرون، فيهلك المكذبين، ثم ينجي الرسل و المؤمنين .. قال صاحب المنار: «هذا من الإيجاز المعجز الذي انفرد به القرآن» .. و وجه الإعجاز ان الله سبحانه ذكر جملة واحدة تدل دلالة واضحة على عدد من الجمل المحذوفة.

(كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ) بعد ان قال سبحانه: انه ينجي المؤمنين قال: ان نجات المؤمن من العذاب حق له على الله يطالبه به، تماما كأصحاب الحقوق، و ان على الله تعالى ان يؤديه له كاملا غير منقوص، و هذا رد صريح على السنة الذين قالوا: ان الله سبحانه له ان يعاقب المطيع، و يثيب العاصي (المواقف ج ٨ المقصد الخامس و السادس من المرصد الثاني في المعاد).

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ). لقد أدى النبي (ص) امانة الله الى خلقه، و بلغهم رسالات ربهم، فاستجاب له من استجاب و أبى من أبى، فأمره الله تعالى أن يقول للذين أصروا على الشرك: ان كنتم في شك من ديني فأنا لا أعبد أصناما لا تعقل كما تفعلون، و لكن أعبد إلهها قادرا عادلا، و حكيما عالما، و هو الذي يقبض أرواحكم، فأى المعبودين جدير بالشك؟.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٩٨

و هذا نوع من أساليب الدعوة الى الله بالحكمة و الموعدة الحسنة.

(وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَ لَأَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ). المراد بالوجه هنا النفس، و المعنى ان الله أمرني ان اتجه اليه معتنقا الإسلام، سائرا على نهجه قولاً و عملاً دون سائر الأديان.

(وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَ لَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ). و النبي لا يدعو أحدا من دون الله، و محال ان يدعو سواه، و إنما القصد الإخبار بأن من يدعو غير الله فهو من الظالمين الخاسرين.

و تجدر الإشارة الى ان الآيات الثلاث الأخيرة تعبر عن معنى واحد بعبارات شتى، و هو الأمر بالإيمان و نبذ الشرك، مع اختلاف يسير في المعنى، فالآية الأولى أمرت بالإيمان، مع الإشارة الى ان دين التوحيد لا ينبغي الشك فيه، و ان الذي



فيه الشك والريب هو دين الشرك وعبادة الأصنام، والآية الثانية أمرت بالآيمان، مع الإشارة الى ان الإسلام هو الدين القيم الذي لا عوج فيه، دون سائر الأديان، والآية الثالثة أمرت بالآيمان مع الإشارة الى أن من يتبغى غير الإسلام ديناً فهو من الظالمين لأنفسهم. وعلى أية حال فإن من عادة القرآن ان يكرر ويؤكد كل ما يتصل بالعقيدة وأصولها.

[سورة يونس (١٠): الآيات ١٠٧ الى ١٠٩]

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ١٩٩

المعنى:

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ). قد يتضرر الإنسان بما كسبت يده، كما لو أقدم مختاراً على الإضرار بنفسه، أو ترك العمل مع قدرته عليه، أو أقدم على عمل ما هو بأهل له، وقبل ان يعد له العدة، وهذا الضرر لا تصح نسبته إلى الله لأنه تعالى أمر بالعمل والاعداد له، ونهى عن الإضرار بشتى أنواعه. وقد يتضرر الإنسان بسبب الأوضاع الفاسدة في المجتمع الذي يعيش فيه، وهذا أيضاً لا ينسب إلى الله، لأنه تعالى نهى عن الفساد، وأمر بالصلاح والإصلاح. وقد يتضرر الإنسان لا من كسبه ولا من مجتمعه، كما لو ولد ناقص الخلقة، أو كان بليدا لا استعداد فيه للعلم والمعرفة، مهما جد واجتهد، أو نزلت عليه صاعقة من السماء، وما إلى ذلك، وهذا النوع من الضرر هو المراد بقوله تعالى: **(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ)** مع العلم بأنه لو شاء سبحانه أن يكشف الضر من أية جهة أتى لانكشف وزال، لأنه على كل شيء قدير.

(وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ). قدمنا ان الضرر لا تصح نسبته إلى الله تعالى بقول مطلق، أما الخير فتصح نسبته إليه بشتى أنواعه، سواء أكان لعمل الإنسان تأثير فيه، أم لم يكن، لأنه تعالى يريد الخير ويأمر به، وهو الذي أقدر الإنسان عليه **(وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)** ورحمته وسعت كل شيء، تماماً كعلمه وقدرته.

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ). ويتلخص معنى هذه الآية بقوله تعالى: «كل أمرئ بما كسب رهين» - ٢١ الطور، و تقدم نظيرها في سورة الأنعام الآية ١٠٤ ج ٣ ص ٢٣٨.

(وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ). هذه الآية تحدد وظيفة الرسول بتبليغ الوحي، والعمل به، والصبر على ما يلاقه في سبيل ذلك من أذى المكذبين إلى أن يظهر الله دينه، ويعلي كلمته.. وهذه هي مهمة كل من ينوب عن المعصوم في تبليغ أحكام الله ونشرها.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٠١

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٠٣

سورة هود مكية، وآياتها ١٢٣، و نزلت بعد سورة يونس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة هود (١١): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَإِنْ اسْتَغْفَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلْ رِيحًا مَوْرًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)

اللغة:

أحكمت آياته أي أتقنت. و فصلت أي جعلت واضحة مبينة. و المتاع الشيء الذي ينتفع به. و الأجل المسمى العمر المقدر.

الإعراب:

كتاب خبر لمبتدأ محذوف أي هذا كتاب. و لدن ظرف زمان أو مكان بمعنى عند، و لكنه مبني، لأنه لا يفارق الظرفية، فلا يقع خبرا و لا حالا أو صفة أو صلة لموصول، و يضاف دائما إلى ما بعده إلا في غدوة، فيجوز فيها الجر و النصب، تقول: لقيته لدن غدوة بالجر، و غدوة بالنصب على التمييز. و ألا تعبدوا (الأ) مركبة من كلمتين: ان و لا و (ان) بمعنى أي مفسرة لفصلت لأن هذا الفعل فيه معنى القول دون حروفه، فهي هنا مثل كتبت إليه ألا يفعل

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٠٤

كذا. و ان استغفروا عطف على ألا تعبدوا. و لا في ألا تعبدوا للنهي، و لذا جزم الفعل المضارع.

المعنى:

(الر) مثل ألم في أول سورة البقرة، فراجع. (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير). المراد بالكتاب القرآن، و المعنى ان هذا القرآن واضح المعاني محكم النظم، لا نقص فيه و لا خلل، لأنه ممن يقدر الأمور و يدبرها على أساس العلم و الحكمة، قال بعض العارفين: ان لله كتابين: واحد تكويني، و هو هذا الكون، و الآخر تدويني، و هو القرآن، و كل منهما محكم من جميع جهاته على أتم الوجوه و أكملها .. و تكلم العلماء من أديان شتى عن عظمة القرآن، نقلت طرفا من أقوالهم في كتاب «الإسلام و العقل» فصل «النبوة».

و من الصدق اني قرأت- و أنا أفسر هذه الآية- مقالا عن كتاب «محمد» للمستشرق الفرنسي مكسيم رودينسون، نشرته مجلة المصور المصرية في عدد ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٩٦٨، و فيه: «يؤكد المؤلف ان القرآن نقل إلى الأجيال التالية رسالة الإنسان المقهور المستغل، ذلك الإنسان التائر على الظلم و القهر، و زوده بحافز التسليح بالقوة لكي يقهر المستبدين و الظالمين و المنافقين- ثم قال المؤلف- ان الإسلام نظام و عقيدة و أسلوب حياة، و نظرة شاملة الى الكون و الإنسان».

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ). ياء انني لمحمد (ص)، و هاء منه لله تعالى، و نذير بالعقاب على

المعصية، و بشير بالثواب على الطاعة ..

بعد أن ذكر سبحانه ان آيات القرآن محكمة و مفصلة قال: من هذه الآيات التوحيد و الإخلاص في العبادة لله وحده، و الاعتراف بأن محمدا (ص) ينذر و يبشر بلسان الله تعالى.

(وَ أَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ). أي ان تعبدوا الله وحده، و تؤمنوا بنبوته محمد، و تطلبوا المغفرة من الله، و تتوبوا إليه، و الفرق بين الاستغفار و التوبة ان الاستغفار طلب العفو عما مضى بصرف النظر عما يأتي، أما التوبة فهي طلب الغفران عن الماضي، مع العهد على ترك المعاصي في المستقبل.

(يَمْتَعِكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَ يُوْتِكُمْ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ). بعد أن

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٠٥

أمر سبحانه بالإخلاص لله في العبادة، و الاعتراف لمحمد (ص) بالرسالة، و بالاستغفار و التوبة، بعد هذا ذكر سبحانه ان جزاء التائبين المطيعين في الدنيا ان لا يستأصلهم كما استأصل الكافرين من قبلهم، بل يبقيهم الى ان يستوفوا آجالهم، أما جزاؤهم في الآخرة فلكل من الثواب حسب عمله قلة و كثرة.

(وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) بكثرة أهواله و شدتها، و هي جزاء من تولى و أعرض عن الحق **(إِلَىٰ اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)** و بقدرته يحيي الموتى، و يجمع للحساب، و يجزي كلا بما يستحق، و هو القاهر فوق عباده.

[سورة هود (١١): آية ٥]

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ الْأَحْسِنُ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)

اللغة:

ثنى الشيء عطف بعضه على بعض فطواه. و الاستخفاء طلب خفاء الشيء. و استغشى الثوب تغطى به، و هو كناية عن أخفى الحالات، أي ان الله يعلم نواياهم، و يعلم أيضا أخفى محاولاتهم لخفائها.

الإعراب:

الا أداة تنبيه. و المصدر المنسبك من ليستخفوا مجرور باللام، و العامل فيه يثنون. و حين ظرف زمان متعلق بيعلم.

المعنى:

ضمير انهم للمشركين و المنافقين، و ضمير منه للنبي، و معنى الآية بمجموعها ان قوما كانت تنطوي قلوبهم على العداوة و البغضاء لرسول الله (ص)، و كانوا يخفون ذلك عنه، فأخبره الله بحقيقتهم، و انه تعالى يعلم بخطر قلوبهم، و جميع حالاتهم، و انه يعاقبهم عليها بما هم أهل له.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٠٧

الجزء الثاني عشر

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٠٩

[سورة هود (١١): الآيات ٦ الى ٨]

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخْرَنَاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَحْسِبُهُ الْيَوْمَ بِآتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨)

اللغة:

الدابة لغة لكل حي يدب على الأرض، و عرفا لما يركب كالخيل و البغال و الحمير. و مستقر الشيء موضع قراره، و مستودعه .. الموضع الذي كان فيه قبل استقراره من صلب أو رحم أو بيضة. و الأمة تطلق على الجماعة و على المدة من الزمن، و هي المرادة هنا. و حاق بهم أي نزل و أحاط.

الإعراب:

و ما من دابة: (من) زائدة اعرابا، و دابة مبتدأ، و رزقها مبتدأ ثان و على الله خبره، و الجملة خبر الأول، و في الأرض متعلق بمحذوف صفة لدابة. و المصدر المنسب من ليلوكم متعلق بخلق السموات. و يوم يأتيهم ليس مصروفا، يوم متعلق بمصروف، و جملة يأتيهم مجرور بإضافة يوم، و اسم ليس مستتر يعود إلى العذاب، و مصروفا خبرها.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢١٠

المعنى:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا). خلق سبحانه الأرض، و أودع فيها ما يحتاجه كل حي يدب عليها من الذرة و البعوضة إلى الفيل و الإنسان، و أيضا أودع في كل من دب القدرة على السعي لتحصيل رزقه من الأرض، و على هذا يكون معنى الآية ان الله قد جعل لكل حي رزقا مدخورا في الأرض، و ليس معناها ان الله قدر لكل حي رزقه الخاص به الذي لا يزيد بالسعي، و لا ينقص بتركه، كما توهم البعض، قال صاحب «تفسير المنار»: «لقد زعم بعض العباد و الشعراء ان الكسب و عدمه سواء، كقول بعض الجاهلين المتواكلين غير المتواكلين:

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك و السكون

جنون منك ان تسعى لرزق و يرزق في غشاوته الجنين

ان هذا الشاعر «أحق بالجنون ممن يسعى لرزقه». و تراجع فقرة: «الله أصلح الأرض و الإنسان أفسدها» ج ٣ من هذا التفسير ص ٣٤٠، و فقرة:

«هل الرزق صدفة أو قدر ص ١٣١»، و فقرة: «الرزق و فساد الأوضاع ص ٩٤».

(وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ). المستودع المكان الذي كانت فيه قبل ان تدب على الأرض،

والمستقر الذي قرت فيه بعد الدبيب، و الكتاب المبين كناية عن ان الله قد أحاط بكل شيء علما، و المعنى ان الله يوجد أسباب العيش و الحياة لكل دابة، حيث كانت و تكون لأنه قادر على كل شيء، عالم بكل شيء.

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ). تقدم مثله مع التفسير في سورة الأعراف الآية ٥٤ ج ٣ ص

٣٣٨

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) المراد بعرش الله ملكه و استيلاؤه، و الماء معروف، و تدل الآية على ان الماء كان موجودا قبل خلق السموات و الأرض، أما من أين

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢١١

جاء؟ و هل كان قائما على قرار؟ فلا نص على شيء من ذلك في آية، أو رواية متواترة، و العقل وحده لا يملك العلم به، لذا نترك البحث عنه، و كل ما قرأنا في هذا الباب لا يعدو الحدس و التخمين، أما المادة الأولى التي وجد منها الكون فلا تفسير لها عندنا إلا قوله تعالى: كوني فكانت، و من أنكر هذا علينا تلونا قوله سبحانه: «لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينٌ».

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) أي ان الله أودع فينا و في الأرض ما أودع من الطاقات ليميز بين الذين يعيشون بكد اليمين، و الذين يعيشون على حساب المستضعفين، فيعاقب هؤلاء على عصيانهم و يثيب أولئك على طاعتهم.

(وَ لئن قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ). هذه الآيات كغيرها من الآيات الكثيرة التي أخبرت عن المكذبين بالبعث، مع فارق واحد، و هو الاخبار عنهم هنا بأنهم شبهوا الحديث عن البعث بالسحر في التمويه على الناس و خداعهم، لينقادوا الى طاعة النبي، و يضمن لنفسه الرئاسة عليهم.

(وَ لئن أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ - أي مدة مقدرة - لَيَقُولَنَّ مَا يَحْبِسُهُ؟) و ما الذي منع من وقوع العذاب علينا الآن ان كان حقا **(الْأَيُّومَ يَأْتِيهِمْ) - العذاب - (لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ)** لأن بأسه تعالى لا يرد عن القوم المجرمين **(وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ)** أي ينزل بهم العذاب جزاء استخفافهم به، و عدم خوفهم من الله و غضبه .. و أشد الذنوب ما استخف به صاحبه، كما قال الامام علي (ع). و من أقواله: ان احسن الناس ظنا بالله أشدهم خوفا منه.

[سورة هود (١١): الآيات ٩ الى ١١]

وَ لئن أذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْسُ كَفُورٌ (٩) وَ لئن أذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢١٢

اللغة:

ذاق الشيء اختبر طعمه، و أذاقه جعله يذوقه، و المراد بالاذاقة هنا الإعطاء.
و نزع الشيء من مكانه قلعه. و يؤس مبالغة في اليأس. و قال الطبرسي: النعماء النعمة تظهر على صاحبها، و الضراء المضرة كذلك أخرجنا مخرج الأحوال الظاهرة مثل حمراء.

الإعراب:

و لئن أذقنا اللام جواب قسم محذوف. و جملة انه ليؤس سادة مسد جواب القسم و الشرط المستفاد من (ان). و الا

الذين صبروا في محل نصب على الاستثناء المتصل من الإنسان.

المعنى:

(وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسُ كَفُورٌ). إذا رزق الإنسان البسطة في الصحة، و السعة في المال، و البر في الأهل، ثم أصيب بشيء بها أو بشيء منها بسبب من الأسباب الجارية- إذا كان كذلك قطع الرجاء من رحمة الله، و كفر بنعمه، حتى ما تبقى له من نعم (وَلَئِن أَدَقْنَا نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ). و إذا خرج من عسر إلى يسر، و من خوف إلى أمن أخذته النشوة و تعاضم على الناس، و نسي ما كان فيه بالأمس. و قدمنا مرارا ان الله يسند الأحداث كلها إليه من باب اسناد الشيء إلى

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢١٣

سببه الأول، و خالق الكون بما فيه.

و لا بد من الاشارة إلى ان القرآن ينظر إلى الإنسان من خلال عقيدته و سلوكه، بماذا يؤمن؟ و ما ذا يعمل؟. و هذه النظرة نتيجة لازمة لطبيعة القرآن من حيث انه كتاب دين و هداية. و على هذا الأساس يحكم على الإنسان بأنه صالح أو طالح طيب أو خبيث. و معلوم ان العقيدة التي دعا إليها هي الايمان بالله و رسله و اليوم الآخر، و ان العمل الذي امر به هو العمل الصالح: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ - ٧ البينة» .. و بكلمة ان الإسلام يوجه الإنسان إلى الغاية التي يجب أن يكرس حياته من أجلها، فإن انحرف عنها نعتة القرآن بأقبح الأوصاف كالظالم و الخاسر و الكافر و الجاهل و الطاغى و الكنود، و ما إلى ذلك من الرذائل.

ان هذه الأوصاف ليست تحديدا لطبيعة الإنسان و ماهيته، و انما هي تفسير لسلوكه في بعض مواقفه، و يدلنا على ذلك ان كل صفة ذكرها القرآن مقرونة بحادثة من الحوادث، فلقد وصف الإنسان باليأس إذا نزلت به نازلة، و بالفرح و البطر إذا استغنى، و بالجزع و الهلع إذا مسه الضر، و نحو ذلك. و قد خفيت هذه الحقيقة على كثيرين، و ظنوا ان هذه الأوصاف وردت في القرآن تحديدا لحقيقة الإنسان و ماهيته و أخذوا يعتون به في غير المناسبات التي جاءت في كتاب الله .. و لو صدق ظنهم لما جاز أن يؤخذ الله على الكفر و الطغيان، و كان قوله: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ تَكْرِيماً لِّلْكَفْرِ وَ الظُّلْمِ .. تعالَى الله عن ذلك علواً كبيراً».

و على هذا يكون المراد بالإنسان في قوله: **(وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ)** من لا يؤمن بالله، أو آمن به نظرياً لا عملياً، لأن من آمن به حقاً فإنه يتوكل عليه وحده في جميع حالاته، و يشكره في السراء و الضراء، و يخشى و يتواضع إذا استغنى، و يصبر و يرجو إذا افتقر، فإن الايمان نصفان: نصف خوف، و نصف رجاء.

و الذي يؤكد ان المراد بالإنسان من ذكرنا، و ليس مطلق الإنسان قوله تعالى بلا فاصل: **(إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)**.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢١٤

صبروا على ما أصابهم من الضراء ايماناً بالله و طمعا بثوابه و رضوانه، و عملوا الصالحات في الشدة و الرخاء، و هذه هي سمة أرباب العقائد و المبادئ، لأن العقيدة متى استقرت في القلب تصبح كالروح في الجسم لا تفارقه إلا بالموت.

[سورة هود (١١): الآيات ١٢ إلى ١٤]

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ ضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْ لَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِ كِتَابًا مَّا نَسَىٰ مَا آتَىٰكَ اللَّهُ نَذِيرًا وَ اللَّهُ



عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بَعْشَرَ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَالِمَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ إِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)

اللغة:

ضيق الصدر كناية عن الغم والحزن. والكنز ما يدخر من المال. وفي مجمع البيان اختلق واخترق وخرق وخرص وخلق إذا كذب.

الإعراب:

لعلّ تعمل عمل ان، ومعناها هنا الاستفهام على رأي الكوفيين كما في مغني اللبيب. و ضائق به صدرك، ضائق مبتدأ و ضمير به يعود الى بعض ما يوحى،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢١٥

و صدرك فاعل ضائق ساد مسد الخبر. والمصدر المنسبك من ان يقولوا مفعول لأجله لتارك أي مخافة قولهم. ولولا بمعنى هلا. أم يقولون افتراه/ (ام) بمعنى بل، و ضمير افتراه لبعض ما يوحى، أو لما يوحى. و مثله صفة لسور، و مفتريات صفة ثانية. و ما في انما انزل كافة لأن عن العمل. و ان لا إله إلا هو، و الجملة من لا و اسمها و خبرها خبر ان.

المعنى:

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ). كان النبي (ص) يتلو على المشركين آيات من القرآن داعيا الى الايمان بالوحدانية والبعث، و كانوا يهزءون حيناً، و حيناً يقترحون عليه معجزات تعنتاً، لا استرشاداً، و كان موقفهم هذا من دعوة النبي (ص) يحزنه و يؤلمه، فقال له المولى جل ثناؤه مخففا عنه: امض في دعوتك، و لا تبال بما يقولون و يقترحون .. و ما ذا تصنع لتتقي أقوالهم و تعنتهم؟ هل تترك بعض ما يوحى اليك، و تحذف من القرآن ما لا يعجبهم من آياته؟ كلا، انك لن تفعل. اذن، لما ذا الحزن و ضيق الصدر؟. هذا هو المعنى المراد من قوله تعالى: **(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ)** لأن النبي (ص) معصوم، لا يترك شيئاً مما يوحى اليه، و محال ان يترك، فالآية أشبه بقوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ - ٤٢ المائدة)**.

(وَضَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ) اقترح المشركون على النبي فيما اقترحوا ان تمطر السماء ذهباً و فضة، أو يأتي ملك من الملائكة يشهد بنبوته .. هكذا يفكر أصحاب الأموال و الثروات قديماً و حديثاً، و يؤمنون بأن المناصب الشريفة يجب أن تكون وقفا على الأغنياء، أما الفقراء فيجب ان يكونوا بمعزل عن القيادات و المناصب .. و كان تعنتهم هذا يسبب للنبي الهمّ و الكرب، فقال له المولى: **(إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ)** عليك ان تبلغ ما أوحى اليك، و لا تكترث بسفاهة السفهاء، و جهل الجهلاء **(وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)**.

فالأقوال لديه محفوظة، و السرائر مبلوغة، و كل نفس بما كسبت رهينة .. و يتصل بهذه الآية ما ذكرناه في ج ٣ ص ٢٤٨ بعنوان: «طراز من الناس».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢١٦

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بَعْشَرَ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ). سبق نظير هذه الآية مع الكلام مفصلاً عن اعجاز القرآن في ج ١ ص ٦٤ عند تفسير الآية ٢٣ من سورة البقرة.

(فَالَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ).

ضمير لم يستجيبوا للمكذبين بالقرآن، و خطاب (لكم) للنبي و كل داعية الى الإسلام، و خطاب فاعلموا لكل من كذب بالقرآن في كل عصر و مصر، و المعنى فليعلم المكذبون الذين عجزوا عن معارضة القرآن انه نزل على محمد (ص) من عند الله الذي لا إله سواه **(فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)** حيث لا سبيل لكم بعد العجز عن المعارضة إلا التسليم و الإذعان. و كفى القرآن اعجازا انه باق على قيمته و عظمته رغم القرون الطوال، و سيبقى كذلك يجذب اليه كل قارى و سامع الى آخر يوم، و ما ذاك إلا لأن حقائقه انسانية و جدانية يعترف بها كل ذي لب أيا كان مذهبه و مشربه.

[سورة هود (١١): الآيات ١٥ الى ١٧]

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لَا يَبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) أَمْ مَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يُتْلَوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَ رَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢١٧

اللغة:

التوفية تأدية الحق كاملا، و البخس تأديته ناقصا. و حبط الشيء فساده و بطلانه. و البينة ما يتبين به الحق من الباطل. و المرية الشك.

الإعراب:

نوف مضارع مجزوم جوابا لمن كان. و باطل مبتدأ، و ما كانوا فاعل لباطل ساد مسد الخبر، و يجوز ان تكون (ما) مبتدأ مؤخر، و باطل خبر مقدم. أ فمن كان على بينة (من) مبتدأ، و خبره محذوف، تقديره كمن لا بينة له. و الهاء في يتلوه تعود إلى البينة لأنها بمعنى البرهان. و من قبله كتاب موسى عطف على شاهد. و اماما حال.

المعنى:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لَا يَبْخَسُونَ).

من يزرع يحصد، و من يتاجر متقنا فن التجارة يربح، و من يجتهد في مدرسته ينجح، و من يقيم المصانع، و يحفر المناجم، و يحتكر المعادن تكس الأموال في خزائنه .. و هكذا كل من سعى لشيء يلقي ثمرة سعيه مؤمنا كان أو كافرا، فالأرزاق تأتي نتيجة للأعمال لا ينقصها كفر، و لا يزيدا ايمان، و هذا هو الذي اراده الله من قوله: **(نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لَا يَبْخَسُونَ)**. أجل للأوضاع الفاسدة تأثيرها كما ذكرنا في ج ٣ ص ٩٤.

و نعيم الحياة في الآخرة يناط بالعمل في الدنيا تماما كالزينة في هذه الحياة، سنة الله في خلقه، و لن تجد لسنة الله تبديلا، قال تعالى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمِ الصَّابِرِينَ - ١٤٢ آل عمران». و قال: «وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا - ١٩ الاسراء». و من سعى لرزقه الحلال الطيب فقد سعى للدنيا و الآخرة معا.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢١٨



(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ). أولئك إشارة الى الذين انغمسوا في الدنيا و انصرفوا عن غيرها، و لا جزاء لهم عند الله إلا عذاب الحريق **(و حَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)**. ضمير فيها يعود الى الحياة الدنيا، و المعنى ان جميع أعمالهم ليست بشيء عند الله، حتى لو انتفع بها الناس ما دام القصد منها غير وجه الخير و الانسانية.

و الخلاصة ان من سلك سبيلا أدت به الى غاياتها و نتائجها، و العاقل من يختار لنفسه سبيل النجاة، و لا تخدعه المغريات.

و بعد ان ذكر سبحانه من يعمل لحياة الدنيا منصرفا عما سواها ذكر من يعمل لله، و يدعو اليه، و هو على بينة من أمره، و فيما يلي التفصيل:

١- **(أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ)**. المراد به محمد (ص)، و بينته من الله القرآن.

٢- **(وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ)**. قال الطبري و الرازي و أبو حيان الأندلسي و غيرهم من المفسرين: «اختلفوا في المراد من هذا الشاهد الذي يشهد لمحمد بالرسالة، قيل: انه جبريل، و قيل: لسان محمد، و قيل: انه علي بن أبي طالب». و الذين قالوا هذا استدلوا بحديث رواه البخاري في الجزء الخامس من صحيحه، و هذا نصه بالحرف: «قال النبي (ص) لعلي: أنت مني و أنا منك، و قال عمر توفي رسول الله (ص)، و هو عنه راض».

٣- **(وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً)**. لقد بشرت التوراة بمحمد و نبوته قبل ان يشهد له القرآن، و التوراة كتاب الله انزله على موسى، و إمام يقتدى به في الأمور الدينية، و رحمة لمن عمل بها قبل التحريف.

(أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ). ضمير به عائد الى محمد (ص) و أولئك إشارة الى الذين يتبعون دلائل الحق و بيناته، كالقرآن و كتاب موسى كما نزل عليه، و هؤلاء المشار اليهم لم يذكروا صراحة في الآية، و لكنهم مذكورون فيها بأوصافهم **(وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ)**. المراد بالأحزاب من أجمعوا على عداوة رسول الله و حربته، قال صاحب تفسير المنار و الشيخ المراغي: «قال مقاتل: هم بنو أمية و بنو المغيرة بن عبد الله المخزومي و آل طلحة بن عبد الله، و من اليهم من اليهود و النصارى».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢١٩

(فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ). المرية الشك و الريب، و ضمير منه و انه يعودان الى محمد أو القرآن، و الخطاب في لا تك موجه لكل من سمع برسالة محمد، و المعنى لا ينبغي لعاقل أن يشك في أن محمدا رسول الله، و ان القرآن وحي من الله بعد أن قامت الدلائل و البينات على ذلك.

و إذا ساغ لإنسان أن يشك بأن التوراة و الإنجيل قد بشرتا بنبو محمد فهل يسوغ له أن يشك في أن محمدا قد منح الناس أسباب الحياة، و انه قد أتى بما لم يأت به نبي و لا مصلح. **(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)** بالحق، لأنه عدو الدلبيغهم و فسادهم في الأرض، أو لأنهم لا يهتمون بالدين حقا كان أو باطلا، ما دامت معاشهم لا تعتمد عليه .. و نحن ندع هؤلاء و ما يختارون على أن يتركوا غيرهم و ما يختار، و لا يطعنوا في دين لا يعرفون منه الا الاسم.

[سورة هود (١١): الآيات ١٨ الى ٢٤]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا

مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِسُونَ (٢٢)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآخَبْتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٢٠

اللغة:

الأشهاد جمع شاهد. والعوج بكسر العين الالتواء عن الحق، و بفتحها الالتواء في الأشياء المادية كالعصا ونحوها، و آخبتوا الى ربهم أي خضعوا و اطمأنوا.

الإعراب:

كذبا مفعول مطلق لافترى، لأنه مثل جلست قعودا. و الذين يصدون عن سبيل الله عطف بيان من الظالمين. و عوجا حال من واو يبغونها منحرفين أو ضالين. و هم بالآخرة هم كافرون. (هم) الثانية تأكيد ل(هم) الأولى. و من أولياء (من) زائدة اعرابا. و أولياء اسم ما كان لهم. و يضاعف لهم العذاب جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب. و ما كانوا يستطيعون (ما) نافية. و لا جرم بمعنى لا محالة، فلا نافية للجنس، و محالة اسمها مبني على الفتح، لأنه مركب مع لا تركيب خمسة عشر على حد تعبير النحاة، و المصدر المنسب من انهم و خبرها مجرور بمن محذوفة خبرا للا. و عن الفراء ان لا جرم كانت بمعنى لا محالة، ثم تحولت الى معنى القسم و صارت كلمة واحدة بمعنى حقا. و مثلا تمييز من فاعل يستويان، و الأصل هل يستوي مثلهما.

المعنى:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا). و إذا كان شر القول الكذب على المخلوق فكيف إذا كان على الخالق؟! و للافتراء على الله مظاهر، منها خلق الشركاء

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٢١

و الشفعاء، و منها التحليل و التحريم بلا دليل من كتاب أو سنة، و منها السلب و النهب باسم الحرية و الديمقراطية. (أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ). أولئك إشارة إلى المفترين، و انهم سيقفون غدا للحساب، و تعرض أقوالهم و أفعالهم على الله (و يَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَعَنَّ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ). ان الله سبحانه لا يحتاج الى شهود لأنه بكل شيء عليم، و على كل شيء قدير، يحكم بعلمه و عدله، و ينفذ بكلمة «كن». أما شهادة الملائكة و الأنبياء، و شهادة السن المكذبين و الضالين و أيديهم و أرجلهم، أما هذه الشهادة فالمقصود منها أن يزداد المجرمون حسرة، و ان يكونوا على يقين بأنه لا حجة لهم و لا عذر يلجئون اليه، و لا مفر لهم من لعنة الله و عذابه.

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ).

هذه الآية بيان و تفسير للظالمين الذين لعنهم الله، و انهم يمنعون الناس عن التوحيد و الإيمان بالبعث، و يغرونهم بالشرك، و الكفر باليوم الآخر (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ) كيف و لو شاء الله ما ترك على ظهرها من

دابة (وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ) حتى الأصنام التي كانوا يؤهلونها و يعبدونها، و الأحبار و الرهبان الذين اتخذوهم أربابا.

(يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ). هذا جواب عن سؤال مقدر، فكان سائلا يسأل:

ما هو حكم الذين افتروا على الله، و صدوا عن سبيله، و كفروا باليوم الآخر؟.

فأجاب سبحانه: (يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ) و مضاعفة العذاب هنا كناية عن هوله و شدته، لأن الأسباب كثيرا ما تتداخل إذا كان أثرها واحدا، و قيل: لا تتداخل في الأسباب، حتى و لو كان المسبب واحدا، فيعذبون مرة على الافتراء، و مرة على الصد، و مرة على الجحود بالبعث (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ مَا كَانُوا يَبْصُرُونَ). هذا تعليل لمضاعفة العذاب، و ان الله انما يضاعفه لهم، لأنهم كانوا في الحياة الدنيا لا يطيقون سماع الحق، و لا النظر اليه لإغراقهم في الكفر و العناد.

(أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ) و أخسر الناس صفقة من خسر نفسه بعذاب لا يقضي عليها، و لا يخفف عنها (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) من خلق الشركاء

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٢٢

لله، و الشفعاء لديه، و نسبة التحليل و التحريم اليه كذبا و افتراء (لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسِرُونَ). بعد أن قال سبحانه: انهم خسروا أنفسهم أكد هذا الخسر بأنه واقع لا محالة، و لا مفر لهم منه بحال.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ أَحَبُّوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ). لما ذكر سبحانه الكافرين و عقوبتهم ثنى بذكر المؤمنين و ثبوتهم على عادة القرآن من المقارنة بين الأضداد. و الإخبات الخشوع و الطمأنينة، قال الطبرسي: «أصل الإخبات الاستواء من الخبت، و هو الأرض المستوية الواسعة، فكان الإخبات خشوع مستمر على استواء فيه» .. و يقال: خبت ذكره، أي خفي.

(مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَ الْأَصْمِ وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ). الفريقان هما الكافر و المؤمن، فالأول لا ينتفع بحواسه، كما لا ينتفع الأعمى بعينه، و الأصم بأذنيه، و الثاني ينتفع بهما، قال الإمام علي (ع): من اعتبر أبصر، و من أبصر فهم، و من فهم علم.

و نفس الشيء يقال عن السميع (هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا) أي صفة و حالا و مالا (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) و تتفكرون فيما بينهما من التفاوت.

[سورة هود (١١): الآيات ٢٥ الى ٢٦]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَمِّ (٢٦)

الإعراب:

و لقد الواو ابتدائية أي واقعة في ابتداء الكلام، و اللام جواب قسم محذوف. و إنني لكم بكسر همزة إنني على تقدير فقال: إنني، و بفتحها على تقدير بأنني أي

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٢٣

أرسلناه بالإنذار، و يكون هذا من باب الالتفات من الغيبة الى الحضور و وضع اني مكان انه. و ان لا تعبدوا (ان) مفسرة، و لا ناهية.

المعنى:

يتلخص معنى الآيتين بأن قوم نوح كانوا يعبدون الأوثان، وقيل: انهم أول من أشرك بالله، واتخذ له أندادا، فأرسله الله إليهم بشيرا و نذيرا، فأدى رسالته بهذه الكلمات القصار: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئا، وأظهر الفرق بهم، و الإشفاق عليهم من عذاب الله إن أصروا على الشرك. وهذه هي الركيزة الأولى لرسالة جميع الأنبياء

[سورة هود (١١): الآيات ٢٧ الى ٣١]

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِادِي الرَّايِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظَنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْلَزْتُكُمْ مَوَّهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتَهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٢٤

اللغة:

الردل الحقيقير، و جمعه أرذل، مثل كلب و أكلب، و أرادل جمع الجمع مثل أكلب جمع لأكلب. و بادي الرأي أوله أي قبل التأمل .. و أرايتم أي أخبروني. و عميت خفيت. و أنلزمكموها أي أنكرهكم عليها.

الإعراب:

بشرا مفعول ثان لنراك ان كانت الروية قلبية، و حال من كاف نراك ان كانت بصرية. و مثلنا صفة للبشر. و هم أراذلنا مبتداً و خبر. و بادي الرأي ظرف زمان أي وقت حدوث أول الرأي، و هو منصوب باتبعك. و آتاني تحتاج الى مفعولين لأنها بمعنى أعطاني، و ياء المتكلم مفعول أول، و رحمة مفعول ثان. و أنلزمكموها تتعدى أيضا الى مفعولين و الأول هنا كاف الخطاب، و الثاني ضمير الغائب، و كلاهما متصلان، و يجوز فصل الثاني، فتقول، أنلزمكم إياها. و قد اجتمع في أنلزمكموها ثلاثة ضمائر: ضمير المتكلم و المخاطب و الغائب. تذكرون و أصلها تتذكرون.

المعنى:

(فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا). لما دعا نوح قومه الى التوحيد ردوا عليه دعوته قبل أن

يدرسوها، و يتدبروا حقيقتها ..

و تذرعوها بشبهتين: الأولى كيف يتبعونه، و هو واحد منهم؟ فكثير عليه أن

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٢٥

يتحدث باسم الله من دونهم .. انهم نظروا الى القائل، و لم ينظروا الى القول، و قاسوا الحق بالرجال، و لم يقيسوا الرجال بالحق.



و تسأل: ان هذا لا يختص بقوم نوح (ع)، فلقد رأينا أكثر الناس ينقادون الى الغريب، دون القريب، حتى اشتهر في الأمثال: بنت الدار عوراء.

الجواب: أجل، ان هذا الخلق لا يختص بقوم نوح، والآية لا تنفيه عن غيرهم، وانما تدمهم من أجله، وهذا لا ينفي الذم عن أمثالهم و أشباههم.

الشبهة الثانية التي تذرع بها المترفون قولهم: **(وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِادِي الرَّأْيِ)** و الأراذل في مفهومهم الفقراء و المساكين الذين لا جاه لهم و لا مال، و المترفون أجل و أعظم من أن يؤمنوا بمن آمن به الأراذل **(وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ)** الخطاب في (لكم) لنوح و من آمن معه، و المعنى قال المترفون الطغاة لنوح و المؤمنين: كيف نتبعكم و لا تمتازون علينا بجاه و لا مال، تماما كما قال مشركو قريش لمحمد (ص): «لولا أنزل عليه كنز» .. «و قَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْثِيِّينَ عَظِيمٍ - ٣١ الزخرف» **(بَلْ نَحْنُكُمْ كَاذِبِينَ)** لأنكم فقراء مساكين .. هذا هو منطق الأثرياء الضالين، التعصب للجاه و المال .. أما النويا الخيرية، و الأعمال الصالحة فكلام فارغ.

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ).

هذا جواب قولهم: كيف نؤمن لك، و أنت بشر مثلنا؟. و معنى الجواب اخبروني ما أصنع إذا اختارني الله لرسالته، و خصني من دونكم برحمته، و زودني ببينة منه على هذه الرسالة؟. ما رأيكم؟. هل أرفضها، و أقول لله، لا أريد النبوة منك، و لا أحمل رسالتك إلى عبادك، لأنكم لا تعقلون؟ **(فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمْ)** أي خفيت الرسالة عليكم، و عجزتم عن فهمها **(أَنْزَلْنَاهُمْهَا)** أي أتريدون مني ان أكرهكم على الإيمان برسالتني **(وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)**؟. و إذا كره القلب عمي عن رؤية الحق.

(وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ - أي على الانذار - مَا لَإِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ).

لأن من يتكلم باسم الله لا يطلب الأجر من سواه ان كان صادقا في كلامه، و المرتزقة باسم الدين هم الذين يسألون الناس أموالهم و صدقاتهم، و ما أكثرهم في هذا العصر.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٢٦

(وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مَلَاقُوا رَبَّهُمْ). و ما هو المبرر لطردهم؟.

لأنهم فقراء؟. و ليس الفقر ذنبا عند الله. أو لأن إيمانهم زائف و غير صحيح فهم ذاهبون إلى ربهم، و هو أعلم بمقاصدهم و ضمائرهم؟. **(وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)** و الناس أعداء ما جهلوا.

(وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ) هل تدفعون عني أنتم أو غيركم عذابه ان فعلت ذلك **(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)** و كيف يتذكر من لا يخشى العواقب؟.

(وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ). هذا القول من نوح (ع) شرح و تفسير لقوله أولا: (إني لكم نذير مبين) و ليس من شرط النذير ان يملك الأموال و الأرزاق، حتى يكذب الفقير إذا ادعى الانذار باسم الله، و لا من شرطه أيضا ان يعلم الغيب لتردد دعواه النبوة إذا لم يخبر بالمغيبات، و لا ان يكون ملكا من الملائكة كي يقال له: ما أنت إلا بشر.

(وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ).

من الطبيعي أن يكون الترف هو مقياس الحق و الخير عند المترفين، بل و عند الجهلاء و السفهاء .. أما عند الله و أهل الله

فمقياس الخير التقوى و العمل الصالح، و نوح (ع) يقيس بمقياس الله، فكيف يقول للمؤمنين: لن يؤتيكم الله خيرا؟ تماما كما قال لهم المترفون الطغاة .. اللهم الا اذا صار طاغية مثلهم **(إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)** كالذين أشركوا بالله، و كفروا بكتبه و رسله.

[سورة هود (١١): الآيات ٣٢ الى ٣٥]

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِي إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرَمُونَ (٣٥)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٢٧

اللغة:

الجدال مأخوذ من جدل الحبل أي فتله، لأن كل واحد من المتخاصمين يقتل صاحبه عن مذهبه و حجته.

الإعراب:

و لا ينفَعُكُمْ نَصْحِي قرينة دالة على جوابين محذوفين لشرطين موجودين: الأول إن أردت، و الثاني إن كان الله. و قوله هو ربكم كلام مستأنف، و لا يجوز أن يكون جوابا للشرط.

المعنى:

(قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ). لما أفحم نوح قومه بالحجة و البرهان ضاقوا به، و لم يجدوا أية وسيلة يتذرعون بها لجهودهم و انكارهم إلا أن يتحدوا نوحا بأن ينزل عليهم ما خوفهم به من العذاب، و لما سألوه ذلك **(قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)**. أي أنتم أهون على الله من أن تعجزوه، لأنه على كل شيء قدير و له وحده الخلق و الأمر .. و قال مشركو مكة لرسول الله مثلما قال قوم نوح لنبيهم. انظر تفسير الآية ٣٢ من سورة الأنفال ج ٣ ص ٤٧٣.

(و لَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ). لقد أراد لهم النصح، بل و أكثر من نصحهم، و لكن ما الفائدة إذا قست القلوب و لم تمل لهداية

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٢٨

(إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ). ان الله لا يخلق الغواية في الإنسان، و لو فعل لسلبه انسانيته، و لكن قضت سنة الله في خلقه ان من سلك بإرادته طريق الغواية كان حتما من الغاوين، تماما كما قضت بهلاك من ينتحر مختارا .. و بهذا الاعتبار صحت نسبة الغواية إليه تعالى. و سبق الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٧٤ من سورة يونس، فقرة: «حول الهداية و الضلال» **(هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)** و لا مفر من لقائه و حسابه و جزائه.

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِي إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرَمُونَ).

ظاهر السياق يدل على ضمير يقولون عائد الى قوم نوح، و هاء افتراه الى الوحي الذي بلغهم إياه، و المعنى قل يا نوح لقومك: ان كنت كاذبا فيما أقول كما تزعمون فأنا وحدي المسئول عن ذلك، و علي إثمه و عقابه، و ان كنت صادقا فأنتم المسئولون، و عليكم وحدكم يقع عقاب التكذيب، و أنا بريء من أعمالكم و جرائمكم.



وقيل: ان هذه الآية جاءت معترضة في قصة نوح، وانها نزلت في مشركي قريش، لأنهم ارتابوا في صدق محمد (ص) حين تلا عليهم هذه القصة، فأمره الله أن يقول لهم: لا عليكم ان كنت مفتريا، فعلي وحدي تبعة ما افتري .. وهذا المعنى جائز في نفسه، ولكنه بعيد عن ظاهر السياق.

[سورة هود (١١): الآيات ٣٦ إلى ٣٩]

وَأَوْحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ (٣٧) وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٢٩

اللغة:

الابتئاس الحزن. و الفلك السفينة، و يستوي فيه الواحد و الجمع. و المقيم الدائم.

الإعراب:

المصدر المنسب من انه نائب فاعل لأوحي. و الا من قد آمن (من) في موضع نصب على الاستثناء المنقطع لأن الكفر غير الايمان. و كلما (ما) مصدرية ظرفية أي مدة مرور الملا عليه، و الظرف متعلق بسخروا منه. و تعلمون هنا تتعدى الى مفعول واحد لأنها بمعنى تعرفون. و من يأتيه مفعول لتعلمون، و هي اسم موصول، و قيل: استفهام بمعنى أينا.

المعنى:

(وَأَوْحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ). أنبا الله نوحا (ع) بأن مهمته قد انتهت بعد أن أدى الرسالة على وجهها، و ألقى الحجة على من أعرض و تولى، و انه لن يستجيب له أحد بعد الآن، و عزاه الله سبحانه عن ذلك، لأن نوحا قد تألم و حزن لاصرارهم على الشرك.

(وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ).

بأعيننا كناية عن حفظه تعالى و رعايته، و المراد بوحينا أمره و تعاليمه، بعد أن أمره الله بصنع الفلك نهاه عن التوسل اليه في شأن الذين ظلموا أنفسهم، لأن كلمة العذاب قد حقت عليهم أجمعين.

(وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ) لأنه صنعها في فلاة من الأرض بعيدا عن الماء .. سخروا و ضحكوا لأنهم أيقنوا بأنه لا شيء وراء ما يبصرون، و هذا هو شأن الجاهل يركن الى الظاهر، و لا يدخل في حسابه ما وراءه من تقدير و تدبير. و قيل: ان قوم نوح ما راوا سفينة قبل

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٣٠

ذلك، و لا عرفوا كيفية الانتفاع بها، و لذلك سخروا و تعجبوا .. و المعروف ان الفينيقيين من أوائل من صنع السفن و ركب البحار، و نقل أبو حيان الأندلسي في تفسيره «البحر المحيط» عن ابن عباس ان نوحا قطع خشب السفينة من غابات جبال لبنان .. و ان دل هذا على شيء فإنما يدل على ان جبال لبنان كانت معروفة بالغابات منذ القديم .. و كذا الفينيقيون قطعوا أخشاب سفنهم من هذه الغابات.

المؤمنون و المستهزون:

(قَالَ إِنَّ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ

عَذَابٌ مُقِيمٌ). جهلوا حقيقة السفينة والغرض منها، ولم يحسبوا لمخبات الدهر وملماته، فاسترسلوا مع أهوائهم يهزءون ويسخرون، أما نوح فقد كان على ثقة من أمره وأنه يصنع ما يصنع بعين الله ورعايته، وأنه ومن معه بمنجاة من الهلاك، وأن مصير الساخرين إلى الغرق لا محالة، وهذا المصير هو الذي سخر منهم، أما نوح فبيان الواقع وترجمانه.

وما أشبه المستهترين بالدين من شباب هذا العصر بالذين كفروا من قوم نوح.

سخر هؤلاء من سفينة النجاة، وسخر الشباب المستهتر من المؤمنين، وقالوا:

أصلاة وصيام في القرن العشرين؟. تماما كما قال الذين كفروا: أسفينة في اليابسة، حيث لا بحر ولا ماء؟. جهلوا حقيقة السفينة وأسرارها، فسخروا من نوح، وجهل الشباب أسرار الصوم والصلاة، فسخروا من الصائمين المصلين، فأمن الشباب المستهتر الهازئ بالدين وأهله أن يصيبهم ما أصاب الذين سخروا من نوح وسفينته؟.

[سورة هود (١١): الآيات ٤٠ إلى ٤٤]

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بَنِيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٣١

اللغة:

مجرها من الجري، وهو السير، ومرساها من الارساء، وهو الثبوت، أي بسم الله سيرها وثبتها. ومعزل أي مكان عزلة وانفراد. وأقلعي أي امسكي عن المطر. وغيض الماء غار في الأرض. والجودي جبل في الموصل كما قيل.

الإعراب:

نقل ابن هشام في كتاب المغني عن الجمهور أن حتى إذا دخلت على إذا تكون حرف ابتداء، وإذا ظرفية في محل نصب بشرطها أو جوابها. من كل زوجين اثنين قرئ بتنوين كل، أي من كل نوع، وعلى هذا يكون زوجين مفعولا لا حمل و اثنين توكيدا له، و قرئ بإضافة كل الى زوجين، و عليه يكون اثنين مفعولا لا حمل، و من كل زوجين متعلق بمحذوف حالا من اثنين. و أهلك معطوف

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٣٢

على مفعول حمل، و مثله و من آمن. بسم الله متعلق بمحذوف حالا من واو اركبوا أي متبركين باسم الله، و مجراها و مرساها ظرفا زمان على حذف مضاف أي وقت جريها و ارسائها. و يجوز أن يكونا مبتدأ و الخبر بسم الله .. و لا عاصم (لا) نافية للجنس و عاصم اسمها، و اليوم متعلق بمحذوف خبرها، و إلا من رحم الله (من) في محل نصب على الاستثناء المنقطع أي لكن من رحمه الله معصوم.

و بعدا مصدر مؤكد أي بعد بعدا.

المعنى:

(حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ). الفوران الارتفاع، و للتنور معان في اللغة، منها وجه الأرض، و هو المراد هنا، و نظيره «و فجرنا الأرض عيونا» و المعنى حين أتى أمر الله، و أخذ الماء ينبع من الأرض **(قُلْنَا) - لنوح - احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ** ذكرا و أنثى، و كلمة كل تدل على عموم ما تضاف إليه، و يختلف هذا العموم سعة و ضيقا باختلاف موارد، فكلمة شيء في قوله تعالى: «وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ» تعم جميع الكائنات دون استثناء، و هي في قوله عن بلقيس: «و أوتيت من كل شيء» تختص بأشياء زمانها أو بلدها، و على هذا يكون المراد من كل زوجين في الآية ما يستطيع نوح (ع) أن يحمله معه في السفينة من أنواع الأحياء أو المخلوقات، لا من جميع أنواعها، و الا كان طول السفينة و عرضها مئات الأميال.

(وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) أي و احمل أهلك في السفينة و لا تحمل منهم من ننهاك عن حمله. و تجدر الإشارة الى ان الله سبحانه لم يقل لنوح: لا تحمل ولدا مع العلم بأن الله قد أغرقه مع الكافرين. و قال المفسرون: ان أبناء نوح الثلاثة الذين حملهم معه حام و سام و يافث، أما من كتب عليه الهلاك من أهله فهو أحد أبنائه الذي أشار إليه سبحانه بقوله: «فكان من المغرقين» و قيل:

اسمه كنعان، و امرأة نوح أيضا كانت من الهالكين لقوله تعالى في الآية ١٠ من سورة التحريم: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَ امْرَأَتِ لُوطٍ» ..

(وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)، أي و احمل العصابة القليلة التي آمنت معك.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٣٣

(وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) و امثل نوح (ع) أمر الله، و دعا المؤمنين من أهله و أصحابه أن يركبوا معه السفينة، و هو و من معه يسمون عليها في الجريان و الرسو .. و رأيت تفسيراً لبعض الصوفية يقول: المراد بسفينة النجاة هنا الشريعة، و بالأموح أهواء النفس و شهواتها .. فتساءلت، و أنا أقرأ هذا التفسير: هل يا ترى استوحى بعض الشيوخ من هذا التفسير تسمية كتابه أو رسالته بسفينة النجاة؟

(وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ). و في هذه الحال التي هي أشبه بسكرات الموت ينظر نوح الى ولده بحسرة، و يدعوه الى الايمان و سبيل النجاة قبل أن يلفظ النفس الأخير **(وَنَادَى نُوحُ ابْنَهُ وَ كَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ)**. مسكين الأب .. ما مس الأذى طرفا من جسم ولده الا و مسه في روحه و قلبه .. لقد أيقن نوح بأن ابنه هالك لا محالة ان أصر على الشرك، فهتف بلهفة الأبوة: يا بني آمن بالله و اركب معنا .. و لكن لا حياة لمن تنادي، فإن رعونة الفتوة قد أعمته عن سوء العاقبة **(قَالَ سَاوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ)**. لقد صور له الجهل و الغرور ان المشكلة مشكلة ماء، و انه يحلها بالصعود الى الجبل، و لم يدر انها مشيئة الله و غضبه على المشركين و المتمردين.

(قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ). فأجابه نوح ليست المشكلة مشكلة ماء كما تظن، و انما هي مشيئة الله التي لا مفر منها الى غيره .. فمن رحم الله نجا، و من غضب عليه هلك **(وَ حَالٌ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرُقِينَ)** و

في أثناء الحديث بين الوالد و ولده ارتفع الموج، و غاب الولد عن عيني والده ..
و الذي حدث لنوح (ع) مع ولده يحدث لكثير من الآباء مع أبنائهم الذين يسيئون تقدير الأمور و عواقبها، و يكون مصيرهم تماما كمصير ابن نوح.

(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَ يَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَ غِيضَ الْمَاءِ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ). أمر الله الأرض أن تبتلع الماء، و أمر السماء أن تكف عن الصب، فكفت هذه، و ابتلعت تلك، و انتهى الأمر بنجاة المؤمنين، و هلاك المشركين، و إذا بالسفينة تستقر على الجودي، و هو جبل بالموصل كما قيل **(وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)** الذين كذبوا بالحق. و بعدا كلمة دعاء أي أبعدهم الله عن رحمته، مثل سحقا في قوله تعالى: «فَسَحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ - ١١ الملك».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٣٤

[سورة هود (١١): الآيات ٤٥ إلى ٤٩]

و نادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي و إن وعدك الحق و أنت أحكم الحاكمين (٤٥) قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنني أعظك أن تكون من الجاهلين (٤٦) قال رب اني أعوذ بك أن أسئلك ما ليس لي به علم و إلا تغفر لي و ترحمني أكن من الخاسرين (٤٧) قيل يا نوح اهبط بسلام منا و بركات عليك و على أمم ممن معك و أمم سئمتمهم ثم يمسه من عذاب اليم (٤٨) تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت و لا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين (٤٩)

الإعراب:

رب منادى، و أصلها ربي، و حذف الياء للتخفيف. و عمل غير صالح على حذف مضاف أي ذو عمل. و به متعلق بعلم. و المصدر المنسب من أسألك مجرور بمن محذوفة أي أعوذ بك من سؤالك. و الا كلمتان ان الشرطية و لا النافية و ادغمت النون باللام، و تغفر فعل الشرط، و أكن جوابه. و أمم الأولى عطف على الضمير في اهبط أي اهبط انت و أمم ممن معك. و أمم الثانية مبتدأ و سئمتمهم خبر و الجملة مستأنفة. و تلك مبتدأ و من أنباء الغيب خبر، و جملة نوحيها حال من أنباء الغيب.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٣٥

المعنى:

(و نادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي و إن وعدك الحق و أنت أحكم الحاكمين) في الآية السابقة ٤٥ أمر الله نوحا أن يحمل أهله في السفينة إلا من ينهاه عن حملة منهم، و لم ينه الله نوحا عن حمل ابنه، كما لم يأمره بحمله، بل سكت عن ذلك لحكمة هناك .. فظن نوح ان الله سبحانه قد كتب النجاة الى جميع أهله، سواء منهم الطائع و العاصي، و من أجل هذا نادى ربه مستنجزا وعده في ابنه بحسب ظنه، لأنه من أهله.

و تسأل: ان نوحا نبي، و النبي معصوم، فكيف يجوز عليه أن يظن خلاف الواقع؟.

الجواب: ان الظن المخالف للواقع لا يضر بالعصمة إذا كان مجردا عن العمل، و لم يترتب عليه أي اثر في الخارج، لأنه



يكون، و الحال هذه، أشبه بالخيال يمر بالذهن ثم يزول، كأن لم يكن .. و على فرض ان المعصوم أراد العمل بظنه المخالف للواقع فان الله سبحانه يكشف له عنه، و يعصمه عن الوقوع في الخطأ.

و أوضحنا ذلك عند تفسير الآية ١٠٥ من سورة النساء ج ٢ ص ٤٣٠.

(قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) أي ذو عمل غير صالح .. يقول الله جلّت عظمته لنوح جوابا له عن سؤاله في شأن ولده، يقول له: لقد أمرت أن تحمل أهلك في السفينة إلا من أنهاك عن حمله، و ما نهيتك عن حمل أحد منهم لحكمة اقتضت ذلك، و لكن سبقت مشيئتي أن يكون ابنك من المغرقين، لأنه ليس من أهلك بسبب عمله غير الصالح، فإن أهل الأنبياء هم المتقون الصالحون، و ان بعد النسب، و ان أعداءهم العاصون، و ان قرب النسب .. و يؤكد ارادة هذا المعنى قوله تعالى في الآية ٦٨ من سورة آل عمران:

«إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ» و منه أخذ الإمام علي قوله: «ان ولي محمد من أطاع الله، و ان بعدت لحمته، و ان عدو محمد من عصى الله، و ان قربت قرابته». و قال الشاعر:

كانت مودة سلمان لهم رحما و لم تكن بين نوح و ابنه رحم

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٣٦

(فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

. ان الشيء الذي لم يكن يعلمه نوح (ع) هو ما كتب الله لابنه من الغرق، لأن الله سبحانه قد طوى العلم بغرقه عن أبيه أول الأمر لمصلحة اقتضت ذلك، و لما سأل نوح ربه عن ابنه قال له: لا تسألني عما طويت علمه عنك قبل الغرق، و لا تطالبني بابنك اني أعظك أن تكون من الجاهلين، أي ان طالبت به فانت من الجاهلين (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ)

. أي لا اسألك عن ابني و لا اطالبك به بعد ان اعلمتني الحقيقة، بل ارضى «١» بحكمك و قضائك (وَالْإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

. هذا مجرد خشوع من نوح لله تعالى، و ليس استغفارا من ذنب وقع، كما هو شأن الأنبياء و الصالحاء، و تكلمنا عن ذلك

في ج ٢ ص ٢٧٧.

(قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ). لما انتهى الطوفان، وأغرق الله المشركين أمر الله نوحا أن يهبط إلى الأرض هو ومن معه بسلام وبركات في المعاش والأرزاق، ينتشرون هنا وهناك أمما مستقلا بعضها عن بعض، ثم يتناسل منهم أمم آخرون كقوم عاد و ثمود يمتعهم قليلا في الدنيا، ثم يمسهم العذاب بكفرهم وعصيانهم.

أسطورة حول العاشر من المحرم:

تقول الاسطورة: ان نوحا هبط بسفينته الى الأرض يوم عاشوراء، فصام شكرا لله، وكان قد فرغ منه الزاد، فجمع كفا من حمص ومثله من عدس، ومثله من حنطة حتى صارت سبعة حبوب، فطبخها نوح وأكلوا منها جميعا حتى شبعوا، فشاعت هذه الأسطورة واتخذها الناس في بعض البلاد سنة يوم عاشوراء.

(١). اضطرت اقوال كثير من المفسرين هنا حيث فهموا من الآية ان الله يقول لنوح: لا تسألني، ونوح يقول له: انا ما سألتك فكيف تقول لي: لا تسألني؟. ثم أخذوا يؤولون بالوهم والخيال، ومما ذكرناه يتبين ان الآية واضحة لا تحتاج الى التأويل.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٣٧

(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ). الخطاب في اليك وما بعده لمحمد (ص) .. بعد ان أنبا الله سبحانه رسوله الأكرم محمدا (ص) بقصة نوح قال له: ان هذه القصة هي وحي منا اليك، وما كنت تعلمها من قبل انت ولا قريش، و عليك أن تصبر على ما تلاقيه من قومك في سبيل دعوتك، كما صبر نوح على قومه، و كما كانت العاقبة له و لمن آمن معه فستكون العاقبة لك و للمسلمين، لأنها دائما تكون للصابرين المتقين.

الطوفان ثابت عند الأمم:

و حكاية الطوفان لا تختص بكتب الأديان، فقد جاء ذكر الطوفان في الواح بابل و آشور، و قد عثر الباحثون على لوح يشير الى هذه القصة، و يرجع تاريخه الى ٢١٠٠ سنة قبل الميلاد، و أكد العارفون الذين لا تربطهم بالدين أية صلة ان قصة الطوفان تعرفها الأمم القديمة في الهند و اليونان و اليابان و الصين و البرازيل و المكسيك و غيرها، و إذا اختلفت قصة الطوفان عند الأمم في التفاصيل فإنها تتفق في الجوهر، و ان السبب هو عقاب البشر على كفرهم و ظلمهم.

[سورة هود (١١): الآيات ٥٠ الى ٥٦]

وَالِىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِهِ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنْ شِئْتُمْ لَأَشْهَدَنَّ اللَّهُ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٣٨

اللغة:

فطر الشيء فطرا أي شقه، فظهر ما فيه. و مدارر مبالغة في الدر، و هو القطر المتتابع غير المفسد. و اعتراك أصابك. و الناصية قصاص الشعر، و المراد بأخذها هنا ملك الأمر كله.

الإعراب:

و الى عاد أخاهم هودا، أخاهم مفعول لفعل محذوف أي و أرسلنا الى عاد أخاهم. و هودا بدل من الأخ. و يا قوم على حذف ياء المتكلم أي يا قومي. و ما لكم (ما) نافية و لكم خبر مقدم، و من زائدة إعرابا، و إله مبتدأ مؤخر. و مداررا حال من السماء، و لم يقل مداررة لأن مفعلا للمبالغة يستوي فيه المذكر و المؤنث. و قوة مفعول ليزدكم لأنها بمعنى يعطكم. و مجرمين حال من فاعل تتولوا. ان نقول الا اعتراك (ان) نافية، و جملة اعتراك محكية لنقول، و لا داعي للحذف و التقدير كما فعل صاحب مجمع البيان.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٣٩

المعنى:

(وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ) بعبادة الأوثان .. و هود من عاد نسبا و وطنا، و لذا وصفه سبحانه بأخيهم، و رسالته هذه الى قومه هي رسالة جميع الأنبياء، و سبق نظيرها من نوح في الآية ٢٦ من هذه السورة، و من هود نفسه في الآية ٦٥ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٤٧، و ذكرنا مكان قبره، و انه أول من تكلم بالعربية، و انه أبو اليمن و مضر. فراجع.

(يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ) ان من يعمل لله لا يطلب الرزق من غيره، و ان الله وحده هو الذي ينفع و يضر، و مر تفسيره في الآية ٢٩ من هذه السورة.

(وَإِذَا قَوْمٌ اسْتَعْذَرُوا بِكَ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَىٰ سَبِيلٍ مُّسْتَقِيمٍ) و الفرق بين الاستغفار و التوبة ان الاستغفار طلب العفو عن الماضي مع صرف النظر عن الآتي، اما التوبة فطلب العفو عما مضى مع التعهد بترك المعصية فيما يأتي **(يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَ يَزِدُّكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَ لَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)**. يظهر من هذا انهم كانوا اصحاب زرع و ضرع، حيث رغبتهم سبحانه في كثرة المطر، كما ان قوله: **(يَزِدُّكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ)** يدل على انهم كانوا على شيء من القوة المادية و المعنوية، و يومئ الى ذلك قوله تعالى: **(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ - ٧ الفجر).**

و تسأل: لقد ربط الله في هذه الآية بين الايمان، و بين انزال المطر، فكيف تجمع بينها و بين قولك عند تفسير الآية ٢ من سورة الأنفال و غيرها: ان الايمان لا يثبت قمحا، لأن الله يجري الأمور على سنن الكون؟.

الجواب: أجل، ان الله يجري الأمور على سننها الكونية، ما في ذلك ريب ..

و لكن هذا لا يمنع من وجود المعجزات، و خوارق سنن الكون لحكمة تستدعي ذلك .. ان جميع الأسباب الطبيعية و

غيرها تنتهي الى مشيئته تعالى، فهي وحدها سبب الأسباب، وقد تتعلق هذه المشيئة القدسية بوجود شيء ما مباشرة و بلا واسطة

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٤٠

خارقا لجميع الأسباب المألوفة، فيوجد بلا سببه المألوف كطوفان نوح، و ما اليه من المعجزات .. و قد شاء الله تعالى ألا تظهر هذه المعجزات الخارقة للنواميس الا بوجود نبي من الأنبياء اثباتا لنبوته، أو استجابة لدعوته، أو انتقاما من أعدائه ..

و من أجل ذلك كانت نادرة الوقوع. و بكلمة ان جريان الأشياء في هذه الحياة على أسبابها شيء، و المعجزة التي تستند الى مشيئة الله مباشرة شيء آخر.

(قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ). هذا كذب منهم و بهتان، لأن الله سبحانه ما أرسل رسولا إلا و زوده بالحجة الكافية الوافية على رسالته، و لكن قوم هود أبوا الاستجابة له و لحججه و بيناته لأنها تخالف أهواءهم، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من أقوام الأنبياء و الرسل: «كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَ فَرِيقًا يَقْتُلُونَ» - ٧١ المائة.

(وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ) قال صاحب المغني: (عن) هنا للتعليل، و المعنى لا تترك الشرك لمجرد قولك اتركوه بلا بينة و دليل **(وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)** هذا توضيح و تأكيد لقولهم: **(وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا)**. و على هؤلاء و أمثالهم يصدق قول من قال: الإنسان هو الذي خلق الآلهة، و ليست الآلهة هي التي خلقت الإنسان.

(إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ). ان قولهم هذا يصور مدى جهلهم و إيمانهم بالخرافات و الأساطير .. أحجار صماء يعتقدون انها تضر من ينهى عن عبادتها! .. و متى بلغ الإنسان هذا الحد من الجهل فلا يجدي معه شيء، و لذا وصفه الله في العديد من آياته بالأعمى و الأصم.

(قَالَ - لَهُمْ هُودُ - إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَ أَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ). لما قالوا اليهود (ع): ان بعض آلهتنا أصابك بسوء تحداهم بأن يجتمعوا هم و آلهتهم، و يبذلوا كل جهد لا يذائه، و هو على استعداد لتحمل النتائج، و يتضمن تحديه هذا التنبيه الى انهم مغفلون و مخدوعون.

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ) هذا تعليل لعجزهم عن إيذائه و استخفافه بهم و بأصنامهم **(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)** فالكل في قبضته تعالى، و لا يملك أحد معه نفسه و لا لغيره نفعا و لا ضرا **(إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)**

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٤١

فهو ينصر و يخذل و يثيب و يعاقب على أساس هذا الصراط، صراط الحق و العدل.

و تسأل: إذا كان الله سبحانه آخذا بزمام العبد و ناصيته، و هو تعالى على صراط مستقيم - فإنه يلزم من ذلك أمران: الاول أن يكون العبد مسيرا غير مخير، كما هو شأن المقود مع القائد. الثاني أن يكون كل انسان على صراط مستقيم في جميع أفعاله و أقواله، لأنه تابع لله، تماما كما تتبع الدابة الآخذ بزمامها، و الله سبحانه على صراط مستقيم، فينبغي أن يكون العبد كذلك؟.

الجواب: ليس المراد بقوله تعالى: **(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)**.

ان العبد لا ارادة له و لا اختيار في شيء، و انما هو كناية عن قدرة الله على كل شيء، و انه هو وحده الضار النافع ردا

على المشركين الذين نسبوا الى اصنامهم لقدرة على الضر والنفع.

[سورة هود (١١): الآيات ٥٧ الى ٦٠]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُزِّلُهَا عَلَيْكَ لَعَلَّ لَكَ تَحْفَظُهَا وَتُذَكِّرُهَا لِقَوْمٍ عَادِينَ (٥٩) وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ لَعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ (٦٠)

الإعراب:

تولوا أصلها تتولوا. و يستخلف الجملة مستأنفة، و لذا رفع الفعل. و شيئا

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٤٢

مفعول مطلق لتضرونه. و تلك عاد مبتدا و خبر، و الاشارة الى آثارهم أو قبورهم.

و الأداة تنبيه، و بعدا اي بعد بعدا. و قوم هود بدل من عاد.

المعنى:

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ) غير و ان و لا مقصر (وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ) بعد ان ينزل عذابه بكم في الدنيا قبل الآخرة (وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا) بتوليكم عن الايمان (إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) يراقب الأشياء، و يدبرها بعلمه و حكمته. قال ابن عربي في «الفتوحات المكية»: «كما ان ربك على كل شيء حفيظ فهو بكل شيء محفوظ». يشير الى قول من قال:
و في كل شيء له آية.

(وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ). المراد بأمرنا عذابنا، و بالنجاة الاولى من عذاب الدنيا، و بالنجاة الثانية من عذاب الآخرة، و قيل: ان النجاة الاولى كانت لبيان النجاة من العذاب من حيث هو بصرف النظر عن نوعه و انه خفيف او ثقيل، أما النجاة الثانية فهي لبيان نوع العذاب الذي نزل بقوم هود، و انه كان من الوزن الثقيل .. و كل من المعنيين محتمل. و تقدمت الاشارة الى نجاة هود و من معه في سورة الاعراف الآية ٧٢ ج ٣ ص ٣٤٨.

(وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُزِّلُهَا عَلَيْكَ لَعَلَّ لَكَ تَحْفَظُهَا وَتُذَكِّرُهَا لِقَوْمٍ عَادِينَ). بعد ان أوجز سبحانه قصة عاد أشار الى سبب هلاكهم، و انه كفرهم بالله و آياته، و عصيانهم لرسوله و أحكامه، و تخاذلهم عن نصرته الحق، و تهاونهم في مقاومة الباطل، و انقيادهم لقادة الضلال و الطغيان .. و قال سبحانه: (وَعَصَوْا رُسُلَهُ) و لم يقل: و عصوا رسوله لان من عصى واحدا من أنبياء الله و رسله فقد عصى الجميع بالنظر الى ان رسالة الكل واحدة، و هي الدعوة الى الايمان بالوحدانية و البعث.

(وَ اتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ) أي انهم فعلوا ما يستوجب اللعن

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٤٣

دنيا و آخرة، و معنى اللعن البعد عن كل خير، و لذا قال سبحانه: (إِلَّا إِنْ عَادُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ) أي جحدوه (إِلَّا بَعْدَ لَعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ). و كرر كلمة هود مع الأبالغة في الذم، و تأكيدا للتهديد.

[سورة هود (١١): الآيات ٦١ الى ٦٣]

وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣)

اللغة:

أنشأكم من الأرض أوجدكم منها. واستعمركم فيها من العمران أي جعلكم تعمرونها. و مرجوا نرجو منك الخير. و المريب الموجب للثمة و الريبة. فما تزيدونني غير تخسير أي الا خسرا.

الإعراب:

و الی ثمود أخاهم أي و أرسلنا الی ثمود. و صالحا بدل من الأخ. و مريب صفة مؤكدة للشك مثل ظل ظليل. و اننا يجوز فيها و أنا بحذف إحدى النونات

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٤٤

الثلاث تخفيفا. و أرايتم معلقة عن العمل لوجود ان الشرطية. و غير قال أبو البقاء في كتاب «الاملاء»: الأقوى ان غير هنا استثناء في المعنى و مفعول ثان لتزيدوني.

المعنى:

(وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ).

مر بالحرف الواحد في سورة الأعراف الآية ٧٣ ج ٣ ص ٣٤٩. و نظيره ما قاله هود في الآية ٥٠ من سورتته. و هذه هي دعوة جميع الأنبياء التي لا تتغير و لا تتعدل من عصر الى عصر.

(هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ). ما من حي إنسانا كان أو حيوانا أو نباتا الا و ينتمي في أصله الى الأرض، مباشرة أو بالواسطة، و اليها يعود (وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) استعمل القرآن الكريم هذه الكلمة، أي الاستعمار، استعملها في احياء الأرض و تعميرها، و هذا المعنى من أحسن المعاني و أكملها، أما اليوم فإن هذه الكلمة تستعمل في الظلم و الطغيان، و استعباد الشعوب المستضعفة، و هو من أقبح المعاني و أسوأها .. أنظر فقرة «اللَّهُ أَصْلَحَ الْأَرْضِ، و الإنسان أفسدها» ج ٣ ص ٣٤٠ (فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ). هذا بالحرف ما قاله هود لقومه في الآية ٥٢ من هذه السورة، و عند تفسيرها بينا الفرق بين طلب الغفران و التوبة (إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) قريب ممن أخلص في عمله، مجيب لمن استجاب لدعوته.

(قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا) النهي عن عبادة الأوثان، أما الآن و بعد ان نهيتنا عن الأوثان فقد خاب فيك الظن (أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) .. ان هذا لشيء عجاب .. لقد عبدوها أجيالا و قرونا، و قربوا لها القرابين، و ما نهاهم أحد عنها، فكيف يستجيبون لدعوته؟ .. (وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ). هذا هو منطق الجهل في كل زمان و مكان .. كل شيء الا العادات و التقاليد.

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ). قالوا لصالح (ع): نحن في شك من أمرك. فقال لهم:

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٤٥

اخبروني ما ذا اصنع ان كنت على يقين من ان الله ارسلني اليكم، و امرني ان ادعوكم الى التوحيد، و زودني بالأدلة الكافية الوافية على هذه الرسالة؟ فهل اعصي امره لأجل مرضاتكم؟ و من الذي يمنعني من عذابه ان عصيت؟
(فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ). قال جماعة من المفسرين: معناه ان اطعتكم جعلتموني خاسرا. و قال آخرون: بل معناه لا تزيدونني باعراضكم عن دعوتي الا ان انسبكم الى الخسران. و الذي نراه ان صالحا اراد بقوله هذا ان يفهم قومه انه لو ارضاهم لربح ثقتهم، و لكنه يخسر مرضاة الله، و خسارته هذه تزيد كثيرا عن ربحه بثقتهم و مرضاتهم.

[سورة هود (١١): الآيات ٦٤ الى ٦٨]

و يَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوْهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوْهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوْهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرٌ مَّكَذُوبٌ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الْإِن تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدَ لَثْمُودَ (٦٨)

اللغة:

المراد بالآية هنا المعجزة. و بالدار البلد، يقال: ديار فلان أي بلده. و المراد

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٤٦

بالصيحة صوت الصاعقة. و جاثمين ساقطين على وجوههم. و غني بالمكان أقام فيه.

الإعراب:

هذه مبتدأ و ناقة الله خبر، و لكم حال مقدم من آية، و آية حال من ناقة الله، و العامل فيه اسم الإشارة لأنه بمعنى أشير فياخذكم منصوب بأن مضمرة بعد الفاء. و أيام أصلها ايوم، ثم قلبت الواو ياء، و ادغمت الياء ان. فصارت أيام. و من خزى معطوف على نجينا اي و نجيناهم من خزى، و كان مخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير الشأن المحذوف أي كأنهم لم يغنوا.

المعنى:

(و يَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوْهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لَا تَمَسُّوْهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ).

تقدمت في سورة الأعراف الآية ٧٣ ج ٣ ص ٣٤٩.

(فَعَقَرُوْهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرٌ مَّكَذُوبٌ). أمرهم صالح (ع) ان يتركوا الناقة و شأنها،

فَعَقَرُوْهَا و لم يكثرثوا، فأنذرهم بنزول العذاب بعد ثلاثة أيام. و عن ابن عباس انه تعالى أمهلهم هذه المدة ترغيبا لهم في الايمان و التوبة، و لكنهم أصروا على الكفر لأنهم لم يصدقوا صالحا بوعده و وعيده.

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ). و

بعد ثلاثة أيام نزل العذاب، فسلم المؤمنون، و هلك الكافرون بعد ان قامت عليهم الحجة .. و هذه نهاية كل من لج و تمادى في الغي و الفساد.

(وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ). قال هنا:

فأخذ الذين ظلموا الصيحة، و قال في الآية ٧٨ من سورة الأعراف: فأخذتهم الرجفة. و وجه الجمع ان الصيحة أحدثت

في قلوبهم الخوف والرجفة. **(كَانَ لَمْ يَغْنَوْنَا فِيهَا إِلَّا أَنْ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ الْأَبْعَدَا لَتَمُودَ)** أي كأنهم لسرعة زوالهم

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٤٧

لم يقيموا في ديارهم، ولم يتمتعوا بأموالهم وأولادهم، ولم يضحكوا للدين و تضحك لهم. والعقل من اعتبر بالغير، و انتفع بالندر.

[سورة هود (١١): الآيات ٦٩ الى ٧٣]

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتَهُ قَائِمَةً فَضَحِكْتِ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣)

اللغة:

فما لبث أي أسرع و ما ابطأ. و العجل ولد البقرة. و الحنيذ المشوي بالحجارة المحماة، دون أن تمسه النار مباشرة، و هو الذ و أطيب من المشوي بالنار. و نكره و أنكره و استنكره بمعنى واحد، ضد عرفه أي ان ابراهيم لم يعرف سببا لامتناعهم عن الأكل. و الإيجاس الاحساس أي أحس بالخوف منهم. و الويل كلمة للتفجع. و البعل الزوج و جمعه بعولة.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٤٨

الإعراب:

و لقد معطوف على ما قبله، و اللام للتأكيد، و قد للتحقيق و قيل: للتوقع.

و كلمة جاءت هنا متضمنة معنى قصدت و لذا تعدى الفعل إلى مفعول، و هو ابراهيم.

و يجوز أن تكون كلمة جاءت على ظاهرها، و ابراهيم منصوب بنزع الخافض أي جاءت رسلنا الى ابراهيم. و سلاما منصوب على المصدرية أي سلموا سلاما. و سلام خبر لمبتدأ محذوف أي امري سلام، أو مبتدأ و الخبر محذوف أي عليكم سلام.

و المصدر المنسب من ان جاء مجرور بعن محذوفة أي ما تأخر المجيء بالعجل.

و خيفة مفعول أو جس، و هو من الأفعال التي تتعدى بنفسها تارة، و بحرف الجر أخرى، تقول: أحسست شيئا، و أحسست بشيء. و امراته قائمة الجملة حال.

و يعقوب مفعول لفعل محذوف أي و وهبنا له من وراء اسحق يعقوب، و يجوز الرفع على انه مبتدأ و من وراء خبر. و يا ويلتا أصله يا ويلتي مثل يا عجباً أصله يا عجبى، ثم انقلبت الياء ألفاً، و يا حرف نداء و ويلتا منادى أي يا ويل احضر. و هذا بعلي مبتدأ و خبر. و شيخاً حال من بعلي، و العامل فيه اسم الإشارة لأنه بمعنى أشير، و يجوز رفع شيخ على ان يكون بعلي مبتدأ ثانياً، و شيخ خبره، و الجملة خبر للمبتدأ الأول. و أهل البيت منصوب على النداء أي يا أهل البيت.

المعنى:

(وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا). الرسل جمع رسول، و المراد ان جماعة من

الملائكة دخلوا على ابراهيم في صورة الأدميين ليشرهه باسحق، وقد بدأوا بالتحية، فرد عليهم بمثلها أو بأحسن منها، وأشار سبحانه الى هؤلاء في الآية ٢٤ من سورة الذاريات: «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ» .. **(فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ)** و كان ابراهيم (ع) معروفا بالكرم و حب الأضياف، و لذا أسرع و هيا لهم عجلا مشويا عملا بظاهر حالهم، و كان العجل سمينا بدليل قوله تعالى: «فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ» - ٢٧ الذاريات.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٤٩

(فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً). امتنعوا عن الطعام لأنهم ليسوا بشرا، و خاف ابراهيم (ع) منهم لأنه عاملهم على انهم من البشر، و إذا بهم ليسوا كما ظن، و هو لا يعلم ما ذا يريدون .. و كل انسان معصوما كان أو غير معصوم إذا فاجأه أمر لا يعرف عواقبه يوجس منه خيفة، و لما رأى الملائكة ما به **(قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُوطٍ)** و لا نريد بك و لا بقومك سوءا. و في سورة الحجر الآية ٥٣ صارحهم بهذا الخوف حيث **(قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ)**.

(وَأَمْرَاتِهِ قَانِمَةٌ فَضَحَّتْ). و قيامها كناية عن سماعها لما دار بين بعلاها و الملائكة، أما ضحكها فلكل حديث عندهن بشاشة، و الله أعلم بالسبب الذي أضحكها، و قد ذهب المفسرون فيه مذاهب **(فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ)** أي تلد هي اسحق، و يولد لاسحق يعقوب، و فيه دلالة على ان ولد الولد ولد. **(قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)**.

تعجبت حيث لم تجر العادة ان تلد من هي في سنها، و يلد لمن هو في سن زوجها، و عن سفر التكوين ان ابراهيم (ع) كان عمره مائة سنة آنذاك، و ان سارة كانت في التسعين. و نحن لا نعترف بهذا السفر، و كل ما نعرفه انهما كانا متقدمين في السن، أما التحديد فعلمه عند ربي.

(قَالُوا - اي الملائكة - أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) كيف؟. و انما أمره إذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون **(رَحِمْتَ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ)** و قد خصكم بالكثير من نعمه، و هذه واحدة منها، و ما هي بأعجب من جعل النار بردا و سلاما على ابراهيم **(إِنَّهُ حَمِيدٌ مُّجِيدٌ)**. هذه الجملة توضيح و تأكيد لما قبلها، و الحميد صاحب الأفعال المحموده، و المجيد صاحب الفضل و الجود، اذن، فلا عجب إذا أعطى الله من سأله و من لم يسأله، من حيث يحتسب أو لا يحتسب.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٥٠

[سورة هود (١١): الآيات ٧٤ الى ٧٦]

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَ جَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)

اللغة:

الروع بفتح الراء الخوف، و بضمها النفس. و الحلیم الذي يصبر على جهل الغير و أذاه و لا يعالجه بالعقوبة. و الأواه مبالغة في التأوه مما يكره. و المنيب الذي يرجع الى الله في كل أمر.

الإعراب:

و جاء ته عطف على ذهب. و جملة يجادلنا حال، و جواب لما محذوف أي لما ذهب الروع أخذ في القول مجادلا. و

حليم خبران، و أواه خبر بعد خبر، و مثله منيب. و الضمير في إنه للشان. و عذاب فاعل آتيهم، و غير مردود صفة لعذاب.

المعنى:

(فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَ جَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ) بعد ان عرف إبراهيم هوية أضيافه و مهمتهم اطمأن اليهم، و اغتبط هو و امرأته بالبشرى السارة بالابن و الحفيد، و لكن أزعجه ما سمع من ملائكة العذاب في شأن قوم لوط، فأخذ يجادل من أجلهم .. و قال جمهور المفسرين، و منهم الرازي و صاحب

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٥١

المنار: لم يجادل إبراهيم من أجل قوم لوط، و إنما جادل من أجل لوط، و انه خاف أن يصيبه ما يصيب قومه من العذاب، و استدلل المفسرون على ذلك بالآية ٣٢ من سورة العنكبوت: «قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ». و الصحيح ان هذه الآية لا تمت الى مجادلة ابراهيم بصلة، و إنما هي مجرد اخبار منه بأن فيها لوطا، و لذا قالوا له:

نحن أعلم بمن فيها. و الآية التي نفسرها نص في المجادلة من أجل قوم لوط، لا من أجل لوط .. بالاضافة الى قوله تعالى: **(وَ إِنَّهُمْ أَتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)** فالضمير في انهم و آتيهم يعودان الى قوم لوط الذين جادل ابراهيم فيهم و من أجلهم.

و لكن المفسرين قالوا: ان المجادلة في قوم لوط جرأة على الله و ابراهيم (ع) معصوم عن الذنب، فلا بد ان تكون المجادلة في لوط، لا في قومه.

و يلاحظ أولاً: لا فرق بين المجادلة في لوط، و في قومه، فإن كانت هذه جرأة فكذلك تلك.

ثانياً: ان المجادلة مع الله في دفع العذاب عن عباده أو تأخيرها ليست من الذنب و المعصية في شيء، بل العكس هو الصحيح، لأن هذه المجادلة لا مخالفة فيها و لا نزاع، و إنما هي من باب طلب الرحمة من القوي للضعيف، و هذا الطلب يدل على الحلم و الرأفة، و لذا أثنى الله على ابراهيم بأجمل الثناء، و وصفه بأنه **(لَحِيمٌ أَوْاهٌ مُنِيبٌ)** بعد ان سأله الرفق بقوم لوط.

ثالثاً: ان ابراهيم جادل في قوم لوط ليكون على يقين من أنهم بلغوا من التمرد الحد الذي لا يرجي معه صلاحهم و هدايتهم، تماماً كقوله: «بلى و لكن ليطمئن قلبي». و يؤكد ارادة هذا المعنى قوله سبحانه: **(يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ أَتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)**. أي لا تسألني يا ابراهيم في قوم لوط، فإنهم مهلكون لا محالة، لاصرارهم على الشرك و الفساد و اياس منهم و من توبتهم.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٥٢

[سورة هود (١١): الآيات ٧٧ الى ٨٠]

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَ قَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَ جَاءَهُ قَوْمَهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلِ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ

اللغة:

سيء بهم اي وقع لوط فيما أساءه بسبب مجيء الرسل. والذرع منتهى الطاقة، ومثله الذراع، تقول: ضقت به ذرعا او ذراعا اي صعب عليك احتماله.

والعصيب الشديد. ويهرعون يسرعون، ولا تستعمل صيغة الفاعل فيه الا على لفظ المفعول، ومثله أُولع. ولا تخزون اي لا تخجلوني. والرشيد العاقل. والمراد بالركن الشديد الناصر الذي يعصمه من قومه.

الإعراب:

سيء مبني للمفعول، و نائب الفاعل ضمير مستتر عائد الى لوط. و ذرعا تمييز. و جاءه بمعنى قصده و لذا تعدى الفعل الى مفعول. و من قبل الواو للحال.

و يا قوم أصله يا قومي. و هؤلاء مبتدأ و بناتي عطف بيان او بدل و هن ضمير فصل لا محل له من الاعراب و أظهر خبر، و يجوز ان تكون هن مبتدأ ثانيا

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٥٣

و أظهر خبره، و الجملة خبر المبتدأ الأول. و لا تخزون أصله لا تخزونني. و الضيف يطلق على الواحد و المثني و الجمع، و المذكر و المؤنث. و لو ان لي (لو) للتمني و لا تحتاج الى جواب.

المعنى:

(وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا). انطلق الرسل من عند ابراهيم (ع) الى لوط، و في ج ٣ ص ٣٥٣ عند تفسير الآية ٨٠ من سورة الاعراف ذكرنا ان لوطا هو ابن اخي ابراهيم، و انه كان في شرق الأردن، و ان قومه أول من اتى الرجال شهوة دون النساء .. و كانوا يتعاطون هذه الفاحشة جهرا، لا سرا، و من امتنع عنهم اغتصبوه قهرا، حتى و لو كان من الضيوف الشرفاء .. و من اجل هذا لما اتى رسل الله لوطا على هيئة الأدميين خاف من قومه ان يعتدوا عليهم، و هو عاجز عن مقاومتهم و مدافعتهم، فتألم **(وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ)** قال الرازي: و انما قيل للشديد: عصيب لأنه يعصب بالشر.

(وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ) اسرعوا الى بيت لوط، و في ظنهم ان هذه المرة كغيرها **(وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ)** و لم يحسبوا للعواقب و المنجبات **(قَالَ - لُوطَ - يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ)** و المراد بناته بنات أمته، لأن النبي في أمته كالوالد في أسرته، و المعنى تزوجوا النساء، و استمتعوا بهن حلالا طيبا، و دعوا اللواط، فإنه رجس من عمل الشيطان **(فَاتَّقُوا اللَّهَ)** يخوفهم من الله، و هو أهون شيء عند اهل الفسق و الفجور **(وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي)** ان كنتم لا تخافون الله فاحجلوا من أنفسكم، و لا تمتهنوا كرامتي في الاعتداء على ضيوفي **(الَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)** عاقل يحول بينكم و بين ما تريدون؟.

(قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ - أَي مِنْ رَغْبَةٍ - وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ). قد علمت و تعلم .. الى هذا الحد تبلغ الصلابة بالإنسان إذا تحرر من القيود، و تنكر للقيم، و فقد الشعور بالمسؤولية .. و قد علمت أننا لا نرغب

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٥٤

في البنات، و ان رغبتنا في الرجال و الغلمان، و علمت أيضا اننا لا نكثرث بك و لا بالهك، فعلام هذا الفضول في قولك:

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ فِي ضَيْفِي).

و لقوم لوط أشباه و نظائر في الوقاحة و الصلافة، و ما أكثرهم اليوم! و منهم مربون و معلمون في المدارس و الجامعات .. و نحن لا نشك ان في رجال الدين من هم أسوأ ألف مرة من هؤلاء، و لكن المؤكد ان العالم يكون أسوأ حالا مما هو عليه الآن لو لم يكن هناك دعاة الى الدين و القيم.

(قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ). بعد ان آيس لوط من من قومه تمنى ان يكون له ناصر ينصره عليهم، أو مجير يجيره منهم، تمنى هذا، و هو لا يعلم ان نصر الله عنده و في بيته، و انه لم يبق من الوقت لهلاك الظالمين سوى سواد ليلته.

[سورة هود (١١): الآيات ٨١ إلى ٨٣]

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ أَهْلَكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)

اللغة:

السرى بالضم و الاسراء يكون في الليل، و السير يكون في النهار، يقال:

سرى و اسرى به ليلا، و سار نهارا. و القطع من الليل بكسر القاف جزء منه.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٥٥

و السجيل الطين المتحجر. و منضود وضع بعضه على بعض. و مسومة عليها علامة.

الإعراب:

الا امراتك استثناء من اهلك. و لا يلتفت منكم أحد جملة معترضة بين المستثنى و المستثنى منه. و ضمير انه للشان. و ما أصابهم فاعل مصيبتها. و عاليها مفعول أول لجعلنا و سافلها مفعول ثان. و منضود صفة لسجيل. و مسومة صفة لحجارة. و هي تعود الى الحجارة أو الى قرى لوط. و محلها الرفع بالابتداء، و ببعيد الباء زائدة اعرابا و بعيد خبر.

المعنى:

(قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ). قال الرازي: لما رأت الملائكة قلق لوط و حزنه بشروه بأنواع البشارات: إحداهما انهم رسل الله.

ثانيها ان الكفار لا يصلون إلى ما هموا به ثالثها انه تعالى مهلكهم. رابعها انه ينجيه و أهله من العذاب. خامسها ان لوط في ركن شديد لأن الله ناصره على القوم الظالمين.

(فَأَسْرِبْ أَهْلَكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ). طلب الملائكة من لوط (ع) ان يخرج ليلا بأهله، و ألا ينظر أحد منهم إلى ما وراءه .. و ربما كانت الحكمة من ذلك ألا يرى الملتفت ما نزل في دياره من الهلاك فيرق و يحزن .. اما امرأة لوط فقد تركها بأمر الله مع القوم الكافرين لأنها منهم، فكان عليها ما عليهم من لعنة الله و غضبه. **(إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ).** هذا من كلام الملائكة، و يومئى الى الجواب عن استعجال من استعجل نزول الهلاك بالقوم.

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا). المراد بأمر الله هنا حكمه و قضاؤه، و ضمير عاليها يعود الى قرى لوط، و

مثله ضمير سافلها، أي ان الله سبحانه

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٥٦

خسف الأرض بتلك القرى، و في بعض التفاسير انها تبعد عن بيت المقدس ثلاثة أيام. **(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ مَّنْضُودٍ مُّسَوَّمَةٍ عِندَ رَبِّكَ)**. وقد جاء تفسير السجيل بالطين في الآية ٣٢ من سورة الذاريات: «لُنزِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةٌ مِّن طِينٍ» و المنضود المتراكم بعضه فوق بعض أو ينزل متتابعاً بعضه اثر بعض، و المسومة التي لها علامة خاصة، و لا تصيب إلا من يستحقها، و المعنى ان الله انزل على قرى لوط عذابين: المطر بهذه الحجارة، و الخسف. **(وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ)**. قال المفسرون: المراد بالظالمين هنا كفار مكة، و ان الله توعدهم بما اصاب قوم لوط من الهلاك إن هم أصروا على تكذيب محمد (ص). و ليس هذا ببعيد، مع العلم بان كل ظالم في شرق الأرض و غربها معرض لنزول العذاب به من السماء، او من المعذبين في الأرض .. فإن كل ثورة تحريرية حدثت او تحدثت لا مصدر لها الا النعمة على الظلم و اهله، و الفساد و انصاره.

[سورة هود (١١): الآيات ٨٤ الى ٨٦]

وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٥٧

اللغة:

البخس النقص و العيب. و العثو الفساد. و مفسدين اي متعمدين. و بقية الله ما يبقى بعد إيفاء الكيل و الميزان من الربح الحلال، و ان قل.

الإعراب:

والى مدين معطوف على ما قبله اي و أرسلنا الى مدين أخاهم، و شعيبا بدل من الأخ. و من إله (من) زائدة إعرابا. و محيط صفة ليوم لفظا، و لعذاب معنى، و صح وصف اليوم بالاحاطة مع انه وصف للعذاب لمكان الاضافة. و أشياءهم بدل اشتمال من الناس. و مفسدين حال من واو لا تعثوا. و بقية الله مبتدأ، و خير خبر. و الباء في بحفيظ زائدة إعرابا.

المعنى:

(وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ).

مرّ بالحرف الواحد في الآية ٨٥ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٥٦.

(وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ). هذا نهي عن التطفيف، و مثله الآية الأولى من المطففين: «وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ» اي ينقصون **(إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ)** المراد بالخير السعة في الرزق **(وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ)** هذا إنذار لهم بالعذاب ان أصروا على العصيان.

(وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) بعد أن نهاهم عن النقصان أمرهم بالوفاء و التمام، و المعنيان واحد، و لا نفهم الغرض من ذلك إلا التأكيد **(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)**. و الأشياء تشمل كل شيء، و منه الحق المادي و

المعنوي و عليه يكون التحريم عاما للبخس في الكيل و الميزان، و لبخس الإنسان و انتقاصه في علمه أو خلقه.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٥٨

(وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ). ظاهر اللفظ يدل على ان المعنى و لا تفسدوا في الأرض مفسدين، لأن العثو و الفساد بمعنى واحد، فوجب إما تأويل كلمة العثو بالسعي، و يكون المعنى و لا تسعوا في الأرض مفسدين، و إما تأويل كلمة مفسدين بمتعمدين، و يكون المعنى و لا تفسدوا في الأرض متعمدين أو معتدين، و ذلك بأن تثيروا الحرب و تسفكوا الدماء بلا سبب موجب، اما إذا كانت الحرب للقضاء على الفساد و الحرب فيكون تركها، و الحال هذه، هو الفساد، و من هنا كان الجهاد من أفضل الطاعات. و هذا التأويل أرجح من غيره.

(بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ). ان الحلال الطيب خير و أبقى و ان قل، و الحرام الخبيث شر محض و ان كثر، و لو بحثنا عن أسباب الحروب في هذا العصر لوجدناها تكمن في الاحتكارات و تكدس الثروات في ايدي القلة القليلة، و حرمان الاكثرية الغالبة .. و من الصدف اني قرأت في صحف اليوم ١٢/٢٤/١٩٦٨ ان جماعة من اللندنيين تظاهروا بالأمس متوجهين الى قصر باكنجهام، و قدموا مذكرة الى الملكة يطالبونها بأن تتخلى عن قصرها الذي يستوعب ألف شخص، بينما لا يجد ٦ آلاف شخص مسكنا لهم في لندن وحدها .. **(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)** يمنعكم عن المعصية بالقهر و الغلبة، و لا مهمة لي سوى النصح و التبليغ، و قد أديتها كاملة، و خرجت من عهدتها و مسؤوليتها.

[سورة هود (١١): الآيات ٨٧ الى ٩٠]

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ مِنْهُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْ طُغِيَ مِنْكُمْ بَعِيدٌ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٥٩

اللغة:

أنيب ارجع. و لا يجرمنكم أي لا يكسبنكم. و الشقاق شدة الخلاف، حيث يكون كل طرف من المتخاصمين في شق غير الذي فيه الآخر.

الإعراب:

المصدر المنسبك من أن نترك مجرور بالباء المحذوفة. و المصدر من أن نفعل معطوف على ما يعبد آباؤنا، و التقدير أصلاتك تأمرك بترك ما يعبد آباؤنا أو بترك فعل ما نشاء في أموالنا. و ما استطعت (ما) مصدرية ظرفية أي مدة استطاعتي، و يجوز ان تكون اسم موصول في محل نصب بدلا من الإصلاح أي الا الإصلاح الذي استطيعه. و شقائي فاعل يجر منكم، و المصدر من ان يصيبكم مفعول ثان ليجر منكم.

الاشتراكية و الرأسمالية عبر التاريخ:

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ). كل من لا يؤمن بالله

و اليوم الآخر يتخذ من الصلاة موضوعاً للاستهزاء و السخرية من المصلين، و قد كان شعيب (ع) و لا شك من المصلين

..

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٦٠

و لما أمر قومه بنبذ الأصنام و عبادة الله وحده، و نهاهم عن الاستغلال و الكسب الحرام تهكموا به، و قالوا: أصلاتك التي تصليها، و تدل على السفه و حماقة أوحى اليك ان تأمرنا بترك التقاليد و العادات التي ألفها الآباء و الأجداد جيلاً بعد جيل، و ان تنهانا عن تحصيل المال كيف نشاء؟ **(إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)؟**

أي هل انت عاقل في قولك هذا؟. و تتضمن هذه الآية الدلالات التالية:

١- ان رسالة الأنبياء لا تنحصر بالدعوة الى اقامة الشعائر، بل تشمل ايضاً الحياة الاجتماعية، و تحد من حرية الإنسان في تصرفاته، و تقيده بعدم الاعتداء على غيره، و تحجر عليه كل عمل يستلزم الإضرار بالفرد او الجماعة، و أوضح دليل على ذلك قوله: «و لا تبخسوا الناس أشياءهم و لا تعثوا في الأرض مفسدين».

٢- لقد دلت الآية ان أشد الناس عداوة للأنبياء و المصلين هم الذين يجمعون المال بالخدعة و الاحتيال، و يتصرفون في مقدرات الناس على أهوائهم، تماماً كما تفعل شركات الاستغلال و الاحتكار.

٣- تدل الآية ايضاً على ان للرأسمالية المتطرفة جذورا و أنصارا في التاريخ، و الشواهد على ذلك من الآثار لا يبلغها الإحصاء .. و هذه الرأسمالية تطلق للفرد الحرية الكاملة في تحصيل الثروة و استغلالها في مشاريع السلب و النهب، و أوضح تعريف لها قول المترفين لشعيب: «او ان نفع في أموالنا ما نشاء». فليس مرادهم بهذا ان ينفقوا أموالهم في المأكل و الملبس .. كلا، و انما مرادهم ان يستغلوا أموالهم في السيطرة على الناس، و التحكم بأقواتهم. و كما دل التاريخ على ان الإنسان قديم العهد بهذه الرأسمالية فقد دل ايضاً على انه قديم العهد بالاشتراكية، فقد جاء في دروس التاريخ للمؤرخ «ول ديورانت»:

ان الباحثين قد عثروا على لوحة سومرية يرجع تاريخها الى ٢١٠٠ قبل الميلاد، تقول: كانت الدولة هي التي توجه الاقتصاد القومي. و ان في بابل سنة ١٧٥٠ قبل الميلاد كان قانون هامورابي يحدد أسعار كل شيء. و ان في عصر البطالمة سنة ٣١٣ قبل الميلاد كانت الدولة تملك الأرض، و تدير الزراعة، الى غير ذلك.

و الإسلام يرفض كلا من الاشتراكية و الرأسمالية بمعناهما الشائع اليوم، و يقر

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٦١

كل ما من شأنه ان يواجه الصعاب، و يحل مشكلات الحياة، دون ان يبخس الناس أشياءهم. انظر فقرة «الغني و كيل لا اصيل» عند تفسير الآية ١٨٢ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢١٧.

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي). تقدم في الآية ٢٨ من هذه السورة.

(وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا) بعد ان أمر شعيب (ع) قومه بالكسب الحلال الطيب و نهاهم عن الحرام الخبيث احتج عليهم بما أنعم الله عليه من الرزق الكافي الوافي بجميع حاجاته، مع انه أبعد الناس عن الحرام .. فأسباب الرزق الحسن - اذن - لا تنحصر بالحرام، و محال ان يحصر الله الرزق بباب من الأبواب، ثم يحرمه على عباده، و قول شعيب **(وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا)** يومي الى انه كان في سعة من العيش.

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ). و لو فعل لكانت الحجة لهم عليه، و لا حجة له عليهم، و من شروط النبي

ان تكون جميع صفاته مبشرة لا منفرة، و الطباع تنفر من الذين يقولون ما لا يفعلون **(إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ)**. و المصلح يعظ الناس بأفعاله قبل أقواله، و يستمر في دعوته متحملا في سبيلها الأذى و المشاق، و من أجل هذا كان شعيب و غيره من الأنبياء يأكلون من عمل أيديهم، و يتحملون الأذى من الكافرين و المعاندين **(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)** اي انه سيمضي في تأدية رسالته مهما تكن النتائج متوكلا على الله و طالبا منه العون و راجعا اليه في جميع أموره.

(وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ). لا يجرمنكم اي لا يكسبنكم، و المعنى لا يكسبنكم عداؤكم لي نزول العذاب بكم، فما عادى قوم نبيهم الا و نزل بهم العذاب، و من الشواهد على ذلك اقوام الأنبياء المذكورين. فقلوه: لا يجرمنكم شقاي الخ مثل قولك لمن عق أباه: لا يكسبنك عقوقك لأبيك غضب الله عليك **(وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)**. مر نظيره مع التفسير في الآية ٥٢ و ٦١

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٦٢

من هذه السورة **(إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ)** يرحم من استغفر و اعتذر، و يتودد الى عباده بالانعام عليهم، و النصح لهم، و الإمهال لعلهم يرجعون.

[سورة هود (١١): الآيات ٩١ الى ٩٥]

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الْأَبْعَادَ لَمَدِينَ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودٌ (٩٥)

اللغة:

الفقه الفهم. و الرهط الجماعة. و الرجم الرمي بالحجارة، و الظهري بكسر الظاء المتروك وراء الظهر لا يعتنى به. و المكانة الحالة التي يتمكن بها صاحبها من عمله. و ارتقبوا انتظروا. و المراد بالصيحة هنا صيحة العذاب. و الجاثم المبارك على ركبته مكبا على وجهه، و يطلق على الملازم لمكانه لا يتحول عنه. و غني بالمكان أقام فيه. و بعدا دعاء بالهلاك.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٦٣

الإعراب:

و ما أنت علينا بعيز (ما) نافية و انت مبتدأ و علينا متعلق بعيز، و عزيز خبر و الباء زائدة اعرابا. و ظهريا مفعول ثان لا اتخذتموه. و مكانتكم مصدر مكن.

و من استفهام في محل رفع بالابتداء، و جملة يأتيه عذاب خبر، و تعلمون معلق عن العمل لمكان الاستفهام. و كأن مخففة من الثقيلة، و اسمها محذوف أي كأنهم لم يغنوا فيها. و بعدا منصوب على المصدرية أي بعد بعدا.

المعنى:

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ). لقد فهموا كل ما قاله لهم من الأمر والنهي، و التهديد والوعيد، وانما أرادوا بقولهم هذا انهم لا يرون أي مبرر لنزول العذاب الذي هددهم به شعيب، كيف وهم في زعمهم الأبرياء الأتقياء؟ فعبادة الأوثان يبررها عمل الآباء، و تطفيف الكيل و الميزان يبرره مبدأ الحرية في كسب المال .. فدعوة شعيب، إذن، ما هي إلا وسيلة للشغب و التخريب و هذا هو بالذات منطق القراصنة في كل زمان و مكان، يسلبون و يقتلون، فإذا اعترض عليهم معترض قالوا له: انت مخرب هدام تثير المشاكل و الحروب، و تعمل ضد الأمن و السلم، لأن السلم في مفهومهم ان ترقع الناس لطغيانهم، و تسجد لآثامهم.

(وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا) لا يمتنعنا من البطش بك مانع، فالسكوت أسلم لك **(وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ)**. قد يسأل سائل: كيف نفوا القوة عنه، و أثبتوها لقومه؟. أليست قوة الرجل من قوة قومه؟. قلت: لا تلازم بين القوتين، فربما كانت قوة قرابة الرجل عليه، لا له، فقد كانت قريش أعدى أعداء محمد القرشي (ص). و في بعض التفاسير ان قوم شعيب كانوا على الشرك، و ان قول المشركين: لولا رهطك أرادوا به لولا احترامنا رهطك لرجمناك. و لفظ الآية لا يأبى هذا المعنى.

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ)؟ و أي عجب في هذا عند اهل

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٦٤

الجهل و الضلالة؟. «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ - ٢٨ فاطر». **(وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وِرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا)**. و ظهريا كناية عن نسيانه و عدم الاهتمام به **(وَ يَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ)** على مكانتي. و هذا مثل قوله على لسان الرسول الأعظم: «لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلِكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ - ٤٠ يونس». و قوله: «لَكُمْ دِينِكُمْ وَ لِي دِينٌ» **(سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ)**. هذا تهديد من شعيب لقومه بنزول العذاب و لا شيء أدل على نبوته من هذه الثقة بالغييب.

(وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجِيبًا شُعَيْبًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الْآبَعْدَ لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودٌ). مر نظيره في الآية ٦٦- ٦٨ من هذه السورة.

[سورة هود (١١): الآيات ٩٦ الى ٩٩]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بئسَ الْوَرْدُ الْمُرُودُ (٩٨) وَ اتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بئسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)

اللغة:

السلطان المبين الدليل الظاهر. و الملا اشراف القوم. و المراد بأمر فرعون أفعاله و تصرفاته. و الورد بلوغ الماء، و المورود الماء بالذات، و استعمل هنا في النار مجازا. و الرفد بكسر الراء العطاء، و المرفود المعطى.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٦٥

الإعراب:

فأوردتهم ماض لفظا، و مستقبل معنى أي فيوردتهم، و كل مستقبل محقق الوقوع يجوز التعبير عنه بصيغة الماضي. و بئس

من أفعال الِذَمِّ، و الورد فاعل، و المورود مبتدأ، و هو المخصوص بالذم. و الجملة من الفعل و الفاعل خبر مقدم.

المعنى:

لما ذكر سبحانه ما أصاب قوم نوح و هود و صالح و لوط و شعيب أشار الى فرعون و قومه، و الغاية هي العبرة و العظة، و يتلخص معنى هذه الآيات الأربع بأن الله سبحانه أرسل موسى (ع) الى فرعون و قومه بالأدلة و البيّنات، و منها التوراة و العصا و اليد، و لكن فرعون أصر على الكفر و الطغيان، كما أصر قومه على متابعتة، و الائتثار بأمره، فكانت عاقبة التابع و المتبوع اللعنة و الهلاك في هذه الدار، و النار في الدار الآخرة.

و لو لم يجد فرعون أنصارا لما تجرأ و قال: أنا ربكم الأعلى .. ما علمت لكم من إله غيري، و كل مذل و مفسد لا يجراً على الظهور الا حيث يجد الأنصار و الأتباع .. و طبيعة الإنسان هي في كل عصر، و الذي يتغير هو الاسم و الأسلوب، و قد كان الاسم في الماضي فرعون و نمروذ، و اسمها في الحاضر أحلاف عسكرية، و شركة «فاكوم، و أرامكو»، و ما اليهما .. اما أنصارها فهم الذين يقبضون منها في الظلام، و يمشون كالأشرف بين الناس.

[سورة هود (١١): الآيات ١٠٠ الى ١٠٢]

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَ حَصِيدٌ (١٠٠) وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ مَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَ كَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَ هِيَ ظَالِمَةٌ إِنْ أَخَذَهُ الْيَمُّ شَدِيدٌ (١٠٢)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٦٦

اللغة:

الشيء القائم هو الموجود بنحو من الأنحاء و لو بآثاره، و الحصيد الزرع المحصود من الأصل، يقال: حصدهم بالسيف إذا قتلهم. و التتبيب التخسير، و منه تبت يدا أبي لهب أي خسرت.

الإعراب:

ذلك مبتدأ، و من أنباء القرى خبر، و يجوز ان تكون ذلك مفعول لفعل محذوف أي نقص ذلك. و قائم مبتدأ و منها خبر مقدم. و حصيد مبتدأ و خبره محذوف أي و منها حصيد. و واو زادوهم للأصنام على التنزيل منزلة العقلاء، او على غير الأعم الأغلب. و غير مر إعرابها في الآية ٦٣ من هذه السورة. و كذلك الكاف بمعنى مثل خبر مقدم، و أخذ ربك مبتدأ مؤخر.

المعنى:

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَ حَصِيدٌ). بعد أن ذكر سبحانه طرفا من قصص الأمم الماضية مع أنبيائهم قال لنبية الأكرم (ص): ان بعض تلك الأمم بقي شيء من آثارها، و شبه الآثار الباقية بالزرع القائم على ساقه، لأن كلا منهما ظاهر للعيان، و البعض لم يبق شيء من آثارها، و شبه هذه بالزرع المحصود الذي تعرت الأرض مما يشير اليه، و قال بعض المفسرين: ان التي بقي أثرها هي بلاد عاد و ثمود، و التي لا أثر لها هي بلاد نوح و لوط .. أما نحن

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٦٧



فترك الكلام في ذلك لعلماء الآثار.. وعلى أية حال فان بيان هذه القصص بلسان محمد (ص) دليل قاطع على نبوته، و انها من وحي السماء، لا من نسيج الخيال، ولا نقلا عنمن قال.

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) بتكذيبهم رسل الله وإصرارهم على الشرك والفساد، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن الكريم بحوالى عشرين آية **(فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)**. آلهتهم أصنامهم، و واو زادوهم تعود اليها، و أمر ربك عذابه، و التتبيب التخسير، و في الآية ٦٣ من هذه السورة: **«فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ»**. و يتلخص المعنى بقوله تعالى: **«وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ - ٥٥ الفرقان»**.

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ) اي ان الله سبحانه يهلك الكافرين الظالمين بمثل الطوفان و الخسف و صيحة العذاب **(إِنْ أَخَذَهُ الِيمُ شَدِيدٌ)** و لكن بعد الانذار و الإعذار بلسان رسل الله مشافهة و مجابهة و جها لوجه .. و قلنا مشافهة و مجابهة لأن الكفر و الفساد في هذا العصر أكثر منه في أي عصر مضى، و الاعذار و الإنذار موجودان فيه بحكم العقل و الكتب السماوية و الأحاديث النبوية، و مع ذلك لا طوفان و لا خسف و لا حجارة من سجيل، و لا نعرف سرا لذلك إلا الظن بأن مشيئة الله تعالى قضت بهلاك الذين يجابهون أنبياءهم بالتكذيب، دون الذين يعصون الوحي و العقل .. و الظن لا يغني عن الحق. و الله أعلم.

[سورة هود (١١): الآيات ١٠٣ الى ١٠٩]

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمَ مَجْمُوعٍ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ (١٠٣) وَ مَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ففِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَ أَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ (١٠٨) فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنَّا لَمَوْفُونَ بِمَا نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٦٨

اللغة:

يوم مشهود يشهده الخلائق. و أجل معدود معين في علم الله. و الزفير في اللغة أول صوت الحمار، و الشهيق آخره، و قد كنى بهما سبحانه عن آلم اهل النار و أحزانهم. و مجدود مقطوع. و المرية الشك.

الإعراب:

ذلك يوم مبتدأ و خبر، و مجموع صفة ليوم، و الناس نائب فاعل لمجموع. و يوم يأت يوم متعلق بلا تكلم نفس، و حذف الياء من يأتي للتخفيف، و فيها ضمير مستتر يعود الى يوم مجموع، و لا يجوز ان يعود الى يوم يأت لأنه مضاف الى الإتيان، و المضاف اليه بمنزلة الجزء من الكلمة، و في النار متعلق بمحذوف أي فيستقرون في النار، و خالدين حال من ضمير يستقرون. و ما دامت (ما) مصدرية ظرفية اي مدة دوام السموات و الأرض، و الظرف متعلق بخالدين. و عطاء منصوب على المصدرية، و غير مجدود صفة للعطاء. و نصيبهم مفعول لموفوهم، و غير منقوص حال من نصيبهم.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٦٩

المعنى:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ). ان في ذلك اشارة الى اخذه تعالى للقرى الظالم أهلها بالعذاب الشديد، و المعنى ان في هذا الأخذ الأليم عبرة لمن آمن بالله، و تذكيرا لمن يخاف عذاب يوم تشهده جميع الخلائق حين يجمعهم الله فيه للحساب و الجزاء.

و تسأل: ان الطوفان او الزلزال و نحوه كثيرا ما يحدث لأسباب طبيعية، و الطبيعة عمياء لا تميز بين المؤمن و الجاحد، و المجرم و البريء، فمن الجائز ان يكون الذي حدث لأقوام الأنبياء من هذا الباب؟

الجواب: لقد كان النبي ينذر قومه بحدوث العذاب، و يحدد نوعه و وقته قبل حدوثه، فيأتي قوله على وفق الواقع و من صلبه، و لا يمكن تفسير ذلك بالتنبؤ العلمي حيث لا مراصد و لا أدوات للعلم في ذاك العهد، و أيضا لا يمكن تفسيره بالبديهة و الحدس لأن النبي كان يخبر عن ثقة و بلسان الجزم، و يقول:

هذه هي الحقيقة و سترون، و لا بالصدفة لمكان التكرار، و إذا بطلت جميع هذه الفروض و التفسيرات تعين التفسير بالوحي و مشيئة الله لأنه هو وحده الفرض الصحيح.

(وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ). لكل شيء عند الله مدة و أجل لا يسبقه و لا يتجاوزه، و من ذلك فناء الدنيا و مجيء الآخرة **(يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ)** فيؤذن لها بالكلام و الدفاع في موقف دون موقف، كما هو الشأن في الكثير من محاكم الدنيا **(فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)** و شقاوة الإنسان غدا أو سعادته انما تكون بعمله في الدنيا، لا بقضاء الله و قدره، أما خبر «الشقي شقي في بطن أمه، و السعيد سعيد في بطن أمه» فمشكوك فيه، و ظاهره يناقض عدل الله و رحمته.. الى جانب انه من اخبار الأحاد، و هي حجة في الأحكام الشرعية كالحلال و الحرام و الطاهر و النجس، لا في أصول العقيدة و ما يتصل بها.

ثم حدد أهل الشقاوة بقوله: **(فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهِيْقٌ)**.

و بديهة ان الله لا يعذب إلا من تمرد و أفسد، فالشقاوة - اذن - تكون بالكسب و العمل، لا بالقضاء و القدر.. و الزفير و الشهيق كناية عن أحزان أهل النار

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٧٠

و أهمهم **(خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ)**. و قد أطل المفسرون الكلام حول التعليق على مشيئة الله هنا، و ذكروا وجوها جعلت المعنى من الطلاسم و المتشابهات، و هو من المحكمات و الواضحات، و يتلخص بأن من يدخل جهنم بأي ذنب من الذنوب فلا يستطيع الخروج منها بنفسه، و لا بشفيق و معين، و لا بفداء، فهو من هذه الجهة خالد فيها.. و لكن إذا شاء الله أن يخرجها منها خرج، و انتفى عنه وصف الخلود في النار، لأن إرادته تعالى لا يحدها شيء **(إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ)**، و كل شيء يرجع في النهاية الى إرادته و لا ترجع إرادته إلا اليه وحده، فسبب الخلود يؤثر أثره ما دام الخالق مريدا له ذلك و ان لم يشأ لم يكن عملا بمبدأ: «إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون».

و كما حدد أهل الشقاوة بالخالدين في النار حدد أهل السعادة بالخالدين في الجنة **(وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ**



خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٌ أي غير مقطوع. و تسأل: ان من يدخل الجنة فلا يخرج منها، اذن، ما هو القصد من التعليق على مشيئة الله تعالى؟.

و قيل في الجواب: ان الله يخرجهم من نعيم الجنة إلى نعيم مثله أو أحسن ..
 أما الذي نفهمه نحن من هذا التعليق فهو مجرد الاشارة الى قدرة الله و عظمته، و ان الأسباب المعروفة انما تفعل فعلها إذا لم تصطدم بإرادته تعالى، فالنار تحرق إذا لم يقل لها الخالق: كوني بردا و سلاما.
(فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ). الخطاب لمحمد (ص)، و هؤلاء إشارة الى قومه الذين كذبوه، و ما شك محمد، و لن يشك أبدا في أنهم على باطل في عبادتهم، و لكن القصد توبيخهم و تحذيرهم **(مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ)**. هذا تعليل لليقين و عدم الريب في بطلان ما يعبد هؤلاء، لأنه مثل ما عبد الأولون الذين جل بهم العذاب لشركهم و عبادتهم الأصنام. **(وَ إِنَّا لَمَوْفُونَ بِمَا نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ)** تماما كما وينا لأبائهم النصيب الذي استحقوه من العذاب، و لم ننقص منه شيئا.

و تسأل: ان هذا تقنيط من عفو الله و رحمته، و هو يتنافى مع قوله تعالى:
«قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُ ۖ يَسْرِءُ».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٧١

الجواب: ان المراد بقوله: **(لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ)** هو الترغيب في التوبة، و ان من تاب تاب الله عليه. و المراد من قوله: **(غَيْرَ مَنْقُوصٍ)** ان من أصر على الشرك، و لم يتب فإن الله يجازيه بما يستحق .. و لسنا نشك في ان الله يعفو و يرحم من يرحم الناس، و يعمل لصالحهم، أما الذين يعتدون على حريتهم و حقوقهم فلا يخفف عنهم العذاب، و لا هم ينصرون.

[سورة هود (١١): الآيات ١١٠ الى ١١٥]

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيُوفِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقَمُّ كَمَا أَمَرْتِ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَ زُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)

اللغة:

شك مريب مثل عجب عجب و ظل ظليل أي قوي أو دائم، و قيل: معناه شك أوقع في الريب، و هو ترجيح الكذب على الصدق. و طرفا النهار الغدوة و العشية

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٧٢

و المراد من الطرف الأول الصبح، و الطرف الثاني الظهر و العصر. و الزلف من الليل الساعات الأولى منه، و واحدها زلفة و سميت بذلك لقربها من النهار، و المراد بها هنا المغرب و العشاء.

الإعراب:

اختلف النحاة و أهل التفسير في إعراب لما في قوله تعالى: **(وَ إِن كَلَّا لَمَا لِيُوفِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ)**. فقيل: هي بمعنى

الا. وقيل: ان اللام داخله على خبر ان و ما بمعنى الذي، و التقدير ان كلا للذي هو ليوفينهم أعمالهم، و قال ابن هشام في كتاب «المعنى»: الأولى عندي ان لما بمعنى لم و مجزومها محذوف أي لم يوفوا أعمالهم الى الآن، و سيوفونها، و قيل غير ذلك، و أيسر الأوجه ان تكون بمعنى الا. و من تاب في موضع رفع عطفا على الفاعل في استقم، و يجوز النصب على ان تكون مفعولا معه. و فتمسك النار منصوب بأن مضمرة جوابا للنهي، و المصدر المنسبك مبتدأ، و خبره محذوف أي فمس النار كائن أو حاصل لكم. و طرفي النهار ظرف منصوب بأقم. و زلفا عطف عليه.

المعنى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ). المراد بالكتاب هنا التوراة، و قد اختلف فيه قوم موسى، فمنهم من آمن به، و منهم من كفر، و هكذا كل أمة قديما و حديثا لم تتفق كلمتها على نبيها و مرشدها الناصح الأمين، بل كان بنو إسرائيل يقتلون أنبياءهم، حتى الذين آمنوا بموسى حرفوا التوراة من بعده، و أحيوا البدع و الضلالات .. اذن، فلا عجب ان آمن بك يا محمد قوم، و كفر بك آخرون.

(وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ). المراد بكلمة الله قضاؤه بتأخير العذاب، و ضمير بينهم يعود الى المختلفين في كتاب التوراة، و قد شاءت حكمته تعالى ألا يستأصلهم بعذاب الدنيا **(وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)**. ما زال

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٧٣

الكلام عن موسى و قومه و كتابه، و قد أبعده من قال: انتقل الكلام بهذه الجملة من موسى و بني إسرائيل الى محمد (ص) و قريش .. و شك مريب أي قوي، مثل عجب عجيب، و قناطر مقنطرة، و القصد من الآية بمجموعها ان الله سبحانه أخر الى يوم القيامة عذاب من كذب بالتوراة من قوم موسى، و بالقرآن من قوم محمد (ص) **(وَإِنْ كَلَّمَا لِيُؤْفِقِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)** أي ان كلا من المكذب و المصدق سيلاقى غدا جزاء عمله كافيا و افا ان خيرا فخير، و ان شرا فشر.

الاستقامة:

(فَاسْتَقَمَ كَمَا أَمَرْتَ وَ مِنْ تَابَ مَعَكَ وَ لَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ). يختلف معنى الاستقامة باختلاف الذي تنسب اليه، فمعنى قوله تعالى: **(إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)** أنه يهدي الى هذا الصراط، و يأمر به، و على أساسه يثيب و يعاقب، و ان جميع أفعاله تعالى على وفق الحكمة و المصلحة: **(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا - ١١٦ المؤمنون)**: «و ما خلقنا السماء و الأرض و ما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا - ٢٧ ص».

و إذا وصفت بالاستقامة عينا من الأعيان، و قلت: ان هذا الشيء مستقيم فمعناه أنه قد وضع في الموضع اللائق به، أما الإنسان المستقيم فأحسن تحديد له قوله تعالى: **(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَ أُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ - ١٨ الزمر)**. و أحسن القول عند الله و من آمن به هو هذا القرآن: **(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا - ٢٣ الزمر)**. و أحسن القول عند الله و الناس أجمعين و الجاحدين هو ما يستريح اليه الضمير العالمي، لا ضمير اللصوص و سفاكي الدماء. و في الحديث عن رسول الله (ص) انه قال «شيبطني سورة هود». و قيل: انه أراد هذه الآية من سورة هود، لأن أمته أمرت بالاستقامة، و هو غير واثق من استجابتها و استقامتها .. و نحن لا نستبعد هذا التفسير على أن يكون المراد من الأمة قادتها، لأنهم أصل الداء، و مصدر البلاء .. و في ج ١ ص ٢٦ من هذا التفسير تحدثنا عن الاستقامة، و ان

الإسلام بعقيدته و شريعته و أخلاقه يتلخص بكلمة واحدة، و هي الاستقامة.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٧٤

مسؤولية التضامن ضد الظلم:

(وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ). و لا يختص

الذين ظلموا بالمعتدين على الناس و حرياتهم، فقد جاء في الأخبار و في نهج البلاغة:

«الظلم ثلاثة: ظلم لا يغفر، و ظلم لا يترك، و ظلم مغفور لا يطلب، فاما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله، و اما الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات - أي صغار الذنوب - و اما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم لبعض».

و معنى الركون الى الشيء الاعتماد عليه، و لكن المراد بالركون الى الظالمين في الآية ما يعم السكوت عنهم لوجوب النهي عن المنكر، و في الحديث: «إذا رأى الناس المنكر بينهم، فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه». و قال الإمام جعفر الصادق (ع): «نصرة المؤمن على المؤمن فريضة واجبة». و في كتاب الوسائل باب «الجهاد عن المعصوم»: ان المسلم يقاتل عن بيضة الإسلام، أو عند الخوف على ديار المسلمين. و استنادا إلى هذه الأخبار و غيرها قسم الفقهاء الجهاد إلى نوعين:

الأول: جهاد الغزو في سبيل الله، و انتشار الإسلام. الثاني: الدفاع عن الإسلام و بلاد المسلمين، و الدفاع عن النفس و المال و العرض، بل الدفاع عن الحق إطلاقا، سواء أ كان له، أم لغيره، قال صاحب الجواهر: «إذا داهم عدو من الكفار يخشى منه على بيضة الإسلام، أو يريد الكافر الاستيلاء على بلاد المسلمين، و أسرهم و سبيهم و أخذ أموالهم - إذا كان كذلك و جب الدفاع على الحر و العبد الذكر و الأنثى، و السليم و المريض، و الأعمى و الأعرج، و غيرهم ان احتيج اليهم. و لا يتوقف الوجوب على حضور الإمام، و لا اذنه، و لا يختص بالمعتدى عليهم و المقصودين بالخصوص، بل يجب النهوض على كل من علم بالحال، و ان لم يكن الاعتداء موجها اليه، هذا إذا لم يعلم بأن من يراد الاعتداء عليهم قادرين على صد العدو و مقاومته، و يتأكد الوجوب على الأقرب من مكان الهجوم فالأقرب».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٧٥

ثم قال صاحب الجواهر: «و دفاع الإنسان عن نفسه واجب، و ان لم يظن سلامتها، لأنه معرض للخطر على كل حال، أما دفاعه عن عرضه و ماله فواجب ان غلب على ظنه السلامة بنفسه مخافة ان تذهب النفس مع العرض و المال. و كذا يجب على الإنسان ان يدافع عن حياة الغير و ماله و عرضه بشرط ان يغلب على ظنه السلامة بنفسه».

و أفتى الفقهاء بوجوب إنقاذ الغريق، و إطفاء الحريق إذا شب في مال الغير، و بأن على المصلي أن يقطع صلاته ليدفع الخطر عن نفس محترمة أو مال يجب حفظه سواء أ كان له أم لغيره، و ان من رأى طفلا في فلاة لا يستقل بدفع الأذى عن نفسه و جب عليه التقاطه و حفظه. و روي ان ثلاثة نفر رفعوا الى الإمام علي (ع):

واحدًا أمسك رجلا، و الثاني قتله، و الثالث رأى و لم يحرك ساكنا، فقضى بقتل القاتل، و سجن الممسك مؤبدا، و ان تشمل عينا الممسك. و قد عمل الفقهاء بهذه الرواية.

و يجد الباحث المتتبع لكتب الفقه الكثير من هذا النوع، و فيه الدلالة القاطعة على ان نصرة الإنسان لأخيه الإنسان و

وجدته تجب شرعا إذا توقف عليها صيانة أمر هام.

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ). و الطرف الأول من النهار الصبح، و الثاني الظهر و العصر، و الزلف من الليل المغرب و العشاء. و في الآية ٧٨ من سورة الاسراء: «**أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**» و دلوك الشمس زوالها، و هو وقت صلاة الظهر و بعدها العصر، و غسق الليل ظلمته، و هو وقت صلاة المغرب و بعدها العشاء، و قرآن الفجر يعني صلاة الصبح يشهدها الناس، و التفصيل في كتب الفقه و منها الجزء الأول من فقه الإمام الصادق.

(إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ). نقل صاحب مجمع البيان عن أكثر المفسرين ان المراد بالحسنات هنا الصلوات الخمس، و انها تكفر ما بينها من الذنوب.

و قال آخرون: بل المراد بها مجرد قول: سبحان الله و الحمد لله و لا إله الا الله و الله أكبر. و كل من التفسيرين يرفضه العقل و الفطرة، حيث لا ترابط و لا تلازم بين الأحكام و التكاليف لا شرعا و لا عقلا و لا قانونا و لا عرفا .. فطاعة أي حكم و جوبا كان أو تحريما لا تناط بطاعة غيره أو معصيته. أما حديث كلما صلى صلاة كفر ما بينهما من الذنوب، و ما اليه فهو كناية عن ان الصلاة كثيرة

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٧٦

الحسنات، فإن كان للمصلي سيئات وضعت هذه في كفة، و تلك في كفة، و ذهبت كل حسنة بسيئة شريطة ألا تكون كبيرة، و لا حقا من حقوق الناس. و تقدم الكلام عن هذا الموضوع بعنوان: «الإحباط» عند تفسير الآية ٢١٧ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٢٦.

(ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ). ذلك اشارة الى الأمر بالاستقامة، و اقامة الصلاة، و النهي عن الركون الى الظالمين، و المراد بالذاكرين المتعظون **(وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)**. و فيه اشارة الى ان من يستقيم على الطريقة المثلى لا بد ان يلاقي الكثير من أهل الضلال و الانحراف، و ان الصبر في جهادهم من أفضل الطاعات، و أعظم الحسنات.

[سورة هود (١١): الآيات ١١٦ الى ١١٩]

فَلَوْ لَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَ مَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَ أَهْلَهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)

اللغة:

القرن جمع قرن، و هو أهل كل عصر، و شاع تقديره بمائة سنة. و بقية الشيء ما يبقى منه، يقال: بقية السلف الصالح أي من بقي منهم بعد ذهاب أكثرهم.

و الترف النعمة و الجدة أي اتبعوا ملذات الدنيا فأبطرتهم و أفسدتهم، يقال: أترفته النعمة أي أبطرته و أفسدته.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٧٧

الإعراب:

لولا حرف يفيد الطلب و الحث على الفعل مثل هلا. و كان هنا تامة بمعنى وجد، و أولو بقية فاعل. و إلا قليلا منصوب على الاستثناء المنقطع، أي و لكن قليلا. و يهلك منصوب بأن مضمرة بعد اللام، و المصدر المنسبك مجرور بها، و متعلق بخبر كان المحذوف أي و ما كان ربك مريدا لهلاك أهل القرى. و أهلها مصلحون الواو للحال. و إلا من رحم (من) في موضع نصب على الاستثناء المتصل من واو لا يزالون. و لذلك خلقهم أي للرحمة. و لاملان اللام جواب لقسم محذوف أي يمينا لاملان. و أجمعين حال مؤكدة، و صاحب الحال الجنة و الناس.

المعنى:

(قَلَوْا لَأَكَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ).

بعد ان ذكر سبحانه ما حل بقوم نوح و عاد و ثمود و غيرهم من الهلاك و الدمار بسبب تمردهم و فسادهم في الأرض قال عز من قائل: ما وجد في تلك الأمم - و كان ينبغي ان يوجد - أهل خير و صلاح يصدون الظالم عن الظلم، و المفسد عن الفساد .. و لكن ظلم المترفون: و سكت عنهم آخرون، فاستحق الجميع عذاب الله و غضبه **(إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ)**. المراد بهؤلاء القليل الأنبياء و من آمن معهم، و من الجارة في (ممن) بيان للقليل، و في (منهم) للتبعيض، و ضمير الجماعة يعود الى القرون، و المعنى ان الفئة المؤمنة التي أنجاها الله من الهلاك كانت تأمر بالمعروف، و تنهى عن المنكر، و لكن لا أمر لمن لا يطاع.

(وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كَانُوا مُجْرِمِينَ). المراد بما أترفوا فيه أموالهم و أملاكهم أي ان البقية الصالحة نهت المترفين عن الفساد في الأرض، و لكن هؤلاء انقادوا الى الترف و النعيم، و آثروا العاجلة على الآجلة، و أصروا على الإثم و المعصية، و لا سر إلا ترفهم و نعيمهم: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ وَ قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ - ٣٥ سبأ».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٧٨

(وَ مَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَ أَهْلِهَا مُصْلِحُونَ) و إلا تساوى لديه المحسن و المسيء، و الصالح و الطالح حاشا لله: «مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ وَ كَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا - ١٤٦ النساء».

و لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة:

منذ ان نزلت هذه الآية، حتى اليوم، و أكثر الناس، أو الكثير منهم يقولون: و لما ذا لم يشأ، و يا ليتته شاء ليريح البلاد و العباد من احن الطائفية و ويلاتها؟

و يتضح الجواب مما يلي:

١- ينبغي قبل كل شيء أن نكون على يقين بأن الله سبحانه لا يريد لعباده و عياله ان يتباغضوا و يتناحروا، كيف، و هو القائل: «و لا تنازعوا فتفشلوا».

و ليس من الضروري إذا لم يكرههم على الوئام و الوفاق ان يريد لهم النزاع و الصراع ..

فإذا قلت - مثلا - لا أحب أن يكون أولادي على رأي واحد في السياسة فليس معنى هذا انك تريد لهم متقاتلين متناحرين.

٢- ان للاكراه على الدين - بمعنى الاعتقاد - طريقين: الأول استعمال القوة. الثاني ان يخلق الله الايمان في القلب كما خلق اللسان في الفم، و الطريق الأول يتناقض مع مبدأ الدين نفسه، بل و منطوق العقل أيضا، لأن القوة لا تصنع الإيمان و الاعتقاد، بل العكس هو الصحيح فان الايمان الحق طريقه الأدلة و البراهين، و من أجل هذا عرض القرآن هذه الأدلة في

أساليب شتى، و حض الإنسان على النظر إليها و تدبرها، لينتهي منها مختاراً الى الايمان بالله و رسوله و اليوم الآخر .. أما الأمر بالقتال من أجل الدين فالمراد منه القتال للعمل بشريعة الحق و العدل، و الحفاظ على سلامة المجتمع و أمنه. أما الطريق الثاني، و هو ان يخلق الله الايمان في قلب الإنسان فإنه يخرج الإنسان عن انسانيته، و يجعل أفعاله بالنسبة اليه، تماماً كالثمرة على الشجرة، لا ارادة له و لا كسب و لا تفكر و تدبر لخلق الكون و ما فيه، و لا استحقاق لمدح أو ذم، و لا لثواب أو عقاب على شيء. و سبق الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٣٥ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٨٣ و ٣٨٨.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٧٩

و الخلاصة ان الله سبحانه لم يشأ بطريق من الطرق أن يكره الناس على الايمان لأنه لو شاء لسلب عنهم صفة الانسانية، و كانوا أشبه بالحيوانات و الحشرات، لا يتحملون أية تبعة، و لا يحاسبون على شيء، و لكن شاء الله سبحانه أن يميز الإنسان عن كل مخلوق، و يرتفع به الى حيث لا شيء فوقه الا خالق الكون و الإنسان .. و محال أن يبلغ هذه العظمة من غير جهد و اختيار، و لذا أمده الله بالقدرة و الإدراك و الوجدان، و الهداية الى النجدين، ثم ترك له حرية الاختيار، ليتحمل وحده تبعة ما يختار، و تتحقق له بذلك الانسانية الكافية الوافية.

فجاءت النتيجة أن يختلف الناس في عقائدهم و آرائهم. أنظر فقرة «ليس بالإمكان أبدع مما كان» ج ٢ ص ٣٨٤، و فقرة «الاختلاف بين الناس» ج ١ ص ٣١٨ **(و لا يزالون مختلفين)** أي ان الناس اختلفوا فيما مضى، و سيستمرون على هذا الاختلاف الى الأبد، لأنه نتيجة حتمية لجعل الإنسان مخيراً غير مسير، يتجه الى حيث شاء و أراد **(الإيمان رحمة ربك)** و المراد بالمرحومين الذين يتوخون الحقيقة بإخلاص و تجرد، و هؤلاء لا يتطاحنون و يتناحرون على الحطام، و إذا اختلفوا فإنما يختلفون في الرأي و وجهة النظر «و اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية».

و تعدد و جهات النظر شيء مفيد، لأن القول القوي هو الذي يكون قويا رغم وجود الأقوال الأخرى.

(و لذلِكَ خَلَقَهُمْ) أي أن الله خلقهم لرحمته و للتراحم فيما بينهم، و انما تشملهم رحمته تعالى إذا طلبوا الحق و عملوا به لوجه الحق. و قال أبو بكر المعافري الأندلسي في أحكام القرآن: ان الله خلق الناس ليختلفوا فيما بينهم، لا ليتراحموا و يتعاطفوا، لأن الله بزعمه يريد الشر و الكفر و المعصية - على حد تعبيره - و لا ينطق بهذا الا شر الناس و أجراهم على الله، لأن من يعبد ربا يريد الشر فبالأولى أن يكون هو مريداً له .. و ان أراد الله الشر و الكفر و المعصية كما يقول هذا المعافري فأى فرق بينه و بين من قال: «الأغوينهم أجمعين»؟ سبحانه و تعالى عما يصفه الظالمون.

(و تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ) أي أنه تعالى يملأ جهنم بالعصاة أتباع الشيطان من الجن و الإنس، و في هذا المعنى قوله تعالى خطاباً لإبليس: «فالحقُّ و الحقُّ أقولُ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ - ٨٥ ص».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٨٠

[سورة هود (١١): الآيات ١٢٠ الى ١٢٣]

وَ كَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَثَبْتُمْ بِهِ فَوَادَكَ وَ جَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَ قُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فاعبده و توكل عليه و ما ربك بغافل عما تعملون (١٢٣)

اللغة:

نثبت نقوي. و مكانة الإنسان حاله التي تمكنه من العمل.

الإعراب:

كلا مفعول به لنقص عليك، و التثوين عوض المضاف اليه المحذوف، و التقدير و كل نبا نقص، و يجوز ان تكون كل مفعولا مطلقا على تقدير و كل القصص نقص عليك. و من أنباء الرسل متعلق بمحذوف صفة لكل. و ما نثبت به (ما) في موضع نصب بدلا من كل. و بغافل الباء زائدة اعرابا، و غافل خبر ربك.

المعنى:

(وَ كَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَ جَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ).

هذه اشارة الى السورة، و الذكرى التذكرة و الاعتبار و المراد بتثبيت فؤاد الرسول (ص) أن يصبر و يتحمل الأذى في سبيل رسالته و تبليغها

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٨١

الى الناس، و المعنى ان الذي قصصناه عليك من أنباء الرسل مع أقوامهم هو حق لا ريب فيه، و ان الغرض منه أن نخفف عنك ما تلاقيه من الأذى، فإن من رأى مصيبة غيره خفت مصيبتة، و أيضا في هذه القصص عظة و عبرة لمن يتعظ و يعتبر.

و تجدر الاشارة الى أن المؤرخين القدامى كانوا يهتمون بالأحداث السياسية و الدولية، ثم اهتم الجدد بالاقتصاد و العلم و الفن و الأدب و غيره من نشاط الإنسان، أما القرآن الكريم فإنه يستخلص من الأحداث العبر و العظات التي تهدي الإنسان الى سواء السبيل، و قوله تعالى: **«وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرٌ»** صريح في ذلك، و مثله **«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى»**.

(وَ قُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ) مر نظيره في الآية ١٣٥ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٦٧.

(وَ انْتظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ) أيضا مر في الآية ١٥٨ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٨٩.

(وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ) فكل سر عنده علانية، و كل غيب عنده شهادة. و في معنى هذه الآية قوله تعالى:

«وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَ لَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَ لَا رَطْبٍ وَ لَا يَأْبَسُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ - ٥٩ الأنعام» ج ٣ ص ١٩٩.

(وَ إِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ) و لا شيء يستطيع الهرب من سلطانه **(فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ)** الفاء للتفريع على ما قبلها أي

إذا كان هذا شأنه جل و علا فهو جدير بالعبادة و الاعتماد عليه دون غيره، و أمر الركوع و السجود سهل يسير، أما الثقة

بالله، و الإعراض عن من سواه فصعب و عسير الا على المتقين **(وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)** فيجزى الذين أساءوا

بما عملوا و يجزى الذين أحسنوا بالحسنى. و في نهج البلاغة: فلا تغفل فلست بمغفول عنك .. فيا حسرة على ذي

غفلة أن يكون عمره عليه حجة. و الله سبحانه المسئول أن يعصمنا عما تعقبه الندامة و الكآبة.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٨٣

سورة يوسف

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٨٥

سورة يوسف هي مكية، ونقل الطبرسي عن ابن عباس ان ٤ آيات منها مدنية: الآية ١ و ٢ و ٣ و ٧، و مجموع آياتها ١١١.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ (٣)

الإعراب:

تلك آيات الكتاب مبتدأ وخبر. و قرآنًا حال من هاء أنزلناه. و عربيا حال من القرآن أو صفة له. و قال الطبرسي و أبو البقاء: يجوز أن يكون قرآن توطئة للحال مثل مررت بزيد رجلا صالحا، فصالحا حال، و رجلا توطئة له. و أحسن القصص مفعول مطلق لنقص بالنظر الى اضافة أحسن للقصص. و بما أوحينا (ما) مصدرية أي بوحينا، و يجوز أن تكون موصولة أي بالذي أوحينا. و هذا مفعول أوحينا. و القرآن عطف بيان من هذا. و ان كنت (ان) مخففة من الثقيلة، و اللام في (لَمَنِ الْغَافِلِينَ) للفرق بين ان المخففة و ان النافية.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٨٦

المعنى:

(الر) تقدم الكلام عن مثله في أول سورة البقرة (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ). تلك اشارة الى آيات هذه السورة، و الكتاب المبين هو القرآن، و انما وصف بالمبين لأنه ظاهر على نبوة محمد (ص)، و مظهر للهداية و الرشاد. (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ). المعنى ظاهر، و هو ان الله سبحانه أنزل القرآن بلغة العرب ليدركوا سره و عظمته، و يعقلوا معانيه، و يعملوا بها.

و تسأل: ان محمدا (ص) أرسل لجميع الناس كما قالت الآية ٢٨ من سورة سبأ، و نزول القرآن باللغة العربية يشعر بأن محمدا مرسل إلى العرب خاصة، دون غيرهم، فما هو طريق الجمع بين الآيتين؟.

الجواب: أولا ان نزول القرآن بالعربية لا يستدعي أن يكون العرب وحدهم مكلفين بأحكامه و تعاليمه، فالقرآن و المؤمنون به يصدقون بالتوراة التي أنزلت على موسى (ع)، و بالإنجيل الذي أنزل على عيسى (ع)، مع ان لغتهما غير لغة القرآن و من آمن بالقرآن.

ثانيا: ان اللغة وسيلة، و المعاني هي الغاية، و محال ان تكون المعاني كاللغة وفقا على قوم دون آخرين، فإن القيم الانسانية يؤمن بها الناس، كل الناس، و بكلمة ان القوميات تتعدد بتعدد اللغات، أما المعاني فمشاع بين الجميع، لا قومية لها و لا جنسية.

ثالثا: إذا لم يرسل النبي بلغة قومه فباية لغة يخاطبهم، مع العلم بأنه لا توجد لغة إنسانية تعرفها جميع القوميات، و هنا يكمن السر في قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» - ٤ ابراهيم).

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ). المراد بالقصص أنباء الرسل التي جاءت في

القرآن الكريم، وهي أحسن الأنباء لما فيها من العبر والحكم. (وإن كنت من قبله لمن الغافلين) عن هذه الأنباء، لأنها حدثت مند قرون، وهي مجهولة على وجه العموم. وهذا دليل قاطع على أنها وحي من الله. وما كانت معلومات النبي قبل الوحي تعد شيئاً بالقياس إلى علمه

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٨٧

بعد نزول الوحي عليه: «وَكذلكَ أَوْحينا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرنا ما كُنْتَ تَدْرِي ما الْكِتابُ وَ لا الْإيمانُ - ٥٢ الشورى». و من درس القرآن، و تدبر معانيه ينتهي حتماً إلى الإيمان بأنه لا يعقل ان ينبثق بمجموعه إلا عن أحاط بكل شيء علماً.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٤ إلى ٦]

إذ قال يوسف لأبيه يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكباً و الشمس و القمر رأيتهم لي ساجدين (٤) قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين (٥) و كذلك يجتبيك ربك و يعلمك من تأويل الأحاديث و يتم نعمته عليك و على آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم و إسحاق إن ربك عليم حكيم (٦)

اللغة:

الرؤيا للمنام، و الروية لليقظة. و الاجتباء الاختيار، و أصله من جبيت الماء في الحوض إذا جمعته، كما قال الطبرسي. و تأويل الشيء الاخبار بماله و عاقبته.

الإعراب:

يا أبت التاء عوض عن الياء، لأن الأصل يا أبي، فحذفت الياء، و جيء

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٨٨

بالتاء بدلا عنها، و قال أبو البقاء و أبو حيان الأندلسي: لا يجوز الجمع بين التاء و الياء، فلا يصح يا أبتني، و قيل: التاء للتفخيم مثل تاء علامة و نسابة. و أحد عشر من الأعداد المركبة، و هي مبنية على الفتح صدرا و عجزا من أحد عشر إلى تسعة عشر، ما عدا (اثنا عشر و اثنا عشرة) فان الصدر يعرب بالألف رفعا، و بالياء نصبا و جرا، أما العجز فيبنى على الفتح. و كوكبا تمييز. و رأيتهم تكرر لرأيت لطول الكلام، و أعاد ضمير (هم) على الكواكب لأنها سجدت، و السجود من صفات العقلاء. و ساجدين حال لأن الروية هنا بصرية، و ليست قلبية كي تتعدى إلى مفعولين. و فكيدوا منصوب بإضمار ان على جواب النهي، و كاد تتعدى بنفسها تارة، و بغيرها تارة، تقول: كاده و كاد له، كما تقول شكرتك و شكرت لك. و كيدا مفعول مطلق. و كذلك الكاف بمعنى مثل في موضع نصب صفة لمفعول مطلق محذوف أي اجتباء مثل ذلك. و ابراهيم و اسحق بدلان من أبويك.

المعنى:

(إذ قال يوسف لأبيه يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكباً و الشمس و القمر رأيتهم لي ساجدين). يوسف هو ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم الخليل (ع)، و يسمى يعقوب إسرائيل أيضا، و كان معناه آنذاك عبد الله، أما اليوم فإن إسرائيل عبد الاستعمار و قاعدته.

و في ذات يوم رأى يوسف رؤيا قصها على أبيه يعقوب، و هي انه رأى في منامه ١١ كوكبا و الشمس و القمر سجدا له،

فعلم أبوه ان هذه رؤيا صادقة، و استبشر بمستقبل ولده الذي كان يعزه و يؤثره. و في جملة من التفاسير ان عمر يوسف كان إذ ذاك سبع سنين. و لا نعرف مصدرا صحيحا لهذا التحديد، و لكنه كان غلاما يافعا بهي الطلعة، جميل الهيئة، يضرب المثل بحسنه و جماله، كما يظهر من مجرى القصة و حوادثها، أما الكواكب فهم اخوته في التأويل، و الشمس و القمر أبواه، و يشعر بذلك قوله: «هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا» و يأتي التفصيل.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٨٩

(قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ). خاف عليه أبوه من اخوته ان هم سمعوا منه ما سمع، و فهموا ما فهم، لأنه يعرف غيرتهم مما خصه به من الحب و الاعزاز، فنصحته أن لا يحدثهم بروياه خشية أن يثير حقدهم و كراهيتهم، و ان يغريهم الشيطان بالكيد له، و نصب الحبائل لهلاكه. و ستكلم عن الأحلام فيما يأتي من المناسبات.

(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ). يجتبيك أي يصطفيك على غيرك، و يفيض عليك بأنواع الكرامات، و قيل: المراد بتأويل الأحاديث تعبير الرؤيا، لأن يوسف قد بلغ الغاية في تفسيرها و معرفة مآلها.. و لكن ظاهر اللفظ أعم من ذلك، و الأنسب بنبوة يوسف أن يكون تأويل الأحاديث كناية عن معرفة الحقائق، و ان الله سبحانه سيعلمه ما لم يكن يعلم.

(وَإِيمًا نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَاسْحَاقَ). ان نعم الله سبحانه لا تعد و لا تحصى، و أكملها إطلاقا النبوة و الرسالة، و قد أنعم الله بها على ابراهيم جد يعقوب، و على اسحق جد يوسف، و على يعقوب نفسه، و سينعم بها على يوسف بعد هذه الرؤيا، و على أكثر من واحد من أحفاد يعقوب **(إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).** عليم بمن يجتبيه و يصطفيه للنبوة و الرسالة، حكيم في هذا الاصطفاء و في جميع قضاياه.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٧ الى ١٥]

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلنَّاسِ الَّذِينَ يُؤْتُونَ بِالنُّفُوسِ (٧) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَ وَالنَّحْنُ عَصَبَةٌ إِنْ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقُوَّةُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١)

أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ أَنِّي لِيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يُجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٩٠

اللغة:

المراد بالآيات هنا العبر. و العصبة الجماعة التي يتعصب بعضها لبعض. و الجب البئر. و غيابة الجب غوره و ما غاب منه عن عين الناظر. و كل ما غيب شيئا و ستره فهو غيابة. و السيارة جمع سيار، و هو المسافر. و يرتع أي يتنعم.

الإعراب:



اللام في ليوسف في جواب القسم. و يخل مجزوم بجواب الأمر. و تكونوا عطف على يخل. و أرضا مفعول فيه لا طرحوه. و صالحين صفة للقوم. و يلتقطه مجزوم بجواب الأمر، و مثله يرتع. و المصدر من أن تذهبوا به فاعل يحزنني. و مصدر أن يأكله مجرور بمن محذوفة. و مصدر ان يجعلوه مجرور بعلى أيضا محذوفة.

المصلحة فوق القرابة:

الإنسان عبد مطيع لإحساسه و شعوره، و ليس في استطاعته أن ينعزل عنه أو

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٩١

يتجاهله. كيف؟ و هل ينفصل الشيء عن ذاته و هويته؟. و المحرك الأول لهذا الشعور هو المصلحة، أي طلب اللذة، و طرد الألم، و هي المثل الأعلى للإنسان، و إليها يستند الدور الحاسم فيما يفعل أو يترك. أما القرابة فليست بشيء يحرك الإنسان إذا لم تحقق له شيئاً من اللذة، أو تتعد به عن الألم، فحب الإنسان لقريب من أرحامه يقاس بهذه المصلحة، و على نسبتها يضعف الحب أو يقوى، و أوضح مثال على ذلك ان حزن القريب و أسفه على فقيد من أقاربه يأتي على مقدار نفعه منه في حياته - غالباً - و يصبح القريب من الد الأعداء إذا تسبب في آلام قريبه، أو أفسد عليه لذته و راحته .. فكم من والده قضت على حياة وليدها لتشبع شهوتها «١» و تتمتع بلذتها؟. و كم من ولد استعجل ميراثه من أبيه فأودى بحياته؟. و قتل قابيل هابيل، و هما أول أخوين انبثقا من نطفة واحدة، و تكونا في رحم واحد .. و ألقى أولاد إسرائيل يوسف في غيابة الجب، و لم تأخذهم به رافة على رغم القربى و صلة الدم. و لذا قال علي أمير المؤمنين (ع): «القرابة الى المودة أوج من المودة الى القرابة» حتى المودة و الصداقة مصدرها اللذة الروحية، و لكن كثيرا ما يذهل الإنسان عن نفسه، و يسهو عن واقعه، فيشرح بمنطق القرابة ما يفعله بوحى من مصلحته.

و ليس من الضروري أن تكون هذه المصلحة التي تحرك الإنسان شخصيته، فإن المخلص الواعي يؤمن قولاً و عملاً بأن مصلحته فرع عن مصلحة الجماعة، فيألم لألمها، و يفرح لفرحها، و يرى الخير، كل الخير، في احقاق الحق و إقامة العدل .. أما غير المخلص فلا يرى هما غير همه، و لا حياة غير حياته، تماما كما فعل أبناء إسرائيل بيوسف، ليتمتعوا و حدهم بعطف أبيهم .. و لكن الله سبحانه عاقبهم بالحرمان، و باءوا بغضب على غضب من الله و نبيه يعقوب، و ظفر يوسف بالعزيز و الكرامة، و وقفوا بين يديه أذلاء يعترفون بالذنب، و يطلبون

(١). قرأت في الصحف ان امرأة كانت مع عشيقها، و طفلها الصغير نائم بالقرب منها، و لما بكى أماتته خنقا، و قرأت ايضا ان فتاة قتلت أبويها بالسم، و لما سئلت قالت: أريد ان يخلو البيت لي و لعشيقتي. و هكذا يرحل الدين و الضمير و الرحم إذا جاءت الشهوات.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٩٢

العفو و الصفح بقولهم: «تالله لقد آثرك الله علينا و ان كنا لخاطئين».

(لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ). ألقى أبناء إسرائيل يوسف في الجب، لا لشيء إلا لأن أباه فضله عليهم بالعطف و الحنان، و حاربت قريش محمدا، و بلغت في إيدائه، و هو قرشي مثلهم، لأن الله فضله عليهم، و على

الناس أجمعين، و نصر الله يوسف على اخوته، و كذلك نصر محمدا (ص) على عشيرته، و في ذلك عبر و عظات لمن أراد معرفة الحقائق، و يعتبر بها.

(إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ). معنى هذه الآية و ما بعدها ظاهر، و مع هذا نعقب على كل آية بما يناسبها .. لما رأى أبناء إسرائيل ميل أبيهم الى يوسف و أخيه غلى الحقد و الحسد في قلوبهم، و قال بعضهم لبعض: ما الذي حمل هذا الشيخ على أن يؤثر هذين الصبيين علينا، و نحن أكبر سنا، و أشد قوة، و أكثر نفعاً و خدمة؟! إن هذا هو الحيف و الضلال .. و كان يوسف و أخوه بنيامين من أم ثانية اسمها راحيل، و كثيرا ما يكون تعدد الأمهات سببا للحقد و الحسد بين بني العلات.

(اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ). تأمروا على قتله، لا لشيء باعترافهم إلا ليحتكروا عطف أبيهم من دونه .. و هذا هو منطق الاحتكار و المحتكر .. اقتل و شرد .. حتى الأقارب و الأرحام حرصا على الأرباح و المكاسب.

(وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ). قال كثير من المفسرين: ان المراد بالصلاح هنا صلاح الدين، و انهم يتوبون الى الله بعد فعلتهم الشنعاء. و لكن ظاهر السياق يدل على ان المراد بالصلاح صلاح شأنهم مع أبيهم، و ان يتفرغ لهم و حدهم.

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَخُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ). السيارة هم المسافرون. و عن سفر التكوين من التوراة ان الذي أشار عليهم بهذا هو أخوهم روبين، و انه قد كان في نيته أن يخرج يوسف من الجب بعد ذهاب اخوته.

(قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ). نحبه و نريد له الخير .. و هكذا الغادر الماكر في كل زمان و مكان، ذئب في جلد حمل **(أَرْسَلَهُ)**

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٩٣

معنا غدا يرتع و يلعب و إننا له لحافظون). لقد علموا ان أباهم يحب يوسف، و يحب أن يتنعم و يفرح، و علموا أيضا شدة حرصه عليه، فدخلوا الى نفسه من أبوابها ..

يوسف يلعب، و هم يحرسونه من كل مكروه .. حاميها حراميها. **(قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذَهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ).** اعتذر اليهم بأنه لا يطيق فراق يوسف. فضاغف هذا العذر من حقدهم على يوسف. و أيضا اعتذر بأنه يخاف عليه من الذئب، و عقب الرازي على هذا العذر بقوله: «و كأنه قد لقنهم الحجة، و في الأمثال: ان البلاء موكل بالمنطق».

(قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ). أي عاجزون لا نصلح لشيء: و اغتر الشيخ بقولهم و أرسل معهم يوسف، و كانوا من القوم الخاسرين **(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ)** و نفذوا ما أجمعوا عليه، و هم يحسبون انهم قد أصابوا ما يريدون .. و لكن يوسف فوض أمره الى الله فوقاه سيئات مكرهم **(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ).**

فألقى الله في روع يوسف انك ناج من محتك هذه، و انك سوف تخبرهم بصنيعهم هذا دون أن يعرفوا من أنت.

بين أولاد إسرائيل و أولاد العلماء:

و بهذه المناسبة نذكر أوجه الشبه بين بعض أولاد العلماء بالدين، و أولاد إسرائيل و هو الاسم الثاني ليعقوب.
قال أولاد إسرائيل: «ان أبانا لفي ضلال ميين».

و بهذا الوصف ينعت بعض أولاد العلماء آباءهم إذا قالوا كلمة أو تصرفوا تصرفا لا يعجبهم ولا يتفق مع أهوائهم، حتى ولو كان وحيا منزلا.

و قال أولاد إسرائيل: «اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم و تكونوا من بعده قوما صالحين».
و هكذا يفعل بعض أولاد العلماء .. يتآمرون على الناصح الأمين، و يدسون عليه الدسائس و المفتريات ليخلو لهم وجه أبيهم و للشياطين من أمثالهم، ثم يوحون اليه

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٩٤

بما استوحوه من وسطاء الشر و عملاء الشيطان، و يقبضون الأجر بالعملة الصعبة و النقد النادر، و كلما كان التأثير بالغا تضاعف الأجر.

و جاء أولاد إسرائيل على قميص يوسف «بدم كذب».

و في كل يوم يحمل بعض أولاد العلماء لأبيهم أحاديث و روايات ابتدعوها ظلما و زورا ينالون بها من مقام المخلص الأمين، و يرفعون من شأن الخائن العميل عند أبيهم ليأخذ منه و منهم دون مراقب و معاتب.
و جاء أولاد إسرائيل «أباهم عشاء يبكون» يسترون فعلتهم الشنعاء بالنفاق و دموع التماسيح.
و تظاهر أولاد العلماء أمام أبيهم المقدس بالتقى و القداسة كذبا و رياء، لينخدع بدسائسهم و موامرتهم.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١٦ الى ٢٠]

و جَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ مَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَ لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَ جَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨) وَ جَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غَلَامٌ وَ أَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كَانُوا فِيهِ مِنَ الرَّاهِدِينَ (٢٠)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٩٥

اللغة:

الاستباق من السبق، و منه المسابقة، و يكون برمي السهام، و على الخيل و الإبل، و على الأقدام. و المراد بالمتاع هنا ما يحمله المسافر من زاد و لباس.

و سولت زينت. و الوارد هو الذي يتقدم القوم ليستقي لهم. و الدلو مؤنث، و قد يذكر، و أدلى دلوه أرسلها في البئر. و يا بشرى كلمة تقال عند البشارة، مثل يا عجبا تقال عند التعجب. و أسروه أي انهم وجدوه في الجب: و قالوا: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم. و بضاعة أي سلعة و مكسبا. و شروه باعوه. و البنخس النقص من الحق، يقال: بنخسه الكيل إذا أعطاه دون حقه.

الإعراب:

عشاء ظرف زمان منصوب بجاءوا. و جملة يبكون حال، و مثلها جملة نستبق. و على قميصه حال مقدم من دم كذب.

فصبر جميل (صبر) خبر لمبتدأ محذوف، وجميل صفة لصبر أي فأمرى صبر جميل. ويا بشرى منادى أي احضري يا بشارة فهذا أوانك. و بضاعه حال. و دراهم بدل من ثمن.

المعنى:

(وَجَاؤُاْ أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ) تمويها لما لفقوا من الكذب و التزوير **(قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ)** أي نتسابق في العدو أو الرمي **(وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ)**. و في الأمثال: براءة الذئب من دم يوسف. و نقل عن أحد القصاصين القدامى انه كان يحكي قصة يوسف لجماعة، و لما وصل الى الذئب قال: كان اسم الذئب الذي أكل يوسف (هكذا). فقال له بعض من حضر:

ان الذئب لم يأكل يوسف. فقال القصاص: فليكن هذا الاسم للذئب الذي لم يأكل يوسف. **(وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا)** لأنها كذبة مكشوفة **(وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)**.

و عن الإمام علي (ع): كفى بالكاذب عقوبة انه إذا قال الصدق لا يصدق.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٩٦

(وَجَاؤُاْ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) المعنى ظاهر، و لما لم يجد المفسرون ما يقولونه اختلفوا في الدم الذي جاء به أولاد إسرائيل: هل هو دم ظبي أو دم سخلة. و قال آخر: على هنا بمعنى فوق. و قال غيره: لما رأى يعقوب قميص ابنه صحيحا قال: و الله ما رأيت أحلم من هذا الذئب أكل ابني و لم يمزق قميصه، أما نحن فنؤمن بأن يعقوب **(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)**. هذا ما نزل به الوحي في جواب يعقوب لأولاده، و لا دليل على غيره. و تومى الآية إلى أن يعقوب شعر بكذبهم لحسد هم الشديد ليوسف، و لكنه صبر مفوضا أمره الى الله.

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ) جماعة من المسافرين، و في سفر التكوين من التوراة انهم كانوا من الاسماعيليين أي من العرب لأنهم ينتهون بنسبهم الى إسماعيل بن ابراهيم (ع).

(فَارْسَلُوا وَارِدَهُمْ) أي من يرد الماء و يأتيهم به **(فَادَلَّى دَلْوَهُ)** أرسله في البئر و لما رأى الوارد يوسف في البئر **(قَالَ يَا بَشْرَى هَذَا غُلَامٌ)** يبشر نفسه أو جماعته بهذه الغنيمة، فأخرجوه من البئر **(وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً)** أي من الناس، لثلا يتعرف عليه أهله، و اعتبره السيارة رقيقا من جملة سلعهم التجارية **(وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)**. هذا تهديد للسيارة أخفوا أمره، و عرضوه للبيع على انه رقيق، و هو حر.

(وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ). شرى الشيء باعه. و اشتراه ابتاعه. و البخس القليل الناقص عن ثمن المثل. و قال كثير من المفسرين: ان أهل ذلك الزمان كانوا يزنون الثمن إذا كان كثيرا، و يعدونه إذا كان قليلا، و ان قوله تعالى: دراهم معدودات يشير الى قلة ثمن يوسف **(وَ كَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ)** حيث تعجلوا التخلص منه بأبخس الأثمان، لثلا يتهموا بسرقة.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٢١ الى ٢٣]

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَأَمْرَأَتِهِ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٩٧

اللغة:

الثواء الإقامة، و المثوى موضع الإقامة، و المراد بأكرمي مثواه أحسنه معاملته. و مكنأ له في الأرض جعلنا له مكانة فيها. و بلغ أشده أي استكمل قوته جسما و عقلا.

الإعراب:

مصر لا تنصرف للعلمية و التانيث. و عسى تامة، و المصدر من أن ينفعنا فاعل. و لنعلمه منصوب بأن مضمرة، و المصدر مجرور باللام، و متعلق بفعل محذوف أي و لتعليمه من تأويل الأحاديث مكنأه.

المعنى:

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَأَمْرَاتِهِ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا).

عرض يوسف للبيع في أسواق مصر، فاشتراه العزيز، و هو لقب لأكبر وزراء الملك و أمنائه، و الذي دلنا على انه هو المشتري قوله تعالى: «و قال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه» .. و قد توسم العزيز في يوسف الذكاء و النجابة، فأوصى به خيرا، و قال لامراته: احسني معاملته، و اكرمي إقامته عندنا، و علل ذلك بأنه يرجو إذا بلغ يوسف أشده أن يقوم بتدبير شئونهم،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٩٨

أو يتبنوه، لأن العزيز كان عقيما، لا ولد له، كما قال أكثر المفسرين.

و الآية تومي الى ذلك **(أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا).**

(وَكَذَلِكَ مَكَانًا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ). انعم الله على يوسف بالنجاة من كيد اخوته و إخراجهم من البئر، ثم بجعله في بيت العزيز، بيت الجدة و الرفاه، و يتمكنه في قلب صاحب البيت، ثم بتعليمه حقائق الأمور، و منها تعبير الرؤيا، و هذه النعم و ما إليها قد رفعت من شأن يوسف عند الناس، و جعلته محلا لثقة الجميع و احترامهم، و مهدت له أن يتولى خزائن الأرض في مصر، و ان يقول له ملكها: «انك اليوم لدينا مكين أمين».

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ). أراد اخوة يوسف له الشر، و أراد الله له الخير «إذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون». **(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)** ان الأمر لله وحده، و ان من طغى و بغى مغترا بحوله و طوله أخذه الله من مأمنه أخذ عزيز مقتدر.

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا). بلغ أشده أي اشدت و استكمل قوته جسما و عقلا، و في الغالب يبدأ هذا الاشتداد ببلوغ المرء سن الثلاثين، و يستمر الاشتداد الجسمي حتى الأربعين، و في هذه المدة يتم الاستعداد للنبوة و تلقي الوحي، و المراد بالحكم هنا الحكمة، و هي وضع الشيء في موضعه، و منها و آتيناها الحكم صبيا، و المعنى ان يوسف بعد أن استكمل الرشد منحه الله العلم، و وفقه الى العمل به.

و قيل: المراد بالعلم هنا النبوة، و ليس هذا ببعيد لأن يوسف من الأنبياء **(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ).** لقد أحسن يوسف بصره و طاعته لله، فأحسن الله اليه، لأنه تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا.

[سورة يوسف (١٢): آية ٢٣]

وَرَاودَتْهُ النَّيُّ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٢٩٩

اللغة:

المراودة المطالبة برفق و لين مع ضرب من المخادعة. و هيت أقبل أو أسرع.

الإعراب:

هيت اسم فعل بمعنى أقبل أو أسرع. و اللام في لك لبيان الفاعل أي اسرع أنت، مثل سقيا لك، و شكرا لك. و معاذ الله منصوب على المصدر. و ضمير انه للشان، و جملة لا يفلح الظالمون خبر.

المعنى:

(وَرَاودَتْهُ النَّيُّ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ). راودته كلمة تدل على ان المرأة خادعت الرجل و راوغته ليبريد منها ما تريده منه، و هذه الكلمة بمفردها غاية في الاحتشام و نزاهة التعبير .. و لكن بعض المفسرين سود في شرحها و تفسيرها صفحات عرض فيها صوراً لاغراء امرأة العزيز يوسف بمحاسنها و مفاتها، و لا مصدر لذلك إلا الاسرائيليات. قال صاحب المنار، و نعم ما قال:

«نقل رواة الاسرائيليات عنها و عنه من الوقاحة ما يعلم بالضرورة انه كذب، فان مثله لا يعلم إلا من الله تعالى، أو بالرواية الصحيحة، و لا يستطيع أحد ان يدعي هذا» (١).

الإنسان و المال و الجنس:

(وَوَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ). و تساءل مصطفى صادق الرافعي: لما ذا قال: و غلقت

(١). نقل الشيخ المراغي هذه العبارة بالحرف، و لم يشر الى مصدرها، او يضعها بين قوسين، و هكذا فعل في الكثير من أقوال صاحب «تفسير المنار»، ينقلها موهما انه هو القائل ..
و للشيخ رايه.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٠٠

الأبواب، و لم يقل: و أغلقت الأبواب؟. و أجاب: «بأن هذا يشعر انها لما يئست و رأت منه محاولة الانصراف أسرع في ثورة نفسها مهتاجة تنخيل القفل الواحد أقفالا عدة، و تجري من باب إلى باب، و تضطرب يدها في الاغلاق كأنما تحاول سد الأبواب لا إغلاقها فقط». أما نحن فلا نرى أي فرق بين غلقت و أغلقت، و ان دل تصوير الرافعي على شيء فإنما يدل على مكانته في الأدب، و مقدرته على إخراج شيء من لا شيء.

ومهما يكن فقد عاش يوسف مع امرأة العزيز تحت سقف واحد أمداً غير قصير، و كان في ريعان شبابه، وضيء الطلعة، فتانا في هيئته و منظره .. فلا عجب أن تفتتن به، و تهالك «امرأة». و أيضا لا عجب أن يصمد يوسف (ع) لوسائلها، و ينجو من حبائلها على رغم ان الجنس صرع كثيرا من العقول .. فليس الإنسان عبداً لغريزة الجنس فقط، كما قال فرويد: و لا للرغبة في المال و الاقتصاد، كما قال ماركس: و انما هو مسير بكثير من الدوافع و المحرضات، منها الجنس و المال، و منها الشهرة و السيطرة، و منها الدين و العادات، و حب الخير و الوطن، و نحو ذلك.

و قد يتنازع الإنسان عاملان متضادان: خير يهديه إلى سبيل النجاة، و شرير يسوقه إلى طريق الهلاك، و يتذبذب هو بينهما أمداً يطول أو يقصر الى ان يتغلب أحد العاملين على الآخر، و قد يستمر التوازن بينهما إلى النهاية، فيبقى الإنسان حائرا مذبذبا تبعا لهذا التوازن مدى حياته.

و قد تنازع امرأة العزيز عاملان: شهواتها الحيوانية تدعوها الى مراودة يوسف عن نفسه، و ينهاها العز و الكبرياء عن التذلل لمن ابتاعه زوجها بثمن بخس، و بقيت تتذبذب حائرة بين هذين العاملين أمداً غير قصير، ثم انهارت أعصابها، و وقعت فريسة النزوة و شهوة الجنس التي تجسمت في قولها الثائر الفاجر: «هيت لك» .. و لا تقولها انثى إلا إذا اشتد احتياجها و غلبانها حتى بلغ الجنون.

أما يوسف (ع) فلم يكن له الا دافع واحد، و رغبة واحدة هي التي تقوده و تسيره، و لا ذرة لغيرها في قلبه و عقله .. و هي تقوى الله و مرضاته، فهي هي لذته و متعته، و مطلبه و أمنيته: **(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ**

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٠١

الظالمون) .. أعوذ بالله أن أعصي له أمرا، كيف؟ و قد أفاض علي الكثير من فضله و إحسانه، إذ أخرجني من البئر، و سخر لي قلب العزيز الذي أنزلني منه منزلة الأبناء الأبرار .. كيف أظلم نفسي بمعصية الله، و الله لا يهدي القوم الظالمين؟. و هكذا يصنع الايمان الصادق بأهله، يعصمهم من المحرمات، و يبتعد بهم عن الهفوات إذا خاضوا المعارك مع الشيطان و حزبه.

و قال أكثر المفسرين: ضمير **(إِنَّهُ رَبِّي)** يعود الى العزيز زوج المرأة، و ان المعنى قد أكرمني زوجك و أحسن إلي فكيف أخونه فيك؟ .. أما السياق فيرجح رجوع الضمير الى لفظ الجلالة لقربه منه في قوله: **(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي)**. و ليس للعزيز ذكر في الآية على الإطلاق .. بالاضافة الى أن الدافع لامتناع يوسف عنها هو الخوف من الله، و ليس مجرد الوفاء للعزيز .. و على افتراض رجوع الضمير الى العزيز فإن المقصود توبيخها و التعريض بها، و ان الأولى بها أن تكون تقية و فية لزوجها الذي سمت به الى علو الدرجات.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٢٤ الى ٢٩]

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَ اسْتَبَقَا الْبَابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ أَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقْتَ وَ هُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتَ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ أَنْ كَيْدِكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨)

يوسف أعرض عن هذا و استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين (٢٩)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٠٢

اللغة:

قال الطبرسي في مجمع البيان اللهم معان، منها العزم، و منها خطور الشيء بالبال دون العزم عليه، و منها الرغبة كقول القائل: هذا أهم الأشياء إليّ.

و القد شق الشيء طولاً أي قطعت قميصه طولاً من خلف. و استبقا الباب تسابقاً إليه، و ألفيا أي وجدا.

الإعراب:

المصدر من ان رأى مبتدأ، و الخبر محذوف، و جواب لولا محذوف أيضاً، و التقدير لولا رؤيته برهان ربه كائنة لهم بها. كذلك الكاف بمعنى مثل في محل نصب مفعولاً لفعل محذوف أي أريانه مثل ذلك لنصرف، و المصدر من أن نصرف مجرور باللام متعلقاً بأريانه المحذوفة. و الباب منصوب بنزع الخافض أي و استبقا إلى الباب، مثل و اختار موسى قومه أي من قومه. ما جزاء (ما) نافية، و جزاء مبتدأ، و المصدر من أن يسجن خبر، أي السجن. أو عذاب عطف عليه. يوسف نادى أي يا يوسف أعرض عن هذا.

المعنى:

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ). في المجلد الأول من هذا التفسير ص ٨٦ و ١٩٦ و المجلد

الثاني ص ٣٥٩ تكلمنا عن العصمة، و ان الأنبياء كلهم معصومون. و على هذا تفرع السؤال الآتي: ان يوسف معصوم

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٠٣

لأنه نبي، و قوله تعالى: **(وَهُمَّ بِهَا)** يومئذ إلى عزمه على القبيح، و الاستجابة لمرادة التي هو في بيتها؟.

و أجاب المفسرون عن ذلك بأجوبة بعضها فيه وقاحة، و بعضها بعيد عن ظاهر الكلام .. و أقرب الأجوبة إلى الظاهر و مقام الأنبياء ان في الآية تقديماً و تأخيراً، و الأصل هكذا **(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ).** و معنى هذا انه ما همَّ بها إطلاقاً، تماماً كقول القائل: لولا فلان لهلكت.

و بيان ثان: ان جميع المقترضيات كانت متوافرة للفعل، فالمرأة باذلة بل متهاكة، و هو قوي و قادر من حيث الرجولة، و الخلوة تامة بأكمل معانيها، فلا سامع و لا ناظر .. و لكن هناك مانع ليوسف أقوى من كل زاجر، و أعظم من كل سامع و ناظر، و هو علمه بحلال الله و حرامه، و حياؤه منه، و يقينه بأن الله أقرب إليه من حبل الوريد، و انه يعلم ما توسوس به نفسه، بل و ما هو أخفى من ذلك .. هذا هو البرهان الذي منع يوسف عن التفكير بالحرام، و يمنع كل من آمن حقاً و صدقاً بالله و اليوم الآخر، نبيا كان أو غير نبي، و قال قائل:

ان يوسف ما تجلّى له برهان ربه هذا الا حين همّت به، و همَّ بها .. حاشا للأنبياء و الصديقين .. ان برهان الله لازم لا ينفك بحال عن المؤمنين الصادقين منفردين و مجتمعين بالحسان و بغير الحسان.

(كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ). السوء كيد امرأة العزيز، و الفحشاء الزنا، و

المعنى ان الله مع المتقين الذين يلتجئون إليه مخلصين، فيحرسهم و يصونهم ممن أراد بهم سوءاً، أو حاول ان يوقعهم في الضلالة و الغواية، تماماً كما فعل بيوسف، التجأ إلى ربه، و خاطبه مخلصاً بقوله:

«و الا تصرف عني كيدهن أصب إليهن و أكن من الجاهلين، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم».



(وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَوَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ). حاول يوسف التخلص منها بالفرار من بيتها، فعدت خلفه كالجمل الهائج، وأدركته قبل أن يهرب من الباب، وجذبت قميصه من الخلف فشقتة طولاً.. وهنا وقعت المفاجأة بمجيء الزوج صدفة **(وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ)**. قال صاحب تفسير المنار: «كان النساء

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٠٤

في مصر يلقبن الزوج بالسيد، واستمر هذا الى زماننا». دخل سيدها البيت فرأى يوسف واقفاً، وقميصه ممزقا، وقبل أن يسأل عن الخبر **(قَالَتْ - له - مَا جِزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابُ أَلِيمٍ)**. قالت هذا بكل هدوء، ودون أن يظهر عليها أي أثر للمفاجأة، قالت لزوجها: ما جزاء من أراد بي السوء - وهي نفسها السوء - ومع هذا تتهم الطهر والقداسة بالسوء، وتطلب معاقبته عليه.

وذكرنا هذا بالذين يثيرون الآن الحروب في فيتنام والشرق الأوسط والكونغو وغيرها، ويسلحون الجلادين للفتك بالمستضعفين في أنغولا وجنوب افريقيا وروديسيا، وأمريكا اللاتينية وغيرها، و يقيمون ضد من يخرج عن طاعتهم أكثر من ألف قاعدة عسكرية في شرق الأرض وغربها مجهزة بأنواع المبيدات البشرية، ومع هذا يدعون أنهم قتلوا الفيتناميين، و سلحوا إسرائيل، ودفعوها الى العدوان والتقتيل والتخريب والتشريد للمحافظة على السلم، وأمن الشعوب، وصيانة حقوق الضعفاء.

- اذن - أية غرابة بعد هذا إذا انقادت «امرأة» لنزوتها، وكذبت على زوجها لتستر خطيئتها؟.

(قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي). وأنا امتنعت عليها، وفررت منها، فلحقت بي، وفعلت بثوبي ما ترى **(وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا)**. تكلم المفسرون، وأطالوا هذا الكلام حول هذا الشاهد، فمن قائل: انه ابن عمها، وقائل: انه من أصحاب زوجها، وذهب آخرون الى انه كان صبياً في المهمل.. أما نحن فنقف عند ظاهر الوحي الذي دل على ان الشاهد كان من أسرته، وانه كان بالغا راشدا لقوله: **(إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قَبْلِ فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ)**. هذا ما نطق به الوحي، أما أين كان هذا الشاهد؟. ومتى أدلى بشهادته؟. وهل جاء صدفة، أو بدعوة منها أو من زوجها، اما هذا أو غير هذا فقد سكت الله عنه، وفي الحديث: ان الله سكت عن أشياء فلا تتكلفوها.

(فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ).

اقتنع الزوج وأيقن بصدق يوسف (ع) وكذبها، ولكنه رأى الستر والكتمان

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٠٥

أولى من التشهير والفضيحة، فاكتفى بقوله لها: **(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)**.. وهذا الوصف يعجب النساء لأنه شهادة بذكائهن وان الرجال لا يفتنون لمكرهن وحيلهن.

وتسأل: جاء في هذه الآية: **(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)**. وجاء في الآية ٧٥ من سورة النساء: **(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)**. فهل معنى هذا ان كيد النساء أقوى وأعظم من كيد الشيطان؟.

الجواب: ان كيد النساء من كيد الشيطان، فكيدة أصل، وكيدهن فرع.

و المراد بضعف الشيطان في كيده انه لا سلطان له على عباد الله الا من اتبعه من الغاوين، والمراد بعظمة النساء في كيدهن انهن أقوى جنود الشيطان وأتباعه، فقد روي عن إبليس انه قال: النساء فخورخي ومصائدني، فإذا اجتمعت علي

لعنات الصالحين ذهبت الى النساء فطابت نفسي بهن ..

ثم قال العزيز **(يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا)**. اكنمه يا يوسف، ولا تخبر أحدا بما حدث، و قال لزوجته: **(وَاسْتَغْفِرِي لَدَيْكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ)**.

و هذا دليل قاطع على ان الزوج يقن ببراءة يوسف، و خطيئة زوجته. و قال أبو حيان الأندلسي في تفسيره «البحر المحيط»: «كان العزيز قليل الغيرة، و هذا مقتضى طبيعة تربة مصر و بيئتها». ورد عليه صاحب «تفسير المنار» بقوله: «هذا كلام غير مبني على علم صحيح» و نضيف اليه ان مبعثه الهوى و الغرض.

و انما قال من الخاطئين و لم يقل من الخاطئات، لأن الخطيئة تصدر من الرجال و النساء، و لفظ خاطئين يصح إطلاقه على الجميع من باب التغليب، أما لفظ خاطئات فيختص بالإناث فقط.

القضاء بشاهد الحال:

ليس المراد بالشاهد في قوله: **(وَ شَهِدَ شَاهِدٌ)** من نص الشارع على الأخذ بشهادته في فصل الخصومات، و انما المراد به الخبير الذي يستنتج بذكائه من واقعة معلومة لديه معرفة واقعة مجهولة، فشق القميص معلوم و ثابت بالعيان، و قد جرت

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٠٦

العادة إذا أخذ الإنسان من خلفه أن يتمزق ثوبه من هذه الجهة، و إذا أخذ من أمامه أن يتمزق من الأمام، و بهذا توصل قريب امرأة العزيز الى التمييز بين الصادق و الكاذب.

و بهذه المناسبة نشير الى ان ما يمكن الاعتماد عليه لمعرفة الحق المتنازع فيه ينحصر في ثلاثة أنواع:

النوع الأول: كل ما من شأنه أن يفيد العلم بالضرورة و اللزوم العقلي، مثل أن يدعي من بلغ الأربعين انه ابن أو أب لمن هو في هذه السن أو ما دونها بقليل، أو يدعي بأنه ورث عن أبيه هذه البناية مع العلم بأن أباه عاش و مات فقيرا، و لم يترك شيئا لوراثته .. و هذه الدعوى و أمثالها ترفض ابتداء، و لا يفتقر ردها الى نص من الشارع، لأنها مردودة بطبعها، و بالاحساس الغريزي عند كل انسان، و يحكم على مدعيها بكل ما يستدعيه الرد و يلزمه من الآثار.

النوع الثاني: ما نص الشارع صراحة على العمل به، و الاعتماد عليه في الحكم كالأقرار و اليد و شهادة العدلين، و يسمى هذا النوع في اصطلاح فقهاء الشريعة الاسلامية، بالبينة الشرعية، و عند أهل الشرائع الوضعية بالقريينة القانونية، و اتفق الجميع على ان القاضي يجب عليه أن يتبعد و يحكم بما نص عليه الشارع، سواء أحصل له العلم منه، أم لم يحصل.

النوع الثالث: ما يستخرجه القاضي باجتهاده و ذكائه من القرائن التي ترافق موضوع الدعوى و ظروفها، و هي لا تدخل تحت حصر، لأنها قرائن خاصة تستنتج من دعوى خاصة. و بديهة ان لكل دعوى موضوعها و ظروفها، و لكل قاض فهمه و اجتهاده .. و من هذه القرائن ان كان قميصه قد من قبل الخ، و منها أيضا ما نسب لسليمان بن داود، أو الإمام علي (ع) من الحكم بين المرأتين اللتين ادعتا الولد، و قوله: ائتوني بسكين أشقه بينهما، فسمحت إحداهما دون الأخرى، ففضى به لهذه.

و أغرب ما قرأته في هذا الباب ما نقله «الشاطبي» في «الموافقات» ج ٢ ص ٢٦٧ المسألة الحادية عشرة: «ان أبا بكر أنفذ وصية رجل بعد موته برويا

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٠٧



رويت». أي ان رجلا مات و لم يوص في حياته، ثم أوصى بعد موته، و أبلغ وصيته لمن أراد في المنام، فنفذ أبو بكر هذه الوصية.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٣٠ الى ٣٥]

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مَتَكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيَسْجَنَ وَ لَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)

ثم بدأ لهم من بعد ما راوا الآيات ليسجننه حتى حين (٣٥)

اللغة:

شغفها أي بلغ شغاف قلبها، و هو غلاف القلب على هيئة الكيس. و المراد بكيدهن قولهن الذي أردن به اغضابها، و اشاعة أمرها. و اعتدت أعدت

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٠٨

و هيات. و المتكأ ما يتكأ عليه من فرش و نحوه. و قطعن أيدهن جرحنها. فاستعصم طلب العصمة و امتنع عما أرادت منه.

الإعراب:

و قال نِسْوَةٌ أي جمع النسوة. و حبا تمييز محول عن فاعل أي شغفها حبه، مثل طاب محمد نفسا أي طابت نفس محمد. و متكأ أصله موتكأ لأنه من توكأ، فأبدلت الواو تاء و أدغمت التاءان. و حاش لله أصلها حاشا، و حذفت الألف تخفيفا، و هي فعل ماضٍ، و الفاعل ضمير مستتر يعود الى يوسف. و لله اللام حرف جر: و المعنى بعد يوسف عن المعصية لأجل طاعة الله. و قيل: الله فاعل و اللام لبيان الفاعل أي حاشا الله. و ما هذا بشرا (ما) نافية تعمل عمل ليس على لغة أهل الحجاز، و هذا اسمها و بشرا خبرها. و ان هذا (ان) نافية بمعنى ما. و ذلكن (كن) للخطاب، لا للضمير و لا محل له من الاعراب، و ذا اسم اشارة مبتدأ، و الذي لمتنني فيه خبر. و ليكونا من الصاغرين الأصل ليكونن بالنون الخفيفة، و كتبت بالألف تبعا لخط المصحف. مثل لنسفا بالناصية.

و رب أصله يا ربي. و السجن أحب مبتدأ و خبر. و إلا مركبة من كلمتين: ان الشرطية و لا النافية.

المعنى:

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ).

شاع في مصر، و بالخصوص على السنة النسوة ان امرأة العزيز افتنت بغلامها، و دعتة لنفسها، و لكنه عزف عنها و زهد فيها، و قد اجترحت بهذا خطيئة لا تغتفر.

(فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ) أي بقولهن، و أطلق المكر هنا على القول لأنهن ما أردن به وجه الحق، بل أردن مجرد التشهير

بها. وقال بعض المفسرين: لعلهن لمنها لانكشاف المراودة و ظهورها، و انه كان الأولى بها ان تحكم الخطة ليلم كل

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٠٩

شيء تحت الستار .. و يصح هذا القول في الفاجرات، لا العفيفات **(أرسلت إليهن و أعدت لهن متكا و أتت كل واحدة منهن سكيناً)**. أرادت أن تمكر بهن كما مكرن بها، فأقامت لهن مآذبة في قصرها، و حاطتهن بهالة من النعيم: متكات و ثيرة و أرائك مريحة، و طعام سخي شهوي، و أعطت كل واحدة سكيناً حادة لتقطع بها اللحم و الفاكهة .. و استعمال السكين في الأكل آنذاك يرمي إلى الحضارة. و في تفسير الطبري ان السكاكين لا تدفع إلى من دعي إلى مجلس إلا لقطع ما يؤكل، فذكرها يعني عن ذكر المأكول الذي قطعت به.

(و قالت - ليوسف - اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه و قطعن أيديهن) من شدة الدهشة و الذهول، و قال المفسرون: قطعن أي جرحن، و لكن الظاهر من القطع الابانة، لا الجرح .. و مهما يكن فان مثل هذه الحادثة تفسر بالاجتهاد فيما تستدعيه ظروفها و ملابساتها، لا بالنص الحرفي لدلالة اللفظ **(و قلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم)** في صورة البشر لهيبته و جماله الذي جر عليه أنواع البلاء و المحن.

(قالت فذلكن الذي لمتنني فيه). قالت هذا بلغة الحرية التي تطالب بها فئة من بنات الجيل الجديد، حرية بلا مسؤولية، حتى في التهلك و التفسخ ..

و نحن من أنصار الحرية للرجال و النساء، و لكن في حدود المسؤولية عن الأقوال و الأفعال **(و لقد راودته عن نفسه)** على المكشوف **(فاستعصم)** انصرف عني و عرض **(و لئن لم يفعل ما أمره ليسجنن و ليكونا من الصاغرين)**. قال صاحب «تفسير المنار»: «و الله ما عجبني من يوسف ان راودته مولاته فاستعصم .. و انما عجبني بل اعجابي بيوسف (ع) ان نظره إلى الله لم يدع في قلبه البشري مكانا خاليا لنظرات هذه العاشقة التي شغفها حبا». و نعطف على هذا القول ان الله سبحانه ضرب يوسف مثلاً للمؤمن المخلص ليعرف به المؤمن المزييف الذي يكيف الدين حسب أهوائه و أغراضه.

(قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه). ليس المراد بأحب هنا التفضيل، بل مجرد الاختيار، تماماً كقولك: الصحة أحب إلي من المرض.

و قال يدعونني بصيغة الجمع لأن النسوة اللاتي رأينه رغبن فيه أيضاً بدليل الآية ٥٠

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣١٠

«قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ان ربي بكيدهن عليم. قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء» .. و أثر يوسف السجن لأنه على مرارته أحلى عاقبة من لذة الحرام، و مهما اشتدت وطأة السجن فإن الدين أقوى منه.

و تسأل: إذا خير المرء بين الزنا و السجن، و لا مفر له من أحدهما، فهل يجوز له أن يزني؟

الجواب: لا يجوز لأن الخيار وقع بين الزنا المحرم ذاتاً، و بين السجن الذي تقع تبعته على الظالم، لا على المظلوم إلا إذا كان السجن علة تامة لمحرم أشد و أعظم، فيجوز حينئذ أن يزني دفعا لأشد الضررين، و ارتكاباً لأخف المحذورين، و لذا إذا خير بين الزنا و القتل فعليه أن يختار الزنا .. هذا في غير المعصوم، لأن المعصوم له حكم آخر.

(و إلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن و أكن من الجاهلين). لما كثر على يوسف الإغراء و التهديد خاف على



نفسه أن تضعف في جنب الله، ففزع اليه تعالى يطلب المخرج، ويقول: إلهي لقد نزل بي ما لا طاقة لي به الا بمعونتك، و أنت القادر على كشفه، فإن لم تكشفه عني تضعف قوتي، و تقل حيلتي **(فَأَسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ)** كما استجاب له من قبل و صرف عنه كيد اخوته، و ما أخلص عبد لخالقه الا جعل له فرجا و مخرجا: «و كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ - ٤٧ الروم» **(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)** يسمع دعاء من تضرع اليه، و يعلم اخلاص من أخلص له. **(ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَجْنَتِهِ حَتَّى حِينَ)**. ضمير لهم يعود الى العزيز و امرأته و من على رأيهما، و قيل: يعود الى العزيز وحده، و صح بصيغة الجمع لأنه لم يذكر باسمه، و المراد بالآيات الدلائل التي دلت على براءة يوسف و نزاهته، و **(حَتَّى حِينَ)** أي يسجن سجننا مؤقتا، لا مؤبدا.. و لا ذنب له الا الطهر و العفاف، و لو كان خائنا مثلهم لرفعه مكانا عليا.. أبي يوسف ان ينصاع لرغبة المجرمين فعاقبوه كمجرم.. و هكذا في جميع ادوار التاريخ يعاني الحر الكريم إذا ألقى به القدر في بيئة الظلم و الفساد، و لكن الله مع الذين اتقوا

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣١١

و صبروا على الهول في سبيله، لا في سبيل أنفسهم، و يمد للباغي أمدا، ثم تدور عليه دائرة السوء، و يؤيد الله بنصره من آمن و صبر، تماما كما حدث ليوسف مع اخوته و امرأة العزيز، حيث قال له اخوته بعد ان آتاه الله الملك: «تالله لقد آثرك الله علينا و ان كنا لخاطئين». و قالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه و انه لمن الصادقين.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٣٦ الى ٣٨]

وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَ قَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَاتِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨)

الإعراب:

فوق ظرف مكان و العامل فيه احمل، و جملة تأكل صفة للخبز. و هم بالآخرة هم كافرون، هم الأولى مبتدأ، و الثانية تأكيد و كافرون خير و بالآخرة متعلق بالخبر. ما كان لنا (ما) نافية، و لنا خبر كان مقدم، و المصدر من ان نشرك اسم كان و من زائدة اعرابا، و شيء مفعول مطلق. لنشرك. أي شيئا من الشرك.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣١٢

المعنى:

(وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَعْصِرُ خَمْرًا - أي عنباً - وَ قَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ). دخل يوسف الطهر السجن، و بقيت امرأة العزيز الرجس في قصرها طليقة تأمر و تنهى، و لكن يوسف دخل السجن طيب النفس، و هو الذي أحبه و آثره لأن فيه راحة الضمير، و النجاة من المعصية، و الفوز بمرضاة الله، أما امرأة العزيز فهي في سجن من العذاب الأليم، عذاب الضمير و الحرمان و الفضيحة. و دخل مع يوسف (ع) السجن فيمن دخل اثنان من حاشية الملك: ساقيه، و خازن طعامه لتهمة ألصقت بهما، قال الساقى: رأيت فيما يرى النائم اني أعصر خمرا - أي عنباً لأنه يؤول الى الخمر - و قال الخازن: أما أنا فرأيت على رأسي

خبزا يخطفه سرب من الطير، و يذهب به **(نَبْتًا بَتَاوِيلِهِ)** خبرنا بتفسير ما رأينا **(إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)** في سيرتك مع أهل السجن.

(قَالَ لَا يَأْتِيكُمُ طَعَامٌ تُرْزَقَانَهُ إِلَّا نَبَاتِكُمَا بَتَاوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا). ذكر في تفسيره ستة اقوال، و يتلخص أقربها الى ظاهر اللفظ بأن يوسف قال للسائلين:

انا و أنتما محجوبان في هذا المكان لا يعلم احدنا ما ذا يجري في خارجه، و مع هذا فأنا اعلم أي طعام يرسل إليكما، ما هو نوعه، و ما هي الغاية من إرساله قبل أن يرسل.

و تسأل: لقد سألاه عن تعبير ما رأيا فأجابهما بأنه يخبر عن الغيب فيما يأتيهما من طعام، و هذا لا يمت الى السؤال بصلة؟

أجل، ليس هذا تعبيرا للرؤيا، و لكنه تمهيد له، فلقد أراد يوسف ان يغتنم هذه الفرصة ليثبت لأهل السجن انه نبي مرسل من عند الله، و استدلل على نبوته بالإخبار عن الغيب، تماما كما استدلل عيسى (ع) على صدقه بقوله:

«وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ» - ٤٩ آل عمران. و بديهة ان الغرض الأول ليوسف (ع) ان يبث بين السجناء عقيدة التوحيد و الاعتراف باليوم الآخر، كما هو شأن الأنبياء، و يظهر ذلك من أقواله التالية:

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣١٣

(ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي). ذا إشارة الى الاخبار بالغيب و (كما) حرف خطاب للسائلين عن تعبير الرؤيا، و المعنى ان ما أخبركم به من الغيب ليس كهانة و لا سحرا أو عرافة، و إنما هو وحي أو حاه الله إلي كما أوحى الى الأنبياء من آبائي **(إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)**. أي برئت من قوم لا يؤمنون بالله و اليوم الآخر .. و في هذا تعريض - و لكن بلطف و رفق - بالسجناء و غيرهم من المشركين، لتكون دعوته أوقع في نفوسهم، و في التاريخ ان المصريين كانوا يومذاك يعبدون آلهة، منها الشمس، و يسمونها (رع)، و منها عجلهم (ابيس).

(وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ). لقد كان هؤلاء مشهورين مكرمين عند الجميع و بالخصوص ابراهيم الخليل (ع)، و لذلك أضاف يوسف نفسه اليهم نسبا و دينا، قال الرازي:

«لما ادعى يوسف النبوة و تحدى بالمعجزة، و هي علم الغيب قرن به كونه من أهل بيت النبوة، و ان أباه وجدته وجد أبيه كانوا أنبياء، فإن الإنسان متى ادعى حرفة آباءه لم يستبعد ذلك منه، و أيضا ان درجة ابراهيم و إسحاق و يعقوب كانت معروفة عند الناس، فإذا ظهر انه ولدهم عظموه، و كان انقيادهم له أتم، و تأثير كلامه في قلوبهم أكمل».

(ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى النَّاسِ). أي ان اختصاصنا بالنبوة فضل من الله حيث رأنا أكفاء لرسالته، و أيضا فضل على الناس لأنهم بنا اهدوا الى سواء السبيل **(وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)** بل يشركون و يجحدون: و كلما زادوا غنى ازدادوا كفرا و طغيانا.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٣٩ الى ٤٠]

يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرًا مِثْلَ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣١٤

اللغة:

الدين القيم هو الدين المستقيم الذي لا عوج فيه.

الإعراب:

أرباب الهمزة استفهام انكاري. و متفرون صفة. و سميتموها تتعدى إلى مفعولين و الثاني محذوف أي سميتموها آلهة. و أنتم توكيد لضمير الفاعل، و آباؤكم عطف عليه أو على الضمير المتصل. و من سلطان (من) زائدة إعرابا و سلطان مفعول أنزل. و ان الحكم (ان) نافية. و الا تعبدوا (الا) مركبة من كلمتين ان المصدرية و لا النافية، و المصدر المنسب مجرور بالباء المحذوفة، أي أمر بعدم عبادة غيره.

المعنى:

(يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار). المراد بصاحبي السجن الفتيان اللذان دخلا السجن مع يوسف، و سألاه عن تعبير الرويا، و أضافهما الى السجن بالنظر لاقامتهما فيه، مثل أصحاب الجنة و أصحاب النار، و يحتمل أن يكون يوسف أضافهما الى نفسه أي يا صاحبي في السجن، و حذفت (في) توسعا، و الأول أظهر، و مهما يكن فإن يوسف (ع) قد جادلها فيما يعبدان و قومهما من دون الله، و أورد الجدال و الحجاج في صيغة السؤال و الاستفهام لأنه أقرب

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣١٥

الى الطباع من المجابهة بفساد العقيدة .. و قد ذكرنا الدليل على التوحيد في ج ٢ ص ٣٤٤ عند تفسير الآية ٤٨ من سورة النساء.

ثم خطا يوسف (ع) خطوة ثانية في الدعوة الى التوحيد، و نبذ الشرك، و قال: **(ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم و آباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان).** انكم تعبدون مجرد أسماء لا وجود لمعانيها إطلاقا، و كل ما لا وجود له لا أثر له، و تستحيل اقامة الدليل عليه .. فمعبودكم - اذن - خيال في خيال .. و هكذا العالم الحكيم ينتقل من أسلوب الى أسلوب لاقتناع الجاهل، يلوح ثم يصرخ حتى يصل الى ما يتبعه من الإذعان و التسليم لدعوته.

لا حكم الا لله:

(إن الحكم الا لله أمر الا تعبدوا الا إياه). معنى لا تعبدوا الا إياه واضح، أما معنى الحكم لله فيحتاج الى تفسير، و يتلخص بأن حكم الله على قسمين: الأول قضاؤه و قدره، و هذا لا مفر منه للإنسان. الثاني حلال الله و حرامه المعبر عن كل منهما بالحكم الشرعي. و معلوم ان الله تعالى لا يتصل بعباده بلا واسطة، و يحكم بينهم مباشرة في هذه الحياة، و انما يشرع الأحكام و يبلغها لعباده بلسان أنبيائه. و رسله و المراد بالحكم لله المعنى الثاني و انه تعالى هو مصدر التشريع، و ليس الأفراد و لا الجماعات، و لا أية سلطة الا الله وحده لا محلل و لا محرم الا هو، و من حكم بشيء فلا يكون حكمه حقا و عدلا الا إذا كان على وفق ما أوحى الله، و أجمع كلمة تعبر عن ذلك قوله تعالى: «و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون» - ٤٥ المائدة، و في آية ثانية هم الفاسقون، و في ثالثة هم الكافرون، فأى حكم لا يعبر عن ارادة الله و مرضاته فهو كفر و ظلم و فسق، و بتعبير ثان ان حكم الله أشبه بالخارطة يضعها المهندس للبناء، و من يتولى الحكم و يمارسه أشبه بالباني.

و قد استوحينا هذا التفسير من قول الإمام علي (ع)، فإنه لما سمع قول الخوارج: لا حكم الا لله قال: «كلمة حق أريد بها

باطل، نعم لا حكم الا

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣١٦

لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة الا لله .. وانه لا بد للناس من أمير بر، أو فاجر يعمل في أمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر». أي ان حق التشريع لله وحده، وعلى الناس أن يطبقوا ما شرعه الله، والذي يحملهم على هذا هو هذا الأمير، و الخوارج خلطوا بين مصدر الشريعة، و بين من يطبقها و يزاولها، و لم يميزوا بين الاثنين.

(ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ). ذلك اشارة الى حصر التشريع و العبادة بالله، و المعنى ان الدين المستقيم الذي لا عوج فيه هو الذي يخص الله وحده بالتشريع و العبادة، و ليس لأي انسان ان يستعبد الناس، أو يشرع لهم الأحكام و الحلال و الحرام، فالكل حتى الأنبياء عبيد لله يعملون بأمره و نهيه، و معنى هذا ان كل الناس خلقوا اخوة متساوين، و قد منحهم خالقهم حقوقا انسانية أبدية لا تقبل التبدل أو التعديل، و أظهر هذه الحقوق الحياة و الحرية و السعي الى السعادة، و من وقف في طريق حق منها فهو أعدى أعداء الله و دينه و شريعته.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٤١ الى ٤٢]

يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)

تعبير رؤيا صاحبي السجن

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣١٧

اللغة و الإعراب:

بضع من الأعداد، و يطلق على الثلاثة الى العشرة، و نصب على انه ظرف زمان لاضافته الى سنين، و العامل فيه لبث.

المعنى:

بعد ان أدى يوسف واجب الدعوة الى الله تعالى عبر لكل من الساقى و خازن الطعام ما رآه في منامه، فقال للساقى: تنجو من السجن، و تعود الى سابق عهدك ساقيا للملك، و قال للخازن أو للخباز: تصلب و تأكل الطير من رأسك، و قد كان يوسف على ثقة من تعبيره لأنه وحي من الله، و لذا قال لهما: ان هذا الأمر قد بت فيه، و انتهى حكمه.

و قال يوسف للساقى الناجي: إذا رجعت الى قصر الملك فقل له: اني سجت من غير محاكمة أو سؤال، و إذا فحص عن الحقيقة ظهر اني أخذت بغير سبب. و عاد الساقى الى القصر، و نسي في زحمة أعماله في خدمة الملك ان يذكر يوسف، فلبث في السجن بضع سنين .. و في رواية انها سبع، و قيل بل ١٢ و الله أعلم.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٤٣ الى ٤٩]

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رَأْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرَّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا اضْغَاثٌ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧)



ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣١٨

اللغة:

سمان جمع سمين و سمينة. و العجاف ضد السمان، و هو جمع أعجف للذكر و عجفاء للانثى أي هزيل و هزيلة. و عبرت الرويا فسرتها، و قال أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط: المشهور تخفيف الباء و أنكر البعض تشديدها. و الأضغاث جمع ضغث، و هو الحزمة من كل شيء، و قيل: من النبات فقط يختلط فيها الرطب باليابس. و اذكر و اذكر بمعنى واحد، قال الطبرسي في مجمع البيان: الأجود الدال و أصله اذتكار. و بعد أمة أي بعد حين. و الداب العادة و المراد به هنا الدوام على الزرع. و تحصنون أي تحرزون، يقال: أحصنه احصانا إذا جعله في حرز. و يغاث الناس أي يفرج الله عنهم، و يطلق الغيث على المطر و على ما ينبت بسببه. و يعصرون أي يستخرجون العصير مما يعصر كالعنب و الزيتون، و هو كناية عن الخصب.

الإعراب:

للرويا اللام زائدة لتقوية الفعل و بيان المفعول، و مثلها لربهم يرهبون. و أضغاث

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣١٩

خبر لمبتدأ محذوف أي هذه أضغاث. و دابا مصدر وضع موضع الحال أي دائبين. و صاحب الحال و او تزرعون. و مفعول يعصرون محذوف أي ما من شأنه أن يعصر.

الأحلام و نظرية فرويد:

الأحلام ظاهرة نفسية، و قد تناولها بالبحث و التمحيص علماء النفس و كثير غيرهم من كل مذهب، و تكلموا عنها كثيرا، و ما أتوا بضابط كلي يمكن الاعتماد عليه في تفسير الأحلام بشتى أنواعها .. أجل، لقد اهتموا الى المصدر الأول لنوع من الأحلام، و فسروه تفسيراً صحيحاً، و اكتشفوا منه بعض الأمراض العصبية، لأنه انعكاس عنها، و لكن هناك أحلاماً تتكلم بغير لغة الحالم و نفسه و حياته، و عجز العلماء عن تفسيرها.

و حاول «فرويد» أن يفرض التفسير الجنسي على جميع الأحلام، بل و على كل شيء في هذه الحياة أو على أكثر أشتائها .. فالأحلام عنده كلها رموز جنسية، دون استثناء، و الأمراض العصبية سببها كبت الغريزة الجنسية، و حب الولد لوالدته ناشئ عن التفكير فيها و غيرته من أبيه عليها، و كذلك تعشق البنت أباه، و تغار من أمها عليه، بل كذلك جميع الصداقات و الأشواق .. حتى فكرة التدين و الضمير مصدرها الخوف من مضاجعة المحارم .. و على هذه فقس ما سواها

ورد العارفون هذه النظرية بأن الإنسان مسير بالعديد من الغرائز، لا بغريزة الجنس فقط، و ألف «جاسترو» البولندي كتاباً في جزئين رداً على فرويد، و أسماه: الأحلام و الجنس، و ترجمه فوزي الشتوي، و مما جاء فيه ان العلماء درسوا بضعة آلاف من الأحلام لبضع مئات من الناس، فوجدوا أن أقل من ٥٠ بالمائة منها لا يمكن تفسيرها بنظرية فرويد، و ان هذه النظرية تترك كثيراً من الأسئلة بغير إجابة. و قال أديب ذكي معاصر.

«ان نظرية فرويد لا تدين سوى صاحبها، فهو صاحب الخيال الجنسي الذي يرى في كل شيء مستدير عضوا انثويا، و في كل مستطيل عضوا مذكرا .. أما

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٢٠

الانسانية فهي بريئة من هذا الرأي، ان هذه النظرية الضيقة لا يمكن ان تكون صادقة، فالإنسان ليس عبدا للجنس فقط، و إنما هو عبد لأكثر من لذة، لذة الجنس، و لذة الحب، و لذة الصداقة، و لذة الجمال، و لذة المعرفة، و لذة السيطرة، و لذة القوة، و لذة الحرية، و السعادة هي ائتلاف هذه اللذات في حياة منسجمة، و في نظرة رحبة واسعة الأفق».

و الذي نراه ان الأحلام على أنواع:

«منها» ما هو انعكاس لعادات الإنسان و تفكيره، كالفيلسوف يرى انه يناقش أفلاطون و أرسطو، و المسلم يصلي في المسجد، و المسيحي يصلب في الكنيسة و الفلاح يزرع، و الباني يبني، و ما أشبه ذلك. و هذا النوع واضح و لا يختلف فيه اثنان، لأنه يحمل تفسيره معه.

و «منها» ما هو غريب عن حياة الحالم و تفكيره، كرويا الملك البقرات و السنبلات .. و ما هو فلاح، و لا براعي بقر، و جاءت رؤياه إنذارا بما حدث من الجذب بعد الخصب.

و «منها» ما يقع في اليقظة، تماما كما رآه الإنسان في منامه دون زيادة أو نقصان .. و هذا نادر جدا، و لكنه حدث قطعا، و حتى الآن لم يهتد العلم إلى تفسير هذا النوع و النوع الذي قبله، و قد يهتدي اليه في المستقبل القريب أو البعيد .. و فسرها البعض بالصدفة .. و ليس من شك ان الصدفة هي ملجأ العجزة، و قال آخر: انهما نتيجة لحاسة في الإنسان نجعل كنهها .. و هذا أيضا من العجز.

و في سنة ١٩٥٦ رأيت فيما يرى النائم المرحوم أخي الشيخ عبد الكريم، و كان قد مضى على وفاته عشرون سنة، و أخبرني عما سيحدث و عين الوقت، فكان كما قال .. و بعد هذا بسنوات رأيت رؤيا فصدقت، و كانت سوءا كالأولي، فقلت لصديق لي مداعبا: ان رؤيا الشر تصدق، دون رؤيا الخير .. و حين وصلت في التفسير الى أول سورة يوسف قرأت هذه العبارة للرازي: «اعلم ان الحكماء يقولون: ان الرؤيا الرديئة يظهر تفسيرها عن قريب» فتعجبت، و تذكرت قول الشاعر البائس:

فإن أر خيرا في المنام فنازح و ان أر شرا فهو مني مقرب

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٢١

و الخلاصة انه لا يوجد ضابط كلي يمكن الاعتماد عليه في تفسير الأحلام بكاملها لأنها أنواع متضادة متباينة، فمنها

صدي لوساوس النفس و ظروفها، و هذا النوع واضح بوضوح مصدره. و منها ما هو صورة طبق الأصل عن الحادث الذي يقع في اليقظة بعد الحلم، و هذا النوع نجهل سره و مصدره. و منها ما هو رموز و إشارات مسبقة الى الواقع المحسوس قبل وقوعه، كالكواكب التي سجدت ليوسف، و الخبز الذي حمله الفتى المسجون فوق رأسه، و البقرات و السنبلات التي رآها ملك مصر، و هذا كسابقه لا نعرف له سرا و لا مصدرا. أما من قال بأن هذا النوع و الذي قبله بشرى من الله، أو حاسة في الإنسان فقد ادعى لنفسه العلم بالغيب، و لا يرضى أن ينسب الى الجهل، حتى بما حجب الله علمه عن عباده.

(وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ). في ذات يوم أصبح ملك مصر على رؤيا غريبة .. رأى بقرات يأكلهن بقرات مثلهن، و ما حدث مثل هذا قط، و بالخصوص ان المهازيل أكلن السمان، و أيضا رأى سنابل يابسات تلتوي على سنابل خضر في حقل واحد .. و هذا غريب عن المعتاد.

فدعا رجال حاشيته، و كهنة دولته، و قال لهم: **(يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ).** فعجزوا عن التفسير و **(قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ).** المعنى واضح، و لكن للرازي هنا كلاما مفيدا يتلخص بأن الله تعالى جعل رؤيا الملك سببا لخلاص يوسف (ع)، و إذا أراد الله أمرا هيا أسبابه، و قد شاهد الملك ان الضعيف يستولي على القوي، و هذا بعيد عن الفطرة، فأيقن ان الرؤيا تنذر بالشر، و لكنه جهل حقيقته و تفاصيله، فتشوق إلى المعرفة، و جمع المعبرين و سألهم عن تفسير ما رأى، و لكن الله أعماهم عن الحقيقة ليكون ذلك سببا لخلاص يوسف من سجنه .. ثم قال الرازي: ان المعبرين ما نفوا عن أنفسهم العلم بالتعبير، و انما قسموا الرؤيا إلى قسمين:

منتظمة يسهل معرفتها، و مضطربة لا تفسير لها إلا الوهم و الخيال، و قالوا:

ان رؤيا الملك من النوع الذي لا تفسير له، أو لا يعرفون هم له تفسير، و ان المتبحر في علم الرؤيا قد يهتدي إلى تفسيره.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٢٢

(وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ). سبق ان يوسف حين دخل السجن دخل معه فتيان، و ان أحدهما رأى انه يعصر خمرا، و الآخر يحمل فوق رأسه خبزا، فعبّر لهما يوسف ما رآه و أحسن التعبير حيث نجا الأول، و صلب الثاني كما قال .. و هذه الآية تشير الى الذي نجا، و قال له يوسف آنذاك: اذكرني عند ربك، فأنساه الشيطان وصية يوسف، و لما رأى حيرة الملك و اهتمامه بتعبير رؤياه و عجز المعبرين تذكر يوسف، فأخبر الملك عنه و عن صلاحه و علمه بتعبير الرؤيا، و قال: لو أرسلتني إليه أيها الملك لجئتك بالخبر اليقين.

(يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ سَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ). أمر الملك ساقيه أن ينطلق الى الرجل الصالح الذي حدثه عنه، و ان يقص عليه رؤياه، ثم يأتيه بما يسمع منه، فانطلق الساقى الى يوسف، و بطبيعة الحال اعتذر له عن نسيانه، بعد أن لقبه بما هو أهل له من الصدق، ثم نقل له رؤيا الملك بالحرف ليأتي التفسير على وفق النص **(لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ).** أي اخبرني عن التأويل لأنقله عنك الى الملك و حاشيته، فيعلمون بفضلك و مكانتك، فيخرجونك من السجن.

(قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ الْأَقْلِيَامَ مِمَّا تَأْكُلُونَ) قال يوسف للسائل مفسرا رؤيا الملك: تزرعون سبع سنين متوالية، و تكون هذه السنين خصبة طيبة، و هي المشار إليها بالبقرات السمان و السنابل الخضر، كل سنبله و بقرة ترمز الى سنة، ثم نصح لهم يوسف، و قال: كل ما تحصدونه من الزرع ادخروا سنابله، و لا

الاكتفاء بما يسد الحاجة.

(ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ) أسند الأكل إلى السنين، والمراد أهلها، وهذا كثير في كلام العرب، والمعنى ان السنين المخصبة تعقبها سبع سنين مجدبة، يتجهم فيها وجه الأرض، و لا تنبت شيئا، فتأكلون كل ما ادخرتموه فيما مضى، و لا يبقى إلا القليل للبذر **(ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ)**. أي يأتي بعد السبع

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٢٣

الشداد عام خصب يغيث الله فيه الناس من الشدة بالماء، فينبت الزرع، و ينمو الشجر، و يعصر الناس من ثمره خمرا و زيتا و أنواع الدهون و الأشربة .. و تجدر الإشارة الى أنه لم يرد في رؤيا الملك أي رمز الى هذا العام، و انما هو من الغيب الذي لا يطلع عليه إلا الله أو من ارتضى من رسول.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٥٠ الى ٥٣]

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلَّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ وَانَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أBRَى نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)

اللغة:

ما بال النسوة أي ما شأنهن، و مثله ما خطبكن مع الإشعار بأنه شأن عظيم و جدير بأن يخاطب الإنسان فيه صاحبه. و حصص أي تبين و ظهر.

الإعراب:

ما بال النسوة مبتدأ و خبر، و مثله ما خطبكن. و حاش لله مر إعرابه في الآية ٣١ من هذه السورة. و ذلك خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر ذلك. و ليعلم منصوب بأن مضمرة بعد اللام، و المصدر مجرور باللام متعلقا بمحذوف أي أقوله

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٢٤

ليعلم. و الا ما رحم ربي (ما) اسم موصول بمعنى الذي في محل نصب على الاستثناء أي الا نفسا رحمها ربي. و قيل: يجوز أن تكون مصدرية ظرفية أي الا وقت رحمة ربي.

المعنى:

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ) أي بيوسف .. بعد أن عبر يوسف الصديق للرسول رؤيا الملك، و نصح كيف يستعدون لمواجهة السنين الشداد، بعد هذا رجع الرسول الى سيده بالتعبير و النصح، و اكتشف الملك ان وراء قول يوسف علما جما، و إخلاصا صادقا، فأحب ان يقربه اليه لينتفع بعلمه و إخلاصه، و قال: ائتوني به، و اكتفى القرآن الكريم من هذه الحادثة بقول الملك لأن القارى يستحضر منه سائر اللوازم التي لا تنفك عنه.

(فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ) و دعاه الى حضرة الملك **(قَالَ - يوسف - ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)**. المراد بالرب هنا السيد .. رفض يوسف الخروج من السجن، و لم يتهالك على الاستجابة لدعوة الملك - كما يفعل الكثير من المتسمين بسمة الدين - بل لم يقم لها وزنا لأمر:



١- ان المؤمن حقاً لا يرى عظيماً سوى الله: ولا يبالي بشيء في سبيل اظهار الحق و إعلانه، و من أجل هذا رفض الصديق أن يخرج من السجن بالعفو و التفضل، و أصر على إعلان الحق قبل كل شيء، و صمم ان يصبر على السجن و أمه مدى الحياة، أو يخرج منه مرفوع الرأس مبراً من كل بهمة.

٢- أحب يوسف أن يجري التحقيق و يتم في غيبته و دون أن يتدخل هو فيه لأن ذلك أبلغ في نزاهته و براءته، و أدل على عظمته و حلمه و إناته.

٣- ان يوسف واثق من براءته، و مطمئن بأن التحقيق سيكون في مصلحته، و ان عدم الاسراع الى الخروج من السجن ادعى الى ثقة الناس و استجابتهم لرسالته ..

بالإضافة الى انه يقطع الطريق على من يتوسل بالتهمة الى الطعن فيه عند الملك حين يقربه منه، و عند غير الملك حين يدعوه الى الله و الحق.

و رجع الرسول الى الملك و أخبره بأن يوسف لا يخرج من السجن الا بعد التحقيق

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٢٥

في شأن التهمة التي سجن من أجلها، فاهتم الملك، و أحضر النسوة و (**قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَوْتَنِّي يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**) .. هذا اعتراف جازم قاطع لكل شبهة، لأنه من الخصم بالذات .. حاشاه من سوء ..

انه لمن الصادقين .. و هكذا تتجلى الحقائق - و ان طال بها الزمن - و يستسلم لها أهل الضلالة مرغمين، حيث لا مجال للفرار و الإنكار.

(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ). اختلف المفسرون في هذه الآية، فمن قائل انها من كلام يوسف (ع)، و ان المعنى اني طلبت التحقيق مع النسوة ليعلم العزيز اني لم أخنه في زوجته حال غيابه. و من قائل: ان الآية من كلام امرأة العزيز، و نحن مع هذا القائل عملاً بظاهر السياق من اتصال بعض الكلام ببعض، و عليه يكون الضمير في لم أخنه ليوسف، و مرادها بعدم خيانتها انها لم تذكره بسوء مدة غيابه في السجن حتى هذه الساعة، أما إحالتها الذنب عليه حين قالت لزوجها ما قالت فقد كان ذلك بحضور يوسف، لا بغيبه **(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)** بل يفضحهم و يهتك سترهم، و ينصر المؤمنين عليهم، تماماً كما فضح النسوة، و نصر يوسف: **(وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ - ٧٠ الأنبياء)**.

(وَمَا أْبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ). الإنسان حيوان عاقل و متدين، فهو بحيوانيته أو بنفسه الأمارة يميل الى الشهوات و الملذات، لا يبالي بعقل و لا بدين، و هو بدينه و عقله يرغم نفسه على الوقوف عند حدود الشرع و العقل إذا حاولت تجاوزها و الانحراف عنها .. و من أطلق العنان لنفسه تعمل ما تشتهي و تريد فهو حيوان في صورة انسان، بل الحيوان خير منه لأنه غير مسؤول عن شيء، و لذا قال تعالى: **(إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا - ٤٤ - الفرقان)**.

أجل، قد يضعف الإنسان بعض الأحيان أمام نفسه و شهوته، و لكن المؤمن العاقل يعود بعدها الى رشده، و يتوب من هفوته، فيغفر له، و يصفح عنه لأن الله غفور رحيم.

و قوله تعالى: **(إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي)** معناه ان النفس، آية نفس لا تسلم من العيوب الا نفساً عصمها الله من الخطايا و

الذنوب كنفوس الأنبياء والأئمة الأطهار.. والمهم ان لا يصير المذنب على ذنبه و يعرض أبدا عن ربه. قال الإمام علي (ع): أشد الذنوب ما استهان به صاحبه. أي أصر عليه، و لم يستغفر الله منه.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٢٧

الجزء الثالث عشر

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٢٩

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٥٤ الى ٥٧]

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نَصِيبٌ بِرَحْمَتِنَا مِنْ نَشَاءٍ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)

اللغة:

استخلصه أجعله خالصا لنفسه. و المكين من التمكين أي انت عندنا ذو مكانة و منزلة. و يتبوا منها يتخذ منها منزلا.

الإعراب:

فاعل كلمه ضمير مستتر يجوز ان يكون للملك و ليوسف أيضا لأن المعنى يصح على التقديرين. و ضمير قال انك الخ. مستتر يعود الى الملك. و ضمير قال اجعلني الخ. يعود الى يوسف. و مفعول مكنا محذوف أي مكنا الأمر ليوسف، و يجوز أن يكون يوسف هو المفعول و اللام زائدة. و جملة يتبوا حال من يوسف. و حيث ظرف منصوب ببيتوا.

المعنى:

(وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٣٠

أمين). بعد أن شهدت امرأة العزيز و النسوة على أنفسهن، و عرف الناس جميعا ان يوسف منزّه عن الاغراض و العيوب، بعد هذا رضي يوسف بالخروج من السجن، و طلبه الملك ليكون زعيما في مملكته و عونا له على تدبيرها و ادارتها. و لما اجتمع به، و سمع منه وقع حبه و احترامه في قلبه، و قال له فيما قال: أنت محترم عندنا و مؤتمن على كل شيء في الدولة، و ما قال الملك هذا إلا حين أيقن بمقدرته و علمه و حكمته. و قيل ان يوسف كان عمره آنذاك ٣٠ سنة، و في «مجمع البيان» ان يوسف سلم على الملك بالعربية، و لما سأله من أين لك هذا اللسان؟

قال: هو لسان عمي إسماعيل، و في تفسير المنار ان ملك مصر كان في عهد يوسف من ملوك العرب المعروفين بالبراعة «الهكسوس» (١) و قال الطبري ان هذا الملك كان اسمه الوليد بن الريان.

(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ). بعد أن فوض الملك الأمر ليوسف في كل ما يريد و يختار من

المناصب اختار الولاية على خزانة الدولة و اقتصادها (٢)، اختار هذه الولاية بعد أن خيّر، و لم يطلبها ابتداء كي يقال:

كيف طلب الولاية.. و على افتراض انه طلبها ابتداء فلم يطلبها لمصلحته الخاصة، بل للمصالح العام، و ليحفظ



للمستضعفين حقوقهم و بالخصوص في سني القحط و المجاعة .. لقد علم يوسف ان البلاد مقبلة على بلاء و شدة، فإذا لم يكن صاحب الخزانة حفيظا عليها عليما بشئونها ضاعت حقوق الناس بخاصة الفقراء و المساكين .. هذا الى أن المال عصب الأمة و حياتها، فإذا لم يكن زمامه بيد الأكفاء علما و خلقا كان مصير الأمة الى الهلاك و الدمار، حتى في سني الخصب و الرخاء.

أما إذا كانت مقادير الأمة بيد الأكفاء و الأماناء فإنهم يقودونها الى خيرها و صلاحها دنيا و آخرة، و قد نقل كثيرون ان يوسف حين تولى أمر الخزانة، و رأى الناس من عدله و حسن تدبيره ما صان لكل ذي حق حقه آمنوا برسالته،

(١). قرأت في جريدة «اخبار اليوم» المصرية تاريخ ٢٥-١-١٩٦٩ ان بعثة جامعة فيينا المكونة من ٦ من علماء الآثار أعلنت ان الهكسوس كانوا عربا.

(٢). في مصر يسمون وزير المالية بوزير الخزانة: و غير بعيد ان يكون مصدر التسمية قول يوسف: «اجعلني على خزائن الأرض».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٣١

حتى الملك آمن و شهد ان لا اله الا الله و ان يوسف رسول الله، قال إسماعيل حقي في «روح البيان»: «قال مجاهد: أسلم الملك على يد يوسف، و جمع كثير من الناس»، و عقب صاحب «تفسير البيان» على قول مجاهد بهذه الكلمة: «إذا كان الإحسان الى يوسف و الإكرام له سببا للإيمان و العرفان فما ظنك بمن أسى رسول الله (ص) و ذب عنه ما دام حيا و هو عمه أبو طالب، فالأصح انه ممن أحياه الله للإيمان، كما سبق في المجلد الأول». و سبق الكلام عن اسلام أبي طالب عند تفسير الآية ١١٣ من سورة التوبة.

(إني حفيظٌ عليهم). أحفظ المال من الإسراف و الضياع، و أعلم المستحقين له من غيرهم، و أضع كل شيء في موضعه. و عن الإمام جعفر الصادق انه قال: يجوز للرجل أن يزكي نفسه إذا اضطر الى ذلك، فلقد قال يوسف: «اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظٌ عليهم».

و في بعض التفاسير: «لم يقل يوسف للملك: عشت يا مولاي، أنا عبدك الخاضع، كما يقول المتملقون للطواغيت، و انما طالب بما يعتقد انه قادر على النهوض به من اعباء الأزمات، و صيانة الأرواح من الموت، و البلاد من الخراب .. فيا ليت المتملقين للطغاة يقرءون القرآن ليعرفوا ان الكرامة و الاباء و الاعتزاز يدر من الربح اضعاف ما يدر التمرغ و التزلف و الانحناء». قال الرازي: روي ان الملك قال ليوسف: «أحب ان أشركك في كل شيء الا في أهلي و الأكل معي. فقال له يوسف: لا أكل معك و أنا يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم الخليل».

(و كذلك مكثا ليوسف في الأرض يتبوا منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء و لا نضيع أجر المحسنين). صبر يوسف على القائه في البئر، و على بيعه في سوق العبيد، و خدمته في بيت العزيز، و على التهمة بالخيانة، و السجن، و الأسر، صبر على ذلك و أكثر من ذلك، صبر و احتسب و توكل على الله .. فما ذا كانت النتيجة؟ لقد خرج من السجن خروج الأبطال من معارك النصر .. خرج ليحكم في الأرض مطلق اليد مسموع الكلمة، نافذ

السلطان .. و هكذا يوفى الصابرون

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٣٢

أجرهم في الدنيا **(وَلَا جُرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)**. وأجر الآخرة الجنة التي «لا ينقطع نعيمها، ولا يظعن مقيمها، ولا يهرم خالدها، ولا يبأس ساكنها» كما قال الإمام علي (ع) .. وأين من هذا النعيم الدائم الذي لا يشوبه بؤس ولا هرم ذلك الملك الزائل المشوب بالأتعاب والآلام؟. وفي بعض الروايات ان امرأة العزيز أتت يوسف في السنين العجاف تطلب منه قوتا، وقد مات زوجها ورمها الدهر بالخطوب، ونال منها ما نال، وان يوسف لما رآها قال لها:

ما الذي أوصلك الى ما أرى؟. فقالت له: سبحان من جعل الملوك بمعصيته عبدا، وجعل العبيد بطاعته ملوكا.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٥٨ الى ٦٢]

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَ لَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنَرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)

اللغة:

منكرون أي لم يعرفوه. ويختلف معنى الجهاز باختلاف مورده من جهاز العروس الى جهاز الميت، والمراد به هنا الطعام الذي جاءوا من أجله. وخير

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٣٣

المنزليين أي للضيوف. وقال لفتيانه أي لخدمته. والرحال جمع رحل، وهو ما يوضع على ظهر الدابة كالسرج، والمراد به هنا أوعيتهم التي توضع فوق السرج ونحوه. وانقلبوا رجوعا.

الإعراب:

ألا ترون (ألا) أداة تنبيه. ولا تقربون أصلها ولا تقربوني، وحذفت الياء للتخفيف.

المعنى:

(وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ). امتد القحط الى البلاد المجاورة لمصر، ومنها فلسطين أرض كنعان، حيث يقيم نبي الله يعقوب، وكان قد شاع ان عزيز مصر قد أعد للجوع عدته، وانه يوزع الحنطة بالقسط بين الناس، لا فرق عنده بين شعب وشعب، وكان قد نزل بيت يعقوب من العوز ما نزل بغيره، فأمر بنيه ان يتجهزوا، ويذهبوا الى مصر يشترون الطعام، فذهبوا، وهم عشرة، ولما وصلوا الى مصر دخلوا على يوسف، وهو في مجلس الولاية، لأنه كان يشرف على أمر الميرة بنفسه، فعرفهم وما عرفوه.

(وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ). بعد ان أعد لهم كل ما جاءوا من أجله، وما يحتاجون اليه في سفرهم **(قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ)**. قال أهل التفاسير:

ان يوسف أكرم وفادة اخوته، وأحسن ضيافتهم، فاطمانوا اليه، وحدثوه عن حياتهم وعن أبيهم، وان لهم أخا من أبيهم أصغر منهم، وبعد هذا قال لهم يوسف: ائتوني بهذا الأخ الأصغر، ولا شيء في الآية ولا في غيرها يدل على انهم

حدثوه عن أبيهم وأخيهم، أما إكرامه لهم فتدل عليه قرينة الحال وقوله:
(الْأَتْرُونَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ). فإذا جئتموني بأخيكم أوفي الكيل له أيضا، وأكرمه كما أكرمتكم
(فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ).

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٣٤

المعنى واضح، وبالمناسبة نشير الى أن الفقهاء أجمعوا على أن لكل من البائع من والمشتري أن يشترط لنفسه ما يشاء
على أن لا يحلل شرطه حراما، ولا يحرم حلالا، و شرط يوسف على اخوته من هذا النوع.
(قَالُوا سَتَرْنَا بِهٖ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ). انهم يعلمون بأن أباهم يظن بأخيهم، ولا ياتمنهم عليه بعد فعلتهم
بيوسف .. ولذا قالوا سنراود أي نجتهد و نتلطف لاقناع أبيه رغم صعوبة المطلب و مناله **(وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا
بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ)**.

أمر يوسف خدمه أن يدسوا بضاعة اخوته التي اشتروا بها الطعام، يدسوها في أمتعتهم من حيث لا يشعرون.
(لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ). هذا تعليل لإرجاع الثمن الى اخوته، و ان القصد منه
ترغيبهم في العودة اليه ثانية، فإنهم إذا فتحوا رحالهم و وجدوا فيها بضاعتهم، بعثهم ذلك الى الرجوع طمعا في جوده و
كرمه ..

و غير بعيد ان من مقاصد يوسف أن يطمنن أبوه، و لا يتقل عليه إرسال أخيه له.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٦٣ الى ٦٦]

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ أَمْنَكُمُ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا
أَمْنَكُمُ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ
قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ
أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُتَوَّنَ مَوْتَقًا مِنَ اللَّهِ لِتَأْتِنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يَحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا اتَّوَهُ مَوْتَقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكَيْلٌ (٦٦)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٣٥

اللغة:

المراد بالمتاع هنا وعاء الطعام. و نمير أي نجلب الميرة بكسر الميم، و هي الطعام. و المراد بكيل البعير حملة. و موقا أي
عهدا. و ان يحاط بكم أي ان تغلبوا على أمركم.

الإعراب:

نكتل مجزوم جوابا لأرسل. و حافظا تمييز، و يجوز في غير القرآن الجر بالاضافة فتقول: الله خير حافظ، و نقل الطبرسي
عن الزجاج ان حافظا يجوز أن يكون حالا، و هذا خطأ حيث يصير المعنى ان الله ليس بخير الا إذا كان حافظا .. تعالى
الله .. ما نبغي (ما) استفهام في محل نصب مفعولا مقدا لنبغي.

و توتون منصوب بأن بعد حتى، و أصله توتوني بالياء و حذف تخفيفا. و المصدر من أن يحاط منصوب على الاستثناء
أي حال الاحاطة بكم.

المعنى:

(فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلَ) في المستقبل، يشيرون بذلك الى ما قاله يوسف لهم: «فإن لم تأتونني به فلا كيل لكم عندي ..». ثم قالوا لأبيهم: **(فَأَرْسَلْنَا مَعَنَا آخَانًا نَكَتِلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)** و عدوه بحفظه و صيانته كيلا يظن به عليهم **(قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنَ تَكُمُ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ)** الذي فعلتم به ما فعلتم .. ثم انصرف عنهم، و التجأ الى الله، و قال: **(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)** فأننا اعتمد في صيانة ولدي على حفظ الله، لا حفظكم، و هو يرحم ضعفي و شيخوختي. و قيل: ان اسم ولده الأصغر الذي طلبه يوسف كان بنيامين. **(وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ)** فأسرعوا الى أبيهم مسرورين و **(قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي)** أي ما ذا نطلب من عزيز مصر؟. و بأي

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٣٦

شيء نعتذر له إذا لم نأته بأخينا، و قد أكرمنا بما ترى من رد الثمن؟. **(هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا)** قيل: كانت نعلا و جلودا، و قال بعض المفسرين الجدد:

انهم وجدوا بضاعتهم و لم يجدوا قمحا، و ان يوسف لم يعطهم شيئا ليضطرهم الى العودة بأخيهم .. و هذا خطأ لأنه يتنافى مع ظاهر القرآن، و هو قوله: **(أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)** بالاضافة الى ان منع الطعام عن الأهل و الأقربين مع شدة حاجتهم اليه قسوة و لوؤم، و يوسف (ع) أجل و أعظم، أما قولهم: منع عنا الكيل فالمراد به منع ثانية و في المستقبل كما أشرنا.

(وَنَمِيرُ أَهْلَنَا) نأتيهم بالميرة، و هي الطعام **(وَ نَحْفَظُ آخَانًا)** من كل مكروه **(وَ نَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ)** لأن يوسف كان يعطي للرجل حمل بعير واحد اقتصادا في الطعام كي ينال منه الجميع، فإذا صحبوا أخاهم معهم ازدادوا حملا من الطعام **(ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ)** أي ان زيادة الحمل ميسرة مع وجود أخينا، أما بدونه فلا لأن العزيز لا يبيع للرجل إلا حملا واحدا في هذه الأزمة المجدية ..

و رأى يعقوب ان الحاجة ماسة الى الطعام، لأن ما جاءوا به من مصر أوشك على النفاد، فاستسلم لضغط الحاجة، لا لضغط ابنائه، بالاضافة الى ثقته بالعزيز بعد ان سمع الكثير عنه، و رأى من صنعه مع اولاده. **(قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتِنَنِي بِهِ إِلَّا إِن يَحَاطَبِكُمْ)**. اذن لهم بأخيهم بنيامين على ان يعطوه عهدا أكيدا ان يرجعوه اليه سليما معافى إلا ان ينزل بهم ما لم يكن في الحسبان **(فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)**. فأعطوه العهد الذي أراد، و أكدوا الايمان بأنهم يفدونهم بالأرواح، و عندها قال: الله وحده هو الشاهد على عهدكم هذا، فان وفيتم جازاكم أحسن الجزاء، و ان غدرتم كافاكم بأشد العقوبات.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٦٧ الى ٦٨]

و قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَ ادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَ مَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) و لَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٣٧

الإعراب:



من شيء (من) زائدة اعرابا و شيء مفعول مطلق لأغني. و فاعل يغني عنهم ضمير مستتر يعود الى التفريق المفهوم من قوله: أبواب متفرقة. و الا حاجة مفعول من أجله ليغني، و قيل: نصبت حاجة على الاستثناء المنقطع، لأن المعنى لكن حاجة.

المعنى:

(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ). بعد أن أعطوا أباهم الميثاق المؤكد أذن لهم بصحبة أخيهم، و أوصاهم بوصيته هذه، و يظهر منها انه قد كان للمدينة أبواب، لا باب واحد، و في بعض التفاسير انها كانت أربعة. و اختلف المفسرون في الغرض من وصية يعقوب أبناءه ان يدخلوا من أبواب متفرقة، و ما أتى واحد منهم بما تركن اليه النفس .. و قد يكون الغرض انهم ان دخلوا مجتمعين، و هم أحد عشر رجلا ترامت نحوهم الأنظار، و كثرت التساؤلات و الإشارات، أو ان الغرض ان يعرفوا أخبار المدينة، و يطلعوا على أحوالها لعلهم يقفون على ما يومئ الى يوسف و أخباره، و مهما يكن فنحن غير مكلفين بالبحث عن السبب ما دامت الآية لم تشر اليه .. و في تفسير «البحر المحيط» ان يعقوب أمر بنيه ان يبلغوا تحياته لعزیز مصر، و يقولوا له: ان

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٣٨

أبانا يصلي عليك، و يدعوك، و يشكر صنيعك معنا، و ان يوسف بكى حين سمع هذه الرسالة .. و ليس هذا ببعيد عن الموضوع و طبيعته.

(وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ). عند تفسير الآية ٤٠ من هذه السورة، فقرة «لا حكم الا لله» بينا ان حكمه تعالى يطلق على حلاله و حرامه المعبر عن كل منهما بالحكم الشرعي، و أيضا يطلق على قضاءه و قدره الذي لا مفر منه للإنسان، و سياق الآية يدل ان هذا هو المراد بحكم الله هنا، و عليه يكون المعنى اني حريص عليكم، ناصح لكم، و لكن حرصي و نصحي لا يغني عن قضاء الله و قدره .. و غرضه من ذلك ان يبين لابنائه ان على الإنسان ان لا يعتمد على العمل وحده، و لا على الايمان وحده، بل عليه ان يعمل و يجتهد متوكلا على الله، و معتقدا بأنه هو الذي يمدد و يعينه، و لذا قال: **(عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)** أي انا مؤمن بالله متوكل عليه، لا على غيره، و على كل من آمن بالله ان يكون كذلك.

(وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ) من الأبواب المتفرقة **(مَا كَانَ يُعْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)**. اسم كان ضمير مستتر يعود الى الدخول المستفاد من قوله: **(وَلَمَّا دَخَلُوا)** و المعنى ان اولاد يعقوب دخلوا المدينة من أبواب متفرقة امتثالا لأمر و الدهم، و لكن دخولهم لم يجد نفعا، و لم يرد بلاء كما قال يعقوب:

(وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)، حيث اتهموا بالسرقة، و أخذ منهم بنيامين، و رجعوا الى أبيهم منكسرين كما يأتي. **(إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا)**. اختلف المفسرون في تحديد هذه الحاجة التي قضاها الله ليعقوب، فمن قائل: ان لا يصاب اولاده بالعين عند دخولهم الى مصر. و قائل: ان لا ينالهم العزيز بسوء الخ .. و الذي نراه - استنادا الى طبيعة الحال، و الى الآيات الدالة على حرصه و لهفته على يوسف و أخيه - ان الحاجة الأولى و الأخيرة ليعقوب من هذه الحياة كانت سلامة يوسف و أخيه، و اجتماعه بهما قرير العين، و قد أتم الله له ما أراد على أحسن حال.

(وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ). ضمير انه و علمناه يعودان الى يعقوب. و هو نبي، و كل نبي يؤدبه الله بأدابه، و يعلمه من لدنه علما، و من تأدب يعقوب

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٣٩

بآداب الله صبره على البلاء، و توكله على الله، و عدم يأسه من رحمته، و من علمه مما علمه الله إيمانه بأن فوق تدبير العباد لله تدبيراً (و لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ان الحكم لله، و ان تدبيرهم من غير عناية الله و توفيقه لا يجديهم نفعا و لا يدفع عنهم ضرا.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٦٩ الى ٧٦]

و لَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذِنَ مَوْذَنٌ لَهَا الْعَيْرَ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَ لِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣)

قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)

اللغة:

آوى إليه أخاه ضمه إليه، و لا تبتئس أي لا تحزن مأخوذ من البؤس. و السقاية لغة

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٤٠

و عاء يسقى به، و المراد بها هنا الصواع بدليل قوله: نفقد صواع الملك.

و الصواع و الصاع بمعنى واحد، و هو المكيال. و العير الإبل. و زعيم كفيل.

الإعراب:

تالله التاء للقسمة مثل الواو، و لكنها تختص باسم الله، فلا يقال تالرحمن و تالقرآن. و جزاؤه مبتدأ، و من وجد خبر أي جزاؤه استبعاد من وجد في رحله.

و المصدر من ان يشاء مجرور بالباء المحذوفة أي الا بمشيئة الله. و درجات مجرورة بالياء محذوفة.

المعنى:

(و لَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). ذكر أهل التفاسير، و

منهم الطبري و الرازي و الطبرسي و أبو حيان الأندلسي، ذكروا في شرح هذه الآية تفصيلات لا دليل عليها من القرآن، و لا هي من خصائص الواقعة التي لا تنفك عنها، و لكنها تلائمها و تناسبها، و من أجل هذا نلخص أقوالهم بأن اخوة يوسف لما وصلوا الى مصر دعاهم الى طعامه، و اجلسهم مثنى مثنى لغاية ارادها، و هي ان يبقى اخوه بنيامين وحيدا ليجلسه معه على مائدته، تماما كما أخى الرسول الأعظم (ص) بين أصحابه مثنى مثنى، و أبقى عليا لنفسه، و بعد الطعام أنزل يوسف كل اثنين من اخوته في حجرة، و بات اخوه بنيامين معه في حجرته، و عند ما اختلى به قال له: أ تحب ان أكون أخاك؟. فأجاب: و من يجد أخا مثلك؟. و لكن لم يلدك يعقوب، و لا راحيل، و راحيل هي أم يوسف و بنيامين، فعانقه و قال: أجل، لقد ولدني يعقوب و راحيل، فانا أخوك، و لا تحزن بما كان من إخوتك معي و معك .. وفرح بنيامين للمفاجأة السارة، و حمد الله.

(فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّفَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ). أراد يوسف أن يفصل بنيامين عن اخوته، و يبقيه عنده،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٤١

و لم يكن ذلك ممكناً إلا بمبرر، و كان من شريعة آل يعقوب استرقاق السارق، ف دس غلمان يوسف بأمر منه المكيال في رحل أخيه بنيامين، ثم نادى المنادي في أولاد يعقوب: يا أصحاب العير انكم سارقون، فلا ترحلوا حتى ننظر في أمركم. فدهش أولاد يعقوب لهذه المفاجأة العنيفة **(قَالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ).**

قالوا هذا وهم على يقين من براءتهم .. و هذه هي المرة الأولى التي يسمعون فيها مثل هذه التهمة. **(قَالُوا-** اي غلمان يوسف - **نَفَقْدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ وَ لِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ).** و هذا الضامن هو الذي قال: أيتها العير انكم لسارقون على عهدة المفسرين، و ضمن بشرط ان يرجع السارق المكيال من تلقاء نفسه، و هذه الآية تدخل في بابين من أبواب الفقه: الجعالة و الضمان، و الجعالة هي الالتزام بمال معين لقاء عمل معين لأي عامل كان كقولك: من فعل كذا فله كيت. و الضمان هو التعهد بالوفاء كقول المنادي: و أبا به زعيم أي ضامن للوفاء بحمل البعير من القمح، و في الحديث: «الزعيم غارم».

(قَالُوا- أي أولاد يعقوب - **تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ).** ناقشوا و جادلوا و أقاموا الدليل على براءتهم و نزاهتهم، و قالوا فيما قالوا: كيف تتهموننا بالسرقة، و قد علمتم من نسبنا و سيرتنا في السفارة الأولى و الثانية أننا لم نأت إلى هذا البلد للخيانة و الفساد، و انما لنشتري الطعام لأهلنا .. و في كثير من التفاسير ان أولاد يعقوب لما وجدوا بضاعتهم في رحلهم بعد عودتهم إلى أهلهم في السفارة الأولى ظنوا انها وضعت فيه سهواً، فلم يستحلوها، بل حملوها من بلدهم إلى مصر و ارجعوها إلى العزيز، و اشتهر ذلك عنهم، حتى عرفوا بالأمانة و الصلاح .. و هذا الذي ذكره المفسرون غير بعيد، بل إليه يومي قول أولاد يعقوب: **(تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ).**

و تسأل كيف استحل يوسف ان يدس المكيال في وعاء أخيه، و يوجه التهمة لإخوته، مع علمه ببراءتهم؟ الجواب: أولاً ان هذه واقعة خاصة، و لها ظروفها و مبرراتها الخاصة، فلا يجوز القياس عليها، و لا النقض بها .. ثانياً: ان المقصود الأول بتهمة السرقة هو بنيامين أخو يوسف لأمه و أبيه، و قد جرى ذلك برضا منه، و الاتفاق معه

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٤٢

لحكمة اقتضت ذلك، و هي في نفس الوقت لا تخالف أصلاً من أصول الشريعة، كتحليل الحرام، أو تحريم الحلال .. هذا، إلى ان احتيال أولاد يعقوب على أبيهم لانتزاع ولده يوسف لأمه و أبيه، و الغدر به، و إلقاءه في الجب بقصد القتل في أشنع صورة، ان هذا سرقة و زيادة.

سؤال ثان: كيف استباح يوسف أن يحول بين أخيه و أبيه، و يزيده كرباً على كربته؟

الجواب: ان كل ما فعله يوسف كان لمصلحة أخيه و أبيه، و هو على يقين بأن أباه يقره، بل و يشكره عليه متى اطلع على الحقيقة .. و قد حدث ذلك بالفعل.

و بديهية ان الأمور تقاس بعواقبها لا بأسلوبها، و في سائر الأحوال فإن الأنبياء لا يتهمون في جانب الحق.

(قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَادِبِينَ). ضمير قالوا يعود إلى غلمان يوسف، و ضمير جزاؤه إلى السارق، و الخطاب في

كنتم لأولاد يعقوب، و الغرض من هذا السؤال انتزاع الاعتراف منهم بأن السارق يؤخذ عبداً أو أسيراً جزاء على فعله .. ليكون هذا الاعتراف حجة عليهم إذا أخذ يوسف أخاه، و ضمه اليه.

(قَالُوا جَزَاؤُهُ مِنْ وَجْدٍ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ). فهو جزاؤه زيادة في الإيضاح، تماماً كما

تقول: جزاء القاتل القتل فهو جزاؤه .. أجاب اخوة يوسف: من وجدتم الصاع في وعائه فخذوه أسيراً او عبداً، و هذا هو شرعنا في عقوبة السارقين، و نحن على يقين من براءتنا، و طهارة اعرافنا.

(فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ). بدأ المفتش بأوعيتهم تغطية للحيلة، حتى إذا انتهى

الى وعاء بنيامين استخرج المكيال منه، و أشهره في وجوههم. و صعق أبناء يعقوب لهذه المفاجأة العنيفة .. و لكن أين هذه مما قاساه يوسف في ظلمات الجب وحيدا فريداً؟.

(كَذَلِكَ كَدْنَا لِيُوسُفَ). اي أوحينا اليه بهذا التدبير ليقول اخوته من تلقائهم: ان للعزيز ان يأخذ أخاهم أسيراً او عبداً، و

سمى هذا كيدا لأن ظاهره غير واقعه، و جاز شرعا لأنه لا يحلل حراما، و لا يحرم حلالا. **(مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ)** المراد بالملك ملك مصر، و بدينه شرعه و قضاؤه، و المعنى لولا هذا

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٤٣

التدبير لتعذر على يوسف ان يضم أخاه اليه. ذلك بأن من شرع ملك مصر و قضاؤه ان لا يعاقب السارق بالأسر او الاسترقاق، بل بعقوبة أخرى كالسجن أو الضرب و يوسف لا يريد المكروه لأخيه، فأوحى الله اليه بهذا التدبير و هو المقصود بقوله تعالى: **(إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)**.

و الخلاصة ان الحكمة اقتضت ان لا يقول يوسف: هذا أخي، و لا ان يأخذه بغير مبرر، و لو ظاهرا، و كان من شريعة آل يعقوب أن يسترق السارق، و من شريعة الملك و أهل مصر ان يسجن أو يضرب، فاتخذ يوسف هذا التدبير الذي أوحاه الله اليه ليلزم اخوته بما ألزموا به أنفسهم. **(نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ)** بالعلم و النبوة، كما رفعنا يوسف على اخوته. **(وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)** حتى ينتهي الى العلي الأعلى. و فيه إيحاء الى ان اخوة يوسف كانوا علماء، و لكن يوسف اعلم و أكمل.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٧٧ الى ٨٠]

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلِ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يَبْدُهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لظَالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتِيسَاوَا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلِ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذُنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٤٤

اللغة:

استيساوا و يسوا بمعنى واحد. و خلصوا انفردوا عن الناس. و نجيا اي متناجين متشاورين. و موثقا اي عهدا. و فرطتم قصرتم. فلن أبرح لن أفارق.

الإعراب:

ضمير أسرها يعود الى مقالتهم انه سرق. و مكانا تمييز. و أبا اسم ان و شيخا كبيرا صفة، و له خبر ان. و مكانه ظرف منصوب بخذ. و معاذ الله منصوب على المصدرية، و المصدر من ان نأخذ مجرور بمن محذوفة، و المصدر المجرور متعلق بمعاذ الله. و إذا فيها معنى الجزاء اي ان أخذنا غيره فنحن ظالمون. و من قبل متعلق بفطرتهم و ما في (ما فَرَطْتُمْ) زائدة اعرابا. و يأذن مضارع منصوب بأن بعد حتى. أو يحكم عطف على يأذن.

المعنى:

(قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ). ضمير قالوا يعود الى اخوة يوسف، و ضمير يسرق الى أخيه بنيامين، أما المقصود بأخ له فهو يوسف بالذات .. و كل ما دلت عليه الآية ان اخوة يوسف ألقوا تهمة السرقة به، و لا اشارة فيها و لا في غيرها من الآيات الى ان يوسف سرق في طفولته بيضة أو دجاجة أو صنما لجده أبي امه أو منطقة لعتمته أو غير ذلك .. و لكن القرآن سجل صراحة الكذب على اخوة يوسف في قولهم: أكله الذئب، بالاضافة الى حقدهم الذي دفع بهم الى فعل ما فعلوا .. و على هذا يسوغ لنا ان نقول: انهم كانوا كاذبين في نسبة السرقة الى يوسف حين طفولته، و انها من عندياتهم، و قولنا هذا و ان كان مجرد استنتاج فإن فيه شيئا من المنطق، أو هو احتمال غير بعيد- على الأقل- . و أخذ المفسرون بقول اخوة يوسف أخذ المسلمات، حتى كان الكذب مستحيل

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٤٥

في حقهم، و راحوا يبحثون عن الشيء الذي سرقه يوسف، فمن قائل: انه بيضة سرقها و أعطها لجائع، و قائل: بل دجاجة، و قال ثالث: سرق صنما لجده أبي امه و كسره، و ذهب رابع الى ان عتمته بنت اسحق كانت تحضنه صغيرا، و لما شب أراد أبوه ان ينتزعه منها، فاتهمته بسرقة منطقة أبيها اسحق- و هي ما يشد به الوسط- ليقى عندها عبدا، لأن عقوبة السارق كانت الاستعباد، و على هذا اكثر المفسرين، و غريب ان لا يتنبه واحد منهم الى ان حكم الأطفال في جميع الشرائع غير حكم الكبار .. و أغرب منه قول بعض الصوفيين: ان اولاد يعقوب أرادوا بتهمة السرقة ان يوسف سرق منهم قلب أبيهم.

(فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ).

و لقد أمر على اللئيم يسبني فأعف ثم أقول لا يعنيني

(قال أنتم شر مكانا)

. قال هذا في سره بدليل قوله تعالى: «وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ»

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) من نسبة السرقة إلي و الي أخي، و انها محض افتراء.

(قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ). بعد ان أصبحوا تجاه الأمر

الواقع، و ان العدل عندهم يقضي باسترقاق أخيهم بنيامين التجاؤا الى التماس الرحمة بالعفو والصفح، او أخذ الفداء و البدل، و ان يختار العزيز واحدا منهم، و هم عشرة بين يديه، طلبوا هذا و الحوا في الطلب، و تشفعوا اليه ببره و صلاحه، و بشيخوخة أبيهم، و عظيم منزلته و قدرته، و بضعفه و شغفه بولده بنيامين، فعلوا هذا و أكثر منه لا حبا بأخيهم، بل تخلصا من أبيهم و مسؤولية العهد الذي أخذه عليهم.

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لظَالِمُونَ). رفض يوسف طلبهم و رجاءهم، و أصر على أخذ أخيه لأمر أراد الله ان يتمه بعد الامتحان و البلوى .. و تجدر الاشارة الى ان يوسف عبر أدق تعبير و أحكمه عن براءة أخيه من السرقة في قوله: «من وجدنا متاعنا عنده» حيث فهم منه اخوة يوسف من سرق متاعنا، و المقصود منه من استخرجنا متاعنا من وعائه، و الفرق بعيد بينهما.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٤٦

(فَلَمَّا اسْتِيسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا). بعد ان يئس اولاد يعقوب من تخليص أخيهم اعتزلوا الناس يتشاورون فيما يعتذرون لأبيهم **(قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ)** قال بعض المفسرين: المراد كبيرهم عقلا، لا سنا. و قال آخرون: بل سنا و عقلا، و هذا هو المتبادر الى الأذهان، و مهما يكن فان هذا الكبير قال لإخوته: ان أباكم قد أخذ عليكم عهدا، و استحللتم ان تأتوه بأخيكم، فما ذا تقولون له إذا ابتم اليه من دونه؟ **(وَمِنْ قَبْلِ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ)** يشير الى الفائهم إياه في الجب، و ما قاساه أبوهم نتيجة لذلك.

(فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكَمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ).

قرر كبيرهم ان يبقى في جوار أخيه حياء و خجلا من أبيه، و ان لا يبرح الأرض التي فيها بنيامين الا بإذن من أبيه، أو بفرج من الله بأي نحو شاء، و لو بالموت.

و ما طال الأمد، حتى جاء الفرج، و انكشف الكرب عن الجميع، و يأتي التفصيل.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٨١ الى ٨٧]

ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَ مَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَ مَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَ سئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَ الْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَ تَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنُوا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِي إِدْرِيصَ فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٤٧

اللغة:

سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَي زينت. و ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ كناية عن كثرة البكاء، و قيل: أصاب عينيه غشاوة بيضاء غطت على البصر. و الكَظِيمُ تجرع الغيظ و إمساكه في القلب. و الحَرَضُ المشرف على الهلاك، و هو لا يجمع و لا يثنى لأنه مصدر. و بث الخبر أظهره و أذاعه، و المراد بالبث هنا الهم الذي لا يقدر صاحبه على كتمانها فيبثها. و التحسس طلب الشيء

بالحواس كالسمع والبصر.

الإعراب:

و اسأل القرية أي أهل القرية، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.
والعير أي وأسأل أهل العير. وصبر خبر لمبتدأ محذوف، وجميل صفة لصبر أي فأمرى صبر جميل. وعسى الله لفظ الجلالة فاعل عسى، والمصدر من أن يأتي مجرور بالباء المحذوفة أي عسى الله بأن يأتي، قال ابن الناظم في «شرح الالفية»: «و الحق أن أفعال المقاربة ملحقة بكان إذا لم يقترن الفعل بعدها بأن، أما إذا اقترن بها فلا». وجميعاً حال. ويا أسفا أصلها يا أسفي، ثم أبدلت الياء ألفاً، والأسف هنا منادى أي احضر أيها الأسف. وقيل: يجوز أن تكون الألف في يا أسفا ألف الندبة. و تفتأ أي لا تفتأ، وحذفت (لا) للعلم بها. وجملة تذكر خبر تفتأ. وتكون منصوب بأن بعد حتى، أو تكون عطف على تكون الأولى.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٤٨

المعنى:

(ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ). هذا قول كبيرهم، فهو يوصي اخوته أن لا يقولوا لأبيهم إلا الحق، وذلك بأن يخبروه بأنهم رأوا غلمان العزيز يستخرجون مكيال الملك من وعاء بنيامين، وأن العزيز أصر على أخذه.. هذا ما شاهدناه، والله أعلم بما وراء ذلك، ولو علمنا الغيب ما سألناك أن تسمح لنا به، ولا أعطيناك العهد بأن نرجعه إليك، وقد بذلنا المجهود، واعدنا إلى الله واليك.
(وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا) أَي اسأَلْ أَهْلَ مِصْرَ، فَقَدْ اشْتَهَرَ فِيهِمْ أَمْرُ هَذِهِ السَّرِقَةِ (وَالْعَيْرِ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا) وَاسأَلْ أَيْضًا الْقَافِلَةَ الَّتِي جِئْنَا مَعَهَا مِنْ مِصْرَ، فَقَدْ رَأَتْ مَا رَأَيْنَا، وَهِيَ إِلَى جَوَارِكِ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ (وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ، وَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ يَتَكَلَّمُونَ بِثِقَةٍ وَجَرَأَةٍ لِأَنَّهُمْ عَلَى يَقِينٍ مِنْ صِدْقِهِمْ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ مَوْقِفِهِمُ الْأَوَّلِ مَعَ أَبِيهِمْ حِينَ أَتَوْهُ بِدَمِ كَذْبٍ عَلَى قَمِيصِ يَوْسُفَ.

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا). لما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بما حدث قال: كلا، بل زينت لكم أنفسكم الكيد لولدي، كما فعلتم من قبل بأخيه يوسف. وتساءل المفسرون: كيف اتهم يعقوب بنيه بالكيد قبل أن يتثبت من الحقيقة، وهو نبي معصوم؟ ثم أجابوا بوجوه لا تستند إلى أساس، وأحسن الوجوه التي ذكروها على ما فيه - أن مراد يعقوب أن أنفسكم صورت لكم أن بنيامين سارق، وما هو بسارق.. وفي رأينا أن يعقوب اتهمهم بالكيد قياساً على صنيعهم مع يوسف، ولكنه لم يجزم بقول قاطع لعدم الدليل على كذبهم، وأيضاً لم يأخذهم بالظن من حيث العقوبة لأن الظن لا يغني عن الحق شيئاً.. وهذا لا يتنافى مع مقام النبوة، لأن النبي لا يعلم الغيب، وهو كأي إنسان يحتمل ويظن، والفرق بينه وبين غيره أنه لا يرتب أثراً على ظنه كما يفعل غير المعصوم.

(فَصَبِرْ جَمِيلٌ) قال هذا حين غاب عنه بنيامين، ومن قبل قال حين غاب يوسف: **(وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ).** هذا هو شعار الصالحين، يحزنون،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٤٩

وهم في جميع الحالات على الله متوكلون. كما قال سيد الأنبياء وخاتم الرسل (ص):

تدمع العين، و يحزن القلب، و لا نقول الا ما يرضي ربنا. **(عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا)**. و هم يوسف و بنيامين، و الأخ الثالث الذي بقي بجوار أخيه في مصر .. و في كلمة عسى شعاع من الأمل، و بالخصوص إذا كانت ممن يؤمن بالغيب إيمانه بالواقع الملموس كالأنبياء و الصديقين، و في نهج البلاغة: «لا يصدق ايمان عبد، حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده». و في هذا المعنى كثير من الأحاديث **(إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)** يعلم حزني و ألمي، و يدبر الأمور على حكمته.

(وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ). اعتزل الناس ليندب وحده من لن ينسأه أبدا، يندبه بهذه الصرخة الحزينة: **(يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ)** و زاده فراق ولده بنيامين حزنا على حزن، و بكاء على بكاء **(وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ)**.

أصابتنا بالقرحة من آثار البكاء، فهو يتنفس منهما بالدموع، كما يتنفس من رثيته بالآهات و الحسرات **(فَهُوَ كَظِيمٌ)** يتجرع الغيظ و يتجلد، و لكن على حساب جسمه و أعصابه.

(قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوًا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ) أي الميتين، و الحرص المرض أو المريض الذي لا ينتفع بنفسه، و المعنى ان أولاد يعقوب قالوا له: لا تزال تلهج بذكر يوسف، حتى تمرض او تموت بلا جدوى لأن يوسف ذهب و لن يعود **(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)** لا إليكم لأن الشكوى لمن لا يدفع ضرا، و لا يجلب نفعاً ذل و سفه. قال الإمام علي (ع):

«اللله ان تشكو الى من لا يشكي شجوكم - أي يزيل الشكوى - و لا ينقص برأيه ما قد أبرم لكم» ..

(وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ). نكب يعقوب، و ابتلي بفراق يوسف، و لكنه في الوقت نفسه يحسن الظن بالله، و يثق به، و لا ييأس من رحمته، و يؤمن بأن عاقبة الصبر الفرج، كما دل قوله لبنيه: «و لا تياسوا من روح الله» و إذا عطفنا ثقته بالله على رؤيا يوسف في صغره جاءت النتيجة ان يعقوب مطمئن على حياة يوسف الى حد كبير، و لكنه لا يعلم أين هو؟. و كيف حاله؟.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٥٠

و هل يعيش في عبودية او في حرية؟. و من هنا كان حزنه و قلقه.

لا تفاؤل و لا تشاوم:

(يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ) - اي فرجه - **(إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ)**. اذهبوا و تحسسوا و لا تياسوا، قرن الأمل بالعمل، و معنى هذا انه إذا انتفى العمل انعكست الآية، و اقترن اليأس بالكسل، و صحت القاعدة طردا و عكسا. و كان الأمل و الرجاء مع الإهمال جهلا و سفها .. و كلمة تحسسوا توحى بوجود العمل بكل الحواس ظاهرها و باطنها .. و هكذا العاقل إذا نزلت به نازلة دفعت به الى الكفاح و النضال للقضاء على أسبابها، سواء أ كانت هذه الأسباب هي الأوضاع الفاسدة، أم كان السبب يكمن في نفس الإنسان كالتقصير و اللامبالاة، و إذا أصابته حسنة - أي العاقل - خاف من ضربات الدهر و غائلته، و تحصن بتقوى الله و طاعته، و لا يطغيه غنى، و لا يبطره جاه، قال تعالى: «فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ - ٩٩ الأعراف».

و نخلص من هذا الى ان المتشائم الذي يقول: لا جدوى من العمل هو الشؤم بالذات، و مثله المتفائل مع الكسل و ترك العمل .. و الإنسان السوي من كان بين بين، يعمل و يناضل عند الشدة، و لا ييأس من روح الله و فرجه، و يخاف و

يحذر عند الرخاء، ولا يأمن مكر الله و بأسه.

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٨٨ إلى ٩٣]

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ وَ جِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَ إِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَ اتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٥١

اللغة:

المراد بالضر هنا المجاعة. و البضاعة المزجاة الرديئة أو القليلة، و يقال: ازجى الشيء إذا دفعه برفق، و منه قوله تعالى: «ان الله يزجي سحابا». و آثرك اختارك و فضلك. و خاطئين جمع خاطئ، و قيل: الفرق بين الخاطئ و المخطئ ان الأول يتعمد الخطيئة، و الثاني يريد الصواب فيخطئه. و التثريب التعنيف و العقوبة، يقال: ثرب فلان على فلان إذا عدد ذنوبه عليه.

الإعراب:

هل علمتم استفهام و معناه التقرير أي ما اعظم ما ارتكبتم. و ما فعلتم (ما) استفهام و المعنى اي شيء فعلتم، و محلها الرفع بالابتداء، و جملة فعلتم خبر، و علمتم معلقة عن العمل لفظا لمكان الاستفهام و عاملة معنى لأن الجملة من المبتدأ و الخبر محلها النصب بفعلتم. لأنت يوسف اللام للابتداء و أنت ضمير فصل و يوسف خبر لائنك، و يجوز ان يكون أنت مبتدأ و يوسف خبر، و الجملة خبر ان. لا تثريب (لا) نافية للجنس و تثريب اسمها و هو مبني على الفتح لأنه مفرد، و عليكم متعلق بمحذوف خبرا للا، و اليوم متعلق بما تعلق به الخبر. و يأت

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٥٢

مجزوم بجواب الطلب، و هو القوة، و بصيرا حال من أبي، و أجمعين حال من لأهلكم.

المعنى:

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ وَ جِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) أوصى يعقوب بنيه أن يعودوا الى مصر، فقبلوا منه، و عادوا اليها مرة ثالثة .. و دخلوا على العزيز منكسرين مسترحمين، و بدأوا بالشكوى من الجهد و المجاعة .. مسنا و أهلنا الضر .. تصدق علينا .. ان الله يحب المتصدقين .. و إذا جئناك ببضاعة لا تليق فلان الدهر غير موات .. قالوا هذا، و هم أحفاد ابراهيم الخليل (ع)، و لكن الشدة بلغت غايتها .. و جاءت النتيجة فوق ما يتصورون، و هذه هي: **(قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)**. بعد ان استمع يوسف لاستعطاف اخوته و تضرعهم، و عرف بؤس أهله و حاجتهم رق و تغلبت عليه عاطفة الرحم و قرابة الدم، و قال لهم معاتبا أو واعظا: اذكرون يوما

استجبتم فيه لدعوة الشيطان فآلقتهم بأخيكم يوسف في غيابة الجب، واذقتم أخاه بنيامين من بعده صنوف الأذى؟ ألم تقولوا بالأمس القريب: «ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل؟». و هل يفعل الجاهل أكثر من فعلكم هذا؟.

(قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ). و للمفسرين هنا كلام لا يتحملة لفظ الآية، ولكنه يتفق مع طبيعة الموضوع، و يساعد الاعتبار عليه، و ملخصه ان اخوة يوسف حين قال لهم ما قال تذكروا ما كانوا يعرفونه من ملامح وجهه، و نبرات صوته، و إشارات يده .. و مهما يكن فقد التمتع في خاطرهم أو خاطر بعضهم انه يوسف **(قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ)**. قالوا هذا و انتظروا الجواب، فكانت المفاجأة التي لا تخطر على بال **(قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا) ..**

و أريد من القارئ أن يقف هنا قليلا، و يقارن بين موقفهم هذا الضعيف الذليل، و بين موقفهم يوم القوا يوسف في الجب، لا يأخذهم فيه دين و لا رحم .. و لا

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٥٣

عجب **(إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)** دنيا و آخرة، و المراد بالمحسنين هنا الذين عملوا و ثابروا و صبروا على الصعوبات، و قد يهزمهم المسيئون الأشرار مرة أو مرات، و لكن العاقبة للمتقين، و الشواهد على ذلك لا تقع تحت حصر من عهد النمرود الى عهد هتلر .. و قد ابتليت الانسانية اليوم بالصهيونية المتجسمة باسرائيل، و بالاستعمار الجديد بقيادة الولايات المتحدة أعتى عتاة الشر و الفساد في هذا العصر .. و لسنا نشك إطلاقا في ان مصير الاثنتين هو مصير كل طاغ و باغ سابق و لا حق .. و لا نقول هذا لمجرد التعبير عما نحب و نرغب ..

كلا، فإنه منطوق طبيعي لتطور الحياة و التاريخ .. ان للحق أهلا يطالبون به، و يضحون من اجله، و ان للخير قوى تناصره و تؤازره، و ستتحد في يوم من الأيام ضد الظلم و الطغيان، و تدور الدائرة على اهله و أنصاره.

(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ). اعترفوا بأن الله فضله عليهم علما و عقلا، و كمالا و جمالا، و أخيرا بالجاه و السلطان .. و أقروا بالذنب، و طلبوا العفو و الصفح، و يوسف كريم و ابن كريم و لذا **(قَالَ لَا تَحْزِينَنِي عَلَيْهِمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ)** عفى يوسف عما مضى بلا تعنيف و تأنيب، و دعا الله ان يغفر لهم ما فرط منهم **(وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)** لمن تاب و أناب. و في نهج البلاغة، «لا يشغله غضب عن رحمة، و لا تلته رحمة عن عقاب» و تواتر عن النبي الأعظم (ص) انه حين فتح مكة قال لقريش: ما تظنون اني فاعل بكم؟

قالوا: نظن خيرا، أخ كريم و ابن أخ كريم، فقال: اذهبوا فانتم الطلقاء لا تثريب عليكم اليوم كما قال اخي يوسف.

(اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَ أَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ). و تعود بنا هذه الآية الى الآية ١٧ و هي: «قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق و تركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب .. و جاءوا على قميصه بدم كذب ..».

نعود الى هذه الآية لنقارن بين القميص الأول و القميص الثاني، فالأول جر على يعقوب البلاء و الأدواء، أما الثاني ففيه الشفاء و الهناء، و نقارن ايضا بين موقف ابنائه حين جاءوه بالقميص الأول معزين، و موقفهم حين أتوه بالثاني مهثئين.

و إذا سأل سائل: كيف يكون إلقاء القميص على البصر سببا لشفائه؟ أجبنا

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٥٤

بأنه لا نجد تفسيراً لذلك الا المعجزة الخارقة، تماما كنار ابراهيم، و عصا موسى، و كلام عيسى في المهدي، فهو لاء أنبياء، و يوسف و أبوه نبيان.

[سورة يوسف (١٣): الآيات ٩٤ الى ٩٨]

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْنَدُونَ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا
 أَن جَاءَ الْبَشِيرُ الْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا
 ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)

اللغة:

فصلت العير تجاوزت المكان الذي كانت فيه. و الفند ضعف الرأي و المراد تسفهون رأيي و تقولون قد خرف من الكبر.
 و في ضلالك أي خطئك.

الإعراب:

لولا حرف امتناع، و المصدر من ان تفندون مبتدأ و الخبر محذوف. و جواب لولا محذوف أيضا اي لولا تفنيدكم حاصل
 لصدقتموني. فلما ان جاء (ان) زائدة اعرابا.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٥٥

المعنى:

(وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْنَدُونَ.)

فصلت العير اي تحركت من المكان الذي كانت فيه، و هو مصر، و اتجهت الى أرض كنعان حيث يسكن يعقوب: و
 تفندون تنسبونني الى الفند، و هو الخرف ..

و ظاهر الآية يدل على ان يعقوب شم رائحة القميص من مكان بعيد، و بمجرد ان تحرك الركب من مكانه، و قبل ان
 يتجاوز أرض مصر، مع ان المسافة بين يعقوب و حامل القميص كانت مسيرة ثمانية أيام، و قيل: عشرة .. و أبقى
 المفسرون اللفظ على ظاهره، و قالوا: ان يعقوب وجد ريح القميص حقيقة على الرغم من بعد المسافة عنه، و اعتبروا
 ذلك معجزة خص الله بها يعقوب.

و غير بعيد ان يكون الريح كناية عن الحدس المصيب الذي يقع للإنسان في بعض الأحيان بخاصة لأهل القلوب الطيبة
 الصافية، و ان يعقوب قد أحس قلبه بدنو اللقاء، فعبر عنه بريح يوسف، و يرجح ارادة هذا المعنى ان اليأس من لقاء
 يوسف ما خامر قلب يعقوب لحظة واحدة، و يشهد على ذلك قوله: فتحسسوا من يوسف و أخيه. و قوله: عسى أن
 يأتيني بهم جميعا. و قوله ليوسف:

يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك .. و كذلك يجتبيك ربك و يعلمك من تأويل الأحاديث و يتم نعمته عليك. و
 قوله: اني اعلم من الله ما لا تعلمون.

(قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ). ضمير قالوا يعود الى من كان حاضرا في مجلس يعقوب حين قال: أجد ريح
 يوسف، و المعنى ان الذين حضروا مجلس يعقوب قالوا له: أنت مخطئ في إصرارك و انتظارك يوسف الذي ذهب كما
 ذهب غيره من الأموات. **(فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ الْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِيرًا)** .. و ما كان يعقوب مخطئا في
 حدسه، فلقد جاء البشير يحمل قميص يوسف، و ما ان مس وجه يعقوب، حتى عادت اليه نعمة البصر، و سعادة الحياة،
 و قيل: ان الذي حمل هذا القميص هو الذي حمل القميص الملطخ بدم كذب قبل أربعين سنة، ليمحو السيئة بالحسنة،

وأيضا قيل لا عجب ان يرتد بصر يعقوب بمجرد البشرى «فكثيرا ما شفى السرور والفرح من الأمراض، و تجارب الطب شاهد صدق على ذلك».

(قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ). يشير الى قوله في الآية

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٥٦

٨٦: «قال انما أشكو بثي وحزني الى الله واعلم من الله ما لا تعلمون» وقد مر شرحها.

(قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ). ندم اخوة يوسف على فعلتهم، و تابوا من خطيئتهم، و سألوا

أباهم ان يدعوا الى الله ان يقبل منهم التوبة، و يغفر لهم الذنب، و شرطوا على أنفسهم ان لا يعودوا الى معصية.

(قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ). قال بعض المفسرين الجدد: «ان كلمة سوف لا تخلو من

الاشارة الى قلب انسان مكلوم». يريد ان قلب يعقوب ما زال فيه شيء على بنيه رغم توبتهم و طلبهم المغفرة.. و هذا

اشتباه و قياس لقلوب الأنبياء على قلوب سائر الناس، و الصحيح ان يعقوب أرجا الدعاء لهم بقبول التوبة الى خلوته و

انقطاعه الى ربه في الظلمات و الاسحار، لأن ذلك ادعى للقبول و الاستجابة، قال سبحانه: «و بِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ -

١٨ الذاريات». و قال: «و الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ - ١٧ آل عمران».

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٩٩ الى ١٠٢]

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَبُوهُ وَ قَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَ رَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ

سُجُودًا وَ قَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَ قَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَ جَاءَ بِكُمْ

مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبُّ قَدْ آتَيْتَنِي

مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَ لِي فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ تَوْفَنِي مُسْلِمًا وَ

الْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٥٧

اللغة:

أوى اليه أبويه ضمهما اليه. و العرش السرير الذي يجلس عليه الملك أو الرئيس و تأويل الرويا تفسيرها بما تؤول اليه. و

نزغ الشيطان أفسد. و فاطر السموات و الأرض خالقهما على غير مثال سابق.

الإعراب:

سجدا مفعول مطلق مبين للنوع. و أبت أصلها بالياء، و حذفت للتخفيف. و حقا مفعول ثان لجعل لأنها بمعنى صير. و

المصدر من ان نزغ مجرور بإضافة بعد. و رب أصله يا ربي. و فاطر السموات أي يا فاطر السموات، و يجوز ان يكون

صفة لربي لأنه منادى مضاف. و ذلك مبتدأ و من انباء الغيب خبر.

المعنى:

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَبُوهُ). حزن يعقوب و أرسل الدمع مدارا على فراق يوسف، و هو يعلم ان

البكاء لا يجديه شيئا، و لكنه كان يخفف به من لوعة البعد، و حرقة الفراق، و امتد حزنه أمدا طويلا لأن يوسف اقام

سنوات في بيت الذي اشتراه بثمن بخس، و سنوات في السجن، و سنوات يدبر شئون البلاد المصرية، منها سبع رخاء

قبل ان يلتقي مع اهله، حيث كان اللقاء في سني الجذب، و كان كلما طال الزمن ازداد حزن يعقوب كما يومى قول

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٥٨

من قال له: «تالله انك لفي ضلالك القديم».

و إذا عرفنا مبلغ الحزن في نفس يعقوب من ألم الفراق عرفنا مبلغ فرحته و سعادته بقاء يوسف، لأن الفرحه بالشفاء من الاسقام تأتي على قدر ما تركته هذه من الأوجاع و الآلام، أو تزيد أضعافا.

و قال جماعة من المفسرين: المراد بأبويه أبوه و خالته، لأن امه ماتت من قبل .. و ابعد البعض في قوله: ان امه ماتت، ثم نشرت من قبرها لترى عظمة ولدها و تسجد له .. و لا طائل من هذا التحقيق و أمثاله الا تكثير الكلام.

و تسأل: ان صدر الآية لا يتفق مع عجزها، لأن الصدر يقول: لما دخلوا على يوسف ضم أبويه اليه، و معلوم ان يوسف كان في مصر، و العجز يقول:

بعد ان دخلوا عليه، و هو في مصر قال لهم: ادخلوا مصر - كما هو الظاهر من سياق الآية - و معنى هذا انهم بعد ان دخلوا مصر قال لهم ادخلوا مصر؟.

و قيل في الجواب: ان يوسف أقام لأهله سرادقات بالقرب من الحدود، و فيها دخلوا عليه، و ضم أبويه اليه، و لما استأنفوا السير من السرادقات متجهين الى مصر قال لهم: ادخلوا مصر .. و هذا الجواب يحمل لفظ الآية أكثر مما يتحمل، و غير بعيد أن يكون مراده من ادخلوا مصر أقيموا فيها آمنين، كما حدث ذلك بالفعل، حيث أقطعهم الملك أرضا خصبة في مصر، و ظلت سلالة يعقوب فيها أمدا طويلا .. فقد جاء في مجمع البيان: «و انما قال لهم: آمنين.

لأنهم كانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر، و لا يدخلونها إلا بجوازهم - أي بجواز السفر كما هو المتبع في هذا العصر - قال وهب: ان آل يعقوب دخلوا مصر وهم ٧٣ إنسانا، و خرجوا مع موسى الذي هو من نسل يعقوب، وهم ستمائة ألف و خمسمائة و بضع و سبعون رجلا» .. و أيضا في مجمع البيان ان بين يوسف و موسى ٤٠٠ سنة.

(و رَفَعَ أَبُو يَهُوهَ عَلَى الْعَرْشِ) أجلسهما على السرير الذي كان يجلس عليه، و هو يدير شئون المملكة تعظيما لهما **(و خَرُّوا لَهُ سُجْدًا)**. ضمير خروا عائد الى ابوي يوسف و اخوته، و ضمير له الى يوسف، و المراد بالسجود هنا الانحناء

تعظيما و تكريما، و كان الانحناء تحية الناس للمعظم في ذلك العصر، كما في بعض

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٥٩

التفاسير. و قيل: ان ضمير له عائد الى الله، و ان السجود كان شكرا له تعالى على هذه النعمة الكبرى .. و هذا القول يخالف ظاهر السياق، و لا يتفق مع قول يوسف في الآية ٤: «رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ»، أي له لا لغيره.

(وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا). يشير إلى قوله في أول السورة: «يا أبت اني رأيت

أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر رأيتهم لي ساجدين». و سبق الشرح و التفصيل. و في تفسير الرازي:

«اختلفوا في مقدار المدة بين وقت اللقاء و بين الرؤيا، فقيل: ٨٠ سنة.

و قبل ٧٠. و قيل: ٤٠ و هو قول الأكثر .. و كان عمره ١٢٠ سنة». و نحن لا نعلم يقينا كم كان عمره حين ألقى في الجب، و لا المدة التي أقامها في بيت الذي اشتراه، و لا أمد سجنه و حكمه، لأننا لم نهتد الى أصل يصح الاعتماد عليه، و أقوال المفسرين و الرواة متضاربة .. و لكن الأكثر على انه عاش ١٢٠ سنة.

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَ جَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ). ان الله سبحانه يبتلي الإنسان بالرخاء كما يبتليه

بالشدة: «قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر - ٤٠ النمل». وقال الإمام علي (ع): «لم تعظم نعمة الله على أحد إلا ازداد حق الله عليه عظما». وقد ابتلي يوسف بالضراء فصبر و بالسراء فشكر، وها هو يحدث بنعمة الله عليه، و يعدد إحسانه إليه .. اخرجني من السجن، و سما بي الى الحكم، و جاء بأهلي من البادية، حيث كانوا يرعون الإبل و الأغنام، حتى هذه أهلكها الجذب و القحط، و أصبحوا على الأرض البيضاء لا يملكون شيئا، و يقولون للعزيز: تصدق علينا ان الله يحب المتصدقين، فأغناهم الله بيوسف و كفاهم شر الفقر و العوز.

و لم يذكر إخراجهم من الجب مراعاة لشعور اخوته، و أيضا نسب ما كان منهم الى الشيطان و قال: **(من بعد ان نزع الشيطان بني و بين اخوتي)** و لم ينسب اليهم لنفس السبب **(ان ربي لطيف لما يشاء)** يلطف بالطيبين، و يبلغ بهم إلى ما يشاؤه لهم من العز و الكرامة **(انه هو العليم الحكيم)**. و الفرق بين حكمة الله و علمه ان جميع أفعاله و أحكامه تأتي على وفق الحكمة: «ربنا ما خلقت هذا باطلا». اما علمه فلا ينفك عن المعلوم، فمتى علم بأن في هذا الشيء

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٦٠

حكمة وجد فورا، و بكلمة ان علمه هو قوله للشيء كن فيكون.

(رب قد آتيتني من الملك و علمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات و الأرض أنت وليي في الدنيا و الآخرة توفني مسلما و الحفني بالصالحين). فاطر السموات و الأرض أي خالقهما على غير مثال سابق لهما، و ذكر السموات بصيغة الجمع، و الأرض بصيغة المفرد لأن الإنسان يرى بعينه سموات كثيرة، و لا يرى الأرض واحدة. أنت وليي أي تتولى جميع أموري في الدارين .. بعد أن حدث يوسف بنعم الله عليه توجه إليه تعالى شاكرا ما بسط له من الملك، و ما خصه به من النبوة، متوكلا عليه في جميع شؤنه، و متوسلا إليه ان يميته على طاعته و مرضاته، و ان يلحقه بصالح من مضى من آباءه، و يجعله من صالح من بقي من أبنائهم.

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك). بعد أن ذكر سبحانه قصة يوسف توجه الى رسوله الأكرم محمد (ص) بهذه الآية، و الغرض منها إلقاء الحججة على من أنكر نبوته، و ملخصها ان ما قصصناه من أمر يوسف بهذا التفصيل لم يشاهده محمد بنفسه، و لا قرأه في كتاب، و لا سمعه من انسان، و انما هو وحي من الله دال على صدقه و نبوته **(و ما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم و هم يمكرون)**.

ضميرا اجمعوا و هم يعود الى اخوة يوسف، و الخطاب موجه الى محمد (ص) و كل الناس يعرفون ان محمدا لم يكن حاضرا حين اجمعوا على إلقاء يوسف في غيابة الجب: و حين مكروا بأبيه و قالوا أكله الذئب .. و أيضا كل الناس يعرفون ان محمدا ما قرأ كتابا و لا تتلمذ على أستاذ .. فلم يبق - اذن - من طريق الى معرفته بهذا الغيب الا وحي السماء .. و نظير هذه الآية قوله تعالى: **(تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت و لا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين - ٤٩ هود)**.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٦١

هل سورة يوسف قصة غرام؟

قد يظن من النظرة الأولى ان سورة يوسف أشبه بقصة بطلتها امرأة تحكمت فيها أنوثة حيوانية عشقت فتى و سيما لم تر



رجلا مثله بين الرجال لحسنه و جماله، و ان هذا الفتى عزف عنها متحصنا بتقوى الله و الخوف من حسابه و عقابه، تماما كقصة سلامة المغنية مع عبد الرحمن القس «١».

و في الناس من قال: كان الأولى ان لا تذكر هذه السورة في كتاب الله العزيز، و قال بعض المؤمنين: ان لله حكمة غامضة في هذه السورة لا نعرفها، و أحسن هؤلاء في تحفظهم كما أساء الميمونية من الخوارج، حيث أنكروا سورة يوسف لأنها قصة غرام في زعمهم، و خرجوا بذلك عن جميع المذاهب الاسلامية.

و الحقيقة التي انتهينا إليها، و نحن نفسر هذه السورة الكريمة ان من قرأها بامعان و تدبر، و أدرك أسرارها و أهدافها يؤمن ايمانا قاطعا بأنها تقدم أوضح الأمثلة من الحس و التجربة على ان القيم الروحية كثيرا ما يكون الالتزام بها وسيلة للنجاح في هذه الحياة على رغم الأوضاع الفاسدة، و ان من قرأها قراءة سريعة يقول ما قاله الميمونية: انها قصة غرام، أو ما قاله بعض المؤمنين: «لله حكمة فيها لا نعرفها». أجل، لا يعرفها الا من تدبر كلمات الله و آياته .. و نعرض فيما يلي طرفا من الحقائق التي اشتملت عليها هذه السورة و التي تفرض نفسها و صدقها على كل من يتوخى الحقيقة و يبحث عنها:

١- ان الصراع بين الحق و الباطل قائم و دائم في هذه الحياة لا صلح بينهما و لا هوادة .. و النتيجة الطبيعية لذلك ان من يسلك طريق الباطل يقاومه المحقون، و لكن بالعدل و الصدق، لا بالكذب و الغش و الخديعة، لأنهم يرفضون أي سلاح لا يقره الحق و العدل .. و من يسلك طريق الحق يحاربه المبطلون، و لكن بالافتراء و الدس و أنواع الكيد و المكر، لأن من يصير على الباطل لا يملك الا التزييف

(١). اقرأها في «العقد الفريد» ج ٧.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٦٢

و التزوير، و من هنا كان الحق غالي الثمن، كثير التكاليف على من يتبعه و يستمسك به. و قد ضرب الله مثلا على هذه الحقيقة بيوسف، راودته امرأة العزيز عن نفسه، فأبى و استعصم بتقوى الله، فهددته بالسجن ان لم يفعل، فأصر و لم يفعل، و قال: رب السجن أحب إلي، فسجن و دفع الثمن غاليا من نفسه، لأن الدين أثنى و أغلى .. و لكن الذين يصارعون الحق يلقون السلاح في النهاية، و يستسلمون للمحقين رغم أنوفهم، تماما كما حدث لآخوة يوسف و امرأة العزيز.

٢- ان قوله تعالى: «لَوْ لَا أَن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» يعطينا ضابطا عاما، و مقياسا صحيحا للتمييز بين المؤمن و غير المؤمن .. فمن استجاب لهذا البرهان ساعة الابتلاء و الامتحان، كما استجاب له يوسف الصديق، فهو من الذين استقر الايمان و اليقين في قلوبهم حقا و صدقا، و من اندفع وراء رغبته و شهوته، و تجاهل برهان ربه و أمره بطاعته فما هو من الذين و الايمان في شيء.

٣- ان الأخيار يقاسون، و لا شك، الكثير من الرزايا و الخطوب إذا التقى بهم الدهر في بيئة ظالمة في نظامها، فاسدة في أوضاعها .. و لكن إذا تعقدت المشاكل، و استعصى الحل على الجميع اضطروا و التجأوا الى الكفاء متضرعين، كما التجأ

ملك مصر الى يوسف، و هو في سجنه ليقى البلاد من شر السنين العجاف ..
ان الأوضاع الفاسدة ترفع من شأن الأشرار الفاسدين، و تحط من شأن الطيبين، و لكن الشدائد تظهر كلا على حقيقته، و تضعه في موضعه.

٤- ان ترويض النفس على الاحتمال في سبيل الحق يأتي بأحسن النتائج و أفضلها: فلقد صبر يوسف الصديق على البثر و السجن، و البيع كالعبيد، و التهمة بالخيانة، فكانت النتيجة ان أصبح السيد المطاع، يقول له الملك: انك اليوم لدينا مكين أمين، و يقف اخوته بين يديه منكسرين مسترحمين: تصدق علينا ان الله يحب المتصدقين، و في النهاية يخرون له ساجدين ..

هذا عرض سريع لبعض العظات و العبر في هذه السورة الكريمة، و من أحب التفصيل فليقرأها كاملة مع التفسير.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٦٣

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١٠٣ الى ١٠٧]

وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْتَلْهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧)

اللغة:

الغشاء الغطاء، و المراد بالغاشية هنا العقوبة الشاملة. و المراد بالساعة القيامة و البغطة الفجأة.

الإعراب:

كأين كلمة واحدة بمعنى كم، و أصلها كلمتان كاف التشبيه و أي المنونة و نونها بدل عن التنوين، و مميزها مجرور بمن في الغالب، و محلها الرفع بالابتداء، و جملة يمرّون عليها خبر، و لا يكون خبرها إلا جملة. و عليها هنا بمعنى بها مثل اركبوا على اسم الله. و بغطة مصدر في موضع الحال من الساعة.

المعنى:

(وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ). ان لمحمد (ص) آيات و معجزات

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٦٤

تدل على نبوته، منها شريعته و سيرته، و منها القرآن ببلاغته و تعاليمه و حقائقه و اخباره بالغيب، و من هذا الاخبار قصة يوسف بتفاصيلها، كما ذكرنا في الآية ١٠٢ من هذه السورة.

و قد كان النبي (ص) حريصا على إيمان الناس و هدايتهم، بخاصة قومه من قريش، و لكن الأكثر منهم لم يستجيبوا لدعوة الله، اما حرصا على منافعهم الخاصة كالرؤساء و الأقباء، و اما جهلا و تقليدا كالضعفاء و التابعين، و في هذه الآية قال سبحانه لنبيه الكريم: انك لا تهدي من أحببت على رغم إخلاصك و معجزاتك، و أنت في غنى عنهم و عن إيمانهم **(وَمَا تَسْتَلْهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ).**

و ضمير هو يعود الى القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، و يوجه العقول الى آيات الله و دلائل عدله و وحدانيته، يهدي و يوجه بلسان الرسول الأعظم (ص) بلا مال و لا جعل.

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ).

كَانَ اللهُ تَعَالَى يَقُولُ لِنَبِيِّهِ هُوْنَ عَلَيْكَ إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِكَ وَبِدَلَالِئِ نَبِيِّكَ فَانْهَمُ قَدْ كَفَرُوا بِي وَأَنَا خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ. وَ قَدْ مَلَأْتُ الْكَوْنُ وَ أَنْفُسَهُمْ بِالْأَدْلَالِ عَلَى عِظْمَتِي وَ قُدْرَتِي، وَ مَعَ هَذَا أَعْرَضُوا عَنْهَا وَ كَفَرُوا بِي وَ بِهَا، وَ هِيَ بِمَرَأَى مِنْهُمْ وَ مَسْمُوعٌ فَلَا عَجَبٌ إِذَا كَفَرُوا بِكَ، وَ أَعْرَضُوا عَنْكَ وَ عَمَّا أَظْهَرْتَهُ عَلَى يَدِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَ الْمَعْجَزَاتِ ..

(وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ). هَذِهِ الْآيَةُ جَوَابٌ عَنِ سْؤَالٍ مُقَدَّرٍ حَوْلَ الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَ هِيَ: «وَ مَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ».

وَ مَحْصَلُ السُّؤَالِ: كَيْفَ قَالَ سَبْحَانَهُ: وَ مَا أَكْثَرَ النَّاسِ بِمُؤْمِنِينَ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ الْعَرَبَ وَ أَهْلَ الْكِتَابِ يَقْرُونَ بِوُجُودِ الْخَالِقِ، وَ قَدْ كَانُوا أَكْثَرَ النَّاسِ يَوْمَ ذَلِكَ؟.

بَلْ إِنَّ الْقُرْآنَ يَعْتَرِفُ صِرَاحَةً بِذَلِكَ، حَيْثُ قَالَ فِي الْآيَةِ ٦١ مِنْ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ:

«وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ».

فَأَجَابَ سَبْحَانَهُ عَنِ هَذَا السُّؤَالِ الْمَقْدَرِ بِقَوْلِهِ: (وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ). أَيَّ أَنَّهُمْ يَقْرُونَ بِوُجُودِ الْخَالِقِ، وَ لَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْعَلُ لَهُ شَرِيكَاً، فَالْيَهُودُ أَوْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَقُولُونَ: لِلَّهِ وَلَدٌ هُوَ عَزِيرٌ. وَ النَّصَارَى يَقُولُونَ: بَلْ

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٦٥

المسيح، و العرب يشركون الأصنام في العبادة، و يخاطبون الله بقولهم: لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك، تملكه و ما ملك .. و لا فرق بين من جحد و أشرك.

(أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ). فِي الْآيَةِ ١٠٣ قَالَ سَبْحَانَهُ

لِنَبِيِّهِ: أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِكَ، وَ فِي الْآيَةِ ١٠٥ قَالَ: أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِي وَ أَنَا الْخَالِقُ الرَّازِقُ، وَ فِي الْآيَةِ ١٠٦ قَالَ: حَتَّى أَكْثَرَ الْمُقْرَبِينَ بِي جَعَلُوا لِي شَرِيكَاً، فَكَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَعْجَبَ عَلَى ذَلِكَ بِالْتَهْدِيدِ وَ الْوَعِيدِ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

وَ تَسْأَلُ: أَنْ ذَكَرَ الْبَغْتَةَ يَعْني عَنِ ذِكْرِ «وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ» فَمَا هُوَ الْغَرَضُ مِنَ التَّكْرَارِ؟.

الْجَوَابُ: أَنَّ لَفْظَ الْبَغْتَةِ يَوْمِيٌّ إِلَى وَقُوعِ الْعَذَابِ حِينَ يَقْظَةُ الْحَوَاسِ، أَمَّا عَدَمُ الشُّعُورِ بِمَجِيءِ الْعَذَابِ فَقَدْ يَكُونُ فِي الْيَقْظَةِ، وَ النَّاسُ مُنْصَرَفُونَ إِلَى أَعْمَالِهِمْ، وَ قَدْ يَكُونُ فِي النَّوْمِ، وَ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً - ٥٠ يونس».

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١٠٨ إلى ١١١]

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لِدَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْءٍ وَ لَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَ لَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٦٦

السبيل الطريق، وكلاهما يذكر ويؤنث، والإسلام طريق الى الخير دنيا و آخرة. والمراد بالبصيرة هنا الحججة الواضحة. استيأس بمعنى يئس. وظنوا هنا بمعنى تيقنوا. والبأس العقاب. والعبرة كل حادثة تعبر لك عما تهتدي به و تتعظ. و الألباب جمع لب، وهو عقل الإنسان، و سمي العقل لباً لأنه أفضل ما في الإنسان.

الإعراب:

على بصيرة متعلق بمحذوف حالاً من ضمير ادعو و انا تأكيد له، و من اتبعني عطف عليه، و سبحان منصوب على المصدرية أي أسبح الله تسبيحاً. كيف خبر مقدم لكان، و عاقبة اسمها، و الجملة في محل نصب مفعولاً لينظروا. (ما كان) فيها ضمير مستتر يعود الى القرآن أو المتلو، و حديثاً خبر كان. و تصديق خبر لكان محذوفة مع اسمها أي و لكن كان القرآن تصديق الذي بين يديه، و تفصيلاً و هدى و رحمة عطف على التصديق.

المعنى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي). أمر الله محمداً

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٦٧

أن يقول للمشركين: هذه سبيلي و سنتي، و حقيقتها ظاهراً و واقعا هي الدعوة الى الله عن علم و بالحجة و المنطق .. و ليس من شك ان كل الأنبياء و أتباعهم المخلصين يدعون الى الايمان بالله و اليوم الآخر، و اقامة الحق و العدل، يدعون الى ذلك بالحكمة و الموعدة الحسنة، و مجابهة الحججة بالحجة، و الفكرة بالفكرة على المنطق السليم الذي تعتمد عليه رسالة النبيين، و دعوة المصلحين **(و سُبْحَانَ اللَّهِ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)**. هذا بيان و تفسير لدعوة محمد (ص) و انها منزهة عن الشرك بشتى معانيه.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى). المراد بأهل القرى من يسكن الحضر دون البادية، سواء أ كان المصر الذي يسكن فيه الحضريون كبيراً، أم صغيراً. و قال المفسرون: «تدل الآية على ان الله ما بعث امرأة على الإطلاق، و لا رجلاً من البدو لأن فيهم غلظة و جفاء» .. ذكر المفسرون جفاء أهل البادية، و نسوا انهم أصدق لهجة، و أصفى فطرة من أهل الحضر، و أيضاً نسوا اهتمام النساء بأحمر الشفاه و تبييض الخدود، و على أية حال فان الله أعلم حيث يجعل رسالته .. أما الغرض من الآية فهو إلقاء الحججة على من أنكر رسالة محمد (ص) بأنه لم يكن الوحيد في رسالته، فلقد كان الرسل من قبله رجالاً مثله يأكلون الطعام، و يمشون في الأسواق، و كانت دعوتهم تماماً كدعوته، فكيف عجبتم أيها المشركون من إرسال محمد، و لم تعجبوا من إرسال غيره؟ ..

و تصلح هذه الآية جواباً للذين أشار اليهم سبحانه في الآية ٤١ من سورة الفرقان:

«وَ إِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَّخِذُونَكَ إِلهً وَا هُزُوا هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا».

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ). مر نظيره مع التفسير في الآية ١٣٧ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٥٩ **(وَلِدَارُ الْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ).** و قوله للذين اتقوا من أوضح الدلالات على ان الطريق الى سعادة الإنسان في الآخرة هو العمل الصالح في هذه الحياة، و أصلح الأعمال فيها ما يهدف الى خير الإنسان و هدايته، و صيانة حقه و حرته من العبث و الظلم.

(حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَاءَ الرَّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْءٍ وَ لَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ). دعا الرسل الأمم الى الله فلم يستجيبوا،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٦٨

فأنذروهم بعذاب أليم في الدنيا قبل الآخرة فسخروا واستهانوا .. و انتظر الرسل نزول العذاب على المستهزئين، و طال أمد الانتظار الى حد يستدعي اليأس و الظن بأن العذاب لن يأتي، و الوعيد به لن يتحقق. و لما بلغ أمد الانتظار هذا المبلغ جاء النصر للأنبياء، و صدق الوعيد و التهديد، و وقع العذاب على المجرمين، و نجا الذين اتقوا لا يمسهم سوء، و لا هم يحزنون .. فقاله تعالى: استيأس الرسل و ظنوا الخ إن هو إلا كناية عن ألم الانتظار و طول مدته، و مثل هذا الأسلوب في الكنايات و المبالغات كثير و مألوف في اللغة العربية، و للمفسرين هنا أقول و آراء بعيدة كل البعد عن دلالة اللفظ و سياق الكلام، بالاضافة الى أنها تزيد القارئ حيرة و تضليلاً.

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ). الضمير في قصصهم يعود الى يوسف مع اخوته، و مع امرأة العزيز و الملك .. و قد بينا فيما سبق ان في قصة يوسف ألوانا من العبر و العظات، و أهمها ان من ييأس من الناس، و يعتمد على الله وحده فلا بد أن تكون عاقبته الى خير.

(مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ). ان كل ما جاء في القرآن هو حق و صدق، و منه قصة يوسف، و قد جاءت على وفق ما أنزله الله على أنبيائه السابقين في الكتب السماوية مع العلم بأن محمدا لم يقرأها بنفسه و لم يسمعها من غيره، هذا الى جانب ان في القرآن بيان العقيدة و الشريعة، و انه هدى لمن يطلب الهداية لوجهها، و رحمة لمن يعمل بأحكامه و يتعظ بمواعظه .. و ليس من شك ان الذين يتعظون بهدى الله هم «الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ - ٨٢ الأنعام».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٦٩

سورة الرعد

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٧١

سورة الرعد و فيها قولان: مدنية و مكية، و آياتها ٤٣.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة الرعد (١٣): آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المَر تَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١)

الإعراب:

تلك آيات الكتاب مبتدأ و خبر. و الذي أنزل مبتدأ و الحق خبر.

المعنى:

(المر) سبق مثله مع التفسير في أول سورة البقرة **(تلك آيات الكتاب)**.

أي ان آيات هذه السورة هي من القرآن الكريم، أما الغرض من هذا الاخبار فهو بيان ان هذه السورة حق لأنها من القرآن، و هو حق فهي مثله، و هذا هو المراد بقوله تعالى: **(وَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ)**. و يأتي هنا هذا السؤال:

ما الدليل على أن القرآن حق؟. و تجد الجواب في ج ١ ص ٦٤-٦٨. قال الإمام علي (ع): ان القرآن ظاهره أنيق و باطنه عميق، لا تفتنى عجائبه و لا تنقضى غرائبه، و لا تكشف الظلمات الا به **(وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)** بالقرآن

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٧٢

و لا بغيره من أقوال الحق و العدل الا من يرى خيره في خير الناس، و شره في شرهم. قيل لرجل من أهل الله: احترق السوق الذي فيه حانوتك، و لكن سلم حانوتك .. فقال: الحمد لله. ثم تنبه الى انه قد عصى الله، حيث أراد لنفسه الخير دون الناس، فاستغفر من ذنبه و تاب، و أمثال هذا هم الفئة القليلة الذين يقفون في الجانب المضاد للفئة الكثيرة التي عنها الله بقوله: **(وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)**.

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٢ الى ٤]

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجِينَ اثْنين يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مِّنْجَاوِرَاتٍ وَجَنَاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرِ صِنَوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَّضَلُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)

اللغة:

الرواسي الجبال الرواسخ. و يغشي يغطي. و جنات بساتين. و صنوان هي

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٧٣

النخلات الكثيرة يجمعها أصل واحد، و غير صنوان متفرقات و من أصول شتى، و واحد الصنوان صنو. و الأكل بضم الهمزة و الكاف ما يوكل.

الإعراب:

ضمير ترونها يعود الى السموات، و جملة ترونها صفة للسموات لا للعمد أي انها في واقعها تماما كما ترونها بلا عمد. و جملة يدبر مستأنفة، و مثلها يفصل.

و اثنين تأكيد لزوجين. و فاعل يغشي ضمير مستتر يعود الى الله، و الليل مفعول أول و النهار مفعول ثان.

المعنى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا). قلنا في فقرة الإعراب: ان الهاء في ترونها عائدة الى السموات، و ان الجملة الفعلية صفة لها، لا للعمد، و عليه يكون المعنى ان الله رفع السموات بأمره، و هي مرفوعة في الواقع تماما كما ترونها في الظاهر من غير عمد. و في مستدرك نهج البلاغة ان الإمام عليا (ع) وصف السماء بقوله: «رفع السماء بغير عمد- أي واقعا و ظاهرا- و بسط الأرض على الهواء بغير أركان». و في نهج البلاغة: «أنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال، و أرساها من غير قرار، و رفعها بغير دعائم».

(ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ). هذا كناية عن انه تعالى يملك الكون و يدبر أمره بعلمه و حكمته، كما قال في الآية نفسها: **(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)** و مرت هذه الجملة في الآية ٥٤ من سورة الأعراف، و الآية ٣ من سورة يونس، **(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى)** بانتظام كما ترى أعيننا، و لغاية معينة كما تدرك عقولنا .. و الشمس تقطع فللكها في

سنة، والقمر في شهر، كانا كذلك منذ ملايين السنين، و سيبقيان كذلك الى ما شاء الله، لا تختلف سنة عن سنة، ولا لحظة عن لحظة، وهذا دليل قاطع على وجود عليم حكيم، أما الصدفة فيبطلها النظام والتكرار.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٧٤

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) كل أمر بلا استثناء ومنه تسخير الشمس والقمر، وإرسال الرسل، وانزال الكتب .. الى ما لا نهاية **(يُفَصِّلُ الْآيَاتِ)** يبين الدلائل على وجوده .. ولما ذا **(لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)** خلق سبحانه الكون، وأحكمه على أكمل الوجوه، والعقول السليمة تدرك هذا التدبير والأحكام، وتستدل به على وجود المدبر الحكيم، وقدرته على إعادة الخلق، لأن من قدر على إيجاد الكون من لا شيء، ورتب ما فيه من الكواكب وغيرها في غاية الإحكام والدقة فبالأولى أن يقدر على جمعه بعد تفرقه، فإذا ثبتت القدرة على إعادة بحكم العقل، وقد أخبر الصادق الأمين عن الوحي بأنها سوف تقع لا محالة كان وقوعها حتما لا مفر منه.

و بعد ان ذكر سبحانه السموات ذكر الأرض، والغرض واحد، وهو تنبيه الغافلين الى الأدلة الكونية على وجود الله وعظمته، وأن من خلق هذا الكون الضخم بأرضه وسمائه قادر على أن يرسل الرسل، وينزل الكتب، ويحيي الموتى، وهذه الأدلة منها سماوية كرفع السموات بغير عمد، وتسخير الشمس والقمر، ومنها أرضية كالتي أشار اليها سبحانه بقوله:

١- **(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ)**. أي بسطها ومهداها، قال تعالى في الآية ١٩ من سورة نوح: **(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاغًا)**. أي واسعة. وفي الآية ٣٠ من سورة النازعات: **(وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)**. ودحو الشيء في اللغة بسطه وتمهيده. ومن الواضح ان بسط الأرض وسعتها وتمهيدها لا يدل من قريب أو بعيد على انها مسطحة أو كرة، لأن الجسم إذا كبر حجمه كالأرض كانت كل جهة منه ممتدة ومتسعة في الطول والعرض، وان كان على شكل الكرة، وعليه فلا شيء في الآية يمنع من القول بكروية الأرض التي لا ريب فيها، قال الرازي عند تفسير هذه الآية: «انه ثبت بالدلائل ان الأرض كرة، فكيف يمكن المكابرة في ذلك .. والأرض جسم عظيم، والكرة إذا كانت في غاية الكبر كانت كل قطعة منها تشاهد كالسطح».

و كان علماء اليونان في عهد أرسطو متفقين على كروية الأرض، ولكنهم قالوا بسكونها.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٧٥

٢- **(وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا)** لفظ الرواسي صفة للثوابت من كل نوع، ولكنه غلب على الجبال لكثرة الاستعمال، بحيث إذا أطلق لفظ الرواسي من غير ذكر الموصوف فهم منه الجبال، والحكمة من وجودها استقرار الأرض وثباتها، قال تعالى: **(لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا - ٧ النبا)**.

٣- **(وَأَنْهَارًا)** قرن سبحانه الأنهار بالجبال لأنها تتفجر من تحتها، قال تعالى: **(وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيًا شَامِخَاتٍ وَأَسْقِينَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا - ٢٧ المرسلات)**.

٤- **(وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)**. أي ان كل صنف من الثمر في نباته زوجان: ذكر و أنثى ظاهران كفحول النخل وإناثها، أو خفيان كسائر النباتات، قال الشيخ المراغي في تفسيره: «فقد أثبت العلم حديثا ان الشجر و الزرع لا يولدان الثمر و الحب الا من اثنين ذكر و أنثى، و قد يكونان في شجرة كأغلب الأشجار، أو شجرتين كالنخل». و في مجلة «العلوم» اللبنانية عدد آب ١٩٦٧ مقال بعنوان «كيف تبعث الحياة في الكائنات» جاء فيه ان الحشرات تحمل

على أجسامها اللقاح الضروري الى أكمام الزهر دون أن تخطى في التبليغ وان الطائر يلحق زهرة الزنبق بمنقاره. انها لمعجزة .. و في الحرب العالمية الثانية نزل الحلفاء بكورسيكا فمرض الزيتون و قل ثمره، و أرادت أمريكا مساعدة الأهالي فرشت الزيتون بمادة د. د. ت. فماتت الحشرة الضارة، و لكن مات معها سائر الحشرات الأخرى، فكانت النتيجة في السنة التالية لا شيء إطلاقاً لأية شجرة من الزيتون و الليمون و اللوز. و بهذا يتبين ان الثمر لا يكون الا بلقاح الذكر للأنثى.

٥- **(يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ)** مرّ تفسيره في الآية ٥٤ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٣٩ **(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)** في هذا الكون الذي يسير وفقاً لقوانين ثابتة لا يحد عنها بحال، و لولا ثبوتها لاستحال على العلماء أن يرصدوها و يستفيدوا منها قواعد عامة، و من الواضح ان الدوام ينفي الصدفة، و من أجل هذا آمن الكثير من علماء الطبيعة بوجود الله تعالى.

٦- **(وَ فِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٍ)** ان اجزاء الأرض يلتصق بعضها ببعض و مع ذلك تتنوع إلى سهل و جبل و صلب و رخو و خصب و جذب و تراب و رمل

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٧٦

و سواد و بياض، و ما أشبهه. و السر هو أمر الله و تدبيره في خلقه **(وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ)** بساتين من الكرمة **(وَ زَرَعٌ)** من أنواع شتى **(وَ نَخِيلٌ صِنَوَانٌ)** هي النخيلات من أصل واحد غير متنوع لأن النخل على أنواع **(وَ غَيْرُ صِنَوَانٍ)** هي النخيلات من أصول متنوعة، و خص الأعناب و النخيل بالذكر لأنهما الثمر الغالب أو مظهر الثراء أو هما معا في ذلك العصر، و يشعر بذلك قوله تعالى:

«وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَ حَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا- ٣٢ الكهف».

(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ) كالمطر أو البئر أو النهر، و أيضا المكان واحد بالقرب و المجاورة، و مع ذلك يختلف الثمر لونا و حجما و رائحة و طعما، و السر تدبير الله و حكمته **(وَ نُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ)** على الرغم من ان وسائل التكوين و النمو واحدة **(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)**. أي ان في هذا التفاوت مع وحدة المكان و الماء و الهواء دلائل واضحة على وجود المدبر الحكيم عند من لا يؤمن بشيء إلا بعد التفكير و التدبر. و من أقوال الإمام علي: لا علم كالتفكير، و لا حسب كالتواضع.

السيد الأفغاني و الدهريون:

و أحسن شرح لهذه الآية بمجموعها ما جاء في رسالة الرد على الدهريين للسيد جمال الدين الافغاني، قال «إذا سئل داروين عن الأشجار القائمة في غابات الهند و النباتات المتولدة فيها من ازمان بعيدة لا يحدها التاريخ إلا ظنا، و أصولها تضرب في بقعة واحدة، و فروعها تذهب في هواء واحد، فما السبب في اختلاف كل منها عن الأخرى في بنيتها و شكلها و أوراقها و طولها و قصرها و ضخامتها و رقتها و زهرها و ثمرها و طعمها و رائحتها، فأى فاعل خارجي أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان و الماء و الهواء؟. اظن انه لا سبيل الى الجواب سوى العجز عنه ..

و إذا قيل له: هذه أسماك بحيرة أورال و بحر قزوين مع تشاركها في المأكّل و المشرب و تسابقها في الميدان، نرى فيها اختلافا نوعيا و تباينا بعيدا في الألوان و الأشكال

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٧٧

و الأعمال، فما السبب في هذا التباين و التفاوت؟ فلا أراه يلجأ في الجواب إلا إلى الحصر». أي الضيق.
و تسأل: ان لدارون ان يجيب السيد الافغاني بأن علماء النبات يعرفون الأسباب الطبيعية لهذا الاختلاف، و يستطيعون الكشف عنها لكل طالب و راغب .. فلا ضرورة، و الحال هذه، إلى افتراض وجود المدبر فيما وراء الطبيعة؟
الجواب: لو سلمنا جدلاً بأن علماء النبات يعرفون ذلك فان لمعرفتهم حدا تقف عنده و لا تتجاوزه، و هو السبب القريب المباشر للتفاوت .. و لو سألوا عن السبب البعيد الذي أوجد السبب القريب لم يجدوا تفسيراً له إلا بأحد فرضين:
اما الصدفة، و اما وجود مدبر حكيم وراء الطبيعة، و الفرض الأول باطل لأن الصدفة لا تتكرر و لا تدوم، فتعين الثاني .. و سبق البيان أكثر من مرة ان من عادة القرآن أن يسند لله جميع الحوادث الطبيعية المتولدة من أسبابها الكونية، من باب اسناد الشيء إلى فاعله الأول لهدف التذكير بالله، و انه خالق الكون بأرضه و سمائه.
و تقول: ان للدهريين أيضاً ان يسألوا بدورهم عن السبب لوجود المدبر وراء الطبيعة؟
و نجيب بأن هذا السؤال غير وارد من أساسه لأن الفرض ان المدبر لا سبب له، و انه هو سبب الأسباب، فالسؤال عن سببه تماماً كالسؤال: من خلق الله بعد الفرض انه خالق غير مخلوق، و كالسؤال عن سبب صدق العين فيما ترى، و الاذن فيما تسمع مع الفرض انهما حجة قاطعة لكل شك و شبهة.

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٥ الى ٧]

وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنْ أُنزِلَ عَلَيْنَا لَنَذِيرٌ وَنَذِيرٌ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلكل قوم هادٍ (٧)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٧٨

اللغة:

الاعلال جمع غل، و هو قيد تشد به اليد إلى العنق، و السيئة النقمة، و الحسنة النعمة. و المثلات جمع مثلة بفتح الميم و ضم الثاء، و هي العقوبة مع وجود أثر يدل عليها كجدع الأنف و نحوه.

الإعراب:

فعجب خبر مقدم و قولهم مبتدأ مؤخر. و إذا في محل نصب تتعلق بفعل محذوف دل عليه الكلام أي: إذا كنا تراباً نبعث. و أولئك الذين كفروا بربهم مبتدأ و خبر لأن الكلام تام و مفيد. و مثله أولئك الاعلال في اعناقهم. و أولئك أصحاب النار مبتدأ أول و ثان و هم ضمير فصل، و خالدون خبر الثاني و الجملة خبر الأول، و فيها متعلق «بخالدون». و قبل ظرف متعلق بيستعجلونك. و هاد مبتدأ مؤخر و هو مرفوع بضممة مقدرة على الياء المحذوفة لأن أصله هادي كقاضي.

و لكل قوم خبر مقدم، و الجملة مستأنفة.

المعنى:

(وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنْ أُنزِلَ عَلَيْنَا لَنَذِيرٌ وَنَذِيرٌ) الخاطب لمحمد (ص)، و ضمير قولهم للمشركين

الذين أنكروا نبوته، والمعنى: ان تعجب

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٧٩

من عبادة المشركين للأصنام، وانكارهم نبوتك فإن تكذيبهم بالبعث أعجب و أغرب، ذلك انهم يعترفون بأنه تعالى خلق الكون و أوجده، و من قدر على ذلك فبالأولى ان يقدر على اعادة الإنسان بعد موته.

(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ). ذكر سبحانه

أولئك ثلاث مرات مبالغة في التهديد و التعبير عن غضبه و سخطه .. و قوله: أولئك الذين كفروا بربهم يدل على ان من آمن بان الله هو خالق الكون يلزمه حتما أن يؤمن بأنه تعالى قادر على ان يبعث من في القبور، و من أنكر ذلك فقد كفر بالله من حيث يريد أو لا يريد، و من جمع بين الإيمان بالله، و بين الإيمان ببعثه عن احياء الأموات فقد جمع بين النقيضين و المشركون قد أنكروا البعث لأن الله بزعمهم لا يقدر عليه كما يشعر قولهم: إذا كنا ترابا أنا لفي خلق جديد .. اذن، هم منكرون لله في واقعهم، و ان اعترفوا به بالسنتهم.

الماديون و الحياة بعد الموت:

أنكر الماديون وجود الله، و بالأولى أن ينكروا الحياة بعد الموت، و دليلهم واحد لا تبديل فيه و لا تعديل، و هو كل ما يظهر للحواس عيانا و مشاهدة يجب الايمان به، و كل ما يخفى عليها يجب نفيه و إنكاره، فالحواس هي الأول و الآخر، و الظاهر و الباطن على حد تعبيرهم .. اذن، كيف يؤمنون بالجنة و لم يأكلوا ثمارها؟

و كيف يعتقدون بجهنم و لم تصلهم بنارها؟.

و نحن نسألهم بدورنا: من أين لكم هذا العلم أو الايمان بأن الحواس الظاهرة هي وحدها طريق الحق و الواقع، و ما عداها لغو و كلام فارغ؟ على حد تعبيرهم أيضا. فإن قلت من شهادة الحواس قلنا: نحن عندنا حواس، و ما رأينا أحدا - غيركم - يقول: لا تصدقوا الا الحواس. و ان قلت: جاءنا من غير الحواس فقد ناقضتم أنفسكم بأنفسكم، حيث آمنتم بما لا شاهد عليه من الحواس.

في سنة ١٩٦٢ ألفت كتابا في الرد على الماديين، و هو كتاب «فلسفة المبدأ

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٨٠

و المعاد» طبع و نفذت نسخه في أمد قصير، ثم قرأت بعده كثيرا عن الماديين و الردود عليهم، من ذلك:

١- يجب على منطق الماديين ان لا يوجد أي فرق بين الإنسان صانع المعجزات و بين أحقر الحشرات التي تولدت من العفونة و القذارات، ما دام كل منهما ابنا شرعا للصدفة و الطبيعة العمياء و لم تنله يد العناية و التدبير.

٢- لقد وجد العلماء في دماغ الإنسان ١٤ ألف مليون خط منسقة و مرتبة ترتيبا محكما و دقيقا، يعجز عنه أعظم المهندسين بل كلهم مجتمعين، بحيث إذا انحرف واحد منها قيد شعرة عن موقعه ذهب ادراك الإنسان أو اضطرب، تماما كما يحدث لنور الكهرباء إذا اختلت الأسلاك .. و لا تفسير لذلك عند العقل إذا لم يفرض وجود مدبر حكيم لا يحس بالعين أو الأذن أو اليد أو الأنف أو اللسان .. و مهما بلغت الصدفة من المعجزات و الخوارق فإنها لا تنشئ محطة كهرباء واحدة، و توصل بها ١٤ ألف مليون خط محكمة الصنع و الوضع في آن واحد، فكيف إذا كانت هذه المحطات على عدد رؤوس الادميين و آدمغتهم؟ .. و فوق ذلك أنها تحس و تشعر.

٣- يقول الماديون: ان دماغ الإنسان، تماما كالعقل الالكتروني، كلاهما مجموعة من اجزاء جامدة مرتبة و منسقة على

شكل تترتب عليه تلك الآثار والمعطيات ..

و أجابهم العالم الفرنسي «كوسا» بقوله: «إذا زعقت سيارتي القديمة، و تأوهت مثل المصاب بالأم الروماتزم فهل يمكنني أن أقول: ان سيارتي تعاني من آلام الروماتزم؟. وإذا حشرج فيها الكاربوريتر عند ما أضغط على البنزين فهل يمكن أن أقول: انه مصاب بالربو؟» ..

و نعطف نحن على قول هذا العالم ان الترتيب و التنسيق في العقل الالكتروني جاء من فعل الإنسان ما في ذلك ريب، و لكن من الذي رتب و نسق دماغ الإنسان؟

و إذا اخترع الإنسان عقلا الكترونيا فهل يستطيع هذا العقل الالكتروني أن يخترع عقلا مثله أو دونه و لو دبوسا؟. و في كتاب «العمل و المخ» للعالم السوفيتي يوري باخلوف، ترجمة شكري عازر: «الذين يظنون ان في إمكان الآلة ان تحل محل المخ الانساني يخطئون خطأ جسيما .. ان المخ الانساني يمتاز بقابليته لتلقي المهارات

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٨١

و العبقريات و العادات إلى ما لا نهاية، أما العقل الالكتروني فإنه محدود، و خاضع لما يقرر له الإنسان».

٤- «ان أعظم اكتشاف للنحل - غير ما هو معروف عنه - انه عرف قبل الإنسان جهاز التكييف، فإذا ارتفعت درجة الحرارة في خلية النحل يذهب فوج منه و يأتي بالماء في خراطيمه و يضعه في خزان، حتى إذا اجتمع منه قدر الكفاية قام فوج آخر برشه، و هزّ ثالث أجنحته ليصنع تيارا من الهواء، فيتبخر الماء بسرعة، و مع هذا التبخر تنخفض درجة الحرارة» (١).

من الذي ألهم النحل الى الاختراع، الصدفة، أو ان وراء الطبيعة قوة و حقيقة هي المدخل الى الطبيعة و نظامها؟ .. و للنحل و النمل و غيرها حكايات تفوق التصور و لا تفسير لها إلا بوجود مدبر حكيم .. و نعود الى قول فولتير الذي اشرنا اليه فيما سبق أكثر من مرة، و هو «امام الفكرة في وجود الله عقبات، و لكن في الفكرة المضادة حماقات .. و هكذا ينتقل الإنسان من شك إلى شك حتى يصل الى ان التصديق بالله هو الأقرب، و به تتعلق القوانين الضرورية للعالم».

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ). المراد بالسيئة هنا العقاب، و بالحسنة الثواب، و بالمثلثات العقوبات .. دعا رسول الله (ص) المشركين إلى التوحيد، و وعدهم بالثواب ان استجابوا، و توعدهم بالعقاب ان استنكفوا، و بدلا من ان يستجيبوا و يتوبوا من الشرك ازدادوا تمردا و طغيانا، و أخذتهم العزة بالإثم، و قالوا: عجل لنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين، قالوا هذا و لم يعتبروا بالأمم الخالية الذين عصوا رسل ربهم، فأخذهم الله أخذًا وبيلا.

و تجدر الاشارة الى ان الغفلة عن الاعتبار و الاتعاظ لا تختص بالمشركين و حدهم فإن أكثر الناس لا يعتبرون بالغير، و لا يتعظون بالعبر، حتى الواعظين ..

و السر أن الاكثرية الغالبة تنقاد لمصلحتها و عاطفتها، لا لعقلها و دينها، و في الأمثال الغربية: المرأة تقود الرجل من بطنه لا من عقله.

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظَلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ). المراد

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٨٢

بالمغفرة هنا الامهال و عدم تعجيل العقوبة على الذنب، و القرينة على ذلك قوله تعالى: **(وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ)** لأن المغفرة لا تجتمع بحال مع العقوبة الأخروية فضلا عن شدتها، و المعنى ان الله سبحانه لا يعاقب العبد بمجرد ان يذنب و يسيء، و انما يؤخره، و يفتح له باب التوبة على مصراعيه، عسى أن يرجع عن غيه، و يثوب إلى رشده. و قيل في تفسير الآية: ان الله تعالى يغفر الذنوب للعصاة من المسلمين، و يشدد العقاب على الكافرين .. و هذا التفسير خلاف الظاهر، بالاضافة إلى أنه إغراء بالمعصية، و تشجيع للعصاة .. و الحق ما قلناه، و الدليل قوله تعالى: «وَلَوْ يُوَاحِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ - ٦١ النحل». فإن القرآن ينطق بعصه ببعض، و يشهد بعصه على بعض. **(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)**. مر نظيره في الآية ٣٧ من الأنعام ج ٣ ص ١٨٤. و تكلمنا مفصلا عن معجزة محمد (ص) و طلب المكابرين عند تفسير الآية ١١٨ من سورة البقرة ص ١٨٩.

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٨ الى ١١]

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَ مَا تَعْبِضُ الْأَرْحَامُ وَ مَا تَزْدَادُ وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمَتَّعَالِ (٩) سِوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ (١١)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٨٣

اللغة:

الغيض ذهاب المائع في جهة العمق، و منه غيض الماء أي ذهب في الأرض و غار، و يستعمل الغيض في النقصان، و هذا المعنى هو المراد بقريته قوله تعالى: و ما تزداد، و ينبغي أن يكون المقصود زيادة الأرحام و نقصانها في عدد الأولاد. و المتعالي المستعلي على كل شيء. و السارب الجاري. و معقبات جمع معقبة، و المراد بها هنا حواسه و غرائزه التي تحرس كيانه.

الإعراب:

ما تحمّل (ما) اسم موصول في موضع نصب بيعلم، و قال الطبرسي: هي استفهام في موضع نصب بتحمّل، و المعنى أي شيء تحمّل، و الجملة معلقة بيعلم. و كل شيء مبتدأ، و بمقدار متعلق بمحذوف خبرا للمبتدأ، و عنده ظرف متعلق بما تعلق به الخبر، و التقدير كل شيء كائن بمقدار عند الله. و عالم الغيب خبر لمبتدأ محذوف أي هو عالم الغيب. و سواء خبر مقدم، و من أسر مبتدأ مؤخر. و من وال (من) زائدة إعرابا و وال مبتدأ مؤخر، و ما لهم خير مقدم.

المعنى:



(اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ). ذكر سبحانه في الآية السابقة ان المشركين طلبوا من محمد (ص) المزيد من المعجزات الدالة على نبوته، وفي هذه الآية قال: انه تعالى يعلم ما في أرحام النساء ذكرا كان أو أنثى، واحدا أو أكثر، ناقصا أو تاما، و من يعلم هذا يعلم ان طلب المزيد من المعجزات انما هو لأجل العناد والمكابرة لا بقصد الاسترشاد و طلب الهداية ..

و في نهج البلاغة: ان الله يعلم ما في الأرحام من ذكر أو أنثى، و قبيح أو جميل، و شقي أو سعيد.
و اتفق المسلمون جميعا ان الله تعالى يعلم جميع المخلوقات كبيرها و صغيرها،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٨٤

لأن كل مخلوق فهو معلوم لدى خالقه. و بتعبير محيي الدين بن العربي: ان ما من موجود في العالم الا وله وجه خاص الى موجوده .. ثم اختلف الفلاسفة و علماء الكلام في ان الله يعلم الجزئيات كأفراد الحيوان و النبات و الجماد علما مباشرا و من غير توسط، أو يعلمها بتوسط أسبابها و ما تتولد منه؟. قال المتكلمون بالأول، و ذهب الفلاسفة الى الثاني. و نحن لا نرى أية جدوى في هذا الخلاف، لأن على المسلم أن يؤمن بأن علم الله شامل لكل شيء كليا كان أو جزئيا، حتى خفقة القلب و اللمحة في الذهن، أما الايمان بأن علمه تعالى على هذا النحو دون ذلك فليس من الدين في شيء .. و هناك أحاديث تنهى عن التفكير في ذات الله، و تأمر بالتفكير في خلقه و صنعته.

(وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) فلا يخلقه عبثا و من غير أصول، بل لكل شيء حده و نظامه في الكم من حيث أجزاءه و مقوماته و خواصه و آثاره، و في الكيف من حيث شكله و صورته و مكانه و زمانه، و أسبابه و سننه - كل ذلك على ما تستدعيه الحكمة و المصلحة .. و كل ما يستطيعه الإنسان هو أن يرى و يراقب، و يعادل و يقيس، و قد يخطئ أو يصيب، لأن علم الإنسان مكتسب يفتقر الى سبب، و كثيرا ما يظن ان هذا الشيء سبب للعلم بكذا، و هو في واقعه جهل محض، أما علمه تعالى فهو ذاتي و عين الواقع.

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ). ليس المراد بالكبر الضخامة، و بالعلو المكان المحسوس، بل هما كناية عن عظمة الله في ذاته و صفاته، و عالم الغيب ما غاب عنا علمه، و عالم الشهادة ما نراه و نشاهده .. ان الكون مليء بالمخلوقات من شتى الأجناس و الأصناف العلوية و السفلية، فمن الجراثيم الى الإنسان و الملائكة، و من المعادن الى النبات و الحيوان، الى الماء و الهواء، و ما فيهما، الى ما لا نهاية، و قد يعلم الإنسان طرفا من أشياء الكون، و لكن علمه مهما بلغ لا يعد شيئا الى جانب ما غاب عنه، فأكثر الحقائق و ضوحا تبطن الكثير من الأسرار، و لا يعلم كل ما في الكون الا خالق الكون، فهو وحده الذي يتساوى لديه السر و العلن، و الغائب و الشاهد و ما أو تيتيم من العلم الا قليلا.

(سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٨٥

بالنهار). مر نظيره في الآية ٧٨ من التوبة، و الآية ٣ من الأنعام ج ٣ ص ١٥٩.

(لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ). ضمير له و يديه و خلفه يعود الى الإنسان، كما هو الظاهر من سياق الكلام، و معقبات كناية عن حواس الإنسان و غرائزه التي لها تأثيرها في صيانتها و حفظ كيانه، و (من) في قوله تعالى: «**مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**» بمعنى الباء مثلها في قوله تعالى: **يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ** - ٤٥ الشورى». أي بطرف خفي، و في ذلك رواية عن الإمام أبي جعفر الصادق (ع). و قال المفسرون: المراد بالمعقبات الملائكة، و في بعض التفاسير ان

الله يرسل عشرة من الملائكة بالنهار يحرسون الإنسان، وعند الغروب يذهب هؤلاء، و يأتي عشرة آخرون يحرسون بالليل، وهكذا يفعل مع كل فرد من أفراد الإنسان في كل يوم من الأيام، اما إبليس فيقوم بدور الغواية و تضليل الإنسان بالنهار، و أولاده بالليل.

و بالإضافة إلى ان هذا بعيد عن دلالة اللفظ فإن الافهام و الأذواق ترفضه و تأباه و الذي نتصوره نحن ان المراد بالمعقبات حواس الإنسان و غرائزه التي بها يحفظ وجوده و كيانه، كما أشرنا، و ان المعنى ان الله سبحانه خلق الإنسان، و جعل فيه السمع و البصر و الإدراك و غيرها من الصفات و الغرائز لتحرسه و تصونه، و هذا المعنى و ان كان بعيدا عن دلالة اللفظ فإنه يتفق مع الواقع، و لا ينفيه السياق، فبالادراك يميز الإنسان بين النافع و الضار، و بالبصر يعرف طريق السلامة، و بحب الذات يتحفظ من المهلكات.

لا يغير حتى يغيروا:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ). قال المفسرون: ان هذه الآية تدل على ان القوم الذين يعيشون بنعمة المال و الأمن الجاه فإن الله لا يغيرها عنهم ما داموا يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة، فان عصوا زالت عنهم هذه النعمة.

أما نحن فنفسر الآية في ضوء تعاليم الإسلام، و واقع الحياة، و ما يتحملة لفظ

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٨٦

الآية من معنى .. أما تعاليم الإسلام فمن أهمها وجوب جهاد النفس إذا مالت الى المحرمات و الموبقات، أو رضيت بالذل و الفقر، و الجهاد بالنفس و المال في سبيل العدل و التحرر من الظلم و الرق .. و ليس من شك ان من استنكف عن الهوان، و استهان بالحياة و أبى إلا الكرامة أو الموت شمله الله بعنايته، و أخذ بيده إلى ما يبتغيه و يهدف اليه. و من خلد إلى الراحة و الكسل مهما كانت نتائجه يخذله الله، و يكله الى ضعفه، و لا ينظر اليه أو يسمع له، و ان ملأ الدنيا تضرعا و بكاء، و عبادة و دعاء.

و بهذا يتضح معنى قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**، و انه جلت عظمته يبقي الإنسان في البؤس و الهوان، ما دام في جموده و ركوده، لا يقاوم باطلا، و لا يحرك ساكنا للتخلص مما هو فيه .. أجل، ان الله لا يغير ما بنا من فقر حتى نعتقد ان الفقر من الأرض لا من السماء، و حتى نكافح و نجاهد ضد الاستغلال و الاستثمار، و حتى نقيم المصانع، و ننشئ المزارع، و الله لا يغير ما بنا من جهل حتى نبني الجامعات و المختبرات، و الله لا يغير ما بنا من عبودية حتى نثور على الظالمين و المستبدين، و الله لا يغير ما بنا من شتات حتى نخلص النوايا، و نزيل ما بيننا من الحدود و الحواجز.

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ). المراد بالسوء هنا العذاب، و متى أراد الله لإنسان أو لفئة فلا منجى مما أراد الا اليه، و هو عادل لا يريد الا لمن يستحقه، و الوالي من صفات الله لأنه يلي الأمور و يقوم عليها بالعناية و التدبير.

[سورة الرعد (١٣): الآيات ١٢ الى ١٥]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَيُنَشِّئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ (١٢) وَيَسْجِحُ الرَّعْدَ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَ هُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ



لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسُطٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَّهُمْ بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ (١٥)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٨٧

اللغة:

السحاب الثقيل لأنها مثقلة بالماء. والمحال بكسر الميم الكيد، يقال: ما حله مماحلة إذا كاده و مكر به، والمراد به هنا ان الله سبحانه شديد القوة. والظلال جمع ظل، وهو خيال الشيء. والغدو جمع غدوة، والغدوات جمع غداة، وهي الصباح. والأصال جمع أصيل وهو المساء ما بين العصر والمغرب.

الإعراب:

خوفًا وطمعًا مفعول من أجله عند أبي البقاء، ومصدر وقع موقع الحال من الخطاب في يريكم عند الطبرسي. وكبساط متعلق بمفعول مطلق محذوف أي الاستجابة كاستجابة باسط كفيه الى الماء. وليبلغ منصوب بأن مضمرة بعد اللام، والمصدر المجرور باللام متعلق ببساط، وفاعل يبلغ ضمير مستتر يعود الى الماء. وطوعًا وكرها قائمان مقام المفعول المطلق أي سجودًا طوعًا وكرها، أو في موضع الحال أي طائعين و مكرهين. وظلالهم معطوف على من في السموات. وبالغدو متعلق بيسجد.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٨٨

المعنى:

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ). ان الله سبحانه خلق الكون، وللكون خصائص و سنن لها آثارها وظواهرها، ومنها البرق والرعد والسحاب والصواعق، وما الى ذلك مما يشاهده العالم والجاهل، والمؤمن والملحد.

ولا يعرف شيئًا من حقائقها وطبيعتها الا أهل الاختصاص .. وأسندها سبحانه اليه، ولم يسندها الى الأسباب الكونية المباشرة، أسندها اليه من باب اسناد الشيء الى سببه الأول، والغرض التذكير بأنه سبب الأسباب، واليه وحده ترجع الأمور كلها.

وقوله تعالى: **خَوْفًا وَطَمَعًا**، اشارة الى ان البرق قد يكون نذيرًا بالصواعق، وقد يكون بشيرًا بالغيث، فيخاف الإنسان من ذلك، ويأمل بهذا في آن واحد.

(وَيَسْبِغُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ). المراد بتسييح الرعد ما فيه من الدلالة على قدرة الله وعظمته، تماما كدلالة الكتابة على الكاتب، والبناء على الباني، وبهذا نجد تفسير قوله تعالى: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِغُ بِحَمْدِهِ» - ٤٤ الاسراء. أي يدل عليه، وبتعبير ثان ان كل فعل حسن ومتقن فهو يدل على فاعله بطبعه ووضعه، ويحمده ويثني عليه بلسان حاله .. وليس من شك ان كل ما في الكون متقن غاية الإتقان فهو يدل على خالقه بوضعه و يثني عليه بلسان حاله .. ومن الطريف قول بعض المتصوفة: ان الرعد صعقات الملائكة، والبرق زفرات أفئدتهم.

(وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ). و تسأل: ان كلا من الصواعق والزلازل ظاهرة من ظواهر الطبيعة و

سننها .. ومن الواضح ان الطبيعة عمياء لا تميز بين الأنبياء و الأشقياء، و تعم الجميع بخيرها و شرها، لا فرق عندها بين أشد المكروبات فتكا و إيذاء، و بين أكثر الناس عبقرية و صلاحا، مع ان قوله تعالى: **فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ**، يشعر بالفرق؟.

الجواب: المراد بالصواعق هنا العذاب الذي أنزله سبحانه على الذين أصروا على الشرك، و عاندوا أنبياءهم و رسلهم كقوم عاد و ثمود بدليل قوله تعالى:

«فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَ ثَمُودَ - ١٣ فصلت».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٨٩

و قوله: «فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ - ١٥٣ النساء».

و تقدم أكثر من مرة ان القرآن ينطق بعضه ببعض، و يشهد بعضه على بعض.

(وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ). ضمير (هم) يعود الى المشركين، و المعنى ان هؤلاء يجادلون في قدرة الله و عظمته، و في محمد (ص) و نبوته، و البعث و إمكانه، يجادلون و يكابرون مع ظهور الدلائل على قدرة الله، و المعجزات الباهرة على نبوة محمد (ص) و نزول العذاب على من جحد و أنكر البعث و الحساب **(وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)** أي شديد القوة و البطش بأعدائه و أعداء أوليائه. و بالاختصار المشركون يجادلون بالقول، و الله يبطش بالفعل «ان بطش ربك لشديد».

(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يُسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَ مَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَ مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ). ان الله هو الحق، فمن عمل له، و توكل عليه أجزل له الثواب، و من عصى و تمرد حق عليه العقاب، و من دعا غيره كالأصنام و نحوها فقد دعا باطلا و سرايا، و حجرا و جمادا لا يضر و لا ينفع **(وَ مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)** تماما كالظامئ يحسب الدخان سحابا، و السراب ماء، فيمد كفيه ليملاهما بالماء، و يفتح فاه ليشرب و يبرد من غلته، و إذا بالآمال تتبخر الى حشرات و زفرات.

(وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا). مر نظيره مع التفسير في الآية ٨٣ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٠١.

(وَ ظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْأَصَالِ). الظل خيال الجسم الذي يلازمه و يتحرك بحركته، تماما كصورة الشيء في المرآة، و خص سبحانه الغدوات و العشايا بالذكر لأن الظل يطول و يمتد في هذين الوقتين، و المعنى ان من في السماء و الأرض يسجد لله، و كذلك ظلالهما تسجد له.

و تسأل: ان الظل ما هو بشيء في ذاته، و اسمه يدل عليه، و انما هو تبع لصاحبه، و لذا يضرب المثل به على العدم و اللاشيء، فكيف جعله الله طرفا مقابلا لصاحبه، و عطف أحدهما على الآخر.

و أجاب الصوفية بأن المراد بمن في السموات و الأرض الأجسام، و بالظلال الأرواح .. و الذي نفهمه نحن ان الظلال كناية عن التعميم لكل شيء، و ان كل

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٩٠

ما في الكون يسجد لله، أي يقر بوجوده من باب دلالة المصنوع على الصانع، حتى الظل يسجد له لو كان شيئا مذكورا.

[سورة الرعد (١٣): آية ١٦]

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَ لَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي

الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)

الإعراب:

أم هل (ام) هنا منقطعة بمعنى بل و همزة الاستفهام، أي بل أهل تستوي الظلمات الخ و همزة الاستفهام تغني عن هل، و لكنهما تجتمعان في كلام العرب مثل أهل كان كذا. و مثلها أم جعلوا أي بل اجعلوا و الاستفهام للإنكار.

المعنى:

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ). بعد ان ذكر سبحانه ان كل ما في الكون خاضع لقدرته عاد الى المشركين، و سألهم بلسان نبيه الكريم: من الذي خلق الكون بأرضه و سماءه؟ هل خلقه الله أو أصنامكم التي تعبدون؟. و لما كان

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٩١

السؤال يحمل معه الجواب، و لا يستطيع المسئول إنكاره أمر الله محمدا ان يجيب عنهم (قُلِ اللَّهُ).

(قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا). مرة ثانية، و تأكيداً للحجة يأمر الله محمدا ان يقول للمشركين: انكم تعبدون أحجارا لا تملك لنفسها ضرا و لا نفعا فكيف تملك ذلك لغيرها؟ .. و ليست هذه الآية ردا على المشركين وحدهم بل هي رد أيضا على من قال: ان في عقول الناس غنى عن إرسال الرسل و إنزال الكتب من السماء، فلقد كان عبدة الأحرار، و ما زالوا من أهل العقول عند أنفسهم و عند كثير من الناس.

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) المراد بالأعمى الكافر لأنه لم يفرق بين الذي لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا، و بين مالك الضر و النفع .. و المراد بالبصير المؤمن الذي يفرق بينهما (أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) الظلمات كناية عن الكفر، و النور كناية عن الإيمان، قال تعالى: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ - ١ ابراهيم» أي من الكفر إلى الإيمان.

(أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ). هذا رد على المشركين، و خلاصته ان الأحرار التي تعبدونها لا تخلق شيئا مثل خلق الله كي تقولوا: الله يخلق، و الأصنام أيضا تخلق مثله تماما، و إذا كان الله مستحقا للألوهية و العبادة فهي أيضا تستحق الألوهية و العبادة، و التوضيح فيما يلي.

عقول الناس لا تغنيهم عن دين الله:

تنقسم معرفة الإنسان إلى قسمين: فطرية ذاتية، و نظرية اجتهادية، و الفطرية هي التي لا تحتاج إلى جد و اجتهاد، بل تحصل تلقائيا بمجرد التصور، كالعلم بأن النور غير الظلام، و العمى غير البصر، و الطول غير القصر، و الحجر مخلوق غير خالق، و يشترك في هذه المعرفة «١» العالم و الجهل على السواء، و من أخطأ فيها

(١). فرق البعض بين العلم و المعرفة بأن العلم يتعلق بالكليات، و المعرفة تتعلق بالجزئيات، اما نحن فلا نجد فرقا بينهما، قال تعالى: «قَدْ

عَلِمَ كُلُّ نَاسٍ مَشْرَبَهُمْ» و لم يقل قد عرف، مع العلم بأن مشرب كل سبط من أسباط إسرائيل كان خاصا.

فهو غير معذور.

أما المعرفة النظرية الاجتهادية فلا تحصل تلقائياً و بمجرد التصور، بل تحتاج إلى أعمال الفكر و الجهد و الاجتهاد، كالعلم بأن الماء بسيط أو مركب، و ان هذا المرض من الأمراض المعدية أو غيرها، و يسمى هذه النوع بالقضايا النظرية التي تختلف فيها الأنظار باختلاف الأشخاص و مواهبهم و معارفهم، و الخطأ فيها مغتفر لصاحبه إذا كان بعد الجهد و بذل الجهد، لأن ادراك الصواب في كل شيء متعذر أو متعسر.

و الأصنام التي عبدها المشركون لا شبه بينها و بين الإله في وجهه من الوجوه من قريب أو بعيد كي يعذر من شك أو احتمال انها شريكة لله في خلقه، كيف و قد بالت عليها الكلاب و الثعالب؟. فعبادتها أكثر قبحا و سفها من وصف الظلام بالنور، و العمى بالبصر.

و تسأل: لا ريب في ان المعرفة منها فطرية لا يختلف فيها اثنان، و منها اجتهادية يعذر فيها المخطئ، و ان نفي الألوهية عن الأحجار من البدييات دون النظريات كما قلت .. و لكن المشركين قد عبدوها بالفعل، و كانوا عقلاء في تصرفاتهم، فما هو التعليل؟

الجواب: ان فريقاً منهم عبدها على حرف، و بقصد الكسب و المنفعة، و فريقاً آخر عبدها تقليداً بعامل التلقين و الوراثة .. و من الواضحات الفطرية ان سلطان العقل يضعف و يتراجع أمام التقاليد و العادات، بخاصة إذا طال عليها الزمن، و توارثها جيل عن جيل، و من هنا كان الدين السليم حتماً و ضرورة تفرضها طبيعة الإنسان بالغاً ما بلغ من العلم و العقل .. فإن كثيراً من الذين تعودوا أساليب العلم و طرقه الدقيقة في هذا العصر يؤمنون بالخرافات .. قال (غوستاف لوبون) في كتاب «الآراء و المعتقدات»: «ان العلماء تبدو عليهم السذاجة كما تبدو على الجهلة الأميين .. فالعالم قلما يبدو أسنى من الجاهل في الأمور التي ليست من اختصاصه، و بهذه الملاحظة ندرك السبب في ان أفضل العلماء يؤمنون بأشد الأوهام خطأ». ثم ضرب على ذلك كثيراً من الأمثلة، منها ان عالماً كبيراً في عصره كان لا يخرج من بيته الى المختبر الا و معه قطعة من حبل المشنوق تقيه بزعمه حسد الحاسدين، و سحر الساحرين.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٩٣

(قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ). واحد في ذاته، و في صفاته و في خلقه، و قاهر لكل معاند و عاص لحكم من أحكامه. و في ج ٢ ص ٣٤٤ ذكرنا الأدلة على وحدانية الباري، و نعطف عليها ما جاء في كتاب «دفاع عن الإسلام» تأليف (لورا فيشيا فاغلييري) ترجمة الأستاذ منير البعلبكي، قالت المولفة: «دعا الرسول العربي الى عقيدة التوحيد، و خاض صراعاً مكشوفاً مع بعض النزعات الرجعية التي تقود المرء الى الشرك .. دعا محمد الناس الى قراءة كتاب الحياة، و التفكير في الكون و سننه، إذ كان واثقاً بأن كل عاقل لا بد ان يؤمن آخر الأمر بآله واحد».

[سورة الرعد (١٣): الآيات ١٧ الى ١٨]

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذٰهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحَسَنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلُهٗ مَعَهٗ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولٰٓئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨)

اللغة:

الزبد بفتح الزين و الباء ما يعلو الماء ونحوه من الرغوة، و يسمى غثاء. و الفرق

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٩٤

بينه و بين الفقاقيع ان هذه منتفخة كنفاخات الأطفال، و الزبد كرغوة الصابون.

و الرابي العالي، أي ان الزبد يعلو فوق الماء و الحلية تؤخذ من الذهب و الفضة.

و المتاع من الحديد و النحاس و الرصاص و شبه ذلك. و الجفاء بضم الجيم الباطل.

و المهاد بكسر الميم الفراش.

الإعراب:

زبد مثله (زبد) مبتدأ مؤخر، و مثله صفة له، و خير المبتدأ محذوف و هو الذي تعلق به مما يوقدون، و ابتغاء حلية

مفعول لأجله ليوقدون. و كذلك الكاف بمعنى مثل في محل نصب بيضرب. و جفاء حال من الضمير في يذهب. الذين

استجابوا خبر مقدم، و الحسنى مبتدأ مؤخر. و الذين لم يستجيبوا مبتدأ، و جملة لو أن لهم خبر. و ما في الأرض اسم أن،

و المصدر المنسبك فاعل لفعل محذوف أي لو ثبت أن لهم الخ. و جميعا حال، و مثله عطف على اسم أن.

المعنى:

في الآية السابقة قارن سبحانه بين المؤمن و الكافر، و ضرب لذلك مثلين:

الأول المقارنة بين الأعمى و البصير.. فالكافر كالأعمى، و المؤمن كالبصير. المثل الثاني المقارنة بين الظلمات و النور.. و

الكافر كالظلمات، و المؤمن كالنور.

و في الآية التي نحن بصدها قارن جلت حكمته بين الحق و الباطل، و ضرب أيضا لذلك مثلين: الأول المقارنة بين الماء

الذي يمكث في الأرض، و يحمل للناس الخير و الحياة، و بين الزبد الذي يعلو و ينتفخ طافيا على وجه الماء، ثم

يقذف به السيل، و يذهب مع الريح.. و الحق كالماء النافع، و الباطل كالزبد الذي تبدده الأرياح. و هذا ما أراده سبحانه

بقوله: **(أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا)**. و المراد بقدرها ان كل واد من

الأودية يحتمل من ماء المطر بمقداره سعة و ضيقا و عمقا.. و ما زاد ينبسط على وجه الأرض.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٩٥

أما المثل الذي ضربه سبحانه للمقارنة بين الحق و الباطل فهو المقارنة بين المعادن تذاب في النار ليصاغ منها الحلبي

كالذهب و الفضة، أو يصاغ منها آنية أو آلة كالحديد و الرصاص و النحاس، و بين الزبد الذي يطفو فوق المعدن

المذاب، و هذا الزبد يضمحل تماما كما يضمحل الزبد الذي يحمله السيل.. و الحق كالمعدن النافع أي كان نوعه، و

الباطل كالزبد الخبيث الذي يطفو فوق المعدن حين يذاب في النار، و هذا هو معنى قوله تعالى: **(وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ**

فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ). فقوله: مما يوقدون معناه ان من المعادن ما يذاب في النار ليصاغ منه الزينة

أو الآنية أو الآلة، و قوله: زبد مثله معناه ان للمعادن زبدا لا جدوى منه تماما كالزبد الذي يحمله السيل.

(كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ). أي يمثل الله و يصور الحق بيانا في صورة الماء و المعادن اللذين ينتفع بهما، و

الباطل في صورة الزبد الذي لا ينتفع به **(فَأَمَّا الزَّبَدُ)** و هو الذي يحمله السيل أو يطفو على المعادن إذا أذيت **(فَيَذْهَبُ**

جُفَاءً) باطلا **(وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ)** و هو الماء و المعادن **(فَيَمَكْتُ فِي الْأَرْضِ)** للخير و الحياة **(كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ**

(الأمثال) للحق و الباطل و غيرهما.

ان كثيرا من المعاني يصعب إدراكها على الافهام، و بالخصوص عند السواد الأعظم، و التمثيل من أجدى الوسائل لتوضيحها و الكشف عنها، بالإضافة الى ان التمثيل كثيرا ما يضيف على البيان سموا و جمالا، و قد ضرب الله الأمثال في العديد من آياته البيانية، منها تمثيله الكفر و الايمان بالظلمات و النور، و العمى و البصر، و تمثيله في هذه الآية الحق بالماء و المعدن، و الباطل بالزبد.

و تصور هذه الآية الإسلام في حقيقته، و الأصح تصور المسلم الحق في انه الذي ينفع الناس، و يستمر نفعه لهم و يدوم، تماما كالذي يحيي الأرض بعد موتها، و كالمعدن الصلب تقام به المعامل و المصانع تنتج الآلات و الأدوات، و تبنى الحضارات، فتقرب البعيد، و تنشئ الأساطيل، و تغزو الفضاء، و تحرث الأرض، و تملأ الدنيا خيرا و أمنا و رخاء .. و النتيجة الحتمية لذلك ان كل من نفع و أصلح و عمل من أجل حياة الإنسان و حرите و أمنه و هنائه فانه يلتقي بعمله هذا مع أهداف الإسلام، و ان لم يكن مسلما، لأنه تماما كالماء و المعدن اللذين ضربهما الله مثلا

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٩٦

للحق .. و ان كل من عمل لشقاء الإنسان فما هو من الإسلام في شيء، و ان صام الدهر، و وصل صلاة الليل بصلاة الفجر.

(لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحَسَنَىٰ). أي لدعوة ربهم، و هي العمل لمنفعة الناس، و لحياة أفضل، أما الحسنى فالمراد بها الأجر و الثواب، و ان أهل الحق ينتفعون به، تماما كما تنتفع الأرض بالماء.

(وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ) و هم الذين لا خير فيهم كالزبد (لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ و مَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ و بئس المهابد). تقدم نظيره في الآية ٥٤ من سورة يونس، و الآية ٩١ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٠٦.

[سورة الرعد (١٣): الآيات ١٩ الى ٢٥]

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ و لَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) و الَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ و يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ و يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) و الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ و أَقَامُوا الصَّلَاةَ و أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا و عَلَانِيَةً و يَدْرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتٌ عِدْنُ يَدْخُلُونَهَا و مَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ و أَزْوَاجِهِمْ و ذُرِّيَّاتِهِمْ و الْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣)

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) و الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ و يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ و يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ و لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٩٧

اللغة:

الدرء الدفع. و العدن بسكون الدال الاقامة، يقال: عدن في المكان إذا أقام فيه. و العقبى من العاقبة، و هي النهاية التي تؤدي إليها البداية ان خيرا فخير، و ان شرا فشر.

الإعراب:

أفمن يعلم الهمزة للاستفهام، والمراد به الإنكار، و من مبتدأ، وخبره كمن هو أعمى. وانما كلمتان: (أن) التي تنصب الاسم وترفع الخبر، و (ما) الموصولة.

والذين يوفون عطف بيان أو بدل من أولو الأبواب. والذين يصلون و ما بعده من الموصولات مبتدأ، والخبر جملة أولئك لهم عقبى الدار، ولهم متعلق بعقبى.

وصبروا ابتغاء وجه ربهم (ابتغاء) مفعول من أجله. وسرا قائم مقام المفعول المطلق أي إنفاقا سرا و علانية معطوف عليه، ويجوز أن يكونا قائمين مقام الحال أي مسريين و معلنين. وجنات عدن بدل من عقبى الدار. و سلام عليكم مبتدأ وخبر، و الجملة مفعول لقول محذوف أي يقولون: سلام عليكم. و بما صبرتم (ما) مصدرية، و المصدر المنسب متعلق بما تعلق به عليكم.

المعنى:

(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ). بعد أن شبه سبحانه الكافر بالأعمى، و المؤمن بالبصير في الآية ١٦،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٩٨

ثم شبه الحق بالماء و الباطل بالزبد في الآية ١٧- بعد هذا ذكر هنا ان من يؤمن بمحمد فهو البصير المحق، و من كفر به فهو الضال الأعمى، و أخبر تعالى عن هذه الحقيقة بصيغة الاستفهام لتقريب المنكر و توبيخه (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) الذين يصغون لصوت العقل، و من لا يصغي اليه الا إذا وافق هواه فهو كمن لا عقل له. ثم ذكر سبحانه أوصاف أولي الأبواب، و هي تدل بوضوح على ان المراد بأولي الأبواب المؤمنون المتقون.

١- (الَّذِينَ يُوَفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ). و كل ما قام عليه الدليل فهو عهد الله، و على الإنسان أن يعمل بموآداه .. ولكن الأبالسة يحرفون الحقائق على أهوائهم، ثم ينسبون هذه الأهواء الشيطانية الى الله و الحق .. تعالى الله عما يصف المفترون (وَلَا يَنْفُضُونَ الْمِيثَاقَ) هذا تأكيد لقوله: يوفون بعهد الله، حيث يلزم من الوفاء بالعهد انتفاء نقضه و نقيضه.

٢- (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ). ذكر المفسرون أقوالا في تفسير ما أمر الله به أن يوصل، و أقربها الى روح الإسلام و مبادئه قول من قال: ان المراد به مناصرة الإنسان لأخيه الإنسان، و التعاون معه على كشف الضر عنه، و جلب النفع له قريبا كان أو بعيدا.

٣- (وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) عمليا لا نظريا، و فعلا لا قولاً فقط، قال الإمام علي: بالايمن يستدل على الصالحات، و بالصالحات يستدل على الايمان.

٤- (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ). يجاهدون في سبيل الله، و يصبرون على جراح الجهاد و آلامه، لا يبتغون جزاء و لا شكورا الا مرضاة الله وحده.

٥- (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) التي أولها التكبير: الله أكبر، لا كبير سواه كائنا من كان، و الكل لديه سواء، و آخرها التهليل و التسليم، لا إله الا هو و لا يعبد سواه، فلا المال و لا الجاه و لا الأنساب آلهة تعبد، و لا قوة يخضع لها الا قوة الله وحده لا شريك له.

٦- (وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً). المال هو المحك .. أنظر ما كتبناه تحت هذا العنوان في تفسير الآية ٩٢

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٣٩٩

٧- **(وَيَدْرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ)**. المراد بالحسنة هنا العفو والصفح، وبالسيئة الحق الخاص يكون بين اثنين كالقصاص، قال تعالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ - ١٧٨ البقرة». أما حق الله فلا هوادة فيه، قال تعالى: «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ - ٢ النور».

(جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ). كل الصالحين والطيبين يدخلون الجنة، و إذا كانوا في الدنيا أرحاما و أحببا يزدادون فرحا و سرورا بجمع الشمل، و يتذكرون أيام الدنيا، و يشكرون الله على الخلاص من همومها و أعبائها، و إذا اختلفت الأعمال في الخير و الشر تقطعت الأنساب و الأسباب بينهم يومئذ، و لا يتساءلون: «فريق في الجنة و فريق في السعير».

(وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ). يزور الملائكة أهل الجنة تكريما و تعظيما. و قوله: بما صبرتم يومئذ إلى أن الجنة محرمة إلا على من جاهد و صبر و تحمل متاعب الجهاد و مشاقه. قال الإمام علي (ع): «الجنة حفت بالمكاره، و النار حفت بالشهوات، و اعلموا انه ما من طاعة الله شيء إلا يأتي في كره، و ما من معصية الله شيء إلا يأتي في شهوة».

(وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ). بعد أن ذكر سبحانه الصالحين و أوصافهم، و ما أعد لهم من حسن الثواب و المآب ذكر الفاسدين و المفسدين ..

و بالتعبير الدارج بعد أن ذكر أنصار الثورة على الفساد ذكر أنصار الثورة المضادة، و طبيعي أن يكون هؤلاء في صفاتهم و أعمالهم على الضد من أولئك، فالصالحون يوفون بعهد الله، فيعملون بوحى من العقل و الضمير و بكل ما دل عليه الدليل و المفسدون ينقضون عهده جل و علا فيعملون بوحى من الشيطان، يلبسون الحق بالباطل، و يكتمون الحق و هم يعلمون **(وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)**. فيتولون الطغاة المجرمين، و يناصرونهم على الأحرار الطيبين، تماما على العكس مما أمر الله به، و نهى عنه.

(وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) بمظاهرة الظالم الغاشم، و إثارة الفتن و القلاقل،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٠٠

و تضليل السذج الأبرياء، و اشاعة التفسخ و الانحلال، و نشر الجرائم و الموبقات، و نحو ذلك من أنواع الفساد و الضلال **(أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)**. و إذا كان الأشرار في أعمالهم على العكس من الأخيار فمن الطبيعي أن يكونوا أيضا على العكس في الجزاء و الثواب .. للأخيار الجنة و نعم الدار، و للأشرار جهنم و بئس القرار.

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٢٦ الى ٢٩]

اللَّهُ يَسِّطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَ فَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَأُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنَاصِرُ وَ تَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَ حَسَنُ مَا بَدَأَ (٢٩)

اللغة:

يبسط يوسع. و يقدر يضيق. و المتاع ما فيه متعة و لكنها قليلة. و الانابة الرجوع الى الحق بعد الضلال، و يقال: انتاب فلان القوم إذا اتاهم المرة تلو المرة. و طوبى من طاب، و هي تانيث الأطيب. و المآب المنقلب.

الإعراب:

و ما (ما) نافية، و الحياة مبتدأ، و الدنيا صفة، و في الآخرة على حذف

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٠١

مضاف أي في جنب الآخرة، و المجرور متعلق بمحذوف حالا من الحياة، و متاع خبر. و لولا أداة طلب بمعنى هلا. و الذين آمنوا الأولى في محل نصب بدل من (مَنْ أَنْابَ). و الذين آمنوا الثانية كلام مستأنف، و محلها الرفع مبتدأ أول، و طوبى مبتدأ ثان، و لهم خبره، و هو و خبره خبر المبتدأ الأول. و حسن مآب عطف على طوبى، و يجوز أن تكون طوبى خبر الذين و لها متعلقة بها.

الإنسان و الرزق:

عند تفسير الآية ١٠٠ من سورة المائدة ج ٣ ص ١٣١ تكلمنا مفصلا عن الرزق و أسبابه بعنوان: هل الرزق صدفة أو قدر؟. و ذكرنا هذه الآية: (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) فيما ذكرنا من الآيات، و أيضا تعرضنا لهذا الموضوع عند تفسير الآية ٦٦ من سورة المائدة ج ٣ ص ٩٤، و الآن نعود اليه بأسلوب آخر بالنظر لأهميته.

للإنسان صفات كثيرة، منها ذاتية تلازمه و لا تنفك عنه بحال، مثل أن يكون طويلا أو قصيرا، و ابن غني أو فقير، و منها غير ذاتية مثل أن يكون فلاحا أو تاجرا أو موظفا أو طبيا و نحو ذلك.

و للغنى أسباب، منها النسب أي الغنى عن طريق الميراث و هو مشروع في الدين، و ان لم يدخل تحت قدرة الإنسان، و منها الاحتكار و الاستغلال كالربا و الغش و السلب و النهب، و التجارة بالمحرمات، و هذا حرام، ما في ذلك ريب، و منها كد اليمين و عرق الجبين، كالزراعة و الصناعة و ما اليهما، و هذا خير الأسباب و أفضلها عقلا و شرعا.

و للفقير أسباب أيضا: منها الإهمال و الكسل، و تقع التبعة فيه على الكسول المهمل، و منها فساد الأوضاع التي تجعل القيادة و الزعامة للخونة و الأقوياء، و تبعد الشرفاء و الضعفاء. و هذا السبب يحكم العقل و الشرع بتحريمه و عدم شرعيته.

و بكلمة ان كلا من الفقر و الغنى له أسبابه المحسوسة المشاهدة بالعيان.

و بهذا يتبين معنا ان الفقر و الغنى من صنع الأرض، لا من صنع السماء في

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٠٢

الأعم الأغلب .. حيث يشذ بعض الموارد عن الأسباب المألوفة، فيسميها البعض بتوفيق من الله، و البعض الآخر بالصدفة أو الحظ .. و لكن لا أحد يستطيع القول: ان القضاء و القدر يعاكس بعض الناس في كل شيء، و يحول أبدا و دائما بينهم و بين ثمره جهدهم و أعمالهم، و انه يحالف آخرين و يناصرهم في كل شيء، و يحقق لهم أكثر مما يأملون، و فوق ما كانوا يتصورون من غير سعي وجد .. لا أحد يستطيع أن يثبت ذلك، و الا بطلت المقاييس، و تخلفت المسببات عن أسبابها، و كان العمل و التحفظ و الإتقان الفاذا بلا معنى.

و تسأل: ان قولك هذا لا يتفق مع ظاهر الآية، و هي قوله تعالى: (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ)؟.

الجواب: ان الناس في حياتهم و واقعهم فريقان: فريق موسع عليهم في الرزق، و فريق مضيق عليهم فيه، و كل من الغنى

و الفقر يتولد من أسبابه الخاصة التي أشرنا إليها، و قوله تعالى: **(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ)** هو وصف لواقع الناس، و حكاية لحالهم التي هم عليها، فكأنه يقول: الناس فريقان:

غني و فقير .. و أضاف سبحانه الفقر و الغنى اليه لتنبية الأذهان انه تعالى هو خالق الكون الذي فيه شقاء و هناء، و بؤس و نعيم .. و إذا سأل سائل: و لما ذا لم يخلق كونا لا شقاء فيه و لا بؤس أحلناه على ما كتبنا بعنوان: «ليس بالإمكان أبدع مما كان» عند تفسير الآية ٧٨ من النساء ج ٢ ص ٣٨٤.

(وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ). تقدم نظيره مرات، منها في الآية ١٨٥ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢٢٤، و نعطف على ما ذكرنا هناك ان فريقا من الناس يفرحون بالمال لأنه يستر عيوبهم و قبائحهم، و كثير منهم لا يرون الفضيلة و الخير الا في المال و الثراء، و المعروف عن الأمريكيين انهم لا ينظرون الى شيء الا من خلال الدولار، و به وحده يقيسون عظمة الرجال، حتى العلماء و العاقرة قيمتهم ما في جيوبهم، لا ما في رؤوسهم. **(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ)**. مر نظيره في الآية ١١٨ من سورة البقرة ج ١ ص ١٨٩، و الآية ٣٧ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٨٤، و الآية ٢٠ من سورة يونس و بالحرف الواحد من السورة التي نحن فيها الآية ٧.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٠٣

(قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ). أنظر «الإضلال من الله سلبي لا ايجابي» ج ٢ ص ٣٩٩ عند تفسير الآية ٨٨ من سورة النساء، و «الهدى و الضلال» ج ١ ص ٧٠ عند تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة.

(الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ).

لما ذكر سبحانه أهل المال، و فرحهم الناشئ عن اطمئنانهم الى عيشهم و حياتهم ذكر المؤمنين، و انهم هم الذين يطمئنون بذكر الله .. و الاطمئنان معنى زائد على أصل الايمان، و هو ثبات الايمان و استقراره، أو هو أعلى درجاته و مراتبه، فقد جاء في الآية ٢٦٠ من سورة البقرة: «قَالَ أَوْ لِمَ تُؤْمِنُ قَالِ بَلَىٰ وَ لَكِنَّ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي». و في الآية ١٠٦ من سورة النحل: «و قلبه مطمئن بالايمان». أي ثابت و مستقر. أما الذكر فليس المراد به مجرد الكلام الملفوظ المسموع، و انما المراد به الذكر الذي يزيد الذاكر يقينا بالله، و ثقة بوعده و وعيده، فإذا لم يتحقق هذا الأثر.

فلا يعد التلطف بالتقديس و التسبيح ذكرا حقيقيا .. و الذكر الذي يزيد الذاكر يقينا و ثقة هو المراد من قوله تعالى: «فَاذْكُرُونِي أَذْكَرُكُمْ - ١٥٢ البقرة».

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَ حَسَنُ مَا بَ). المراد بطوبى الجنة، و المآب المرجع و المنقلب، و الآية بمعنى قوله تعالى: «و بشر الذين آمنوا و عملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الأنهار - ٢٥ البقرة».

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٣٠ الى ٣١]

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتَاب (٣٠) وَ لَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا فَلَمْ يَبْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَ لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١)

اللغة:

خلت مضت. و متاب اسم مصدر من تاب. و سيرت به الجبال أي سارت بسببه. و قطعت به الأرض شقت أنهارا و عيونا. و كلم به الموتى جعلها تتكلم. و يئس يعلم في لغة هوازن. و قارعة مصيبة.

الإعراب:

هو ربي مبتدأ و خبر، و جملة لا إله إلا هو خبر ثان. و لو ان قرآنا جواب لو محذوف دل عليه الكلام، و التقدير لكان هذا القرآن. و المصدر المنسب من ان لو يشاء مفعول يئس. و بما صنعوا (ما) مصدرية أي بصنعهم، و يجوز ان تكون موصولة أي بالذي صنعوه. و فاعل تحل ضمير مستتر يعود الى قارعة. و قريبا حال من هذا الضمير المستتر.

المعنى:

(كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ).
الخطاب موجه لمحمد (ص)، و ضمير عليهم يعود إلى الأمة التي أرسل اليهم. و قد أرسل الله من قبله إلى الأمم الخالية رسلا مبشرين و منذرين، و للغاية نفسها أرسل محمدا، فأى بدع في ذلك؟. فما هم بأول قوم أرسل الله اليهم رسولا، و لا هو بأول رسول يتلو على الناس ما أوحى اليه من

ربه **(قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ).** هذا هو إيمان محمد (ص)، و هذه هي دعوته: يؤمن بالله وحده، و يلتجئ اليه في جميع أموره، و لا يرى لغيره من سلطان، و يدعو الناس جميعا الى هذا الايمان، و هي دعوة تدل على نفسها بنفسها.

تفكير الطغاة:

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا). مر نظير هذه الآية في سورة الأنعام، و تكلمنا حولها مفصلا بعنوان طراز من الناس في ج ٣ ص ٢٤٨. و أيضا يأتي مثلها في الآية ٩٠ و ما بعدها من سورة الاسراء، و نعطف على ما قدمناه ان هذه الآية تصور الطريقة التي يفكر بها الطغاة الذين تقوم حياتهم على استغلال الضعفاء و استعبادهم .. فلا الفطرة و العقل، و لا الحس و المشاهدة، و لا الخوارق و المعجزات، و لا شيء يغير من عتو الطغاة المستغلين و ضراوتهم .. و الدافع الأول و الأخير هو إخلاصهم لوجودهم و كيانهم الذي يقوم على السلب و النهب .. و مع هذا يريدون محمد (ص) ان يعترفوا به و بالقرآن .. و لما ذا يعترفون؟. الآن الجبال تسير - بكتاب من السماء - بلا عجلات، و تكلمهم الأموات؟. ثم ما ذا؟. و أية جدوى لهم في ذلك، بل و في رؤية الله وجهها لوجه؟. هل تزداد أرباحهم، و تكثر أموالهم؟.

هذا هو تفكيرهم، و هذه هي اللغة التي يفهمونها و يصغون اليها، و لا يستمعون إلى غيرها .. لغة الكسب و الربح الجنيه و الدولار، اما الحق و العدل، اما المنطق و العقل فحديث خرافة يصدقها الأطفال، و يؤمن به الجهال .. و هل بعد هذا يسأل سائل: كيف لم يؤمن الطغاة بمحمد، و دعوته دعوة العدل و الإحسان؟.

و أي ذنب أعظم من هذه الدعوة التي تستأصل الظلم و الفساد من الجذور؟. و أي عاقل يوقع بيده الحكم بإعدامه؟.

بهذه الطريقة وحدها يفكر الذين تقوم حياتهم على السلب و النهب في كل زمان و مكان .. فكر بها أبو جهل و أبو سفيان في عهد محمد (ص)، و فكر بها في

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٠٦

عصرنا هتلر و موسوليني، و تفكر بها اليوم و في عصر الفضاء الدول الاستعمارية بقيادة أمريكا، و كفى دليلا على ذلك انها تضغط بكل قواها على أعضاء الأمم المتحدة كي يتجاهلوا أية قضية تمت الى العدالة بسبب، فإذا فشلت في هذا الميدان وقفت موقفا صريحا و معاديا لكل شعب يطلب العدل و الانصاف من المعتدين عليه، و ناصرت الظلم و الطغيان أينما كان و يكون، و سواء أ جاء من إسرائيل أم البرتغال أم الحكومة العنصرية في روديسيا و جنوب افريقيا، أو غيرها .. و السر هو اخلاص الولايات المتحدة لطبيعتها أو لنظامها كقائد للاستعمار الحديث في هذا العصر، و مصير هذه القيادة تماما كمصير النازية الهتلرية و غيرها، و قد ظهرت الدلائل في فيتنام، أما الاستياء من سياسة المستعمرين فقد عم الشرق و الغرب و لن يمر هذا الاستياء دون أن يترك أثره الفعال.

و كنت من قبل أعجب من بعض الناس كيف يستهينون بالطيبين المخلصين، و لا يقدرونهم حق قدرهم، و كيف يرونهم كغيرهم من الأناس العاديين، حتى و لو أتوا بالعجب العجاب، و ضحوا بأعز ما يملكون من أجل احقاق الحق، عجبت من ذلك حتى وصلت بالتفسير الى هذه الآية فأدرت ان هذا التفكير ليس مقصورا على من أفسد و طغى بالفعل، فإن كثيرا من الناس قد أسقطوا من حسابهم جميع الفضائل و القيم، و لم يقيموا وزنا الا للكسب و الربح تماما كغيرهم من الذين حاربوا محمدا، و وقفوا في هيئة الأمم و مجلس الأمن في جانب إسرائيل و عدوانها سوى ان هؤلاء تمهد لهم السبيل الى الفساد و الطغيان فسلكوه، و لما عجز عنه الذين يستهينون بالخير و أهله وقفوا موقف الحياد.

(أَفَلَمْ يَبْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا). قال الطبري:

اختلف أهل المعرفة بكلام العرب في معنى قوله تعالى: أفلم يبئس .. ثم قال:

و الصواب إن تأويل ذلك أفلم يتبين، و نقل هذا التفسير عن جماعة كثر، منهم الإمام علي (ع). و نحن من الذين يؤمنون بأن أهل البيت أدري بالذي فيه. و مهما يكن فإن المقصود بالذين آمنوا صحابة الرسول الأعظم (ص) حيث تمنوا متلهفين ان يؤمن المشركون بالله و رسوله، فقال لهم جلت عظمتة: إلى متى تطمعون في إيمان المشركين؟. ألم تعلموا و تتبينوا انهم لا يؤمنون بحال حتى و لو كلمهم

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٠٧

الموتى، و سارت الجبال؟ .. دعوهم و طغيانهم، و لو شاء الله أن يلجئهم الى الايمان لفاعل، و لكن حكمته تعالى قضت بأن يترك الإنسان و ما يختاره لنفسه حرصا على حريته و انسانيته، و لو سلبه الحرية و الارادة لم يكن شيئا مذكورا، و لما استحق مدحا أو ذما، و لا ثوابا أو عقابا .. انظر تفسيرنا لقوله تعالى:

«وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَّ لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ - ١١٨ هود».

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ). المراد بالذين

كفروا من كذب بنبوته محمد (ص)، و المعنى انه تعالى لا يترك في الدنيا هؤلاء المكذبين من غير تأديب، بل ينزل عليهم الكوارث و البلايا الحين بعد الحين بسبب موقفهم من رسول الله (ص)، أو ينزل مصيبة من حولهم تملأ قلوبهم خوفا و رعبا، و يتابع ذلك حتى ينجز الله وعده لنبيه بالنصر **(إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)**. كيف؟. و وعده أصدق الوعد،

و الصحابة و كل مؤمن على ثقة بأن الله منجز وعده، و ناصر جنده لا محالة.

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٣٢ الى ٣٤]

وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرَسُولٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَامْلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَ صَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٠٨

اللغة:

أملت أمهلت. و قائم على نفس أي رقيب عليها و مدبر لأمرها.

الإعراب:

كيف خبر مقدم لكان، و عقاب اسمها، و الأصل عقابي. و الجملة مفعول لفعل محذوف أي فانظر كيف الخ. أفمن (من) اسم موصول مبتدأ و الخبر محذوف أي كمن ليس كذلك. و هو قائم مبتدأ و خبر، و الجملة صلة الموصول. أم تنبئونه (أم) منقطعة بمعنى بل و الهمزة أي بل أ تنبئونه. و من يضل (من) مبتدأ و فما نافية، و له متعلق بمحذوف خبر الهدى، و من الداخلة عليه زائدة اعرابا، و الجملة خبر من يضل الله.

المعنى:

(وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرَسُولٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَامْلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ). يقول سبحانه لنبيه محمد (ص): اصبر و امض في دعوتك، و هون عليك أمر الذين كذبوك و سخروا منك و ابعدوا في اقتراحاتهم عليك، فلقد فعل فعلهم من كان قبلهم، فأطلت لهم و مددت الأجل، ثم أخذتهم أخذ عزيز مقتدر، و هذه بالذات عاقبة الذين كذبوا برسالتك.

و ما أرسل الله نبياً الا و هو مزود بأميرين: العلم بالأدلة الكونية و العقلية على وجود الخالق و وحدانيته، و معجزة تظهر على يده، و تدل على نبوته، و بالأولى يقنع الناس بالتوحيد، و بالثانية يقنعهم بأنه رسول من ربه، و كان الذين لا يؤمنون الا بمنافعهم و أرباحهم يستهزئون و يسخرون من الأنبياء و أدلتهم و معجزاتهم، و الله يمد لهم الأجل ليؤبوا الى رشدهم، و ليعذر اليهم بالإملاء، كما اعذر اليهم بالحجج.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٠٩

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) يحرسها و يراقبها و يحصي عليها كل شيء و يجازيها بالثواب ان أحسنت، و بالعقاب ان أساءت، أفمن يكون بهذه الصفات تجعل الأحجار شريكة له؟ .. **(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ)** لا يشبهونه بشيء (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ - ١٧ النحل)؟ .. **(قُلْ سَمُوهُمْ)** أي اذكروا أيها المشركون صفة واحدة لأصنامكم تستحق بها العبادة .. و هذا التحدي يشبه السخرية و التهكم، تماما كما لو قال الجبان: أنا أشجع الشجعان. فتقول له:

اذكر لنا شاهدا واحدا على شجاعتك.

(أَمْ تَتَّبِعُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ). الله يقول: لا شريك لي. وهم يقولون له، بل لك شركاء كثيرون .. ومعنى قولهم هذا في واقعه ان الله لا يعلم وهم يعلمون، وانهم يخبرونه بشيء يجهله .. تعالى الله عما يصفون، وبتعبير أهل المنطق إذا وجد الملزوم وجد اللازم، وإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم - إذا وجدت الشمس وجد النهار، وإذا انتفت الشمس فلا نهار، وإذا انتفى النهار فلا شمس أيضا ظاهرا و واقعا .. وكذلك إذا وجد الشريك علم الله بوجوده حتما، و حيث ان الله لا يعلم به فلا شريك، و الا يلزم جهله تعالى الله عن ذلك.

و انما خص سبحانه الأرض بالذكر مع انه تعالى لا شريك له في الأرض و لا في السماء، لأن الحديث يتعلق بالأصنام، و هي في الأرض لا في السماء.

(أَمْ بِيْظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ). وضعت الكلمات لتدل على معنى موجود، و آية كلمة لا تدل على ذلك فهي شيء في الظاهر، و لا شيء في الواقع، و كلمة شركاء الله من هذا الباب أسماء بلا مسميات: «إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ - ٢٣ النجم»، و مر نظيره في الآية ٧٠ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٤٨، و الآية ٤٠ من سورة يوسف.

(بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ). معنى المكر في اللغة الخداع، و قد خدع المشركون بالأصنام، فظنوها شريكة لله في خلقه، و زينت لهم أنفسهم هذا المكر و الخداع **(وَ صَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ)** بالبناء للمجهول أي ان الذي زينته له أنفسهم صداهم عن الحق و الايمان بالله و وحدانيته **(وَ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)**. انظر

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤١٠

تفسير الآية ٨٨ من سورة النساء، فقرة «الإضلال من الله سلبى لا ايجابى» ج ٢ ص ٣٩٩.

(لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) بالخزي و الهوان **(وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ)** لأن كل شيء من الدنيا سماعه أعظم من عيانه، و كل شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه، كما قال الإمام علي (ع). **(وَ مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ)** يقبهم العذاب و يدفعه عنهم.

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٣٥ الى ٣٨]

مَثَلِ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكْلُهَا دَائِمٌ وَ ظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ عُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) وَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَ مِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يَنْكُرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لَا أَشْرِكُ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَاب (٣٦) وَ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حِكْمًا عَرَبِيًّا وَ لَنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ وَ لَا وَاقٍ (٣٧) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رِسَالًا مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَ ذُرِّيَّةً وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨)

اللغة:

الأكل بضم الهمزة المأكول. و المراد بالكتاب القرآن و بالذين آتيناهم الكتاب

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤١١

صحابة النبي (ص) لأنهم هم الذين فرحوا به عند نزوله، و المراد بالأحزاب أهل الأديان الذين تحزبوا و تعصبوا ضد الإسلام، فإنهم يكفرون ببعض القرآن و يؤمنون ببعض. و الماب المرجع. و الواقي الحافظ.

الإعراب:

قال المفسرون: ان سيويه أعرب مثل الجنة مبتدأ، والخبر محذوف أي فيما يتلى عليكم مثل الجنة، والمعنى ان وصف الجنة هو ما ذكرناه في القرآن. و التي عطف بيان من الجنة، و العائد على الاسم الموصول محذوف أي وعد بها المتقون، و جملة تجري حال من الجنة. و أكلها دائم مبتدأ و خبر، و ظلها أي و ظلها دائم. و من الأحزاب خبر مقدم، و من ينكر مبتدأ مؤخر. و حكما حال من هاء أنزلناه، و عريبا صفة للحكم. و المصدر المنسبك من ان يأتي اسم كان.

المعنى:

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا).

لما ذكر سبحانه عقاب الكافرين ذكر ثواب المتقين، كما هو شأنه تعالى في المقارنة بين الضدين و المتشابهين، و ثواب المتقين الجنة بنعيمها الدائم أنهارا و ثمارا و ظللا (تلك عقبى الذين اتقوا). تلك إشارة الى الجنة، و العقبى المنقلب و المصير، و المتقون هم الذين يناصرون الحق و أهله، و يقاومون الباطل و أهله، و في بعض الأخبار: ان الايمان فوق الإسلام، و التقوى فوق الايمان، و اليقين فوق التقوى و المراد باليقين الثقة بالله، و التوكل عليه.

(وَعَقَبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ). و ليس المراد بالكافر هنا خصوص من جحد بالله أو أشرك به، بل كل من عاند الحق، و هو به عليم .. فقد جاء في كثير من الأخبار ان النفاق كفر، و الرياء شرك. و قد وصف سبحانه الظالمين بالكفر في الآية ٩٩ من الاسراء: «فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا» كما وصف الكافرين و المشركين بالظلم في العديد من الآيات.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤١٢

الشيعة الإمامية و الصحابة:

دأب بعض الماجورين و الجاهلين على إثارة الفتن و النعرات بين المسلمين لتشتيت وحدتهم و تفريق كلمتهم، دأبوا على ذلك عن طريق الدس و الافتراء على الشيعة الامامية، و ذلك بأن نسبوا اليهم النيل من مقام الصحابة، و تأليه علي، و القول بتحريف القرآن الذي يهتز له العرش .. و ما إلى ذلك من الكذب و البهتان .. و كتبت المقالات الطوال في الرد على هؤلاء الأذعياء و العملاء، ثم وضعت في الشيعة الامامية كتاب «مع الشيعة الامامية». و «الشيعة و الحاكمون».

و «الاثنا عشرية و أهل البيت». و «الشيعة و التشيع» و هو أكبر و أضخم من الجميع، و غرضي الأول من المقالات و المؤلفات جلاء الحقيقة لمن يرغب في معرفتها، و إبطال ما قيل أو يقال حول هذه الطائفة من الافتراءات و الأكاذيب. و أشرت هنا إلى ما كتبت و ألفت في هذا الموضوع لمناسبة تتضح مما يلي:

(وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ). قال أبو حيان الأندلسي و الزمخشري و الشيخ المراغي و البيضاوي و غيرهم من علماء السنة قالوا: المراد بالذين آتيناهم الكتاب من آمن بمحمد من اليهود و النصراني .. و قال الطبرسي في مجمع البيان ما نصه بالحرف: «يريد الله سبحانه أصحاب النبي (ص) الذين آمنوا به، و صدقوه و أعطوا القرآن، و فرحوا بإنزاله». و الطبرسي من أجل علماء الشيعة الامامية و ثقافتهم (ت ٥٤٨ هـ) .. فالكثير من علماء السنة فسروا الآية بمن أسلم من أهل الكتاب، و فسرها الشيعة الامامية بصحابة الرسول الأعظم (ص)، و لو كانوا ينالون من مقام الصحابة لاتجه شيخهم الطبرسي في تفسير هذه الآية الى غير هذا الوجه .. و بهذا يتبين الدس ممن نسب اليهم هذه الفرية.

وكان ابان بن تغلب أحد الكبار في تلامذة الإمام جعفر الصادق (ع)، حتى ان الإمام كان يأمر الشيعة أن يأخذوا الدين عنه، وفي ذات يوم سأله رجل عن الشيعة؟. و كان يدعى هذا السائل «أبو البلاد». فقال له ابان: انهم الذين إذا اختلف الناس في الرواية عن النبي (ص) أخذوا برواية علي عن النبي، وإذا اختلف الناس في قول علي (ع) أخذ الشيعة بقول جعفر الصادق عن علي ..

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤١٣

فالمسألة - اذن - عند الشيعة الامامية مسألة ثقة بالرواية عن محمد (ص) لا مسألة سب و شتم أصحاب محمد .. و السر لاعتماد الشيعة على أهل البيت فيما ثبت عن جدهم ما رواه مسلم في صحيحه عن النبي (ص) باب «من فضائل علي بن ابي طالب» انه قال: «انا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي، فأجيب و انا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، و استمسكوا به، فحث على كتاب الله و رغب فيه، ثم قال: و أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي كررها ثلاثا».

(وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يَنْكُرُ بَعْضَهُ). المراد بالأحزاب أهل الملل و الأديان الأخرى كاليهود و النصراني و غيرهم ممن أنكروا ما يخالف أهواءهم، و اعترفوا بما بوافقها من القرآن .. و من الواضح ان اعتراف هؤلاء، و انكارهم سواء، لأنه اعتراف بما يهودون، لا بالقرآن **(قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لَا أُشْرِكُ بِهِ إِلَهًا دَعَا وَ إِلَيْهِ مَاب)**. هذا هو الإسلام: لا إله إلا الله له الملك و اليه وحده الدعوة الى العبادة، و اليه المرجع و المصير.

(وَ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا). المراد بالحكم القرآن لأنه حكم الله، و ما عداه حكم الجاهلية، كما قال سبحانه: «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» - ٥١ المائدة. و كما أرسل الله كل نبي بلغة قومه فقد أرسل محمدا كذلك: «وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» - ٤ ابراهيم. و عند تفسير الآية ٢ من سورة يوسف بيّننا السبب لنزول القرآن بلغة العرب مع ان محمدا رسول الله الى الناس جميعا.

(وَ لَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا وَاقٍ).

الخطاب لمحمد، و الضمير في أهوائهم الى الأحزاب من أهل الملل و الأديان - غير الإسلام - و الله يعلم ان النبي لا ولن يتبع أهواءهم .. و الغرض من هذا النهي ان يثبت و يستمر في الدعوة الى الحق، و لا يخشى في الله لومة لائم، و قدمنا أكثر من مرة ان الأمر من الأعلى لا يلحظ فيه مقام المأمور مهما بلغ من العظمة ما دامت دون عظمة الأمر.

(وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَ ذُرِّيَّةً). إذا أحم المبطل

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤١٤

و لم يجد حجة يتذرع بها أخذ باللف و الدوران، و قاس الأشياء بخياله و أوهامه، و هذه هي بالذات حال المشركين مع محمد (ص) .. اتاهم بالدلائل و البيّنات، و لما عجزوا عن ردها قالوا: كيف يكون نبيا، و له نساء و أولاد؟. و هذا المنطق العليل يتفق تماما مع منطق الذين آمنوا بالرهبانية و قد رد الله عليهم بأن محمدا كنوح و ابراهيم و إسماعيل و غيرهم من الأنبياء و الرسل الذين لهم نساء و أبناء، فأبي عجب في ذلك؟. و في الحديث عن النبي (ص) انه قال: «أما أنا فأصوم و أفطر و أقوم و أنام، و آكل اللحم، و أتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

(وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ). و هذا رد أيضا على المشركين الذين اقترحوا على رسول الله أن يأتيهم بما يهودون من المعجزات .. و وجه الرد، ان الله سبحانه قد زود نبيه محمدا بما هو كاف و واف في الدلالة على



نبوته لمن تدبر واعتبر، و طلب الحق لوجه الحق، أما الاستجابة لأهواء العنود المكابر فلا يحتمها عقل ولا عرف، و أمرها متروك الى الله و حكمته جل و عز **(لكل أجل كتاب)**. لكل شيء أجل معجزة كان أو عذابا أو غيرهما، و الأجل محتوم لا يتقدم ولا يتأخر، و هو مكتوم أيضا لا يعلمه الا الله.

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٣٩ الى ٤٣]

يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نتَّوَفَيْنَكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لَمْعَبِّ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَ سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عَقَّبَى الدَّارَ (٤٢) وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤١٥

اللغة:

المراد بالمحو هما نسخ الأحكام. و أم الكتاب أصله، و علمه تعالى هو الأصل لجميع الكتب السماوية. و أطراف الأرض جوانبها. و قيل: الأطراف هنا جمع طرف بكسر الطاء، و هو الشيء الكريم، و ان الأرض تنقص بموت كرامها. و هذا المعنى بعيد عن سياق الآية. و لا معقب لحكمه أي لا راد له.

الإعراب:

انما مركبة من كلمتين: ان الشرطية و ما الزائدة اعرابا. و نرينك مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد. و جواب الشرط فإنما عليك البلاغ. و جملة نناقصها حال من ضمير نأتي. و لا معقب (لا) نافية للجنس و معقب اسمها و لحكمه خير، و الجملة حال من ضمير يحكم. و كفى بالله الباء زائدة اعرابا و لفظ الجلالة فاعل كفى، و شهيدا حال أو تمييز على معنى من شهيد. و من عنده (من) اسم موصول في محل جر عطفًا على لفظ الجلالة، أي و كفى بمن عنده، و عنده خبر مقدم، و علم الكتاب مبتدأ مؤخر، و الجملة صلة الموصول.

المعنى:

(يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ). أم الكتاب كناية عن علمه تعالى بما كان و يكون، و لو جاز لنا تفسير الألفاظ بالذوق و الاستحسان لفسرنا الكتاب بالكون، و الأم بعناصره و أسراره، لأن لله كتابين و في كل منهما آيات بينات على وجوده و وحدانيته، و جلاله و عظمته: أحدهما ينطق بلسان الحال، و هو الكون، و الآخر بلسان المقال، و هو القرآن.

أما المحو و الإثبات فقد نقل الطبرسي في معناه ثمانية أقوال، و أقربها ان المراد بالمحو نسخ الشريعة كالشرائع القديمة، أو نسخ بعض أحكامها كنسخ الصلاة الى بيت المقدس من الشريعة الاسلامية. أما الإثبات فالمراد به إقرار الأحكام

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤١٦

و رسوخها إلى يوم القيامة، و عليه يكون المعنى ان الله سبحانه ينسخ أو يقر الشريعة كلاً أو بعضاً حسبما تستدعيه الحكمة و المصلحة، و هو جلت عظمته عالم بما يصلح العباد و ما يفسدهم، فينهاهم عن هذا، و يؤمرهم بذلك دواما أو

مؤقتا على مقتضى علمه بأمد المضار و المنافع .. و تكلمنا عن النسخ عند تفسير الآية ١٠٦ من سورة البقرة ج ١ ص ١٦٩.

(وَإِنْ مَا تُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِينَكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسَابُ).

هذه الآية تتصل بالآية ٣١ من هذه السورة، و هي قوله تعالى: «وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ». و وجه الاتصال ظاهر حيث قال الله لنبيه: انه سينزل العذاب على من كذبه لا محالة، ثم قال له في الآية التي نحن بصددنا: سواء أريناك عذابهم أم توفيناك قبل ذلك فان مهمتك الأولى و الأخيرة ان تؤدي رسالتك على وجهها و كفى و ما عدا ذلك علينا، لا عليك.

(أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا). الأرض كرة لا أطراف لها كما للجسم المسطح، و لكنها كبيرة تتسع لملايين الأجناس و الأنواع من الكائنات و المخلوقات، و هي في تغير دائم .. فبينما يرى الإنسان أو يسمع ان هذه البقعة من الأرض أهلة بالسكان و أسباب الحضارة و أنواعها، و تلك البقعة صحراء جرداء و إذا بالأهلة خراب يباب، و بالصحراء جنات و عيون .. و أهل الأرض كذلك:

حضارات تحيا، و أخرى تموت، و ملك يقوم، و آخر يزول .. و هكذا دواليك، لا يدوم بؤس و لا نعيم في هذه الأرض .. قال الإمام علي (ع): «احذروا الدنيا فإنها غدارة غرارة، خدوع معطية منوع، ملبسة نزوع، لا يدوم رخاؤها، و لا ينقضي عناؤها». و قوله تعالى: **(نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا)** يشير الى هذا المعنى، و ان العاقل يتعظ و يعتبر بهذه التقلبات و التغيرات: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ - ١٠٩ يوسف».

(وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لِمَنْ مَعَهُ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ). و قد حكم بالهلاك على القوم المجرمين، فنفذ فيهم حكمه و بأسه: «وَ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ - ١١ الرعد».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤١٧

(وَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا). و المراد بمكر الله إبطال مكر الماكرين و تدبيرهم. انظر تفسير الآية ٥٤ من سورة آل عمران، فقرة الله خير الماكرين ج ٢ ص ٦٨ **(يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ)** لأنه واسع عليم **(وَ سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عَقَبَى الدَّارِ)** يوم ينقلبون الى ربهم، و يقولون: هذا يوم عسير.

(وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا). أنكروا رسالة محمد (ص) رغم البينات و الدلائل .. لأنها حرب و ثورة على الظلم و الطغيان، و على كل تقليد يحول دون الإنسان و حرিতে و أمنه و سعاده.

راحة الضمير و الوجدان:

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ). أمر الله نبيه في هذه الآية ان يقول للمشركين: إذا أنكرتم رسالتي فإن الله يشهد بأنني رسول من عنده، و أيضا المنصفون من علماء التوراة و الإنجيل يشهدون بذلك .. هذا هو المعنى الظاهر، و هو المراد، و عليه جميع المفسرين، و نحن معهم، و لكننا نلمس من وراء هذا الظاهر معنى كبيرا و جليلا ينطبق على كل من آمن بالحق و عمل به، و أنكره عليه المفسدون في الأرض، و لاقى منه ما لاقاه الأنبياء و المصلحون، و يتلخص هذا المعنى الكبير الجليل الذي ترمز اليه الآية بأن كل من استراح ضميره الى شيء و شهد معه الوجدان السليم فإن الله أيضا يشهد و ملائكته و المنصفون من عباده بأنه على حق، نبيا كان أو غير نبيا.

و تسأل: متى يكون الإنسان مرتاح الضمير، و يشهد معه الوجدان السليم؟.



الجواب: ان الإنسان لا يكون من أهل الضمير الحي و الوجدان السليم الا إذا آمن بقيم انسانية كالعدالة و الحرية و الصدق و الأمانة، و ما الى ذلك مما يعود خيره على الجميع، و متى آمن الإنسان بالقيم، و لاعم بين تصرفاته و إيمانه استراح ضميره و شهد له وجدانه، و متى وقع الانفصال بين التصرف و الايمان تأرق ضميره، و أنحى عليه لوما و تقريعا.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤١٨

و أهل الضمير و الوجدان لا يهتمون الا بقيمتهم أمام ضميرهم، و أمام الناس الطيبين من أمثالهم الذين يشاركونهم الايمان بالمثل و القيم الانسانية، أما قيمتهم عند من لا ضمير له، و لا يرى الانفسه و صالحه فلا يهتمون بها على الإطلاق، بل يهتمون انفسهم، و يتوبون الى الله إذا رضي عنهم المفسدون.
و في يقيني ان أكثر الناس سعادة هم أهل المبادئ الحقة الذين لا يعملون الا بما استراحت اليه ضمائرهم.
و تقول: ان كثيرا من الناس يشعرون بالسعادة إذا وجدوا ما يبتغون، و مع ذلك لا يؤمنون بقيمة و لا مبدأ .. و هل السعادة الا شعور الإنسان بأنه يجد ما أراد؟
و هل الشقاء الا الاحساس بحرمانه مما يريد؟.

الجواب: أولا ان حديثنا مقصور منذ البداية على أهل الضمير دون غيرهم، و هؤلاء لا ضمير لهم. ثانيا: ان كثيرا من الذين يجاهرون بإنكار القيم يقرونها في قرارة انفسهم، و لكن لما غلبت عليهم شقوتهم حاولوا إخفاء هذا الغلب و العجز بإنكار ما يقرون و يؤمنون، و قالوا كاذبين على انفسهم: لو كان هناك قيم لالتزمنا بها و حرصنا عليها، تماما كما ينكر المجرم جريمته و هو على يقين منها.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤١٩

سورة ابراهيم

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٢١

سورة ابراهيم مكية، و عدد آياتها ٥٢، و قيل: منها آيتان مدنيتان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة ابراهيم (١٤): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَيُولِي لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)

اللغة:

العزیز الغالب. و الحمید المحمود .. و الویل الهلاك. و يستحبون يختارون و يؤثرون.
و بلسان قومه بلغتهم.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٢٢

الإعراب:

كتاب خبر لمبتدأ محذوف أي هذا كتاب. وجملة أنزلناه صفة لكتاب. والى صراط العزيز بدل من قوله الى النور باعادة حرف الجر. و الله الذي (الله) بدل من العزيز، و الذي له ما في السموات الخ. صفة لله أي مالك السموات و الأرض و ما فيهما. و له خبر مقدم و ما مبتدأ مؤخر، و الجملة صلة الموصول. و ويل مبتدأ، و للكافرين خبر. و الذين يستحبون عطف بيان من الكافرين أو صفة أي المستحبين.

و عوجا مصدر في موضع الحال أي معوجين ضالين. و يجوز أن يكون عوجا مفعولا به إذا قدرت و يبغون لها العوج. فيضل بالرفع، و لا يجوز نصب بالعطف على ليين، حيث يصير المعنى ان الله أرسل الرسول ليضل.

المعنى:

(الر) تقدم نظيره في أول سورة البقرة. **(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)**. المراد بالكتاب القرآن، و أنزلناه اليك الخطاب لمحمد (ص)، و بإذن ربهم أي بأمر الله تعالى، و تدل الآية بوضوح على ان الهدف الأساسي من إرسال محمد (ص) و انزال القرآن عليه هو ان يجند بدعوته كل طاقات الناس للعمل متكاتفين متضامنين من أجل الانسانية و خيرها و اطمئنانها، لأن إخراج الناس من الظلمات الى النور لا يتم بالدعوات و الصلوات، و انما يكون بالجهاد الجماعي لا الفردي، و كفاح المنظمات لا الأفراد، كفاحهم ضد المستغلين و المستثمرين، و ضد الجهل و الخرافة، و ضد الأوضاع الفاسدة، و التقاليد البالية. و بالفعل آخى محمد (ص) بين أصحابه، و بث فيهم روح الصفاء و المحبة، و روح الفداء و التضحية لإعلاء كلمة الله و الانسانية، و جعل منهم - و هم الأجلاف الجاهليون - رسل خير و علم و حضارة .. و بهذه المناسبة ننبه الأذهان الى الدجالين و الانتهازيين الذين يشجعون الخرافة، و يناصرون الطغاة باسم الدين .. ان هؤلاء

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٢٣

من أعدى أعداء الله و رسوله، لأن الدين نور، و الخرافة ظلمات، و الدين صراط الله الحميد، و الظلم صراط الشيطان الرجيم.

و تسأل: تقول الآية ٣٣ من سورة التوبة: «هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله و لو كره المشركون». و معنى هذا في ظاهره ان الله أرسل محمدا بقصد أن يكون دينه فوق الأديان، فما هو وجه الجمع بين هذه الآية و بين قوله تعالى: **(لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)؟**

الجواب: أولا ان المراد بالدين في قوله: ليظهره على الدين هو الشرك بدليل قوله: و لو كره المشركون. ثانيا: ان الأديان في عهد محمد (ص) كانت كلها ظلمات، حتى السماوية منها لعبت بها أيدي التحريف. ثالثا: ان إعلاء دين محمد هو إعلاء للحق الذي يعلو و لا يعلى عليه، و مهما يكن فإن أي مبدأ ينتفع به الناس بجهة من الجهات فانه يلتقي في هذه الجهة مع دين الله، و دعوة محمد رسول الله (ص).

(اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ). تكرر هذا في كتاب الله عشرات المرات، و القصد التذكير بأن الله هو خالق الكون، و المسيطر على من فيه و ما فيه. ثم ذكر سبحانه جزاء الكافرين، و طرفا من صفاتهم:



- ١- **(وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)**. هذا وعد و وعيد للكافر على كفره، و ان جزاءه الهلاك و العذاب الاليم، قال الرازي: انما خصهم بالويل لأنهم يولون من العذاب، و يقولون: يا ويلاه.
- ٢- **(الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ)**. هذا أول وصف للكافرين و هو انهم يؤثرون الباطل على الحق، و الظلم على العدل، و الفساد على الصلاح ..
- و كل من كان كذلك فهو كافر، أو يلتقي مع الكافرين في عمله، و عليه ما عليهم من اللعنة و العذاب، و ان صلى و صام، و حج الى بيت الله الحرام.
- ٣- **(وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)** فيمنعون الناس عن طريق الحق و الهداية، و كانوا بذلك ضالين مضلين، و فاسدين مفسدين.
- ٤- **(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)**. و عوجا تشير إلى انهم يتوصلون الى غاياتهم بأساليب ملتوية و محرمة، كالكذب و الغش و المؤامرات و التعاون

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٢٤

مع الطغاة، و لا يختص هذا الوصف بالكافرين و المشركين، فان كثيرا من المسلمين يكذبون و يخونون و يتآمرون مع أعداء الله و الوطن على عيال الله و مقدراتهم ..

و هؤلاء شر مكانا من الكافرين و أضل سبيلا. و قوله تعالى: في ضلال بعيد معناه انهم أمعنوا في الضلال و الفساد، حتى بلغوا غايته.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) فيفهموا عنه، و تتحقق الغاية من رسالته، و لو وجدت لغة انسانية عامة تفهمها جميع القوميات لأرسل بها محمد (ص) لأنه رسول الله الى الناس جميعا في كل زمان و مكان .. و ينبغي التنبه الى الفرق بين قوله تعالى: و ما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه، و بين القول: ما أرسلنا رسولا الا الى أهل لغته، فالصيغة الأولى لا تمنع ان يكون الرسول عاما، و لغته خاصة، على عكس الصيغة الثانية، حيث تحصر رسالة الرسول بقومه و حدهم .. انظر تفسير الآية ٢ من سورة يوسف.

(فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). أرسل الله رسله الى عباده لانقاذهم من الجهالة و الضلالة، فمن استمع و أطاع فهو المهتدي، و من أعرض و عصى فهو الضال، فالهداية- اذن- تقاس بطاعة الله، و الضلال بمعصيته .. و لو ان الله لم يشرع أحكاما، و لم يرسل رسلا لتبليغها لما كانت الطاعة و المعصية و لا الهدى و الضلال، و لكنه تعالى شرع و أرسل، فنتج عن ذلك الطاعة و المعصية و الهدى و الضلال، و بهذا الاعتبار صحت نسبة الهدى و الضلال اليه جلت حكمته. انظر ج ١ ص ٧٠ و ج ٢ ص ٣٩٩.

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٥ الى ٨]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) و إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) و إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ و لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) و قَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ و مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٢٥

اللغة:

يسومونكم أي يذيقونكم. و يستحيون نساءكم أي يستبقوهن أحياء للاسترقاق.
و تأذن من الأذن و هو الاعلام.

الإعراب:

ان اخرج (ان) مفسرة بمعنى أي. و جملة يسومونكم حال من آل فرعون.
و في ذلكم بلاء مبتداً و خبر. و إذ تأذن معطوف على إذ أنجاكم. و لئن شكرتم اللام للتوطئة تدخل على الشرط لتدل على ان الجواب له و للشرط معا. لأزيدنكم اللام و ما دخلت عليه سادان مسد جواب القسم و الشرط.

المعنى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا - الدالة على نبوته - أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ). عاد الحديث الى موسى (ع) و بني إسرائيل الذين أقرحوا قلبه، و آدموا فؤاده، عاد الحديث اليهم، و قد تكرر فيما سبق عشرات المرات، و لا أعرف سرا لتكرار الحديث عنهم أكثر من غيرهم الا انهم قد شذوا عن الناس،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٢٦

كل الناس طبيعة و عملا، كما أشرت فيما تقدم، و لا أخفي اني أشعر بعبء ثقيل عند تفسير الآيات التي فيها اسم بني إسرائيل.

(وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ). و أظهر هذه الأيام، و أعظمها نعمة عليهم يوم أنجاهم الله من عذاب فرعون و حرهم من الرق و العبودية .. لله من حكم .. **(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)** .. صبرا على بلائك أملا بنصرك و الأثك .. ذلك اشارة الى التذكير، و المراد بالآيات هنا العبر و العظات، و من الواضح ان الذي يتعظ و يعتبر هو المؤمن حقا الذي يشكر عند الرخاء، و يصبر عند البلاء، مع الجد و الاجتهاد في الخلاص مما يعانيه.

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَ يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ). ذكر موسى (ع) بني إسرائيل بما صنعه فرعون بهم من الذبح و الاسترقاق، و بنعمة الخلاص من ذلك، و أمرهم أن يذكروا الله و يشكروه على هذه النعمة .. و لكنهم لم يذكروه و لم يشكروه، بل كفروا بالله، و جحدوا نعمته، و تمردوا عليه و على نبيهم موسى، و قالوا له: أرنا الله جهرة، و قالوا له:

اذهب أنت و ربك فقاتلا .. و مروا على قوم يعبدون أصناما لهم، فقالوا، يا موسى اجعل لنا إلهة كما لهم آلهة، ثم عبدوا من دون الله عجلا جسدا له خوار مكافاة لله الذي أنجاهم من عذاب فرعون .. و لما يئس منهم موسى، و ضاق بهم ذرعا توجه الى الله و قال: ربي اني لا أملك الا نفسي و أخي فافرق بيننا و بين القوم الفاسقين .. فأني عجب بعد هذا إذا تنكر اليهود لنعمة المسلمين عليهم يوم نبذهم العالم، حيث لا أمريكا و لا انكلترا و لا المانيا الغربية تتخذ منهم سمسارا مخلصا، و كلبا حارسا للاستعمار و النازية؟. و مر نظير هذه الآية في ج ١ ص ٩٨ الآية ٤٩ من سورة البقرة.

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ).

المراد بالكفر هنا الكفران، و هو عقوق المنعم و جحود نعمته، لأن الحديث عن جحود بني إسرائيل لأنعم الله، و لأن

الشكر يقابله الكفران، لا الكفر، و قد ذكرا في آية واحدة. و قال المفسرون أو الكثير منهم: المراد ان الله إذا أنعم

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٢٧

على عبده بنعمة فشكرها و اعترف لله بها اذام الله عليه هذه النعمة و ضاعفها، قالوا هذا اخذا بالقول المشهور: «بالشكر تدوم النعم».

و في رأينا ان المراد بزيادة النعمة هنا زيادتها في الآخرة، لا في الدنيا، لأنه من المؤكد ان المراد بالعذاب الشديد على الكفران عذاب الآخرة، فيكون الأجر على الشكر كذلك، و ثبت عن رسول الله (ص) انه ساوى في العطاء بين الصالح و الطالح، و قال الإمام علي (ع): لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف و انما المال مال الله؟ .. هذا، الى أنا نشاهد الأموال تتراكم و تتدفق على الطغاة كلما ازدادوا عتوا و طغيانا .. أجل، لو كان المراد بالشكر المحافظة على المال و حسن تدبيره و استثماره لكان لقول المفسرين وجه، و لكنه خلاف الظاهر، و لا قائل به حتى من المفسرين أنفسهم.

(وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ).

و الحمد لله لا لغيره، و الاستغناء به لا بسواه، و بدل هذا القول من موسى على حرقته و يأسه من بني إسرائيل و هدايتهم.

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٩ الى ١٣]

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَ قَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُوَخِّرَكُمُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَ مَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَ قَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا أَذَيْتُمُونَا وَ عَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٢٨

اللغة:

شك مريب مثل ظل ظليل، و عجب عجب و أعجب أي قوي، و ليلة ليلاء، و ليل الليل أي طويل و شديد السواد. و السلطان الحجة و البرهان.

الإعراب:

قوم نوح بدل من قبلكم، و ما بعده معطوف على قوم نوح. و جملة لا يعلمهم إلا الله حال من الذين من بعدهم. و قال كثيرون، منهم الزمخشري و البيضاوي قالوا: انها معترضة. و لم ندرك وجه الاعتراض لأنه لا يكون إلا بين أمرين يطلب كل منهما الآخر، و لا شيء من ذلك هنا لأن جملة جاءتهم رسلهم استئناف لا محل لها من الاعراب، فكان سائلا يسأل: و ما هو نبا الذين من قبلهم؟.

فأجاب: جاءتهم رسلهم الخ. و في أفواههم قيل: في هنا بمعنى الى، أي الى أفواههم. أفي الله شك مبتدأ و خبر، و الاستفهام للإنكار، و فاطر صفة لله.

والمصدر المنسب من ان نأتىكم بسلطان اسم كان، ولنا خبرها. و ما لنا (ما) استفهام في موضع رفع بالابتداء، ولنا خبر، والمصدر من الأتوكل مجرور بفي محذوفة. وقال أبو البقاء: يجوز أن يكون حالا أي غير متوكلين.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٢٩

المعنى:

(الْمَ يَأْتِكُمْ نَبُوءًا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ). سياق الكلام يدل على ان هذا خطاب من موسى (ع) لبني إسرائيل، لا من محمد لمشركي العرب أو غيرهم كما قيل. والمعنى ان موسى قال لبني إسرائيل واعظا محذرا: لقد سمعتم بطوفان نوح، و بالقواصم و العظام التي حلت بعاد و ثمود، و كثير غيرهم مما لا يحيط علما بعددهم إلا الله ..

فعل سبحانه بهم ذلك لأنهم عصوا الرسل و تمردوا على دعوتهم، أفلا تعتبرون و تتعظون بالأمم الخالية؟ قال هذا موسى لقومه، و أكثر من هذا، و لكن إسرائيل هي هي أولا و آخرا.

(جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ). كل رسول من الله الى عباده لا بد أن يكون مزودا منه تعالى بحجة قاطعة تدل على انه موافد منه اليهم، أشبه بالسفير يقدم أوراق اعتماده من دولته للدولة التي انتدب سفيرا لديها، و على هذا يكون المراد بالبينات المعجزات الدالة على نبوة الأنبياء و رسالتهم **(فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ)** الضمير يعود الى قوم نوح و من بعدهم ممن تقدم ذكرهم، ورد اليد الى الفم كناية عن شدة الغيظ و الإمعان في الاعراض، و مثله: **(عَصُوا عَلَيْكُمْ الْأَنْمِلَ مِنَ الْغَيْظِ - ١١٩ آل عمران).** **(وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ).** ارتاب المشركون أو أظهروا الارتياب في صدق أنبيائهم، و كانوا من قبل يعترفون لهم بالصدق و الإخلاص .. و لما ذا؟. لا لشيء إلا لأن الأنبياء دعوهم الى التزام الحق و العدل، و ترك الظلم و الباطل .. و هذا هو بالذات منطق الانتهازيين قديما و حديثا .. ينكرون اليوم ما اعترفوا به بالأمس و بالعكس، و السر يكمن في الأرباح و المكاسب، فهم معها أينما كانت و تكون ..

(قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)؟. أجل، انه لأعجب العجب أن يشكوا في موضع الايمان، و يؤمنوا في موضع الشك .. لقد جحدوا بخالقهم و وحدانيته، و آمنوا بالأحجار و عبودها من دون الله، و هي نحت أيديهم تبول عليها الكلاب و الذئاب .. **(يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ).** تعالى الله ما أكرمه و أحلمه .. يدعو عباده الى عفوه و رحمته، و يتولون عنه الى ما

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٣٠

يضرهم و لا ينفعهم **(وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى)** و لا يعجل العقوبة، بل يمهلهم لتوبوا الى الرشد و الهداية. **(قَالُوا إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا)** يدل هذا القول على مدى تفكيرهم، و انهم يذهبون فيه الى ان الناس العاديين لا يحق لهم أن يتولوا القيادات و المناصب الرفيعة و ان بلغوا من الإخلاص و الصدق و التضحية أعلى المراتب **(تُرِيدُونَ أَنْ تَصَدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)** .. فآباؤهم أعز عليهم من الله، و تقليدهم على الضلال أحق و أولى من طاعة الله على الهدى، حتى و لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا و لا يهتدون.

(فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ). لقد أتاهم الرسل بالحجج البالغة، و المعجزات الدالة على صدقهم، و لكن المشركين أرادوا



معجزات خاصة من النوع الذي أشار اليه سبحانه بقوله: «لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ - ١٢ هود»، وقوله «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا - ٩٠ الأسراء». فهم يطلبون المعجزة ولكن من خلال البطون، لا من خلال العقول.

(قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ). ان الله حكيم، ولأنه حكيم وعلیم فلا یمن برسالته إلا على من هو كفوء لها يتحلى بالصفات والمؤهلات لحملها وادائها: «قالوا لن نؤمن حتى نوتى مثل ما أوتى رسل الله، الله أعلم حيث يجعل رسالته - ١٢٤ الأنعام». **(وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بَإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ).** انظر تفسير الآية ٣٨ من سورة الرعد، والآية ٣٧ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٨٤، والآية ١١٨ من سورة البقرة ج ١ ص ١٨٩.

(وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ). و نلخص المعنى - على وضوحه وغناه عن التفسير - بأن الرسل قالوا للمشركين: نحن نبلغ عن الله، وندعو اليه، ولا نكثر بمن أدر و تولى، ولا نبالي بما يصيبنا من أذاكم في هذا السبيل، لأننا على ثقة من ربنا، وبينه من أمرنا، وان دل هذا التساؤل: «و ما لنا الا نتوكل على الله»

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٣١

ان دل هذا على شيء فإنما يدل على ان الأنبياء لا يرون شيئاً في الوجود إلا الله و في الله وحده.

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ١٣ الى ١٧]

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَ لَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَ خَافَ وَعِيدَ (١٤) وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَ لَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ مَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَ مِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧)

اللغة:

الملة الدين. و استفتحوا طلبوا الفتح و النصر على الأعداء. و الجبار إذا وصف به تعالى فمعناه العالي الذي لا يناله شيء، و إذا وصف به الإنسان فمعناه المتعالي المتكبر، و قد يطلق على من يصلح الأمور و يجبر كسرهما. و العنيد مبالغة المعاند و هو الذي يخالف الحق مع علمه به. و الصديد القيح المختلط بالدم. و يسيغه يبتلعه.

الإعراب:

أو لتعودن (أو) بمعنى إلا ان، مثل قولك: لا اذهب أو تفعل كذا أي الا

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٣٢

ان تفعل كذا. و استفتحوا عطف على فأوحى اليهم ربهم. و ما هو بميت (هو) مبتدأ و الباء زائدة اعرابا و ميت خبر.

المعنى:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا).

دعا الأنبياء دعوة الحق و العدل بالحكمة و الموعدة الحسنة، و لم يكرهوا أحدا على دينهم و عقيدتهم لأن دعوتهم تقوم على أساس عدم الإكراه في الدين، و ان كانت في طبيعتها ثورة على المعتدين و المستغلين، و من هنا أعلن هؤلاء الثورة

المضادة على الأنبياء، وخيروهم بين النفي والارتداد الى الكفر.. و سبق نظير ذلك في الآية ٨٨ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٦٣.

(فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي - أي وجودي و سطوتي **- وَ خَافَ وَعِيدِ).** بعد أن بلغ الأمر بالمشركين الى تهديد الأنبياء بالنفي إذا لم يشركوا مثلهم جاءت ارادته تعالى لتضرب الطواغيت الضربة القاضية، و تورث المؤمنين أرضهم و ديارهم و أموالهم: «وَأَوْرَثْنَاكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيَارَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ - ٢٧ الأحزاب».

انصاف الحلول:

و تجدر الاشارة بهذه المناسبة الى امرين:

الأول: انه جل و علا بعد أن ذكر تطاول أهل البغي و الفساد، و تماديهم في الضلال قال: ان مصيرهم الهلاك و الدمار نتيجة لبغيهم و ضلالهم، و ان عاقبة المتقين النصر و التمكين في الأرض، و هذا هو منهج القرآن في ذكر المسببات مع أسبابها، و النتائج مع مقدماتها، و لهذه الطريقة فوائدها، منها الترغيب في الحق و عمل الخير، و الترهيب من الشر و الباطل، و منها أن يتفائل الإنسان بحسن العاقبة و انتصار الحق، حتى و لو أخذ الباطل مأخذه و ان لا يستسلم لأهله و ان تطاولوا و صالحوا و جالوا لأن الكرة ستكون عليهم في النهاية و ان طال الأمد. و قد جرى

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٣٣

على هذه الطريقة الكثير من الخطباء و أصحاب الأقلام، فإنهم يذكرون اساءة من اساء، ثم يعقبون عليها واثقين بأن الشر لا يجزى به الا فاعله.

الأمر الثاني: ان الله سبحانه يتدخل بإرادته لنصرة المحقين على شريطة أن لا يرتدوا عن الحق، و لا يشكوا فيه، و لا يساوموا عليه، و لا يرضوا بانصاف الحلول، و يلتمسوا القليل من حقهم بالكثير من باطل أعداء الله و أعدائهم، و قد دلت التجارب على ان انصاف الحلول لا يستفيد منها الا من اعتدى و أفسد في الأرض، و انها أبدا و دائما تأتي في صالح المبطلين، لأن أي تنازل عن الحق فهو ربح للغاصب المبطل، و خسران للحق و أهله.. و هنا يكمن السر في صلابة الإمام علي بن أبي طالب في الحق، و رفضه انصاف الحلول بشتى صورها و أشكالها.

(وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ).

و الصديد القيح المختلط بالدم، و هو هنا كناية عما يصعب شربه و تجرعه لنتنه و قذارته، أو مرارته و حماوته، أو لذلك كله، أما ضمير استفتحوا فقيل: انه يعود الى الرسل. و قيل: الى المشركين. و قيل: اليهما معا. و المعنى يصح على كل الوجوه، لأن العاقبة كانت كما يجب ان تكون، نصر المؤمنين، و خزي الكافرين.. هذا، الى ان الأنبياء استفتحوا الله سبحانه: «قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ - ٣٠ العنكبوت». و قال المشركون يوم بدر: اللهم انصر أعلى الجندين. فاجابهم الله بقوله: «إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ - ١٩ الأنفال».

(يَنْجَرِعُهُ وَ لَا يَكَادُ يُسِيغُهُ) لنتنه و قذارته، و حرارته و مرارته **(وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ)** و هنا مضاف محذوف أي تأتيه أسباب الموت تحيط به من الجهات الست: شماله و يمينه و خلفه و أمامه و فوقه و تحته **(وَ مَا هُوَ بِمَيِّتٍ)** و لو مات استراح، و انقطع عنه العذاب، و قد أراد الله له الدوام و الخلود فيه: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا - ٣٦ فاطر».

(وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ). و مما قيل في تفسير الغليظ هنا: ان العذاب

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٣٤

يتجدد آناً، و حالا بعد حال، و كل حال أشد و أسوأ من سابقتها .. اللهم عفوا و لطفاً بمن آمن بك و بجننتك و ناركَ، و لا يبرئ نفسه من معصيتك، و لكنه يطمع في رحمتك.

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ١٨ الى ٢١]

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنَ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١)

اللغة:

برزوا لله ظهوروا له. و مغنون دافعون. و محيص منجى و مهرب.

الإعراب:

في اعراب مثل الذين كفروا أقوال، أرجحها عندنا و عند أبي حيان الأندلسي

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٣٥

ان (مثل) مبتدأ أول و أعمالهم مبتدأ ثان، و كرماد خبره، و المبتدأ الثاني و خبره خبر المبتدأ الأول. و في يوم متعلق بمحذوف حالا من الريح. و عاصف صفة للريح، و فاعله محذوف أي عاصف ريحه. و ذلك مبتدأ و الضلال خبر، و هو ضمير فصل لا محل له من الإعراب. من العذاب متعلق بمحذوف حالا من شيء، و قدم الحال على صاحبه لأن صاحبه نكرة، و من شيء (من) زائدة عند أبي البقاء، لأنها في سياق الاستفهام، و هو شبيه بالنفي، و شيء مفعول مغنون لأنه بمعنى تمنعون، و التقدير هل تمنعون عنا من العذاب شيئاً.

المعنى:

(مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ).

قال كثير من المفسرين: المراد من الآية ان الكافر لا يثاب على عمل البر، كالصدقة و نحوها .. و في رأينا ان كل من فعل الخير بدافع انساني فقد عمل الله أراد ذلك، أم لم يرد، و ليس من شك ان من عمل لله فأجره على الله لأنه عادل و حكيم، و أثابه بنحو من الانحاء، اما في الدنيا، و اما في الآخرة بتخفيف العذاب، و ليس من الضروري ان لا يدخله النار إطلاقاً، فإن آلاء الله لا تحصى كما و لا كيفاً. و تكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ١٧٨ من سورة آل عمران بعنوان: «الكافر و عمل الخير» ج ٢ ص ٢١١.

و على هذا يكون معنى الآية ان أي انسان يعمل الخير بدافع تجاري، لا انساني كالذي ينفق على المشاريع الخيرية أيام الانتخابات، ان عمل هذا و من اليه ليس بشيء عند الله، بل هو أشبه بهواء في شبك، أو برماد تذروه الرياح، سواء أ كان العامل مسلماً أو غير مسلم. قال الإمام علي (ع): «اعملوا بغير رياء و لا سمعة فإنه من عمل لغير الله يكله الله الى من عمل له».

و تسأل: إذا كان هذا الحكم يعم الكافر و غيره فلما ذا ذكرت الآية الكافر وحده؟

الجواب: ان ذكر الكافر بالخصوص لا ينفي الحكم عن غيره، و انما خصص بالذكر لأنه أظهر الأفراد.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٣٦

(لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ). ضمير لا يقدرُونَ عائد لفظا على الكافرين، و عائد معنى على كل من عمل و يعمل البر بقصد تجاري، و المراد ان من عمل عملا ليس لله و لا للانسانية فيه نصيب فانه لا ينتفع غذا بعمله، لأنه تماما كالرماد المتطاير في الهواء، و صاحبه ضال، بل و ممعن في الضلال، لأنه تجرد في عمله هذا عن كل سبب يربطه بالله و الانسانية.

(الَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَئُودُ يَدُوكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ). معنى ألم تر ألم تعلم، و الخطاب موجه لكل من يقرأه و يسمعه. و كلمة الحق تشير الى أنه تعالى ما خلق شيئا الا لحكمة اقتضت ذلك: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا- ٢٧ ص» .. بعد ان ذكر سبحانه الذين يعملون لغير الله قال انه في غنى عن الناس و أعمالهم، و لو شاء لأفناهم جميعا، و أتى بأمر غيرهم يعملون له وحده و لا يشركون به شيئا، لأنه على كل شيء قدير، و لا شيء أدل على ذلك من خلق الكون و عجائبه.

الظالم و المظلوم:

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا). برزوا بلفظ الماضي، و المراد به الاستقبال لأنه محقق الوقوع، و المعنى ان الانس و الجان، و الملائكة و الشياطين، كل هؤلاء يظهرون لله يوم القيامة، و ما من واحد منهم الا و هو يعلم علم اليقين انه قد تكشف لله على حقيقته، حتى من كان يكفر به و بالبعث.

(فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ). كل عاقل مسؤول عن عمله قويا كان أو ضعيفا، رئيسا أو مرووسا: «فَو رَبِّكَ لَنْ نَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ- ٩٣ الحجر»، بل و ما يقولون أيضا: «مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ- ١٨ ق».

فالتابع يسأل: هل اتبع الهدى أو الضلال؟. و هل عاضد و ساند المصلحين أو المفسدين؟
و أيضا المتبوع يسأل، و مسؤوليته أكبر و أعظم، لأنه مسؤول عن نفسه و عن

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٣٧

غيره من الاتباع و الهمج الرعاع، فهل يحمل أوزاره و أوزارهم.

و لست أعرف أحدا أعظم وزرا من هذا الطاغية المتبوع الا من تابعه و أعانه على ظلمه، و هو يعرفه على حقيقته .. ان ظلم الظالم ليس بأسوأ عند الله من صبر المظلوم على الظلم .. ان قتل المظلوم في سبيل حقه شهادة، و الشهداء احياء عند ربهم يرزقون .. و هل جرأ الظالم على الظلم إلا سكوت المظلوم عنه. و لو علم الظالم ان بين جوانح المظلوم نفسا «حسينية» (١) لتحاماه.

و مهما يكن، فان المراد بالضعفاء في الآية ضعفاء النفوس الذين يتبعون الظالم الضال، و هم على علم بظلمه و ضلاله، طمعا في جاهه أو ماله، أو جبنا و إثارا للسلامة و الراحة، و في حكمهم في المسئولية و الجريمة من يتبع الضال على العمى، و تقليدا للجموع أو للأصدقاء و الأقارب.

و قد صور سبحانه موقف التابعين لأهل الغي و الضلال عن علم أو جهل أعمى، صور موقفهم يوم الحساب مع الطغاة بهذا الحوار: قال ضعفاء النفوس و الهمم لرؤساء الدنيا و الدجالين من رؤساء الدين: كنا نأتمر بأمركم، و ننتهي بنهيكم ..

و ها نحن الآن كما ترون بين يدي الله لا حول لنا ولا طول، يحاسبنا ويعاقبنا على طاعتنا لكم في تكذيب الرسل، وفي معصية الله، فهل تدفعون عنا ولو يسيرا من عذاب الله ونقمتة؟.

(قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ). المراد بالهداية هنا النجاة والخلاص من عذاب الله، لأن الجواب يأتي على وفق السؤال، وقد سأل التابعون متبوعيه ان يخففوا عنهم يسيرا من العذاب، فأجابهم المتبوعون: لو استطعنا دفع العذاب لدفعناه عن أنفسنا. هذا هو المعنى المراد من الهداية هنا ولا يستقيم إلا به **(سِوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)**. حيث انتهى كل شيء، ولا يجدي جدال أو عتاب، لأن الدار دار حساب و عقاب، لا دار أقوال و أفعال.

(١). إشارة الى قول الحسين بن علي (ع): لا أرى الموت الا سعادة، و الحياة مع الظالمين الا برما.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٣٨

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٢٢ الى ٢٣]

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣)

اللغة:

المراد بالسلطان التسليط. و مصرخكم مغيثكم، يقال استصرخني فأصرخته.

الإعراب:

وعد الحق من اضافة الشيء الى نفسه، مثل حب الصيد و مسجد الجامع.

من سلطان (من) زائدة و سلطان اسم كان. و المصدر من ان دعوتكم منصوب على الاستثناء المنقطع لأن دعاء الشيطان ليس بسلطان. و أشركتمون أصلها أشركتموني.

خطبة الشيطان:

تكلمنا مفصلا حول فكرة إبليس و الشيطان في أول المجلد الأول، و في المجلد

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٣٩

الثاني ص ٣٢٤، و مجملا عند تفسير الآيات التي اشتملت على ذكر الشيطان ..

و نعود هنا الى الموضوع بقول أجمع و أوسع، لأن الآية التي نحن بصددنا من أوضح الآيات دلالة على وجود الشيطان، و انه حقيقة ثابتة، و ان لم تتعرض الى كنهه و هويته، و فيما يلي نعرض الجهات التي تتصل بهذه الآية:

١- ذكر الله سبحانه في كتابه العزيز الشيطان بعبارات شتى، فتارة يقول عز من قائل: ان الشياطين من نوع الانس و الجن كما في الآية ١١٢ من سورة الأنعام: «شياطين الانس و الجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول».

و تومى هذه الآية الى ان كل قول ظاهره الرحمة و باطنه فيه العذاب فهو من عمل الشيطان ايا كان قائله. و تارة يقول: ان

للشيطان جنودا و قبيلة كما في الآية ٩٥ من سورة الشعراء: «و جنود إبليس أجمعون». و الآية ٢٦ من سورة الأعراف: «انه يراكم هو و قبيله من حيث لا ترونهم» و تدل هذه الآية ان الشياطين لا يحصى لهم عد، و انهم ليسوا من الأشياء التي ترى بالعين، و تلمس باليد. و ثالثا يقول: ان للشيطان قرناء و أولياء كما في الآية ٣٨ من سورة النساء:

«و من يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا» و في الآية ٧٥ من سورة النساء:

«فقاتلوا أولياء الشيطان» و هذا اللفظ بمفرده يدل على ان قتال الزائغين و جهادهم فرض و حتم، حتى و لو كانوا «مسلمين». و رابعا يقول جلت حكمته و كلمته:

«هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ - ٢٢٢ الشعراء» و تدل هذه الآية ان الشياطين هم الكذابون الأفاكون.

أما وظيفة الشيطان و جنوده كما حددها القرآن فهي الإضلال و الإغواء للصد عن سبيل الحق و الخير، لا بالجبر و الإكراه، بل بالوسوسة و التزيين، و بالإغواء و التمويه .. و من أجل هذا قلنا و نكرر القول: ان أي شيء يزين للإنسان عمل السوء، و يرغبه في الشر و الفساد عن طريق المغريات و المشوقات فهو شيطان رجيم و إبليس اللعين، سواء أ كان هذا الشيء المزين المضلل إنسانا أم مالا أم جاها أم كتابا أم صحيفة أم وسوسة و حديث نفس أم شيئا آخر يرى أو لا يرى .. هذه هي صورة الشيطان التي انعكست في ذهننا، و نحن نتابع و نتدبر آيات

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٤٠

الله في كتابه، و نؤمن بها إيماننا به و برسوله .. و ما عدا ذلك من الجزئيات و التفاصيل ندعه لعلم الله، و ما نحن بمسؤولين عنه، و لا مكلفين به، و كل ما يجب علينا هو ان لا ننخدع بالمغريات، و لا نندفع وراء الشهوات، و لا نستمتع للزائغين و المضللين، و إذا حدثنا أنفسنا بشيء من ذلك، أو حاول مخادع أن يغرينا بالانحراف عن قصد السبيل تذكرنا الله و وعده و وعيده و وقفنا عند حدوده، بحيث نكون المثل الصالح لقوله: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ - ٢٠٠ الأعراف». انظر ج ٣ ص ٤٤٠.

٢- ان في نفس الإنسان شهوات و غرائز، و هي أقوى من اي عامل يدفع به الى معصية الله و مخالفة أمره، لأنها تأتي من الداخل لا من الخارج، و من الباطن لا من الظاهر، فإذا لم يكن في داخل الإنسان و باطنه قوة أعظم و أصلب تردع الميول الشيطانية، و تكبح جماحها وقع الإنسان صريع الأهواء و المطامع لا محالة .. و ليست هذه القوة الرادعة هي العبادة و الصلاة، و لا العلم و التحقيقات، و لا الفضائل و السمائل، لا شيء إلا التقوى مع الوعي على ان ينظر المتقي الواعي الى كل شيء من خلالهما معا، فالتقوى بلا وعي، و الوعي بلا تقوى كلاهما ليسا بشيء يقاوم المغريات، و يقف في طريق الشهوات .. فلقد رأينا الكثير من المتقين يجهلون أنفسهم و واقعهم، و يحسبون الهوى ديننا، و الغرض إيماننا، و يصور لهم الوهم أو ابالسة الانس الحلال حراما و الحرام حلالا، و الى هؤلاء أشار سبحانه بقوله: «الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا - ١٠٤ الكهف». أما العلم و العقل بلا تقوى فهما المصدر الأول لكل رذيلة و فساد في الأرض .. و النتيجة الحتمية لذلك ان الواعي بلا تقوى، و المتقي بلا وعي كلاهما من مصائد الشيطان و شبائكه، و هذا الأخير أحب الى قلب إبليس و أعلى لديه مقاما.

٣- (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ). كل شيء ما عدا الله سبحانه له بداية و نهاية، و قد تكون بدايته خيرا في ظاهرها، و نهايته شرا في حقيقتها، و بالعكس .. و من أجل هذا لا يسوغ الحكم على شيء عند ظهوره و بدايته ما دامت

الغاية في عالم الغيب .. فلقد غبط الناس «قارون» لما خرج عليهم في زينته، وقالوا: انه سعيد و عظيم، حتى إذا انخسفت الأرض به و بداره و ماله قالوا:

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٤١

انه شقي و ذميم .. و الدنيا بداية، و الآخرة نهاية، و فيها ينكشف القناع و الغطاء، و يعرف كل انسان مصيره و ماله، حيث لا تزيف و لا تحريف، و هذا هو معنى قوله تعالى: **(لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ)**.

٤- **(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَ وَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ)**. أما وعد الله فهو البعث و الحساب و الجزاء: «فَوَرَّبُّكَ لَسْتَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ - ٩٣ الحجر». أما وعد الشيطان فهو على النقيض من وعد الله: لا بعث و لا حساب و لا جنة و لا نار: «إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ - ٢٩ الأنعام».

هذا ما كان يقوله الشيطان لأوليائه في الحياة الدنيا حيث التزوير و التمويه، أما في اليوم الآخر حيث لا شيء إلا الحق و العدل فإن الشيطان يظهر على حقيقته، و يصدق في قوله و لهجته، و كان من قبل يعلم الناس الكذب و الإفك.

٥- **(وَ مَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي)** أبدا لا حول و لا طول للشيطان باعترافه الا دعوة الباطل و الضلال و المكر و الخداع، و لا يستجيب له و لدعوته إلا ضعفاء العقول و النفوس و الإيمان، و قوله: و ما كان لي عليكم من سلطان هو بالحرف ما قاله الله له: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ - ٤٢ الحجر».

٦- **(فَلَا تُلْمُوا نَفْسَكُمْ)**. و إذا كان الويل لمن كفره النمرود فكيف بمن كفره إبليس؟. و إذا تعود الناس من الشيطان فكيف بمن وبخه و تعود منه الشيطان؟ .. هذا هو مصير من يخذل الحق و الصالحين، و يناصر الفساد و المفسدين، و ينطق مع كل ناعق .. و قد رأينا كثيرا من شياطين الانس يغترون بالمرهقين و ضعاف العقول، و يغرونهم بالتخريب و اشاعة الفوضى، حتى إذا لقوا ما كسبت أيديهم قال لهم شياطينهم عين ما قاله إبليس لأتباعه و أوليائه عند الحساب و الجزاء.

(مَا أَنَا بِمُصْرَخِكُمْ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُصْرَخِي) الصارخ هو المستغيث، و المصرخ هو المغيث، و المعنى ان الشيطان يقول غدا لأتباعه: ما أنا بمغن عنكم شيئا، و لا أنتم مغنون عني شيئا، و ليست بيني و بينكم أية صلة **(إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)**. يقول إبليس لمن استجاب له: لقد اطعتموني فيما دعوتكم اليه،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٤٢

و جعلتموني شريكا لله في وجوب الطاعة، و أنا بريء من الشرك و ممن يشرك، حتى لو جعلني لله شريكا في شيء، أي شيء **(إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)**.

هذه جملة مستأنفة و ليست من كلام الشيطان، و المراد بها الوعد و الوعيد، و يجوز أن تكون الخاتمة لخطبة إبليس .. و من الطريف ما جاء في بعض التفاسير من ان إبليس ألقى خطبته هذه على أهل النار من على منبر نصب له .. و لا بد - بطبيعة الحال - أن يكون قد ألحها بمكبر عظيم، لأن المستمعين، و هم جميع جنوده و أتباعه أكثر من عدد الرمل و الحصى و التراب.

(وَ ادْخُلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ). بعد أن ذكر سبحانه الزائغين و عذابهم ذكر المستقيمين و ثوابهم كما هي طريقة القرآن الكريم. و مر نظير هذه

الآية في سورة يونس الآية ١٠.

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٢٤ الى ٢٧]

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)

اللغة:

قيل: المراد بالكلمة الطيبة كلمة التوحيد والايمان، و بالكلمة الخبيثة كلمة

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٤٣

الكفر والإلحاد. والصحيح ان المراد بالأولى كلمة الحق، أي حق، و بالثانية الباطل أي باطل. و ثابت راسخ. و في السماء كناية عن علو الشجرة و ارتفاع فروعها و أغصانها. و اجتثت اقتلعت و استوصلت. و القرار الاستقرار.

الإعراب:

كيف مفعول مقدم لضرب، و هي هنا بمعنى جعل. و كلمة بدل من (مثلا) و طيبة صفة لكلمة. و كشجرة صفة ثانية. و أصلها ثابت مبتدأ و خبر، و الجملة أيضا صفة لكلمة. و جملة تؤتي أكلها صفة لشجرة. و كل حين نصب على انها ظرف زمان، لأن (حين) ظرف فأعطيت حكمه. و لها خبر مقدم، و من زائدة اعرابا، و قرار مبتدأ مؤخر.

المعنى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ). قيل: المراد بالكلمة الطيبة هنا كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله».. و ليس من شك ان التوحيد مصدر الحق و معدنه، و من التوحيد و الإخلاص لله وحده أن نفسر الكلمة الطيبة بكل كلمة تنفع الناس، و تعود عليهم بالخير و الصلاح، و لو بجهة من الجهات، سواء أ كانت الكلمة للدين و الشرع، أم للعلم و الفلسفة، أم للأدب و الفن.. فأي انسان انتفع الناس بقوله أو بعمله فهو يلتقي من هذه الجهة مع مبادئ الإسلام و الدين أي كان و يكون.. و أفضل الكلمات و الأقوال هي كلمة الثورة، و الصرخة الغاضبة في وجوه حكام الجور، و من أزرهم من الماجورين و الرجعيين لأنهم أصل الداء، و مصدر البلاء، قال الإمام علي (ع):

«و ما أعمال البر كلها و الجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر الا كنفثة في بحر لجي، و ان الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لا يقربان من أجل، و لا ينقصان من رزق، و أفضل من ذلك كله كلمة عدل عند إمام جائر» لأنه المصدر الأول لكل منكر، فمن جاهده و أنكر عليه فقد جاهد الآثام

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٤٤

كلها مجتمعة في شخص هذا الحاكم الغاشم.. و في معنى كلمة الإمام علي هذه أحاديث عن الرسول الأعظم (ص). و كل ما عند علي أمير المؤمنين فهو شعاع من شمس محمد سيد الخلق أجمعين.

و لا شيء أدل على ان المراد بالكلمة الطيبة الكلمة المفيدة النافعة من تشبيهها بالشجرة الطيبة التي (أصلها ثابت) لا تزعه الأعاصير، و لا تقوى عليه المعاول (و فرعها في السماء) بعيد عن أوباء الأرض و أقدارها (تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها) فلا تجود أنا، و تبخل أنا، كالتاجر يعطيك ان دفعت، و يمسك ان أمسكت، بل هي تعطي أبدا و دائما

(وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) فيشبه المعنى الغامض بالمعنى الواضح ليفهم الناس، كل الناس طريق الهدى فيتبعوه، و طريق الضلال فيجتنبوه.

(وَمِثْلُ كَلِمَةِ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ). كل كلمة تضر الناس و لا تنفعهم فهي خبيثة لعينة، سواء أ كانت من مسلم، أم من غير مسلم عظيم أم حقير، بل ان سكوت الكبير عن مقاومة الباطل، و مناصرة الحق يعد من أعظم الجرائم، و في الحديث: الساكت عن الحق شيطان أخرس، و كتب غاندي الى طاغور:

«انك شاعر عظيم، و لكنك تلعب و البيت يحترق .. ان الأغنية الجميلة لا تشبع جائعا، و لا تشفي مريضا». **(اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار)**.

هذا أصدق مثل للباطل و أهله الذين يتعالون و يتعاضمون، و يخيل للجاهل انهم شيء ضخم، و ما هم الا كشجرة بلا أصول و جذور، فسرعان ما يصبح عاليها سافلها إذا هبت الريح.

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ). ليس المراد بالمؤمنين من قال: أمنت بالله و رسوله و اليوم الآخر، ثم لم يقم حقا أو يدفع باطلا، بل المراد بالمؤمنين هنا من عناهم الله بقوله: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ - ١٥ الحجرات». آمنوا و أعربوا عن إيمانهم بالجهاد و الفداء. أما إذا ادعوا الايمان بالله، و لم يقاوموا الظلم و الفساد بجرأة و شجاعة فهم مرتابون لا مؤمنون.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٤٥

و معنى تثبتهم بالقول الثابت في الحياة الدنيا ان الله سبحانه قد أخبرهم في كتابه و على لسان نبيه انهم في رعايته و عنايته، و انه هو كفيهم و وليهم و حافظهم و ناصرهم، كما شجعهم و أثنى عليهم بالصدق و الإخلاص، و ما اليهما من الفضائل، أما تثبته لهم في الآخرة بالقول الثابت فهو قوله عز من قائل لهم يوم القيامة:

«يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ - ٦٨ الزخرف».

(وَيُضِلُّ اللَّهُ الضَّالِّينَ) بكفرهم و كذبهم و طغيانهم .. و القرآن الكريم يستعمل الظلم كثيرا بمعنى الكفر و الشرك، و لكن المراد بالظلم هنا من ظلم نفسه بالكفر، و ظلم غيره بالعدوان و الافتراء، كما ان المراد بالإضلال هنا العذاب، تماما كقوله تعالى:

«كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ - ٣٤ غافر». **(وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)** من ثواب الصالحين و عقاب الفاسدين، و لا راد لمشيئته.

قرأت، و أنا بصدد تفسير هذه الآية كلمة في جريدة «الأهرام» المصرية عدد ٢١ شباط ١٩٦٩ بعنوان «هل تشهد الانسانية نهاية حرب الذرة و بداية حرب الجراثيم»، جاء فيها: «لقد ظهر في الأفق سلاح جديد أشد خطرا، و أكثر قسوة من الأسلحة النووية، و هو سلاح الجراثيم، و نشر الأوبئة، و ان من آثار هذا السلاح انه إذا مس الإنسان ذرة منه تقلصت عضلاته، و برزت عيناه، و مات في الحال، و ان لدى أمريكا و بريطانيا معامل و مصانع تنتج هذا السلاح، و تعدانه الى وقت الحاجة، فإذا ما اتفقت الدول على حظر انتشار الأسلحة النووية بسبب الضغط العالمي استعملت الدولتان أوبئة الفناء و الدمار كبديل عن القنابل الذرية و الهيدر و جينية» .. فهل يجتمع الايمان بالله مع النية و العزم على استعمال هذا السلاح؟.

و هل صلاة الذين يوازرون أصحاب هذه النية و العزم تجديهم نفعا عند الله؟.

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٢٨ الى ٣١]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصَلُونَهَا وَ بئسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَ عَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَ لَا خِلَالٌ (٣١)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٤٦

اللغة:

البوار الهلاك. و يصلونها يقاسون حرها. و المراد بالبيع هنا الفدية، و بالخلال الصداقة.

الإعراب:

كفرا مفعول ثان لبدلوا. و جهنم بدل من دار البوار. و تمتعوا مجزوم بجواب الطلب، و هو قل. و يقيموا الصلاة مجزوم بلام محذوفة أي ليقيموا. و سرا قائم مقام المفعول المطلق أي إنفاقا سرا و علانية معطوف عليه، و يجوز أن يكونا مصدرين في موضع الحال، أي مسرين و معلنين.

المعنى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ جَهَنَّمَ يَصَلُونَهَا وَ بئسَ الْقَرَارُ). ضمير أحلوا يعود الى قادة الكفر و الضلال، و المراد بنعمة الله الايمان و الهداية، و المعنى ألا تعجب يا محمد، أو أيها السامع و القارئ من حال قادة الكفر و الضلال الذين اختاروا الضلالة على الهدى، و الجحيم على النعيم، فحلوا فيها هم و من اتبعهم، و كانوا لها حطبا. و في معنى هذه الآية قوله تعالى:

«أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ - ١٥ البقرة».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٤٧

و نقل الطبري في تفسير هذه الآية ان عمر بن الخطاب قال: «الذين بدلوا نعمة الله كفرا، و أحلوا قومهم دار البوار هما الأفجران من قريش: بنو المغيرة، و بنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر، و أما بنو أمية، فمتعوا الى حين».

(وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ). جعلوا لله شركاء يحبونهم كحبه، و يعبدونهم كعبادته .. و من الواضح انهم فعلوا ذلك بقصد ان يهتدوا لا ان يضلوا عن سواء السبيل، و من أجل هذا تكون اللام في ليضلوا لام النتيجة و العاقبة، و يكون المعنى ان المشركين عبدوا الأصنام بقصد ان يهتدوا بها، و تقربهم من الله زلفى، فكانت النتيجة الضلال و الهلاك و البعد عن الله و رحمته، فاللام هنا تماما كاللام في: لدوا للموت و ابنوا للخراب (قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ).

أمر الله نبيه ان يحذر المشركين من سوء العاقبة و المصير، و يقول لهم: ان متاع الدنيا قليل و ان راق لكم، و الآخرة خير لمن اتقى .. و لكن .. هل تجدي لغة الحق و الواقع مع الذين لا تحركهم الا الأرباح و المكاسب! (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ) التي تذكر المصلي بالله و تحذره من العذاب و العقاب، و تخلق فيه وازعا و رادعا عن المآثم و الجرائم، ان كان حقا من المؤمنين الصالحين (وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَ عَلَانِيَةً). الزكاة أخت الصلاة، هذه



تذكر المصلي بالله، و تلك تقربه عند الله زلفى، و مر نظيره في الآية ٢٧٤ من سورة البقرة ج ١ ص ٤٢٥ (من قبل أن يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خِلالٌ).

و البيع هنا كناية عن الفدية، و الخلال الصداقة، و المعنى ان من أنفق من ماله في سبيل الله انتفع بهذا الإنفاق في اليوم الآخر، و من بخل به كان عليه حسرة و عذابا، و لا يجديه شيء في ذلك اليوم حيث لا فدية و لا صداقة، و مر نظيره في الآية ١٨ من سورة الرعد.

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٣٢ الى ٣٤]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَ سَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَ سَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَ سَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَ آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعَدَّوْا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٤٨

اللغة:

دائبين أي دائمين، يقال: فلان دأب في العمل إذا استمر فيه. و الكفار شديد الكفران و الجحود للنعم.

الإعراب:

رزقا مفعول أخرج، و من الثمرات حال مقدم، و صاحب الحال الرزق. و دائبين حال من الشمس و القمر. و المفعول الثاني لا تأكم محذوف أي آتاكم شيئا من كل ما سألتموه.

المعنى:

كل ما جاء في هذه الآيات الثلاث قد مر ذكره، فخلق السموات و الأرض ذكر في الآية ٧٣ من سورة الأنعام و غيرها، و انزال الماء من السماء ذكر في الآية ٢٢ من سورة البقرة، و الآية ١٨ من سورة الرعد، و جريان الفلك جاء في الآية ١٦٤ من سورة البقرة، و تسخير الشمس و القمر في الآية ٢ من سورة الرعد، و الليل و النهار في الآية ٦٧ من سورة يونس .. و قد عدد سبحانه الكثير من نعمه على عباده في الآية ٣ و ٤ من سورة الرعد، و الآية ١٤٣ و ١٤٤ من سورة الأنعام

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٤٩

و غيرها فيما سبق مرارا مع الشرح و التفسير، و أعاد سبحانه ذكرها أو ذكر طرف منها هنا لمناسبة الإشارة في الآية الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا. و يتلخص معنى هذه الآيات الثلاث بأن نعم الله و آلاءه لا تعد و لا تحصى، منها خلق السموات و الأرض، و انزال الماء، و تسخير الفلك و الشمس و القمر و الليل و النهار، و الإفضال على الناس بشيء مما سألوه، و ما لم يسألوه و مع ذلك يكفر الكثير منهم أو أكثرهم بأنعمه، و يعبدون ما لا ينفعهم و لا يضرهم.

هل الإنسان مجرم بطبعه؟

و بمناسبة قوله تعالى: (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) نشير الى ان علماء النفس اختلفوا في الإنسان: هل هو مجرم بطبعه، و انه ولد ليعتدي على من لم يعتد عليه، و يكفر بأنعم من أحسن اليه؟ .. و في سنة ١٨٣٢ اجتمع في امريكا ٥٢٨ عالما من علماء النفس، و ناقشوا هذه القضية، فذهب أكثرهم الى انه لا دليل على ان الإنسان لا مفر له من ارتكاب الجرائم. و خالف في ذلك جماعة منهم.

أما نحن فإننا نؤمن بأن الإنسان لم يولد مجرماً، و إلا سقط عنه التكليف، و كان حسابه و عقابه ظلماً و جوراً، و الأديان و الشرائع لغوا و عبثاً، حيث يكون، و الحال هذه، كريشة في مهب الريح .. و انما يصير الإنسان مجرماً بالعوامل الخارجية كالجوع الذي يحوله الى لص، و المغريات التي تدفع به الى الخيانة و العمالة، و ما الى ذلك .. و هنا يقع التفاوت بين أفراد الناس في أنفسهم، فبعض النفوس تضعف أمام المغريات، و تتغلب عليها الشهوات، كمن يملك الطعام، و مع ذلك يطلب المزيد منه بكل وسيلة، أو يزني و له زوجة تغنيه عن الحرام، أو يكتنم الحق أو يجحد النعم حرصاً على جاه أو أية منفعة من متاع الدنيا، و ليس من شك ان هذا قد أذنب و أجرم بإرادته، لا بطبيعته، و هو المقصود بقوله تعالى: **(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)**. و من الواضح ان مجرد الميل الى الحرام لا يجعله حلالاً، ما دامت الفرصة سانحة للصبر و التغلب على هذا الميل. و تقدم ما يتصل بهذا البحث عند تفسير الآية ٩ من هود.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٥٠

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٣٥ الى ٤١]

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفِي وَ مَا نَعْلُنْ وَ مَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَ تَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)

الإعراب:

البلد عطف بيان من هذا. و آمنا مفعول ثانٍ لأجعل. و المصدر من أن نعبد مجرور بعن محذوفة. و من ذريتي (من) للتبعية أي بعض ذريتي. و عند بيتك متعلق بمحذوف صفة لواد. و ليقموا الصلاة اللام للتعليل، و يقيموا منصوب بأن مضمرة بعد اللام، و المصدر مجرور بها متعلقاً بأسكنت. على الكبر حال من الياء في (لي). و من ذريتي عطف على الياء في اجعلني أي و اجعل من ذريتي مقيم الصلاة.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٥١

المعنى:

(وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا). إبراهيم و إسماعيل هما اللذان بنيا البيت في مكة المكرمة: «وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمَاعِيلُ - ١٢٧ البقرة». و دعا إبراهيم ربه ان يجعل الناس آمنين في مكة على أنفسهم، و استجاب دعوته، و كان الاعداء و ما زالوا يتلاقون فيها، و لا يخاف بعضهم بعضاً، و الى هذا أشار سبحانه بقوله: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَ يَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ - ٦٧ العنكبوت».

(وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ). و محال ان يعبد إبراهيم الأصنام، و كيف و قد حطمها بيده، و قال لقومه: «أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَ لَا يَضُرُّكُمْ أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ - ٦٧ الأنبياء». و

لكن رسل الله و أنبياءه - على عصمتهم - يخافون المعصية. و هذا الخوف من أعظم الطاعات، و من رأى نفسه تقيا نقياً فقد فتح النوافذ فيها للشيطان.

الأنبياء و استجابة الدعاء:

و تسأل: ان ابراهيم طلب من الله ان يجعل أبناءه مؤمنين، لا يشرك واحد منهم بالله، و ابراهيم نبي مرسل مستجاب الدعوة، مع العلم بأن الكثير من ذريته قد أشركوا و عبدوا الأصنام، و منهم كفار قريش الذين هم من نسله و سلالته؟ و نقل الرازي عن المفسرين خمسة أجوبة، و لكن السؤال ما زال قائماً يطلب الجواب عنه .. و الذي نراه ان حقيقة الدعاء ما هي إلا طلب و رجاء، سواء أ كان من نبي أم غير نبي، و قد تستدعي حكمته تعالى الاستجابة فيستجيب، أو الرفض فيرفض، و ليس معنى عدم الاستجابة ان الداعي لا وزن له عند الله كي يضر ذلك بمقام النبوة، و عصمة الأنبياء على فرض عدم الاستجابة لدعائهم ..

كلا، فإن رفض السؤال بمجرد لا ينبي عن غضب المسئول على السائل، بل قد يدل على حبه له، و حرصه على مصلحته، فلقد طلب نوح (ع) من الله نجاة ولده من الغرق، فأجابته المولى بقوله: «فَلَا تَسْتَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ - ٤٦ هود».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٥٢

و بكلام آخر ان دعاء النبي لا يعبر إلا عن حبه و رغبته، و ليس من شك ان الأنبياء يحبون و يرغبون في ايمان الناس جميعاً و هدايتهم الى الحق، و مع ذلك قال الله لسيد المرسلين الأعظم: «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ - ٥٦ القصص». و لو تحقق كل ما يرغب فيه الأنبياء لما وجد على ظهرها كافر و لا مجرم، و لما قاسى رسل الله من الكفار و الفجار ما قاسوه، و بالخصوص سيدهم و خاتمهم الذي قال: ما أؤذي نبي بمثل ما أؤذيت.

(رَبِّ انْتَهَنَّا أَضْلَلْنَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ). ضمير انتهن يعود الى الأصنام، و المعنى ان كثيرا من الناس ضلوا بسبب عبادة الأصنام، تماما كما تقول: المال أظغى فلانا أي انه طغى بسببه **(فَمَنْ تَبِعَنِي)** من ذريتي **(فَأَنَّهُ مِنِّي)** نسبا و دينا **(وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)**. من عصى ابراهيم (ع) فهو بريء منه، حتى و لو كان أقرب الناس اليه، لأن من عصاه فقد عصى الله، و لكن ابراهيم حلیم أوأه كما وصفه الذي اختاره خليلاً و اصطفاه. و من أجل ذلك لم يطلب العذاب للعصاة من ذريته و غير ذريته، بل ترك أمرهم لله و مغفرته و رحمته ..

و من الواضح ان العقل لا يمنع من العفو عن المشركين، لأن العذاب على الشرك حق لله، ان شاء عذب، و ان شاء عفا، و لا ضرر بالعفو على أحد. أما قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» فهو دليل سمعي، و نحن نتكلم عن حكم العقل. انظر تفسيرنا لهذه الآية في ج ٧ ص ٣٤٢.

(رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ). قال ابراهيم (ع) هذا حين ترك إسماعيل و أمه هاجر بمكة، و هي واد مقفر لا ماء فيه و لا كلاً، و لا شيء الا بيت الله تقام فيه الصلوات، و تردد التلبيات، و لهذه الغاية أسكن ابراهيم بعض أهله و ذريته في هذا المكان المقفر المجذب .. و لكن الإنسان لا يحيا بالصلاة وحدها، بل لا بد له من الخبز أيضاً، و لذا قال ابراهيم: **(فَأَجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)**. و إذا لم يكن عند بيت الله زرع و لا ضرع فلتتوافد الناس عليه للعبادة أو التجارة، و معهم

الخبز والفاكهة، و عندها تأكل ذرية ابراهيم و يصلون و يشكرون. قال موسى (ع): «رَبِّ اِنِّي لِمَا اَنْزَلْتَ اِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ»

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٥٣

- ٢٤ القصص». قال الإمام علي (ع): «و الله ما سأله الا خبزا يأكله».

و قال شاعر فقيه:

الفضل للخبز الذي لولاه ما كان يوما يعبد الإله

(رَبَّنَا اِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفِي وَ مَا نَعْلِنُ وَ مَا يَخْفَىٰ عَلٰى اللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْاَرْضِ وَ لَا فِي السَّمٰوٰتِ)

. بعد أن سأل ابراهيم الله أن يتوافد الناس الى بيته يحملون لأهله الخبز و الفاكهة ليعبدوا الله حق عبادته بقوة و نشاط، بعد هذا قال لله: ما سؤالي و طلبي الا تضرعا لك و خشوعا، و الاعترافا بأنك الخالق الرازق، أما حاجتنا و مصالحنا فانت أعلم بها منا، سألناها منك، أو لم نسأل .. فقول ابراهيم: ما نعلن معناه ما نسأل و نطلب، و معنى ما نخفي ما لم نسأل و نطلب.

(الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ اِسْمَاعِيلَ وَ اِسْحٰقَ اِنْ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)

هذا الحمد من ابراهيم يتضمن طلب العون من الله لولديه إسماعيل و اسحق، لأن ابراهيم قد تقدمت به السن و دنا أجله، فأوكل أمر أهله الى رعاية الله و عنايته، و لم يبن لهم الدور، و يكنز مال الله، و يحرمه عيال الله حرصا على رفاهية ذويه و أبنائه.

(رَبِّ اجْعَلْنِي مَقِيْمَ الصَّلٰةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَ تَقَبَّلْ دُعَاءِ). الصلاة التي عنها ابراهيم ليست من نوع هذه الصلاة

التي نصليها نحن، بل من نوع التي عنها الله بقوله: «اِنَّ الصَّلٰةَ تَنْهٰى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَ الْمُنْكَرِ - ٤٥ العنكبوت».

و من هنا قسم الفقهاء الصلاة الى قسمين: صلاة يؤدي بها الواجب فقط، و صاحبها غير مأجور. و صلاة يؤدي بها الواجب، و صاحبها مأجور عند الله، و هي التي تثمر الإخلاص في العمل، و الصدق في معاملة الناس.

(رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ). عند تفسير الآية ٧٤ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢١٢

ذكرنا اختلاف السنة و الشيعة في إيمان أبي ابراهيم الخليل (ع)، و مما قلناه: ان هذا النزاع في هذه القضية و أمثالها نزاع عقيم، و ان المطلوب من المسلم هو الاعتقاد بعصمة الأنبياء، أما الايمان بأن آباءهم كانوا مؤمنين فليس من عقيدة الإسلام في شيء، و لو قال قائل: أنا أو من بالله و وحدانيته

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٥٤

و بالأنبياء و عصمتهم، و بالبعث و الحساب، و لا أثبت و لا أنفي الايمان عن آباء الأنبياء، لو قال هذا أي قائل نقول له: أنت مسلم لك ما للمسلمين و عليك ما عليهم.

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٤٣ الى ٤٥]

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مَهْطَعِينَ مَقْنَعِي رُؤْسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتِكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ (٤٥)

اللغة:

شخص الشيء أي ارتفع، وتشخص الأبصار تحد النظر، ولا تغمض لهول ما ترى. وهطع أقبل مسرعا خائفا، ومهطعين مسرعين الى الداعي. ومقنعي رؤوسهم جمع مقنع بضم الميم وكسر النون، وهو الذي يرفع رأسه كثيرا من الهول.

ولا يرتد اليهم طرفهم أي لا يطفون بعيونهم من الخوف والحذر. والهواء في قوله: وأفئدتهم هواء، كناية عن ان أفئدتهم ليست بشيء. والزوال الانتقال.

الإعراب:

ليوم على حذف مضاف أي يؤخرهم لجزاء يوم أو عذاب يوم. ومهطعين

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٥٥

حال من ضمير يؤخرهم، ومثله مقنعي رؤوسهم، وكذا جملة لا يرتد. والناس مفعول أول لأنذر و يوم مفعول ثان على حذف مضاف أي عذاب يوم، ولا يجوز ان يكون يوم هنا ظرفا لأن الانذار لا يكون في يوم القيامة. ونجب مجزوم بجواب الطلب، وهو أخرنا. و فاعل تبين محذوف أي تبين حالهم لكم. وكيف مفعول فعلنا بهم. وقال النحاة: ان كيف لا تكون إلا مفعولا أو حالا أو خبرا.

المعنى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ). الظلم أنواع: فالكفر والشرك بالله ظلم، والاعتداء على حق من حقوق الناس ظلم، سواء أكان الحق ماديا أم أدبيا، أي كان المعتدى عليه بخاصة إذا كان ضعيفا، لأن ظلم الضعيف أفحش الظلم، ومن أعان ظلما أو رضي بفعله أو سكت عنه، مع القدرة عليه أو على التشهير به فهو شريك له، ومن أجل هذا لا يغفل سبحانه عما يعمل الظالمون.

وتكلمنا عن الظلم عند تفسير الآية ١٤٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٤٧٩، ونعطف على ما قلناه هناك: ان الله سبحانه ما أرسل الرسل، ولا أنزل الكتب إلا لمحاربة الظلم والظالمين.. وقد وصف الله نفسه في كتابه العزيز بأنه ذو انتقام ولولا الظلم لما كان لهذا الوصف عين ولا أثر، ومهما امتد أمد الظالم فان الله سينتقم منه بأشد وأعظم، قال الإمام (ع): «سينتقم الله ممن ظلم مأكلا ومأكل ومشربا بمشرب» فمن ظلم إنسانا بكلمة واحدة كان جزاؤه مقامع من حديد، فكيف بمن حول الأرض إلى جحيم، وأقام في كل جزء منها قاعدة للموت، ومخزنا لأسلحة الفناء والدمار؟.

(مَهْطَعِينَ مَقْنَعِي رُؤْسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ). أبصارهم شاخصة لا تغمض ولا تطرف من الدهشة والذهول.. ويسرعون في مشيهم ولا يلوون على شيء تلبية لدعوة الداعي، رافعين رؤوسهم إلى السماء لا يرى واحدهم موطن قدمه من الدهشة والذهول، أما قلوبهم فهواء وخواء، قد اذهب الرعب كل ما فيها من شعور و

ادراك .. و هكذا تجزى كل نفس بما كسبت.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٥٦

(وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتِكَ وَ نَتَّبِعِ الرَّسُولَ). أرسل الله أنبياءه و رسله الى عباده مبشرين بثواب الله، و منذرين من عقابه، و كان المجال أمامهم فسيحا و عريضا حين التبشير و الانذار، و لكن أبى أكثر الناس الانفورا، و قالوا لرسولهم: أموت ثم بعث ثم نشر؟. ان هذا الا ساطير الأولين .. حتى إذا وقفوا بين يدي الله و انكشف لهم الغطاء قالوا: ربنا أمهلنا بعض الوقت، فنسمع و نطيع لك و لرسلك ..

قالوا هذا حين فات الأوان.

و قد أمر الله نبيه محمدا (ص) ان ينذر المكذبين، و يحذرهم من هذا اليوم الذي لا اقالة فيه و لا رجعة قبل ان يصلوا اليه، و ان يخبرهم بمآلهم لو أصروا على العناد، و انهم سيقولون لله: أخرنا قليلا لنستجيب لدعوة الرسل، و قد أدى النبي رسالة ربه، فأخبر و حذر، و لكن غلبت عليهم المطامع و المنافع، فكانوا من القوم الخاسرين.

(أَمْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ وَ سَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَ ضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ). هذا الكلام بكامله يخاطب الله به غدا المكذبين الذين يقولون لله: أعدنا ثانية الى الدنيا لتتبع الرسل، و محصل ما يجيبهم به، عظمت كلمته، انه يسألهم سؤال توبيخ و تقريع: ألم تقسموا و أنتم في الحياة الدنيا انه لا انتقال من دار الدنيا الى دار الآخرة، و انه لا جنة و لا نار .. يشير بهذا سبحانه الى ما حكاه عنهم في الآية ٣٨ من النحل:

«وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتٍ». و بعد هذا السؤال أو التوبيخ يقول سبحانه للمكذبين أيضا: لقد علمتم حال من كان قبلكم، كيف أهلكناهم لما عتوا، و أسكنناكم مساكنهم، و حذرناكم ان تفعلوا فعلهم، و ضربنا لكم بهم الأمثال، فلم تتعظوا، و تعتبروا .. و الآن حيث لا رجعة و لا تأير تقولون: أخرنا قليلا! .. فأي منطق هذا؟ .. و هل أرسل الله إليكم من قبل رسل لعب و هزل، حتى يعيدكم ثانية، و يرسل إليكم رسل حق و جد؟ ..

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٥٧

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٤٦ الى ٥٢]

وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَ إِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفًا وَعَدَّهُ رَسُولَهُ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّمَاوَاتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَ تَعْشَىٰ وَ جُوهُهُمْ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنْ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَ لِيُنذِرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَ لِيَذْكُرُوا أُولَئِذَا الْأَبَابُ (٥٢)

اللغة:

برزوا ظهوروا. و مقرنين مشدودين. و الأصفاد جمع صفة، و هو القيد.

و سراويل جمع سربال، و هو القميص. و القطران نوع من الدهن تدهن به الإبل إذا جربت، و للنار فيه اشتعال شديد. و

تغشى وجوههم النار تعلوها و تغطيها، و البلاغ الكفافية، و منه البلاغة، و هي البيان الكافي.

الإعراب:

و عند الله مكرهم مبتدأ و خبر على حذف مضاف أي علم مكرهم. و ان كان مكرهم نقل البيضاوي عن الكسائي ان (ان) مخففة من الثقيلة و مهملة و جاءت اللام بعدها في لتزول لتفصل بين ان النافية و ان المخففة. و مخلف وعده رسله،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٥٨

مخلف مفعول ثان لتحسبن، و في الوقت نفسه يحتاج (مخلف) الى مفعولين لأنه اسم فاعل بمعنى أخلف، و قد أضيف الى المفعول الثاني، و هو وعده، و مفعوله الأول رسله، و الأصل مخلف رسله وعده، و مثله هذا معطي درهم زيدا، و الأصل هذا معطي زيد درهما. يوم تبدل (يوم) مفعول لفعل محذوف أي اذكر يوم تبدل. و الأرض مفعول أول نائب عن الفاعل، و غير مفعول ثان لأن تبدل هنا بمعنى تجعل، و السموات بالرفع عطف على الأرض الأولى، و غير السموات محذوفة لدلالة ما قبلها عليها. و مقرنين حال من المجرمين لأن ترى هنا بصرية، و ليست قلبية لتتعدى الى مفعولين.

المعنى:

(وَقَدْ مَكْرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ).

ما أرسل الله سبحانه رسولا الى قومه الا مكر به و تأمر عليه أهل الفساد و الضلال من عهد نوح الى عهد محمد (ص): «و كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا - ١١٢ الأنعام»، و لا تنحصر أسباب العدا بالتحصاد بين الايمان و الإلحاد، و بين الشرك و التوحيد ..

كلا، فإن هذا العدا مظهر لمعنى كلي و مبدأ عام، و هو العدا بين دعوة الحق و أهل الباطل في كل زمان و مكان .. و بالتعبير الشائع في هذا العصر: العدا و التناقض بين الثورة و الثورة المضادة .. و أيا كان سبب المكر و التآمر، و مهما بلغ من القوة و الشدة، حتى و لو أزاح الجبال الرواسي من مواضعها فإن الله عليم به و يجزي أهله بما يستحقون.

و نشير بهذه المناسبة الى ان كثيرا من الرجال ينعنون النساء بالكيد و المكر، و يستشهدون بالآية ٢٨ من سورة يوسف: «ان كيدكن عظيم» .. و للنساء ان يجبن الرجال بأن مكرهم لتزول منه الجبال و يستشهدن بهذه الآية .. هذا، الى ان وصف النساء بالكيد جاء في القرآن الكريم على لسان عزيز مصر، أما وصف الرجال بالمكر الذي يزيل الجبال فقد جاء على لسان الله بالذات. و من الطريف ان بعض الرجال يستدل على مكر النساء و شدته بالآية التي نزلت في حق الرجال،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٥٩

و يحرف لفظها بوضع (هن) مكان (هم) جهلا و تسرعا، و يتلو الآية هكذا: ان مكرهن لتزول منه الجبال.

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعَدَّهُ رُسُلَهُ) بنصرة الحق و أهله، و خذلان الباطل و أنصاره، و يشير سبحانه بوعد الرسل الى قوله: «كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ - ٢١ المجادلة». **(إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)** ينتقم لأولياء الحق من أولياء الباطل **(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ)** غير السموات، و ذلك بأن تتحول الأرض الى غبار منتشر كما في الآية ٦ من سورة الواقعة:

«فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا». أما كواكب السماء فإنها تتساقط و تتناثر كما جاء في سورة القيامة و التكوير و الانفطار.

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ). على المكشوف لا باب و لا ثياب، و مما جاء في أرض المحشر و صفاتها: انها بيضاء

قاع صفصف، لا أشجار فيها ولا جبال ولا أودية، أرض بيضاء كالفضة لم يسفك عليها دم، ولم ترتكب فيها خطيئة، و تصبح السماء كالمهل - أي عكر الزيت - و تذهب شمسها و قمرها و نجومها، و تصير الجبال كالعهن - أي الصوف المنفوش -.

جهنم و الأسلحة الجهنمية:

(و تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سُرَابِيلَهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَ تَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ). ذكر الله سبحانه في كتابه صوراً لعذاب أهل النار، قراءتها تبعث الرعب في القلوب و النفوس، و القشعريرة في الجلود و الأعصاب، فكيف بمن يذوق و يختبر .. و من هذه الصور حشر المجرمين مكبلين بالقيود، يلبسون ثياباً من مادة شديدة الالتهاب، و على و جوههم غطاء و غشاء من نار، أما طعامهم فمن شجر الزقوم، و شرابهم من ماء الصديد، هذا و هم في جحيم لا يبقى و لا يذر، و يرمي بشر كالقصور و الجبال.

و تسأل: ألا يتنافى هذا النوع من العذاب مع حلم الله و رحمته، و جوده و رافته؟.

ألا يكفي لجزاء هذا الإنسان الضعيف بجلده و لحمه و دمه بعض هذا الجحيم الأليم؟.

و أجاب بعضهم عن هذا السؤال بأن ما ذكره سبحانه من أنواع العذاب

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٦٠

و صورته ليس على وجه الحقيقة، و إنما أراد به تخويف الناس و ردعهم عن الجرائم.

و لو أن هذا المجيب رجع إلى القرآن الكريم لوجد أن الله سبحانه قد سبق في علمه أن الكثير من عباده سوف يمر بخاطرهم هذا السؤال فأجاب عنه سلفاً، و بين الحقيقة في العديد من آياته، منها ما ذكره هنا بعد ذكر القيود و سراويل القطران بلا فاصل، و هو قوله: **(لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ).** و منها «هل يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ - ١٤٦ الأعراف».

و قوله: «لا يظلمون فتيلاً .. و ما ربك بظلام للعبيد». و منها: «و من جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها و هم لا يظلمون - ١٦٠ الأنعام»: «و الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها - ٢٧ يونس». و منها: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم - ١٩٤ البقرة».

و معنى هذه الآيات بمجموعها أن الجرائم و السيئات على أنواع: منها الصغيرة الحقيرة، و منها الكبيرة الخطيرة، و أنه تعالى قد أعد لكل جريمة عقوبتها على أساس الحق و العدل، لا تزيد، و قد تخفف حسبما تستدعيه حكمته البالغة، و قوله تعالى: **(فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلُهَا)** صريح في ذلك، بل و حصر أيضاً.

أجل، هنا سؤال ينبغي أن يسأله كل عاقل، و هو: من الذي يستحق هذا النوع من العذاب الشديد الأليم؟. و هل هناك جريمة تستوجب كل هذا النكال العظيم الدائم الذي له أول و ليس له آخر، كما قال تعالى: **«لَهُمْ نَارٌ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا - ٣٦ فاطر».**

الجواب: نعم، أن في الناس مجرمين يستحقون هذا النوع من العذاب الأليم و أكثر منه أيضاً .. و من هؤلاء الذين يحاربون الحق أو يكتُمونه و هم يعلمون، سواء أكان هذا الحق لله أم للناس .. و أعظم منهم جرماً تجار الحروب الذين أعدوا لسفك الدماء و تدمير الحياة الأسلحة الجهنمية، كالقنابل الذرية و الهيدر و جينية و المواد السامة التي تقتل المئات بل و الملايين في دقائق معدودات. إن أية عقوبة يعاقب بها السفاحون فهي دون ما يستحقون .. و ليست السلاسل و الأصفاد



و سراييل النيران بشيء في جانب تدمير البلاد و تشريد العباد و تشويههم و تقتيلهم بمئات الألوف ..
ثم هل الشرر المتطاير من جهنم أسوأ أثرا من القنبلة الذرية التي أقيت على هيروشيما مع العلم بأن نسبتها من حيث
الأثر الى ما يملكه السفاحون الآن من القنابل كنسبة

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٦١

الواحد الى الألف؟. و هل طعام الزقوم، و ماء الصديد أشد فتكا بالأجسام و الأرواح من سلاح الجراثيم الذي يستعمله
الآن أعداء الله و الانسانية في فيتنام، و من قبل في كوريا؟.
و سبق عند تفسير الآية ٢٧ من هذه السورة ان الإنسان إذا مسته ذرة من سلاح الجراثيم تقلصت عضلاته، و برزت عيناه،
و مات في الحال .. فهل بعد هذا يشك عاقل في ان الحلم بأصحاب هذا السلاح ظلم، و ان الرحمة بهم إثم، و انهم لو
عوقبوا بأشد من عذاب جهنم لكان عقابهم حقا و عدلا؟. هل يستكثر أي نوع من أنواع العذاب على من لا يروي ظمأه
الا دماء الألوف، و لا يشبع جوعه الا أفوات الملايين و مقدراتهم؟. و لو لم يكن دليل على البعث و الحساب الا وجود
هذه المظالم لكفى، إذ لو كانت الدنيا هي كل شيء، و ليس من وراءها عالم آخر ترد فيه الحقوق الى أصحابها و يجد كل
ظالم الجزاء الذي يستحقه لكان الموت خيرا من الحياة، و الظلم أفضل من العدل.
(هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذُكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ). هذا اشارة الى القرآن بكل ما
يحويه، و منه ما تقدم من التهديد و الوعيد، و المراد بالبلاغ الكفاية، و المعنى ان الله سبحانه أنزل القرآن على نبيه، و هو
كاف واف بكل ما يحتاج اليه الناس من أمر دينهم و دنياهم، و هو أيضا يعلمهم بوحدانية الله و عدله، و ينذرهم من
مخالفة أمره و نهيه.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٦٣

الجزء الرابع عشر
سورة الحجر

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٦٥

سورة الحجر مكية، و آياتها ٩٩.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحجر (١٥): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رَبِّمَا يُوذُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَ مَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَ لَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤)

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَ مَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥)

الإعراب:

رب حرف جر، و لا تجر الا النكرات، و إذا دخلت ما عليها كفتها عن العمل الا نادرا، و متى كفت عن العمل دخلت على

الأسماء المعارف و على الفعل كما في الآية، و قال أبو حيان الأندلسي: «و على كثرة مجيء رب في كلام العرب لم تجيء في القرآن الا في هذا الموضع. و لو كانوا مسلمين (لو) للتمني، و قيل: هي مصدرية بمعنى ان: و المصدر المنسب مفعول يود، أي يود الذين كفروا كونهم مسلمين. من قرية (من) زائدة اعرابا، و قرية مفعول اهلكتنا. الا و لها كتاب معلوم الواو لتحسين الكلام، و يجوز حذفها كما في الآية ٢٠٨ من

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٦٦

سورة الشعراء: «و ما اهلكتنا من قرية الا لها منذرون» و لها خبر مقدم و كتاب مبتدأ مؤخر و معلوم صفة للكتاب.

المعنى:

(الر) سبق الكلام عن مثله في اول سورة البقرة **(تلك آيات الكتاب و قرآن مبين)**. تلك اشارة الى نفس السورة التي نفسرها، و القصد الاخبار بأنها آيات من كتاب الله، و قرآن واضح يميز بين الحق و الباطل **(ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين)**. رب هنا للتكثير، و المعنى ان كل مجرم غدا ينكشف له الغطاء، و يتمنى لو كان في الدنيا من المتقين الذين سلموا للحق و عملوا به.

انظر تفسير قوله تعالى: «ان الدين عند الله الإسلام» الآية ١٩ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢٦.

(ذرهم ياكلوا و يتمتعوا و يلهمهم الأمل فسوف يعلمون). آثروا التمتع بالحياة على اتباع الحق، فهددهم سبحانه بما يحل بهم غدا من العذاب الاليم **(و ما اهلكتنا من قرية الا و لها كتاب معلوم)**. كان سائلا يسأل: لما ذا لم يعجل الله العقوبة لمن تمرد عليه و على رسله؟ فاجاب سبحانه بان لكل عقوبة أجل، و انه جلت حكمته ما اهلك أمة من قبل الا عند حلول أجلها، و الجاهل من يعتر بالامهال **(ما تسبق من أمة أجلها و ما يستأخرون)**. انظر تفسير الآية ١٤٥ من سورة آل عمران، فقرة: «الأجل محتوم» ج ٢ ص ١٧١.

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٦ الى ١٨]

و قالوا يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون (٦) لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين (٧) ما ننزل الملائكة الا بالحق و ما كانوا اذا منظرين (٨) انا نحن نزلنا الذكر و انا له لحافظون (٩) و لقد ارسلنا من قبلك في شيع الأولين (١٠) و ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزون (١١) كذلك نسلكه في قلوب المجرمين (١٢) لا يؤمنون به و قد خلت سنة الأولين (١٣) و لو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون (١٤) لقالوا انما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون (١٥)

و لقد جعلنا في السماء بروجاً و زينناها للناظرين (١٦) و حفظناها من كل شيطان رجيم (١٧) الا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين (١٨)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٦٧

اللغة:

المراد بالذكر هنا القرآن. و الشيع جمع شيعة، و هي الفرقة المتفقة على مبدأ واحد ديناً و عقيدة. و نسلكه ندخله. و العروج الصعود في الدرج. و سكرت سدت، و المراد بالبروج هنا منازل الشمس و القمر كما في أكثر التفاسير. و الشهاب الشعلة من النار.

الإعراب:

لو ما أداة طلب مثل هلا. و اذن حرف جواب و جزاء، و هي هنا في معنى الجزاء لشرط مقدر، أي لو نزلت الملائكة لم يمهل الكافرون، فأذن هنا تؤدي معنى لم التي وقعت جوابا للو. كذلك خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر كذلك. الا من استرق السمع (من) في محل نصب على الاستثناء المنقطع أي لكن من استرق السمع.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٦٨

المعنى:

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ). ضمير قالوا يعود الى مشركي قريش، و قد خاطبوا محمدا بالذي نزل عليه الذكر تهكما و استخفافا، لأنه في منطقتهم و مقاييسهم مجنون يهذي بغير المعقول، و ان كان رحمة للعالمين، و تقدمت به الانسانية مئات السنين .. و القرآن أيضا من وحي الجنون، و ان كان معجزة المعاجز بعلومه و تعاليمه.

و هذا المنطق لا يختص بعبدة الأصنام، و لا بالزنادقة و الملاحدة، فإنه يشمل كل من اتخذ من ذاته و منفعته مقياسا للحق و ميزانا للعدل، حتى و لو قال: لا إله الا الله محمد رسول الله .. أبدا لا فرق بين هذا المسلم النفعي الذي اعترف لمحمد بالنبوة، و بين المشرك الذي أنكر نبوة محمد، لا فرق الا ان هذا المسلم آمن بمحمد نظريا، و كفر به عمليا، و المشرك أنكره قولاً و عملاً .. فالنتيجة من حيث العمل واحدة.

(لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ). هذا من قول المشركين للنبي (ص)، و قد اشترطوا لايمانهم به أن تنزل عليهم الملائكة من السماء، و تشهد لمحمد بالنبوة، فأجابهم الله بقوله: **(مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ)**. و ملخص الجواب ان الله ينزل ملائكته على الأنبياء و الرسل للتبليغ، و لا ينزلهم على المكذابين و الجاحدين الا بالعذاب و الهلاك، كما فعل بالأمم الخالية، و لو ان الله أجاب المشركين بإنزال الملائكة عليهم لهلكوا عن آخرهم. و سبق نظير الآية سوألا و جوابا في سورة الأنعام الآية ٨ ج ٣ ص ١٦٤.

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ). المراد بالذكر القرآن. و قيل:

ان ضمير له يعود الى محمد (ص)، و ان الله يحفظه من أعدائه، و هذا خلاف ظاهر الآية، فيتعين اعادة الضمير الى القرآن. و تسأل: من أي شيء يحفظ الله القرآن؟ فإن كان المراد ان الله يحفظه من من التحريف كما قال أكثر المفسرين فبالأمس القريب طبعت إسرائيل الوف النسخ من القرآن، و حرفت ما اشتهت من الآيات، منها الآية ٨٥ من سورة آل عمران

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٦٩

التي صارت في قرآن إسرائيل: «و من يبتغ غير الإسلام ديناً يقبل منه». و ان كان المراد بالحفظ انه لا أحد يستطيع الطعن فيه فهذا خلاف الواقع.

و ذكر الرازي و الطبرسي عددا من الأجوبة، و لكنها غير مقنعة. و الذي نراه ان المراد بحفظ القرآن ان كل ما فيه هو حق ثابت و راسخ مدى الأزمان، لا يمكن رده و الطعن فيه بالحجة، بل كلما تقدمت العقول و العلوم ظهرت أدلة جديدة على صدق القرآن و عظمته، و هذا المعنى الذي فسرنا فيه حفظ القرآن تدل عليه أو تشعر به الآية ٤١ من فصلت «وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ».

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ). الخطاب من قبلك لمحمد، وشيع الأولين الأمم الماضية، والمعنى ان شأن المشركين معك الذين كذبوك يا محمد، وقالوا عنك انك لمجنون، تماما كشأن المشركين السابقين ما جاءهم نبي إلا كذبوه وسخروا منه .. ومع هذا صبر الأنبياء السابقون على سفاهة أقوامهم و جهالتهم، فاصبر و تأس بهم. و القصد من ذلك التخفيف و التسرية عن النبي الأعظم (ص). و مر نظيره في سورة الأنعام الآية ٣٤ ج ٣ ص ١٨٢.

(كَذَلِكَ نَسَلُكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ).

ضمير نسلكه يعود الى الذكر في الآية السابقة: «انا نحن نزلنا الذكر» و مثله ضمير به، و المعنى ان القرآن لا يدخل في قلوب المجرمين دخول ايمان و تصديق، بل دخول استخفاف و هزاء، و قوله: **(لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ)** بيان و تفسير لقوله: **(نَسَلُكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)** .. اما قوله: **(وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)** فمعناه ان المكذبين اللاحقين كالمكذبين السابقين يدخل الباطل في قلوبهم دون الحق، و الضلالة دون الهداية. أما نسبة السلوك الى الله تعالى فهي من باب نسبة الشيء الى السبب الأول البعيد لا الى السبب القريب المباشر، و سبق التنبيه الى ذلك أكثر من مرة.

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ). طلب المعاندون من محمد (ص) في الآية السابقة ان

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٧٠

ينزل عليهم الملائكة، فأجابهم الله سبحانه هناك بأن الملائكة تنزل على المكذبين و المعاندين بالعذاب و الهلاك، ثم عقب سبحانه في هذه الآية على الجواب السابق بأن الله لو فتح لهم أبواب السماء و صعدا فيها بأجسامهم و رأوا الملائكة و غيرها من العجائب لقالوا: ان محمدا سحر أبصارنا و أرانا الخيال واقعا و الواقع خيالاً. و سبق نظيره في سورة الأنعام الآية ٧ ج ٣ ص ١٦٣.

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَ زِينَاتٍ لِلنَّاطِرِينَ). قال بعض المفسرين: المراد بالبروج النجوم. و قال آخرون، بل المراد بها منازل الشمس و القمر، و مهما يكن معنى البروج فليس الغرض من الآية أن ندرس علم الفلك لنعرف حقيقة البروج، و انما الغرض الأول أن نتدبر قدرة الله و حكمته في خلق السموات و الأرض، و ان ما في الكون من الدقة و التنظيم و الجمال لأوضح في الدلالة على وجود الله و وحدانيته من نزول الملائكة، و كل ما اقترحه المتعنتون من المعجزات.

(وَ حَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ).

كان أهل الجاهلية يعتقدون ان لكل كاهن من الكهنة شيطان يصعد الى السماء، فيستمع من الملائكة ما يتحدثون به عن أهل الأرض، ثم ينزل الشيطان الى الكاهن فيخبره بما سمع، و الكاهن بدوره يفشيه بين الناس. و الأيتان بمجموعهما رد و تكذيب لهذه الأسطورة، و ان الشياطين لا يستطيعون الوصول الى السماء بحال، و قوله:

(شِهَابٌ مُبِينٌ) كناية عن ان الشياطين أعجز و أحقر من أن تسترق السمع من الملائكة كما زعم أهل الجاهلية.

[سورة الحجر (١٥): الآيات ١٩ الى ٢٥]

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَ الْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِي وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نَنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَ أَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَأَسْقِينَاكُمْوَهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣)
وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٧١

اللغة:

الرواسي الجبال. و الشيء الموزون المقدر بقدر. و اللوايح جمع لاقح للشجر و السحاب.

الإعراب:

الأرض مفعول لفعل محذوف دل عليه الموجود أي و مددنا الأرض مددناها.

و من لستم له برازقين (من) أيضا مفعول لفعل محذوف أي و رزقنا من لستم له برازقين. و قيل: ان (من) عطف على الضمير المجرور، و هو لكم أي و جعلنا لكم و لمن لستم له برازقين في الأرض معاش. و ان من شيء (ان) نافية و من زائدة اعرابا، و شيء مبتدأ، و الخبر جملة عندنا خزائنه. و لواقح حال من الرياح.

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي (نحن) تأكيد لاسم ان، و يجوز أن تكون مبتدأ و نحوي خبر، و الجملة خبر ان.

المعنى:

(وَ الْأَرْضَ مَدَدْنَا هَا وَ الْيَنَّا فِيهَا رَوَاسِي وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ).

سبق الكلام مفصلا عما حوته هذه الآية عند تفسير الآية ٣ من سورة الرعد،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٧٢

و قوله تعالى: **«كُلُّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ»** في معنى قوله: **«وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ - ٩ الرعد»**. و قوله: **«وَأَخْلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا - ٢ الفرقان»**.

أي مراعى فيه كمية المواد و العناصر، و كيفية الشكل و الصورة، و الهدف الذي وجد من أجله، و لو كان للصدفة و العشوائية شيء من الأثر في وجود الأشياء لما كان فيها هذا الأحكام و التدبير.

(وَ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ). ضمير فيها يعود الى الأرض، و المعاش أسباب العيش من الزراعة و التجارة و الصناعة،

أما العيش بالسلب و النهب و الغش و الاحتيال فهو من صنع الشيطان، لا من جعل الله و خلقه.

(وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ). و كل حي في الأرض لسنا نحن له برازقين و لا مكلفين برزقه، و انما الغرض من هذه

الاشارة أن نعلم ان جميع الأحياء تعيش على رزق الله، و لا حي يرزق حيا سواه إطلاقا، حتى الأطفال الذين نعول، و الدواب و الانعام التي نملك .. فإن رزقها جميعا على الله و حده، لا على غيره.

(وَ إِن مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ). قال الرازي «اتفق المفسرون: على ان المراد بقوله:

(مِنْ شَيْءٍ) هو المطر لأنه سبب الأرزاق و المعاش». و الصحيح ان المراد من شيء في الآية المطر و غيره، لأنها نكرة

في سياق النفي، و معناها العموم، تماما كما لو قلت: ما رأيت أحدا، و المراد بالانزال العطاء، و بالقدر المعلوم أسباب

الرزق، و المعنى ان الخير كله عند الله، و هو يعطيه للعاملين المجدين، لا للكسالى المخنثين: **«هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ**

الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَ كَلُوا مِنْ رِزْقِهِ - ١٥ الملك». انظر «هل الرزق صدفة أو قدر» في ج ٣ ص ١٣١.

(وَ أَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقِينَاكُمْوَهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ).

الرياح توصف باللوائح لأنها تحمل السحاب الماطر، فتلقح الشجر بما تنزل عليه من الأمطار، والى هذا أشارت الآية ٥٧ من سورة الأعراف: «و هو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت - أي حملت - سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت». انظر تفسير هذه الآية في ج ٣ ص ٣٤٢. و أيضا توصف الرياح باللوائح لأنها تنقل لقاح الأزهار الذكور الى الأزهار الإناث لتخرج الثمر و الفواكه.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٧٣

و ليس المراد بقوله تعالى: **(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)** ان الماء بكامله مجموع في خزان عظيم عند الله ينزل منه الماء الى الأرض ساعة يشاء كما قال بعض المفسرين بل المراد ان الله ينزل الماء بالأسباب الطبيعية للنزول، و تحفظه الأرض، و تخرجه العيون شيئا فشيئا لسد الحاجات.

(وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ). نحن الوارثون كناية عن ان كل من عليها فان، و انه لا يبقى الا وجه ربك ذو الجلال و الإكرام **(وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)** ذكر الرازي و الطبرسي ستة أقوال في معنى المستقدمين و المستأخرين، و الصحيح ان المراد بهما ان الله لا يخفى عليه شيء من أحوال الأولين و الآخرين **(وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)**. يحشرهم جميعا للحساب و الجزاء، و هو حكيم في حشرهم هذا، حيث يجد فيه المحسن ثواب إحسانه، و المسيء عقاب إساءته، و أيضا هو عليم بمن أحسن و أساء.

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٢٦ الى ٣١]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سُوِّيْتَهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠)
إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١)

اللغة:

المراد بالإنسان هنا آدم أبو البشر. و الصلصال الطين اليابس غير المطبوخ فإذا

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٧٤

طبخ فهو فخار. و الحمأ الطين المتغير الى السواد. و المسنون المصبوب الذي يمكن تصويره على أية هيئة من الهيئات. و نار السموم شديدة الحرارة، و تنفذ في المسام. و سويته أتمته.

الإعراب:

من حمأ بدل من صلصال بإعادة حرف الجر. و الجان مفعول لفعل محذوف أي و خلقنا الجان خلقناه، و كلهم تأكيد للملائكة، و أجمعون تأكيد ثان.

المعنى:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ). تكلم الناس كثيرا حول أصل الإنسان، و اشتهر عن درون انه قرد، و بسطنا الكلام عن درون و الإنسان عند تفسير الآية ١١ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٠٥. و نعود الآن الى الموضوع بأسلوب آخر لمناسبة ذكر الإنسان و الصلصال في الآية التي نحن بصددتها.



ينحصر طريق المعرفة بالتجربة والمشاهدة والعقل والوحي، ومن الواضح أننا بالتحليل في المختبر نعرف ما في الإنسان من مواد، أما كيف وجد الإنسان، وعلى أية هيئة كان فلا تجيب عن هذا السؤال وما إليه المختبرات والمعامل. أما المشاهدة فأى إنسان رأى وشاهد بداية خلق الإنسان الأول وكيف تكون ووجد؟.

ولا شيء في الحفريات يدل دلالة واضحة على أصل الإنسان، وشرحنا ذلك في المجلد الثالث ص ٣٠٥، أما سؤال العقل عن أصل الإنسان وكيف كان فهو تماما كسؤاله: من هو أبو فلان، وهل كان طويلا أو قصيرا.. فلم يبق من طريق الى معرفة أصل الإنسان الا الوحي من خالق الإنسان.

ومن تتبع آي الذكر الحكيم يجد بعض الآيات تقول: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا - ٥٤ الفرقان». وبعضها يقول: «كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ - ٥٩ آل عمران». وآية ثالثة تقول: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٧٥

مِنْ طِينٍ - ٢ الأنعام»، و الطين هو الماء والتراب وليس بحقيقة ثالثة. والآية التي نحن بصددتها تقول: **(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ).**

والصلصال طين يابس. والحما طين متغير الى السواد، والمسنون طين يمكن تكييفه بسهولة. و الطين بشتى أنواعه ماء و تراب فأصل الإنسان الأول ماء و تراب، خلق الله منهما أبا البشر ومنحه الحياة.

(وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ). أنكر جماعة وجود الجن، و فسر بعض المؤمنين الجن المذكور في القرآن، فسره بالمكروب الذي لا يرى بالعين، أي أخذنا بالمعنى اللغوي من جن الشيء إذا استتر عن الأعين. وقال آخرون بوجود الجن، و أفوا كتبنا في عدد نفوسهم و بلادهم و عاداتهم و شعرائهم و رؤسائهم، و زواج الانس منهم و زواجهم من الانس، و نحن نؤمن بوجود الجن، لا لشيء إلا لأن الوحي أثبتته، و العقل لا ينفيه، و لا نصدق أحدا يدعي رؤية الجن أو يتصل بهم، و لا نقبل أي حديث عنهم إلا إذا نطق الوحي به صراحة. و قد صرحت هذه الآية و الآية ١٥ من الرحمن ان الله خلق الجن من النار. لذا نحن نؤمن بأن أصل الجن من نار، و لكن أي نار، و كيف كان الخلق؟ الله أعلم.

و قرأت فيما قرأت ان علماء الاختصاص اكتشفوا نوعا من الحشرات لا تحيا إلا بالهواء السام، و نوعا آخر لا يحيا إلا في آبار البترول و المواد الملتهبة.

و عليه فمن الجائز أن يكون في كوكب الشمس أحياء تتفق في تكوينها مع حرارة الشمس، كالسمك في الماء، و تلون الفراشة بلون الورد، و السلحفاة بلون الصحراء.

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا). قال الله هذا للملائكة، و قال له الملائكة أيضا: أ تجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء؟. و غرضنا من الإشارة الى قول الملائكة التنبيه الى ما ذكرناه عند تفسير الآية ٣٠ من سورة البقرة من ان الله سبحانه قد أفسح لهم مجال السؤال و الحوار الذي يشبه الاعتراض، ثم أفهمهم الحقيقة، و تلتطف في جوابهم.. فعسى أن يتعظ بهذا من يرى نفسه فوق أن يراجع في شيء من أقواله لمكانته العلمية و منزلته الاجتماعية. أنظر المجلد الأول ص ٨١

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٧٦

(مِنْ صَلْصَالٍ) طين يابس غير مطبوخ **(مِنْ حَمَإٍ)** طين متغير الى السواد **(مَسْنُونٍ)** مرن يمكن تكييفه و تصويره على

هيئة انسان أو غيره (فَإِذَا سَوَّيْتَهُ) أتممته (وَوَفَّخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي) أي جعلت الحياة فيه أنظر ج ٢ ص ٥٠١ (فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) سبق نظيره في الآية ٣٤ من سورة البقرة ج ١ ص ٨٢.

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٣٣ الى ٤٤]

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٣) قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَزِينَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤)

اللغة:

رجيم أي مرجوم، والمراد به هنا المطرود من رحمة الله لأن من يطرد يقذف

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٧٧

بالحجارة. وانظري أمهلي. و جزء مقسوم أي لكل فريق من اتباع إبليس جزء معين في جهنم.

الإعراب:

مالك (ما) مبتدأ، و لك متعلق بمحذوف خبرا للمبتدأ، و المصدر من ان لا تكون مجرور بحرف جر محذوف، و المصدر متعلق بما تعلق به الخبر، و التقدير أي شيء حملك على عدم السجود؟. لا سجد اللام تأكيد للنفي، و ان مضمرة بعدها، و المصدر المنسب مجرور بها، و هو متعلق بمحذوف خبرا لأن أي لم أكن مستعدا أو مخلوقا للسجود لبشر. و بما أغويتني الباء للقسمة عند البيضاوي، و ما مصدرية و جواب القسم لأزينن و مثله فبعزتك لأغوينهم أجمعين. و أجمعين تأكيد لضمير أغوينهم. و عبادك منصوب على الاستثناء المتصل من الضمير المذكور، و المخلصين صفة لعبادك. و هذا مبتدأ و صراط خبر و مستقيم صفة. الا من اتبعك (من) في موضع نصب على الاستثناء المنقطع لأن الغاوين غير المخلصين. و أجمعين تأكيد للضمير في موعدهم.

المعنى:

أمر سبحانه الملائكة بأن يسجدوا لآدم سجود تحية، لا سجود عبادة، فأطاعوا جميعا، و عصى إبليس. و اختلف العلماء في هوية إبليس: هل هو ملك فطرد، أو شيطان منذ البداية؟. و هذا نزاع عقيم، ما دام إبليس مذموما مدحورا على كل حال.. و حين امتنع عن السجود سأله المولى جلت عظمتة:

(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ)؟. و هل أنت أعلى مكانا، و أشرف قدرا ممن سجد لآدم؟.

(قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ). عصى إبليس و تمرد لاشيء إلا تعصبا لأصله و عنصره، و كل من تعصب لأصل و عنصر فهو ملعون و مذموم و رجيم تماما كما إبليس.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٧٨

(قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ). ضمير منها يعود الى الدرجة الرفيعة، و المعنى ان

الله سبحانه طرد إبليس من رحمته الى عذابه و نقمته، و جعله ملعونا على كل لسان حتى قيام الساعة جزاء على تكبره و امتناعه عن طاعة الله تعالى.

(قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ). طلب هذا الامهال لحاجة في نفسه سيصرح بها قريبا.

(قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ). و هو ساعة النفخ في الصور الذي دلت عليه الآية ٦٨ من الزمر: «و نفخ في الصور فصعق من في السموات و من في الأرض».

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي) أي بما امتحنتني به من الأمر بالسجود لآدم الذي أوقعني في الغي و العصيان (لَا زَيْنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا غُورِيَّتَهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ). قطع إبليس عهدا على نفسه ان ينتقم لمأساته من هذا المخلوق الذي كان السبب لطرده من رحمة الله الى لعنته.

(قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ) هذه اشارة الى صيانة المخلصين من الشيطان و غوايته، و علي أي ثابت عليه تعالى، مثل قوله: «كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ - ٥٤ الأنعام». و المعنى ان الله كتب على نفسه ان الإخلاص هو الصراط المستقيم، فمن سلكه نجا، و من انحرف عنه هلك **(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)** الذين يعبدون الدرهم و الدينار، و يبيعون الدين و البلاد و العباد لكل من يدفع الثمن، أما الطيبون المخلصون فإبليس أذل و أحقر من ان يدنو منهم فضلا عن تسلطه عليهم. تقدم نظير هذه الآيات في الأعراف الآية ١١-١٨ ج ٣ ص ٣٠٦. **(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ).** هناك في قعر جهنم يجتمعون جميعا إبليس و أتباعه، و يتبرأ المتبوع من التابع، و يلعن كل منهما صاحبه. انظر تفسير الآية ٢٢ من سورة ابراهيم، فقرة: «خطبة الشيطان».

(لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جِزَاءٌ مَقْسُومٌ). قيل: المراد بالأبواب المعنى الظاهر منها. و قيل: بل المراد منها الطبقات و الأدوار، و ان بعض النار

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٧٩

فوق بعض، و ان لكل طبقة اسم يخصها كجهنم و الجحيم و لظى و سقر و الحطمة و ما الى ذلك .. و مهما كان المراد فان الواقع معلوم، و هو ان السيئات مراتب و درجات، منها الكبيرة الخطيرة، و منها الصغيرة الحقيرة، و ما بينهما، و لكل سيئة ما تستحقه من العذاب دون زيادة. و تكلمنا عن ذلك مفصلا في آخر سورة ابراهيم بعنوان «جهنم و الأسلحة الجهنمية».

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٤٥ الى ٥٠]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادخلوها بسلام آمين (٤٦) و نزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سررٍ متقابلين (٤٧) لا يمسهم فيها نصب و ما هم منها بمخرجين (٤٨) نبي عبادي اني انا الغفور الرحيم (٤٩) و ان عذابي هو العذاب الأليم (٥٠)

اللغة:

السرر جمع سرير. و النصب التعب. و نبيء خبر.

الإعراب:

ادخلوها أي يقال لهم ادخلوها. و بسلام متعلق بمحذوف حالا من واو ادخلوها أي سالمين. و آمين حال ثانية. و إخوانا حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف الذي تعلق به في جنات. أي ان المتقين مستقرون في جنات متصافين

متحابين.

و متقابلين صفة للإخوان، و على سرر متعلق بمتقابلين. و ما هم (ما) نافية و هم

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٨٠

مبتدأ و بمخرجين الباء زائدة اعرابا، و مخرجون خبر. و **أَنَا أَنَا الْغُفُورُ (أَنَا)** ضمير فصل أو توكيد، و المصدر من **أَنِي** **أَنَا الْغُفُورُ** مجرور بالباء المحذوفة. و ان عذابي هو العذاب (هو) ضمير فصل.

المعنى:

بعد أن ذكر سبحانه عاقبة المجرمين و الغاوين، و انهم يحشرون غدا مقرورين في الأصفاد، و سراييلهم من قطران، و تغشى وجوههم النار، بعد هذا ذكر سبحانه عاقبة المتقين، و انهم يجازون بالرفاهية و الأمان و الصفاء و الراحة الدائمة، و فيما يلي التفصيل:

١- **(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عَيْوُنٍ)**. حياة طيبة في كل شيء من المأكل و المشرب الى المنظر و حور العين. «و فِيهَا مَا تَشْتَهُهُ النَّفْسُ وَ تَلذُّ الْأَعْيُنُ - ٧١ الزخرف».

٢- **(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمَنِينَ)**. حياة طيبة و آمنة لا خوف فيها و لا حزن.

٣- **(و نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)** و الى جانب الرفاهية الصفاء أيضا، حيث لا حقد يغلي في القلوب، و يذيبها حسرات، كما هي حال أهل النار الذين وصفهم سبحانه بقوله: «كَلِمًا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا - ٣٧ الأعراف».

٤- **(لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَ مَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)** .. لا فقر .. لا مرض ..

لا خوف .. لا حقد .. و أيضا لا تعب و اعياء .. و كل هذه الأوصاف دائمة لا نقصان فيها و لا زوال لها.

(نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغُفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ). جمع سبحانه في هاتين الآيتين بين التبشير و التحذير كي لا ييأس العاصي من رحمة الله و مغفرته، بل يرجع اليه تعالى و يتوب. و كي يحذر المطيع من الزلل و فساد العمل، فيحتاط و يتواضع و لا يتملكه العجب و الغرور. و قال الرازي: لما ذكر الله المغفرة و الرحمة بالغ في تأكيدهما بالفاظ ثلاثة هي: (اني) و (أنا) و إدخال الألف

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٨١

و اللام على الغفور الرحيم، و لما ذكر العذاب لم يقل: (اني) و (أنا)، بل قال: ان عذابي هو الخ.

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٥١ الى ٦٠]

وَ نَبَّهَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نَبْشُرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشْرْتُمْ نُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبْرُ فِيمَ تَبْشُرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشْرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠)

اللغة:

الوجل الخوف و القنوط اليأس. و ما خطبكم؟ ما شأنكم؟ و قدرنا قضينا، أو علمنا، و الغابر الباقي و الماكت، و قد

يستعمل فيمن ذهب و مضى. و المراد بالغابرين هنا ان امرأة نوح من الباقيين في المدينة مع المهلكين.

الإعراب:

قالوا سلاما منصوب على المصدر أي سلمنا سلاما. و على ان مسني متعلق

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٨٢

بمحذوف حالا من الياء في بشرتموني أي بشرتموني كبيرا. و من يقنط (من) مبتدأ و يقنط خبر. آل لوط منصوب على الاستثناء المنقطع من قوم مجرمين.

و امراته على الاستثناء المتصل من ضمير «المنجوهم».

المعنى:

(و نَبَّهْمُ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ). الخطاب الى محمد (ص)، و ضمير (هم) يعود الى عباد الله المذكورين في الآية السابقة. و ضيف ابراهيم هم الملائكة الذين دخلوا عليه (إِنَّ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا) سلموا عليه، فرد عليهم، كما في الآية ٦٩ من سورة هود: «قالوا سلاما قال سلام».

(قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ) لأنه قدم لهم الطعام فامتنعوا عنه، فأنكرهم و أو جس منهم خيفة (قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ) ذي شأن، و في الآية ١١٢ من سورة الصافات: «و بَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ».

(قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمِ بَشْرُونَ). لم يقل هذا ابراهيم شكاً في قدرة الله، و لا يأساً من رحمته، بل ليتأكد و يطمئن (قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ) ظن الملائكة من سؤال ابراهيم انه قانط، فصحح ظنهم و نفى عنه القنوط (قَالَ وَ مَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ). و في قوله هذا دلالة قاطعة على انه لم يسأل شاكاً و لا يائساً، بل متأكداً و متثبتاً على طريقة (و لَكِنْ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي).

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ) ما هي المهمة التي أرسلتم من أجلها- غير التبشير-؟. (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ) و هم قوم لوط (إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ) و هم خاصته و أتباعه المؤمنون (إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَابِرِينَ) أهلكتها الله مع من أهلكت لأنها كانت منافقة تتآمر على زوجها لوط مع أعدائه المشركين، و سبق نظير هذه الآيات في سورة هود الآية ٦٩ و ما بعدها.

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٦١ الى ٧٣]

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَّنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِنَّاتِكُمْ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَ اتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَاسْرُ بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَذْبَارَهُمْ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَ قَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَ جَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُون (٦٨) وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزَوْنَ (٦٩) قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٨٣

اللغة:

الاسراء السير في الليل. و القطع من الليل طائفة منه. و اتبع ادبارهم أي كن على أثرهم. و قضينا اليه أوحينا اليه.

الإعراب:

الأمر عطف بيان أو بدل من ذلك. و المصدر من ان دابر هؤلاء بدل من ذلك الأمر، أو مجرور بالباء المحذوفة أي و قضينا بأن دابر هؤلاء. و مصبحين حال من هؤلاء. و جملة يستبشرون حال من أهل المدينة. و عن العالمين على حذف مضاف أي عن ضيافة العالمين. و لعمرك مبتداً و الخبر محذوف أي لعمرك قسماً.

المعنى:

يكرر الله سبحانه قصص الأنبياء و ما حدث ممن عاندهم و قاوم رسالتهم، يكرر

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٨٤

ذلك لنتعظ و نعتبر كيف كان عاقبة المكذبين بالحق، و كل ما جاء في هذه الآيات التي نحن بصددتها قد سبق ذكره مفصلاً في سورة هود، و كذا جاء في المقطع السابق المتعلق بإبراهيم (ع)، و من أجل هذا نختصر في تفسير هذه الآيات كما اختصرنا في تفسير الآيات السابقة.

(فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ). خرج الملائكة من عند ابراهيم و توجهوا الى لوط، فلما دخلوا عليه ظنهم ضيوفاً، فضاقت بهم ذرعا خوفاً عليهم من قومه الفجرة **(قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَّكَرُونَ)**. لا أعرفكم و لا أعرف ما ذا تريدون .. و كيف دخلتم هذا البلد، و أهله مشهورون بما يفعلون؟.

(قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ وَ أَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ). كشف الملائكة للوط عن حقيقتهم، و عن المهمة التي جاءوا من أجلها، و هي إهلاك قوم لوط، فقد كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، و كان نبيهم لوط يحذرهم و ينذرهم بعذاب من السماء، فيشكون و يسخرون .. فقال الملائكة للوط:

لقد جئناك بالعذاب الذي حذرتهم منه، و كذبوك فيه، و انه واقع لا محالة **(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ)**. بعد ان أخبروه بوقوع العذاب أمره أن ينجو بنفسه و أهله، و ذلك بأن يسير بهم قبل الصبح على ان يكون هو في مؤخرتهم يرعاهم و يتفقدهم، و لا يدع أحداً يلتفت الى الوراء لئلا يرى العذاب فيجزع و يفزع. **(وَ قَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ)**. أوحى الله الى لوط بأنه سيستأصل الكافرين وقت الصباح عن آخرهم، و لا يبقى منهم عينا و لا أثراً.

(وَ جَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ). قصد الفسقة الفجرة أضياف لوط فرحين يبشر بعضهم بعضاً بهذه الغنيمة الباردة، و اسودت الدنيا في وجه لوط، حيث لم يكن قد عرف حقيقة أضيافه بعد، فخاطب قومه برفق **(قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزُونِ)**. خوفهم من الله، و لا شيء أهون عليهم منه، و استنجد بمروءتهم ان يفضحوه و يخزوه في ضيفه، و هم أبعد الخلق عن المروءة و الانسانية.

(قَالُوا أَوَلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ). أرايت الى هذه الصلابة و الوقاحة؟. أصبحوا

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٨٥

هم الأبرياء الأتقياء، و لوط هو المذنب المجرم .. و لما ذا؟. لأنهم نهوه عن معاشره الناس و استقبال الضيوف فلم ينته! .. ألم نهك؟ .. و هذا المنطق اللوطي هو منطق كل معتد أثيم لا يقيم وزناً لالرغبته و منفعتة. فالفيتناميون دعاة حرب و سفاكو دماء عند الأمريكيين لأنهم يرفضون أن تتحكم بهم الولايات المتحدة كما تشاء، و العرب و حوش مفترسون عند الولايات المتحدة و انكلترا لأنهم يقولون: فلسطين للفلسطينيين لا للصهاينة، و دول الاستعمار تردد شعارات السلام و

الحرية في نفس الوقت الذي تضرب فيه الشعوب المستضعفة بالمدافع وقنابل النابالم. **(قَالَ هُوَ لَأَبْنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)**. عبر عن نساء قومه ببناته لأن رسول الأمة كالأب لجميع أفرادها ذكورا وإناثا. و قد عرض لوط على قومه أن يتركوا الذكور، و يتزوجوا الإناث حلالا طيبا. و لكن نفوسهم لا تطيب الا بالحرام، و لا تميل الا الى الخبائث و الآثام. **(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)**. قال كثير من المفسرين: ان الخطاب في لعمرك من الله الى محمد (ص). و قال آخرون: انه من الملائكة للوط، و ربما كان هذا أقرب لظاهر السياق. و مهما يكن فإن المعنى ان قوم لوط يتردون في الهوى و الضلالة، و لا يؤوبون الى الرشد و الهداية مهما جد الهادي و نصح المرشد.

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٧٣ الى ٨٦]

فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَاَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مَّيِّبٍ (٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَاتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنْ رَبُّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٨٤

اللغة:

المراد بالصيحة هنا العذاب. و مشرقين أي داخلين في وقت شروق الشمس. و السجيل طين متحجر. و للمتوسمين جمع متوسم، و هو صاحب الفراسة الصائبة، و المراد به هنا العاقل الذي ينتفع بالعظات و العبر. و المراد بأصحاب الأيكة قوم شعيب، و الأيكة الشجر الملتف الكثيف. و للإمام معان شتى، و المراد به هنا الطريق.

و اصحاب الحجر هم ثمود قوم صالح، و الحجر اسم المكان الذي كانوا فيه، و قيل كل مكان أحيط بالحجارة يسمى حجرا، و الصفح الجميل العفو من غير عتاب، كما جاء عن الإمام علي (ع).

الإعراب:

مشرقين حال من الضمير في أخذتهم، و مثلها مصبحين. و آمنين حال من و او ينحتون. و ان كان أصحاب الأيكة (ان) مخففة من الثقيلة و مهملة، و اللام بعدها للفصل بينها و بين ان النافية.

المعنى:

(فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ). ضمير (هم) يعود الى قوم لوط، و المعنى ان العذاب نزل بهم في وقت شروق الشمس **(فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَاَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ)**. ضمير عاليها و سافلها يعود الى مدينة لوط، و تقدمت

هذه الآية بالحرف الواحد مع التفسير في سورة هود الآية ٨٢.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٨٧

(إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) المراد بالمتوسمين هنا العقلاء الذين يعتبرون و ينتفعون بالعظات **(وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ**

مُقِيمٍ ضمير انها يعود الى مدينة أو قري لوط التي جعل الله عاليها سافلها. و السبيل الطريق، و المقيم الموجود الثابت، و المعنى ان آثار مدينة لوط التي أهلكتها الله ما زالت قائمة الى عهد محمد (ص) و الطريق اليها موجود و مسلوك يمر عليه الرائح و الغادي، و يشاهد الدمار و الآثار .. قال المفسرون:

كانت تعرف هذه المدينة باسم سدوم **(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)**. أي ان المؤمنين بالله و اليوم الآخر يعتقدون بأن ما حل بقوم لوط من العذاب كان جزاء على كفرهم و ضلالهم، أما الملحدون فيقولون: هي حوادث كونية، و أسباب طبيعية.

(وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ظَالِمِينَ). الأيكة الشجر الملتف الكثيف، و المراد بأصحابها قوم شعيب .. بعد أن ذكر سبحانه هلاك قوم لوط أشار الى قوم شعيب و انه تعالى أهلكتهم لكفرهم و تمردهم على الحق، و سبق الكلام عن شعيب و قومه عند تفسير الآية ٨٥ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٥٥، و يأتي أيضا في سورة الشعراء **(فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَانْتَهَمَا لِبِأَمَامٍ مُّبِينٍ)**. ضمير منهم يعود الى أصحاب الايكة، و هم قوم شعيب، و ضمير انهما يعود الى مدينة لوط و أصحاب الأيكة، و المراد بالإمام هنا الطريق، و المعنى ان الدلائل و الآثار على هلاك مدينة لوط و بلد شعيب ما زالت قائمة، و الطريق اليها واضح يسلكه كل من أراد ان يشاهد آثار الهلاك و العذاب.

(وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجْرِ الْمُرْسَلِينَ). أصحاب الحجر هم ثمود، و نبينهم صالح صاحب الناقة، و الحجر اسم المكان الذي كانوا فيه، و هم لم يكذبوا إلا رسولا واحدا هو صالح، و انما قال سبحانه كذبوا المرسلين بصيغة الجمع لأن من كذب رسولا واحدا لله فقد كذب جميع الرسل **(وَ آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)** مع انها كافية وافية في الدلالة على الحق، و لكنها لا تتفق مع أهوائهم و تقاليدهم الفاسدة **(وَ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ)**. و كانت السكنى في بيت حجر مع الامان من الغزو دليلا على الحضارة في ذلك العصر ..

و من جملة الآيات التي آتاهم الله على يد الرسل الناقة فعقروها و قالوا: يا صالح اتتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين **(فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ)** أي وقع عليهم العذاب وقت الصبح **(فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)** وقع عليهم العذاب،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٨٨

و لم يجدهم ما جمعوا من ثروات، و ما نحتوا و بنوا من دور و قصور. و سبق الكلام عن صالح و قومه عند تفسير الآية ٧٣ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٥٠.

(وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ). ما من شيء في الكون إلا وجد لحكمة و منه هلاك الكافرين من الأمم الماضية. و في معنى هذه الآية قوله تعالى: **(وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا - ٢٧ ص)** **(وَ إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ)** المراد بالساعة القيامة، و فيها يجازي الله كلا بما يستحق **(فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلِ)**. الخطاب من الله لمحمد يأمره فيه بالاعراض عن المشركين و الجاهلين، و ان لا يشغل نفسه بهم، و في معنى الآية قوله تعالى:

«وَ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا - ١٠ المزمّل».

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٨٧ الى ٩٩]

وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ

اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)

فَوَرَّبُّكَ لَنَسْتَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ يُضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٨٩

اللغة:

السبع المثاني سورة الفاتحة لأنها سبع آيات، وبقراءتها يثنى في الصلاة، وقيل هي السور السبع الطوال في أول القرآن: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس كما في تفسير الطبري. أو الأنفال مع التوبة بدلا عن يونس كما في بعض التفاسير. ولا تمدن عينيك أي لا تنظر. والمراد بالأزواج الأصناف، والتوضيح في فقرة المعنى. وخفض الجناح كناية عن التواضع، والمراد بالمقتسمين هنا اليهود والنصارى بالنظر إلى أنهم جعلوا القرآن عِضِينَ أي أجزاء، حيث آمنوا ببعض، وكفروا ببعض. فاصدع بما تؤمر أي اجهر به وانفذه. والمراد باليقين هنا الموت.

الإعراب:

سبعا من المثاني (من) بيانية أي سبعا هي المثاني، ومثلها: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ - ٣٠ الحج» أي الرجس هي الأوثان. وأزواجا مفعول متعنا به. وكما أنزلنا الكاف بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف أي أنزلنا عليك القرآن العظيم إنزالا مثل ما أنزلنا على المقتسمين. وهذا الإعراب فيه شيء من التكلف، ولكنه أهون من بقية الأوجه التي ذكرها المفسرون. والذين جعلوا القرآن عِضِينَ صفة للمستهزئين أو عطف بيان.

المعنى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ). اختلفوا في المراد بالسبع المثاني، وذكر المفسرون خمسة أقوال، أرجحها - فيما نرى - أنها سورة الفاتحة، فهي سبع آيات، ويثنى بها في الصلاة، وتجمع بين ذكر الربوبية والعبودية.

اذن، هي سبع آياتها، ومثاني بصفاتهما.

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ). يستعمل الزوج بالصفة،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٩٠

ومنه قوله تعالى: «فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ - ٥٢ الرحمن» أي صنفان.

وقوله: «وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا - ٥٨ ص» أي أصناف. وقوله: «سَبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ - ٣٦ يس». وعلى هذا يكون المراد بالأزواج في الآية التي نفسرها أصناف الكفار المشركين وأهل الكتاب، وبكلمة ثانية الكفار بجميع أصنافهم، وضمير منهم يعود إلى الكفار، ومحصل المعنى لا تنظر يا محمد أو لا تحفل بما تراه من الزينة التي يتمتع بها أصناف الكفار من المشركين وأهل الكتاب **(وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ)** كان النبي (ص) يحزن ويتألم لنفور

المشركين و عدم ايمانهم، فأمره المولى جل و علا بأن لا يهتم و لا يكثرث، و مثله: «فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ - ٨ فاطر» **(وَ أَحْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)**. تواضع للطيبين المخلصين لأن التواضع لهؤلاء تواضع لله، و التكبر على الخونة المفسدين جهاد في سبيل الله: «أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ - ٥٤ المائدة».

(وَ قُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ). دعا محمد (ص) الناس دعوة الحق بالحجج و البيئات، و ما زالت دعوته قائمة بأدلتها و براهينها حتى اليوم و الى آخر يوم، و على كل عاقل أن ينظرها و يتدبرها، فإن آمن بها آمن عن بينة، و ان رفضها رفض عن بينة، أما من ينفر دون أن ينظر فهو ملام و مؤاخذ **(كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ)**. المراد بالمقتسمين اليهود و النصارى لأنهم هم الذين جعلوا القرآن عيين أي فرقوه و قسموه أعضاء و أبعاضاً، حيث آمنوا ببعض، و كفروا ببعض، كفروا بما يصطدم مع مصالحهم و تقاليدهم، و آمنوا بما عدا ذلك، و محصل المعنى ان الله أنزل القرآن على محمد كما أنزل التوراة على اليهود، و الإنجيل على النصارى الذين آمنوا ببعض القرآن و كفروا ببعض. فأى عجب أن ينزل على محمد كتاب من ربه ما دام قد نزل من قبله أكثر من كتاب!

(فَو رَبِّكَ لَنَسْتَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ). قرر القرآن في هذه الآية مسؤولية الإنسان عن أعماله، و في الآية ١٨ من سورة ق قرر مسؤوليته عن أقواله:

«مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ». و في الآية ١٩ من سورة غافر قرر مسؤوليته عن مقاصده و نواياه: «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورَ». و متى أيقن الإنسان بأن عليه رقيباً قادراً عادلاً خاف و اتقى .. و محال أن تنتظم الحياة

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٩١

الانسانية بدون الشعور بالمسؤولية و الالتزام بها.

(فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرَضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) ادع الى ربك بالحجة و البرهان، و لا تبال بإعراض من أعرض و ادبار من أدبر **(إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ)**. ذكر المفسرون، و منهم الطبري و الرازي و الطبرسي: ان جماعة من مشركي قريش لهم قوة و شوكة كانوا يسخرون و يهزءون من رسول الله (ص). فأهلكهم الله سبحانه بأهون الأسباب و أيسرها، و من هؤلاء الوليد بن المغيرة، و العاص بن وائل، و عدي بن قيس، و الأسود بن عبد يغوث.

(وَ لَقَدْ نَعَلْنَاكَ يُضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ).

من الطبيعي ان يحزن النبي (ص) و يتألم إذا استهزأ به المشركون، و قالوا عنه:

مجنون و مفتر على الله، من الطبيعي أن يضيق صدره بما يقول عنه الكافرون لأنه انسان من لحم و دم يفرح بما يفرح به الناس، و يحزن مما يحزنون، و لكن ما هي العلاقة بين الحزن و العبادة، حتى أمره الله تعالى بأن يلجأ إليها إذا حزن و ضاق صدره؟.

الجواب، ان الله سبحانه لم يأمر نبيه بالعبادة هنا ليبين له ان ضيق الصدر سبب للأمر بالعبادة، كلا فإن الأمر بعبادة الله غير مقيد بفرح و لا بحزن، و انما الأمر بالعبادة هنا كناية عن الاتكال على الله و الفرع اليه وحده إذا ألم بالنبي (ص) ما يؤلمه و يزعجه، تماماً كقوله تعالى: «وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ - ٢٠٠ الأعراف». أنظر ج ٣ ص ٤٣٩.

(وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ). المراد باليقين هنا الموت لأنه واقع لا محالة و القصد ان يستمر الإنسان في العبادة و الإخلاص لله مدة حياته: «وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا - ٣١ مريم».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٩٣

سورة النحل

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٩٥

سورة النحل ١٢٨ آية.

بعضها مكّي، وبعضها مدني، و اختلفوا في عدد كل من المكّي و المدني، فقيل: اربعون آية من أولها مكّية، و الباقي مدني، و قيل: كلها مكّية ما عدا ثلاث آيات في آخر السورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة النحل (١٦): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ تُنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤)

اللغة:

سبحان كلمة تنزيهه. و تعالى ارتفع عن كل ما يشين. و المراد بالروح هنا الوحي مثل قوله تعالى: «و كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ - ٥٢ الشورى». أي و كذلك أنزلنا اليك وحيًا.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٩٦

الإعراب:

سبحانه منصوب على المصدرية. و من أمره أي بأمره. و ان أنذروا (ان) مفسرة بمعنى أي. و ضمير انه للشان، و هو اسم ان، و جملة لا إله إلا الخ خبر، و المصدر من ان و اسمها و خبرها مجرور بالباء المحذوفة. فاتقون أصلها فاتقوني.

المعنى:

(أَتَىٰ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ). كان النبي ينذر المشركين و يخوفهم من عذاب اليم، و كانوا يجيبونه بالسخرية و يستعجلونه العذاب، و يقولون له: «فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابِ الْيَمِ - ٣٢ الأنفال».

فأجابهم سبحانه بأن عذاب الله آت، و كل آت قريب. و عبر سبحانه عما يأتي في المستقبل بصيغة آتى الدالة على وقوع الفعل لأن العذاب واقع لا محالة، و كل ما كان واجب الوقوع فالحال و الماضي و الاستقبال فيه سواء. و سيقال لهم غدا: هذا الذي كنتم به تستعجلون .. و لا جواب إلا ان قالوا: يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين.

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ تُنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ). المراد بالروح هنا الوحي لأنه للنفوس تماما كالأرواح للأبدان، و محصل المعنى ان الله يصطفي لرسالته من هو أهل لها، و تتلخص هذه

الرسالة بالتوحيد عقيدة، والاستقامة عملاً، لأن كل من اتقى الله فهو على صراط الأمان والاستقامة، وكل من عصاه فهو على صراط الهلاك والضلالة.

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) بعد ان ذكر سبحانه في الآية السابقة انه لا إله إلا هو أشار في هذه الآية الى الدليل على ذلك، وهو ان الله خلق السموات والأرض، وأحكم خلقهما، ولم يعنه على ذلك معين، والخلق من لا شيء بهذا الأحكام والإبداع دليل الألوهية، كما ان التفرد بالخلق دليل الوجدانية. انظر ج ٢ ص ٣٤٤ فقرة: «دليل التوحيد والأقانيم الثلاثة».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٩٧

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ). بعد ان أشار سبحانه الى دليل الوجدانية قال: ولكن هذا الإنسان الضعيف الذي خلقناه من نطفة يكفر بنعمة من أنعم عليه، ويجحد وجود من أوجده، ويعبد ما لا يضره ولا ينفعه. وسبق أكثر من مناسبة ان الإنسان لا ينحرف عن الطريق القويم إلا جهلاً وتقليداً، أو لمنفعة شخصية. انظر تفسير الآية ٣٤ من سورة ابراهيم، فقرة: «هل الإنسان مجرم بطبعه؟».

[سورة النحل (١٦): الآيات ٥ الى ٩]

وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفْعٌ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩)

اللغة:

الانعام هي الإبل والبقر والغنم والمعز. والدفع ما يتدافع به، والمراد به هنا ما يتخذ من جلود الانعام وأصوافها للثياب والفرش. والجمال الزينة. وحين تريحون أي تردون الانعام بالعشي من مراعيها الى مراحها. وحين تسرحون أي حين تخرجونها من مراحها بالغداة الى مراعيها. والأثقال الأمتعة. وبشق الأنفس كناية عن التعب والمشقة. وقصد السبيل الطريق المستقيم الموصل الى الحق، والجائر المائل عنه.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٩٨

الإعراب:

الانعام مفعول لفعل محذوف أي خلق الانعام خلقها لكم، ولكم متعلقة بخلقها. وفيها دفع مبتدأ وخبر، والجملة حال من الانعام. وحين ظرف منصوب بجمال. وبالغية خبر لم تكونوا. والخيل مفعول لفعل محذوف أي وخلق الخيل. ولتركبوها مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام، والمصدر المجرور متعلق بخلق المحذوفة، وزينة معطوفة على محل المصدر المجرور لأنه مفعول لأجله في المعنى، ويجوز أن تكون زينة مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف أي وتزينوا بها زينة.

المعنى:

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفْعٌ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ). نزل القرآن في عصر لا تنتظم فيه الحياة الزراعية وغير الزراعية الا بالحيوان، وقد ذكر سبحانه أصنافاً من الحيوان وفوائدها في العديد من آياته بقصد التذكير بالله ونعمه

على عباده ليقوه في أعمالهم وأقوالهم، من ذلك ما تقدم في سورة الأنعام الآية ١٤٢ وما بعدها ج ٣ ص ٢٧٣، و ذكر في الآية التي نفسرها ثلاث فوائد للأنعام: الدفء و المراد به اتقاء البرد بما يتخذ من جلود الأنعام و أوصافها و أوبارها و أشعارها ..

و ذكر سبحانه بعد الدفء كلمة منافع بدون الألف و اللام، و تنطبق على اللبن و السمن و اثاره الأرض أي حرثها، أما قوله: و منها تأكلون فيشمل الأكل من لحومها و لحوم أولادها بالاضافة الى درها الذي أشارت اليه كلمة منافع.

(وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ). المراد بالجمال هنا جمال الأنعام في منظرها رائحة غادية، و بالخصوص إذا كانت سميئة و كثيرة، و قوله:

حين تريحون معناه حين تردون الأنعام مساء من المرعى الى المراح، و حين تسرحون أي تخرجونها صباحا من المراح الى المرعى، و هذا المنظر الجميل للأنعام الثلاث، و هي غادية رائحة يبعث الانس و الانشراح في نفوس أصحابها، و يغطهم الناظر اليها.

(وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ). بعد أن ذكر

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٤٩٩

سبحانه ان من فوائد الأنعام المأكل و الملبس ذكر انها وسيلة للمواصلات، و نقل الأثقال و الأحمال من بلد الى بلد، و لولاها لتحمل الإنسان المتاعب و المشاق **(إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوْفٌ رَّحِيمٌ)** و من رافته و رحمته تسخير الأنعام لتيسير المصالح و تخفيف الآلام.

(وَالْخَيْلَ وَ الْبِغَالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَ زِينَةً) بعد ان ذكر سبحانه منافع الأنعام الثلاث أشار الى منافع الخيل و

البغال و الحمير، و أهمها الركوب و الزينة في ذلك العصر **(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ).** و قد فسر هذه الجملة كل عالم من خلاله عصره و حياته، فبعض القدامى قال: المراد ان الله يخلق من أنواع الحيوان و النبات و الجماد الكثير مما لا يعلمه الناس. و قال الطبري: المعنى ان الله يخلق لأهل الجنة من أنواع النعيم، و لأهل النار من أنواع العذاب ما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر .. و قال بعض المفسرين الجدد، و منهم الشيخ المراغي، قالوا: «هذه اشارة الى الطيارة و السيارة و نحوهما». و المعنى المناسب للسياق - فيما نرى - ان الله سبحانه بعد ان ذكر هذه المنافع و امتن بها على عباده قال: ان هذا قليل من كثير، و ان هناك منافع لا تعلمونها و لا يبلغها الإحصاء، و منها الطيارة و السيارة، و بكلمة ان قوله: و يخلق ما لا تعلمون أشبه بقوله: و ان تعدوا نعمة الله لا تحصوها.

و نقل الشعراي في ميزانه عن أبي حنيفة تحريم لحوم الخيل، و عن الشافعي و مالك و ابن حنبل التحليل، أما عن لحوم البغال و الحمير فنقل تحريمها عن الشافعي و أبي حنيفة و ابن حنبل، و كراهيتها عن مالك. و قال الشيعة الامامية: تحل لحوم الخيل و البغال و الحمير على كراهية.

(وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ). على هنا للوجوب، مثلها في الآية ١٢ من الليل:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ). و المعنى ان الله سبحانه كتب على نفسه أن يبين للناس على لسان رسله طريق الحث و الهداية **(و**

مِنْهَا جَائِرٌ) ضمير منها يعود الى السبيل لأن السبيل تؤنث و تذكر، أي ان من الطرق ما هو مستقيم كالاسلام. و منها ما هو مائل معوج كغيره من الأديان **(وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)** أي لو أراد الله ان يلجئ الناس الى الايمان قهرا عنهم لما

كفر واحد منهم، و لكنه تعالى ترك الإنسان

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٠٠

و ما يختار بعد ان هداه النجدين حرصا على انسانيته، و ليستحق الثواب ان اختار الخير، و العقاب ان اختار الشر. انظر تفسير الآية ١١٨ من هود.

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٠ الى ١٩]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَ أَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَ عِلَامَاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَ إِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَ مَا تَعْلَمُونَ (١٩)

اللغة:

تسيمون من سامت الماشية إذا رعت أي ترعون أنعامكم من النبات من غير كلفة. و ذرا خلق. و مواخر جمع ماخرة، و المخر شق الماء، يقال: مخرت

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٠١

السفينة إذا جرت و انشق الماء يمينا و شمالا. و الرواسي الجبال. ان تميد بكم أي تميل و تضطرب. و السبل الطرق. و العلامات المعالم التي يستدل بها على الطريق.

الإعراب:

منه شراب مبتداً و خبر و من للتبعية. و منه شجر من هنا للسببية. و النجوم مسخرات مبتداً و خبر و الجملة مستأنفة. و بأمره متعلق بمحذوف حالا من الجميع أي من الليل و النهار و الشمس و القمر و النجوم. و ما ذرا (ما) اسم موصول في محل نصب بفعل محذوف أي و سخر الذي ذرا لكم. و مختلفا حال من (ما) و ألوانه فاعل لمختلف. و مواخر حال من الفلك لأن ترى هنا بصرية لا قلبية. و المصدر من ان تميد مفعول من أجله لألقى. و أنهارا مفعول لفعل محذوف أي و أجرى أنهارا، و سبلا أيضا مفعول لفعل محذوف أي و شق سبلا و أقام علامات، فيقدر لكل منصوب فعل يناسبه. مثل «علفتها تبنا و ماء باردا» أي و سقيتها ماء باردا. أفمن يخلق مبتداً و كمن لا يخلق خبر.

المعنى:

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ).

كل ما قام على ساق من نبات الأرض فهو شجر، و تسيمون ترعون فيه مواشيكم، و المعنى ان الله أنعم على عباده بالماء فجعله شربا لهم، و أنبت منه الشجر الذي ترعاه المواشي.

(يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

أيضا أنبت الله سبحانه بالماء هذه الأشياء لمصالحنا و منافعنا، و لتفكر و تندبر قدرة الله و عظمته و نشكر الآء بطاعته و العمل بمرضاته، و أشرنا فيما سبق ان الماء يتولد من أسبابه الطبيعية التي أوجدها الله في هذا الكون، و إنما أسنده اليه تعالى من باب اسناد الشيء لفاعله الأول. و تقدم نظير هذه الآية في سورة ابراهيم الآية ٣٢ و في سورة الحجر الآية ٢٢.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٠٢

(وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مَسْخَرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).

تقدم نظيره في سورة الرعد الآية ٢ و في سورة ابراهيم الآية ٣٣، و قوله بأمره يشير الى الرد على الماديين الذين يرجعون جميع الحوادث الكونية الى الطبيعة نفسها.

و تسأل: ألا يعني ذكر الليل عن ذكر القمر، و ذكر النهار عن ذكر الشمس؟.

الجواب: كلا، لأن الليل قد يوجد من غير القمر، أما النهار فهو بعض فوائد الشمس و آثارها، و ليس كلها.

(وَمَا ذَرَأَّا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانَهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ).

المراد بذراً خلق و أوجد، و ألوانه أصنافه، و المعنى ان الله سبحانه سخر لنا ما أودعه في الأرض من معادن جامدة و مائعة، و نبات و غير ذلك، ليتذكر متذكر و يشكر شاكر.

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ

وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ). ذكر سبحانه من فوائد البحر ثلاثة أشياء:

الأول: الأسماك.

الثاني: الحلية كاللؤلؤ و المرجان، قال تعالى: «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ - ٢٢ الرحمن». قال المراغي عند تفسير هذه الآية: «توجد حقول من المرجان في البحر الأبيض المتوسط أمام تونس و الجزائر، و تحصد هذه الحقول الدولة الفرنسية و تبيعها على أصحابها أنفسهم، و كأنهم لم يقرءوا القرآن .. و كأنهم لم يخلقوا في هذه الأرض .. و كأنهم لم يؤمروا بالعمل و الاستخراج».

الثالث: السفر بالبحر للتجارة و غيرها.

(وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) أَقَامَ الْجِبَالَ فِي الْأَرْضِ لِتَثْبِتَ وَ لَا تَضْطَرِبَ، وَ مَرَّ نَظِيرُهُ فِي الْآيَةِ ١٩ مِنْ

سُورَةِ الْحَجْرِ (وَأَنْهَارًا) أَجْرَى أَنْهَارًا (وَسَبِيلًا) جَعَلَ طَرِيقًا (لِعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) بِتِلْكَ الطَّرِيقِ إِلَى مَا تَرِيدُونَ (وَعَلَامَاتٍ)

و المراد بها الدلائل التي تهدي المسافر الى الطريق مثل الجبال و الوديان و نحوها

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٠٣

(وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) إِذَا سَافَرُوا فِي اللَّيْلِ بَرًا وَ بَحْرًا، مَرَّ نَظِيرُهُ فِي الْآيَةِ ٩٧ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ج ٣ ص ٢٣٣.

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ) بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْإِنْسَانَ وَالْأَنْعَامَ وَالْحَيَوَانَاتِ

و الماء و الأشجار و الشمس و القمر الخ. بعد هذا قال: هل الله الذي خلق هذه الأشياء يكون هو و الأحجار و الأصنام شركاء و سواء بسواء؟! و هذا السؤال يحمل جوابه معه. **(وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا) تَقَدَّمَتْ هَذِهِ الْآيَةُ**

بِحُرُوفِهَا فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ الْآيَةِ ٣٤ (إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) يَغْفِرُ لِمَنْ قَصَرَ فِي أَدَاءِ شُكْرِهِ وَ حَقِّهِ تَعَالَى، وَ لَا يَسْلُبُهُ

النِّعْمَةَ رَحْمَةً بِهِ (وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ). وَ إِذَا كَانَ عَالِمًا بِمَا نَسَرَ وَ نَعَلْنَ فَيَجِبُ أَنْ نَطِيعَهُ خَوْفًا مِنْ

غضبه و عذابه.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٢٠ الى ٢٣]

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يَبْعَثُونَ (٢١) إلهكم إلهٌ واحدٌ فالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)

الإعراب:

وهم يخلقون مبتدأ وخبر، وأموات خبر ثان، و غير أحياء صفة مؤكدة لأموات. و أيان استفهام عن الزمان بمعنى متى و محلها النصب بيبعثون. إلهكم مبتدأ أول و إله مبتدأ ثان و واحد خبر الثاني، و الجملة خبر الأول. و قيل: ان لا جرم

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٠٤

كلمة واحدة بمعنى حقا. و قيل: كلمتان مثل لا شك، و تقدم الكلام عنها عند تفسير الآية ٢٢ من سورة هود.

المعنى:

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ). سبق الحديث عن الشرك و الجدل مع المشركين في العديد من الآيات .. و الآن و بعد ما ان عدد سبحانه أنواعا من النعم على عباده أشار بهذه الآيات و التي بعدها الى الكافرين بالله و آلائه، و الجاعلين له شركاء في خلقه، و قال لهم بكل بساطة، و بأبلغ حجة:

ان الإله المعبود يجب أن يكون خالقا غير مخلوق، و أنتم أيها المشركون تعبدون مخلوقا غير خالق **(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)** و أيضا من شروط المعبود أن يكون حيا لا جمادا، و معبودكم جماد لا حياة فيه.

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يَبْعَثُونَ). و هذه الجملة يتضح معناها من السؤالين التاليين و جوابيهما:

السؤال الأول: ان واو يشعرون و يبعثون تستعمل في العاقل، و المشركون يعبدون الأصنام، فكيف أطلق ضمير العاقل على غير العاقل، و مثله ضمير (هم) في الآية السابقة؟.

الجواب: ان هذا الاستعمال جاء على وفق عقيدة المشركين الذين يعتقدون بأن الأصنام تعقل و تشعر .. و أي ضمير في هذا الاستعمال و أمثاله ما دامت المسألة مسألة الفاظ و عبارات.

السؤال الثاني: ان الأصنام لا تبعث، فكيف قال سبحانه: و ما يشعرون أيان يبعثون؟.

و أجاب بعض المفسرين بأن ضمير يشعرون يعود الى الأصنام، و ضمير يبعثون الى المشركين، و عليه يكون المعنى ان الأصنام لا تعلم متى يبعث المشركون من قبورهم، و إذا لم تعلم الأصنام ذلك، فكيف تكون أهلا للعبادة؟.

(إلهكم إلهٌ واحدٌ فالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ).

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٠٥

ذكر سبحانه في هذه الآية وصفين لمنكري الآخرة: الأول ان قلوبهم قد أنكرت و جحدت اليوم الآخر، و هم من أجل ذلك لا يعملون أي شيء طمعا في ثواب الله، أو خوفا من عقابه .. و انما يعملون على أساس الريح و المنفعة في هذه الحياة الدنيا. الوصف الثاني الذي وصفهم الله به في هذه الآية انهم ينفرون من الحق و لا ينقادون له علوا و استكبارا.

(لَا جَرَمَ) ليس من شك **(أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ).** انه تعالى يعلم ان

انكارهم كان علوا و استكبارا، و هو يكره الذين يستنكفون عن الخضوع للحق، و يعاقبهم بما يستحقون.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٢٤ الى ٢٩]

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ مَا يَزُرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلْمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٠٦

اللغة:

أساطير جمع أسطورة و أسطورة، وهي الشيء المسطور في الكتب من غير دليل على صحته. و الأوزار الآثام. و القواعد جمع قاعدة و المراد بها هنا الدعامة. و السلم الاستسلام. و المثوى مكان الثواء و الإقامة.

الإعراب:

ما إذا يجوز أن تكون كلمتين ما للاستفهام و محلها الرفع بالابتداء و ذا خبر بمعنى الذي، و يجوز أن تكون كلمة واحدة بمعنى أي شيء و محلها النصب بانزل. و أساطير خبر لمبتدأ محذوف أي هذه أساطير و الذي أنزله أساطير. و ليحملوا مضارع منصوب بأن مضمرة و المصدر المنسب مجرور باللام متعلقا بقالوا، و اللام هنا معناها العاقبة مثل لدوا للموت و ابنوا للخراب. أي كان عاقبة قولهم حمل الأوزار. و ساء ما يزرون أعربها النحاة و المفسرون كما أعربوا بئس و نعم و ما بعدهما، و ذكرنا ذلك في ج ٣ ص ١٨٨. و الذي نراه ان ما مصدرية و المصدر المنسب منها و من يزرون فاعل ساء أي ساء وزرهم. و الذين تتوفاهم نعت للكافرين. و ظالمى أنفسهم حال من ضمير تتوفاهم. و خالدين حال من واو ادخلوا. و فلبئس اللام للتأكيد، و بئس فعل ذم، و فاعلها مستتر أي بئس المثوى، و مثنى المتكبرين تمييز، و المخصوص بالذم محذوف أي جهنم و هي مبتدأ و جملة بئس و فاعلها خبر.

المعنى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ). في الآية السابقة ذكر سبحانه ان الذين أنكروا الآخرة إنما أنكروها علواً و استكباراً عن الخضوع للحق، و في هذه الآية حكى عنهم انهم ينعنون القرآن بالخرافات و الأساطير .. و في آيات أخرى حكى انهم ينعنون محمداً تارة بأنه مجنون، و تارة بأنه شاعر أو كاهن،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٠٧

و ثالثة بأنه ساحر، و غرضهم الأول تضليل الناس عن الحق الذي يكشف عن عيوبهم، و يظهرهم على حقيقتهم .. و قد ذكر الله سبحانه هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله في العديد من آياته، و وصفهم تارة بأنهم يبغونها عوجاً، و أخرى بأنهم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم. و هددهم سبحانه في الآية ١٣ من سورة العنكبوت بقوله: «وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَ لَيْسَتُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» و في معنى هذه الآية الآية التالية:

لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ مَا يَزِرُونَ). لقد ضلوا و أضلوا، و بضلالهم يحملون ذنوبهم كاملة أي لا يغفر الله منها شيئاً، و بضلالهم يحملون الكثير من ذنوب الذين أضلوهم و أفسدوهم. و في الحديث: «أَيُّ دَاعٍ دَعَا إِلَى الْهُدَى فَاتَّبِعْ - أَيِّ تَبِعَهُ النَّاسُ عَلَى ضَلَالِهِ - كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرٍ مِنْ أَتْبَعِهِ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَثْمَانِهِمْ شَيْءٌ». فيزيد في عذاب التابعين.

(قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) أتى الله على حذف مضاف أي أتى أمر الله بنيانهم، و هو الهلاك، و المراد بالبنيان و القواعد و السقف تشبيه أعمالهم بذلك، و المعنى ان المشركين الأول دبروا المكائد و الحيل ضد أنبياء الله و رسله، فأبطلها الله جميعاً، بل كانت السبب في هلاكهم و دمارهم، تماماً كالذي بنى بيتاً و أحكم بنيانه و قواعده، حتى إذا سكنه و اطمأن فيه انهار عليه من الأساس، و أصبح أعلاه في أسفله. و هذه هي بالذات نهاية كل من عاند الحق، و بث ضده الافتراءات و الدعايات الكاذبة، سواء أجاز الحق على لسان محمد (ص) أو لسان غيره.

(ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ). المراد بالخزي هنا عذاب النار: «رَبَّنَا إِنَّكَ مِنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ - ١٩٢ آل عمران» **(و يَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ).** القائل هو الله، و المقول لهم المشركون، و تشاققون فيهم معناه تخاصمون في شأن الأصنام، لأن المشركين كانوا يعبدونها و يدافعون عنها، و يخاصمون من يشتمها أو يذكرها بسوء، و يقولون: انها تشفع لنا، و تقربنا من الله زلفى ..

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٠٨

فاذا وقفوا غدا بين الله يسألهم عنها، و يقول موبخاً و مهدداً: أين شركائي الذين كنتم تزعمون؟. و إذا لم يكن شيء من العذاب الا هذا السؤال من العزيز الجبار لكفى.

(قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) بالحق و عملوا به: **(إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ).** و المراد بالكافرين هنا كل من عاند الحق و استنكف عن الخضوع له ملحداً كان أو غير ملحد، لأن الاثنين الى جهنم و ساءت مصيراً. **(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ)** ظلموا أنفسهم لأنهم ماتوا على الكفر و الضلال **(فَالْقَوْلُ السَّلَامُ)** استسلموا و انقادوا حيث لا ينفعهم الاستسلام و الانقياد.

و كذبوا بقولهم: **(مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ).** و لذا رد سبحانه عليهم بقوله:

(بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) من المظالم و المآثم، و اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تفترون. **(فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئِمَّسُ مَتَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ).** و كل من رفض العمل بالحق فهو عند الله من المتكبرين، سواء انتمى الى الإسلام أم الى أي دين من الأديان، و نهايته الخلود في جهنم، أما أبوابها فقد سبق الكلام عنها عند تفسير الآية ٤٤ من سورة الحجر.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٣٠ الى ٣٤]

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَ لِدَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَ لِنَعْمِ دَارِ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ حَاقَ

بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٠٩

اللغة:

ينظرون ينتظرون. و حاق بهم أحاط بهم.

الإعراب:

ما ذا بمعنى أي شيء، و محلها النصب بانزل. و خيرا مفعول لفعل محذوف أي انزل ربنا خيرا. للذين أحسنوا خبر مقدم، و حسنة مبتدا مؤخر، و الجملة مستأنفة، و يجوز أن تكون بدلا من خير. و جنات عدن مخصوصة بالمدح بنعم. و جملة يدخلونها حال، و يجوز أن تكون جنات عدن مبتداً و يدخلونها خبرا، و الجملة مستأنفة، و المخصوص بالمدح محذوف. و طيبين حال من ضمير تتوفاهم. و جملة يقولون حال من الملائكة.

المعنى:

(وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا). بعد أن ذكر سبحانه المشركين الذين وصفوا القرآن بالخرافات و أساطير الأولين ذكر في هذه الآية المؤمنين، و انهم إذا سئلوا عن القرآن ذكروه بالتقديس و التعظيم، و نعتوه بما نعته الإمام علي في نهج البلاغة: «ظاهره أنيق، و باطنه عميق، لا تفنى عجائبه، و لا تنقضي غرائبه، و لا تكشف الظلمات الا به».

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ). هذه الجملة مستأنفة لا صلة لها بما قبلها، و قيل: بل هي من كلام المتقين، و انها بدل من خير. و المعنى واحد

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥١٠

على التقديرين، و هو ان الله سبحانه يجزي المحسنين خيرا في الدنيا، و لو بالذكر الجميل **(وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ)** من نعيم الدنيا المشوب بالهم و الكدر، و المحدود كما و كيفا **(وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ)** لأنها دار الهناء الدائم الذي لا تشوبه شائبة من هم و عناء.

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ). لا يدخل هذه الجنة العظمى الا المتقون، و هم الذين جاهدوا لنصرة الحق، و صبروا لتحمل الأذى من أجله، و قد نص القرآن بوضوح على هذا التحديد للمتقين في الآية ١٤٢ من سورة آل عمران: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة و لما يعلم الله الذين جاهدوا منكم و يعلم الصابرين». انظر ج ٢ ص ١٦٥، و ج ١ ص ٢٤٢ فقرة «ثمن الجنة».

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ) في مقاصدهم، و طيبين في أفعالهم و أقوالهم، و بالخاتمة يقاس الإنسان، و السعيد من فارق هذه الحياة و الله راض عنه، و يشهد له بأنه من الطيبين الأخيار **(يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)**.

ضمير يقولون للملائكة، و خطاب عليكم للمؤمنين المتقين .. تسلم ملائكة الرحمة على الطيبين عند الموت، و تبشرهم بالجنة، ليطمئنوا و يستبشروا بما أعد الله لهم من الكرامة و عظيم المنزلة.

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ). مر نظيره في الآية ١٥٨ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٨٩ **(كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ).**

هذا تذكير و تحذير للذين كذبوا محمدا (ص) أن يصيبهم ما أصاب الأمم الخالية الذين كذبوا رسلهم **(وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ)** .. حاشا .. كيف؟ .. وقد نهى عن الظلم، و نعت الظالمين بالضلال في الآية ١١ من سورة لقمان «بل الظالمون في ضلال مبين». و لعنهم في الآية ٤٤ من سورة الأعراف: «أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ».

(وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات، و أوضحها جميعا الآية ٤٤ من سورة يونس: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ». كرر سبحانه لفظ الناس دفعا لكل شبهة، و لولا قول الأشاعرة- أي السنة- ان الإنسان مسير، لا مخير لكننا في غنى عن هذا التطويل أو التأكيد الذي هو أشبه بتوضيح الواضحات.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥١١

(فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ). أنكر المشركون رسالة محمد (ص) و سخرؤا منه و منها، و صدوا الناس عنها. و سيلاقون ثمرة أعمالهم بالقسط، و هم لا يظلمون، بل ان الكثير منهم لاقى جزاء عمله في الدنيا قبل الآخرة.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٣٥ الى ٣٧]

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَ لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ (٣٦) إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧)

الإعراب:

ان اعبدوا (ان) مفسرة بمعنى أي. فمنهم خبر مقدم و من هدى مبتدا مؤخر، و مثله و منهم من حقت. و كيف خبر مقدم كان، و عاقبة اسمها.

المعنى:

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥١٢

وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ). سبق نظيره مع التفسير في الآية ١٤٨ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٧٧.

(كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ). هذا هو مبدأ الطغاة في كل زمان و مكان ينكرون الحق و يحاربون المحقين، ثم يحيلون ذلك الى مشيئة الله **(فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)** هذه هي مهمة الرسل تبليغ الأوامر و النواهي عن الله تعالى، أما العمل بها فليس من وظيفتهم في كثير أو قليل. و سبق هذا المعنى في كثير من الآيات.

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ). تدل هذه الآية على ان الله سبحانه قد أرسل لكل أمة في كل قرن و قطر رسولا يأمرها بعبادة الله وحده، و ينهاها عن عبادة غيره صنما كان أو كوكبا أو إنسانا، أو أي شيء، و ليس من الضروري ان يكون هذا الرسول بشرا، فان العقل رسول من الداخل، كما ان النبي رسول من الخارج.

انظر «الله و الفطرة» ج ٣ ص ١٨٨.

(فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ). المراد بالضلالة هنا كلمة العذاب، مثلها في قوله تعالى: «وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ - ٢٩ الأعراف» .. أرسل الله سبحانه رسلا مبشرين و منذرين، فأمن قوم و كانوا من المهتدين المقربين عند الله، و كفر آخرون و كانوا من المبعدين المعذبين **(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ).** الخطاب موجه الى مشركي قريش الذين كذبوا محمدا (ص)، و قد أمرهم الله بأن ينظروا آثار غضبه و عذابه فيمن كذبوا رسلهم من الأمم الماضية ليعتبروا و يتعظوا، و تكرر هذا المعنى في الكثير من الآيات، منها الآية ١٣٧ من آل عمران ج ٢ ص ١٥٩.

(إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ).

ليس من شك ان رسول الله (ص) يحرص على هداية كل الناس بخاصة قومه قريشا، و لكن مجرد حرص النبي ليس سببا لوجود الهداية، و انما السبب هو رغبة الإنسان في الهدى و قدرته عليه، كما ان السبب لوجود الضلال رغبته فيه و قدرته عليه، و أقر الله سبحانه و تعالى كلا من هذين السببين بمعنى انه جلت

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥١٣

حكيمته قد جعل رغبة الإنسان في الهدى و قدرته عليه نتيجة طبيعية لهدايته، و أيضا جعل رغبته في الضلال و قدرته عليه نتيجة طبيعية لضلاله، تماما كشرب السم المؤدي الى التهلكة، و تجنب المخاطر المؤدي الى النجاة، و هذا المعنى هو المراد من نسبة الهدى و الضلال اليه تعالى في هذه الآية، و أمثالها .. و من قال: ان الله يخلق الهدى و الضلال في الإنسان خلقا فهو بحكم المشركين الذين حكى الله قولهم في الآية السابقة: «لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن و لا آباؤنا».

تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٣٨ الى ٤٢]

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتَ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠) وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ لَأَجْرَ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)

اللغة:

الجهد بفتح الجيم التعب، يقال: جهد في الأمر أي اجتهد فيه و تعب، و أقسموا جهد ايمانهم أي بالغوا في اليمين و اجتهدوا، و الجهد بضم الجيم الاستطاعة يقال: بذل جهده و جهوده أي استطاعته، و كل ما يطيق. و بوا المكان حل فيه، و بواه و بوا له المكان هيا له و أنزله فيه.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥١٤

الإعراب:

جهد ايمانهم مفعول مطلق لأقسموا لأن جهد الايمان أغلظها، و يجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال أي جاهدين في

إيمانهم. و بلى حرف جواب، و تختص بالنفي أو ما في حكمه كالأستفهام، و تفيد إبطال النفي و اثبات المنفي. وعدا منصوب على المصدرية، و مثله حقا أي وعد وعدا، و حق حقا. ليبين منصوب بأن مضمرة، و المصدر مجرور باللام و متعلق بفعل محذوف أي يبعثهم من أجل البيان و الأفهام، و مثله ليعلم. و انما قولنا (انما) مركبة من كلمتين ان و ما الكافة عن العمل، و قولنا مبتداً، و لشيء متعلق بقولنا، و إذا ظرف زمان أي وقت ارادتنا، و هو متعلق بقولنا. و المصدر من أن نقول له كن خبر المبتداً، و كن هنا تامة، و مثلها فيكون، و جملة فيكون خبر لمبتداً محذوف أي فهو يكون.

المعنى:

(وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتَ). في الآية ٢٠ من هذه السورة قال تعالى للمشركين: انكم تعبدون مخلوقا غير خالق، و في الآية ٢٤ حكى عنهم القول: انهم يصفون القرآن بأساطير الأولين، و في الآية ٣٥ ذكر سبحانه انهم أسندوا شركهم و شرك آبائهم الى الله، و قال تعالى في الآية التي نفسرها: ان المشركين ينكرون البعث، و يقسمون الايمان المغلظة، و يجتهدون فيها انه من مات فات لأن الشيء متى تفرقت أجزاؤه فلن يعود ثانية كما كان .. و تكلمنا عن ذلك فيما سبق مرات. انظر: طرق متنوعة لاثبات المعاد ج ٢ ص ٣٩٦.

و الماديون و الحياة بعد الموت عند تفسير الآية ٥ من سورة الرعد.

(بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ). كان المشركون يؤمنون بوجود الله و وجود الشركاء له، و ينكرون البعث، و لأنهم يؤمنون بوجود الله جاء الرد عليهم بأن البعث واقع لا محالة، لأن الله الذي يؤمنون به هو الذي وعد بالبعث و وعده الحق و قوله الصدق .. أما جمع الأجزاء بعد تفرقها فأهون عليه من خلقها و إيجادها، لأن من أوجد شيئاً من لا شيء فبالأولى أن يوجد من أجزاء متفرقة.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥١٥

(لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ). ان في البعث حكما عديدة: منها تمييز الخبيث من الطيب، و المحسن من المسيء، و جزاء كل بما يستحق، و منها ان الله سبحانه يبين للخلائق الحق الذي اختلفوا فيه كالتوحيد و النبوة و الحلال و الحرام **(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ)** و منها أيضا أن يعلم الذين أقسموا ان الله لا يبعث أحدا، ان يعلموا و يتأكدوا انهم كانوا كاذبين في ايمانهم.

(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ). بدأ الله الخلق بكلمة كن، و يعيده أيضا بهذه الكلمة: «وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ - ٢٧ الروم».

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً). هذه الآية تنطبق تماما على المهاجرين من صحابة رسول الله (ص) الذين أبلوا البلاء الحسن في نصرته، و فارقوا الدنيا و الأهل و المال فرارا بدينهم، و اتباعا لنبينهم ابتغاء مرضاة الله و رسوله، أما الحسنه التي منحهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة فهي ديارهم و أملاكهم الجديدة بالمدينة فإنها خير و أفضل من ديارهم بمكة **(وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ)** من الدنيا و ما فيها **(لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ).** ضمير كانوا و يعلمون يعودان الى المشركين الذين أنكروا البعث، أما المؤمنون و بخاصة صحابة الرسول (ص) فإنهم يعلمون علم اليقين ان ثواب الآخرة أكبر و أعظم. و تكلمنا عن الهجرة و المهاجرين في ج ٢ ص ٤١٩ و ما بعدها، و عن المهاجرين و الأنصار في ج ٣ ص ٥١٠ و ما بعدها.

(الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ). ان للمؤمن الحق صفات و علامات، و أهمها انكار الذات، و التضحية في

سبيل الله، و الصبر على تحمل الأذى و المشاق من أجل احقاق الحق، و إبطال الباطل، و التوكل على الله وحده، لا على المال و الجاه و الأنساب تماما كما كان صحابة الرسول الأعظم (ص).

[سورة النحل (١٦): الآيات ٤٣ الى ٥٠]

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبْرِ وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمَّنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧)

أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَوَّهُوا ظُلُمًا عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)

اللغة:

الزبر بضم الزاء الكتب، و منه قوله تعالى: «وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوْلِيَيْنِ - ١٩٦ الشعراء». و الواحد زبور، و يقال زبرت الكتاب أي كتبته، و الزبور بفتح الزاء الزجر. و في تقلبهم أي في تصرفاتهم و ذهابهم و إيابهم. و من معاني التخوف التنقص أي جعل الشيء ناقصا، و في مجمع البيان: «قال أكثر المفسرين: معنى على تخوف على تنقص اما بقتلهم و اما بموتهم». و يتفيا من الفياء، يقال:

فأ الظل إذا رجع و عاد. و داخرون صاغرون. و من فوقهم كناية عن قدرة الله و عظمته تماما كقوله تعالى: «وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ - ١٨ الأنعام».

الإعراب:

بالبينات متعلق بنوحي اليهم، و قيل بفعل محذوف أي أرسلنا الرسل بالبينات

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥١٧

و الزبر. و المصدر من أن يخسف مفعول أمن. و ما خلق الله (ما) اسم موصول.

و من شيء يتفيا ظلاله بيان لما خلق الله أي ان المراد من (ما) كل ما له ظل.

و سجدا حال من الظلال.

المعنى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ). أنكر المشركون نبوة محمد، و قالوا: ما بعث الله بشرا رسولا .. فأبطل

الله زعمهم بأن جميع الأنبياء و الرسل السابقين كانوا رجالا يوحى اليهم، كنوح و ابراهيم و إسماعيل و موسى و غيرهم، لأن الغرض من إرسال الرسل لا يتحقق الا إذا كان الرسول من جنس المرسل اليهم: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ - ٤ ابراهيم»: «قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا - ٩٥ الاسراء» ..

(فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) المراد بأهل الذكر أهل العلم المنصفون، سواء أكانوا من أهل الكتاب أم

غيرهم، و المعنى ان كنتم أيها المشركون في ريب من قولنا فاسألوا العارفين يخبروكم ان جميع الأنبياء بشر.

(بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبْرِ) أي أرسل الله الرسل الى الناس بالبينات، و هي الدلائل و البراهين، و بالزبر، و هي الكتب التي فيها

بيان الدين عقيدة و شريعة (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ). الخطاب لمحمد (ص)، و المراد بالذكر هنا القرآن، و من الواضح ان الغاية من إرسال الرسل، و انزال الكتب هداية الناس الى الحق و العدل، و الى حياة الأمن و الرخاء، و قوله:

(وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) معناه لعلهم يتدبرون القرآن و يدركون أسراره و أهدافه، و يعلمون انه أنزل لخيرهم و مصلحتهم. (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ). قال المفسرون: المراد بالذين مكروا هنا مشركو قريش لأنهم هم الذين أساءوا إلى النبي (ص)، و دبروا ضده الحيل و المؤامرات. و قد خوفهم سبحانه بأربعة أنواع من العذاب:

١- (أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ). كما فعل بقارون: «فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥١٨

الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ - ٨١ القصص».

٢- (أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ). فيهلكهم الله بغتة كما فعل بقوم لوط.

٣- (أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي ثَقُلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ). يهلكهم في حال اشتغالهم و كدهم في الأرض للرزق.

٤- (أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ). قال أكثر المفسرين - و العهدة على الطبرسي -: ان المراد بالتخوف هنا التنقص، و عليه يكون المعنى ان الله سبحانه لا يهلكهم دفعة واحدة، بل يتليهم بنقص من الأنفس و الأموال شيئا فشيئا، حتى يأتي على آخرهم. (فَإِنَّ رَبَّكَ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ). و من رأفته و رحمته أن لا يعجل للعصاة ما يستحقونه من العقوبة أملا بتوبتهم و هدايتهم.

(أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَ الشَّمَالِ سَجْدًا لِلَّهِ وَ هُمْ دَاخِرُونَ) ضمير يروا يعود إلى الذين مكروا السيئات المذكورين في الآية السابقة، و يجوز ان يعود الى كل معاند، لأن الله سبحانه يقول موبخا: ألم ينظر الجاحدون المعاندون الى ما خلق الله؟. و المراد بقوله: (مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالَهُ) كل شيء له ظل و خيال كالجبال و الأشجار و الحيوان و العمار و نحو ذلك، أما قوله عن اليمين و الشمال فإنه يشير الى جانبي الشيء الذي له ظل، لأن ظل الشيء يكون الى جهة من شروق الشمس الى زوالها أي الظهر، ثم يتحول الظل الى جهة ثانية من الظهر الى الليل، فعبر سبحانه باليمين عن الجهة الأولى، و بالشمال عن الجهة الثانية، و مثله قوله تعالى: «وَ ظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْأَصَالِ - ١٥ الرعد». أما قوله: سجدا لله فهو كناية عن الخضوع و الانقياد. و داخرون أي صاغرون.

و تسأل: لما ذا قال تعالى: اليمين و الشمال، فأفرد اليمين و جمع الشمال، و لم يساو بينهما جمعا أو أفرادا؟.

و أجاب المفسرون عن ذلك بأجوبة أقربها ان من أساليب البلاغة عند العرب إذا ذكروا معنيين للجمع ان يعبروا عن أحد المعنيين بلفظ الواحد، و عن المعنى الآخر بلفظ الجمع، كقوله: (وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَ النُّورَ) و قوله: (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ).

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥١٩

و الخلاصة ان الله سبحانه بعد أن هدد و توعد المشركين و المعاندين قال في هذه الآية: ان كل ما في الكون - غير المشركين و المعاندين - هو خاضع و منقاد لأمره.

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ هُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ). كل المخلوقات و

الكائنات العلوية و السفلية تدل دلالة واضحة على وجود صانعها و باريها، و على قدرته و علمه و حكمته، و هذه الدلالة هي بطبعها تسييح و تمجيد و سجود و ركوع للبارئ المصور، و هذا هو معنى سجود الكائنات - غير العاقلة- و هو أيضا المراد من قوله: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ - ٤٤ الاسراء». و الغرض من ذكر الدابة و الملائكة بعد ذكر ما في السموات و ما في الأرض هو بيان الشمول لجميع المخلوقات بشتى أنواعها. و سبق الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ١٣ و ١٥ من سورة الرعد.

(يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ). تدل هذه الآية صراحة على ان من آمن بالله خافه و أطاع أمره و نهيه، و تدل ضمنا و تلويحا على ان من يعصي الله، ثم يدعي الايمان به، و الخوف منه فهو كاذب في دعواه.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٥١ الى ٥٥]

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ (٥١) وَ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَ فَعَيَّرَ اللَّهُ تَتَّقُونَ (٥٢) وَ مَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَأَلَيْهِ تَجْتَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضَّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٢٠

اللغة:

الواصب الدائم، يقال: واصلب على الشيء و واضب عليه إذا داوم، و قيل: معنى الواصب هنا الواجب. و الجوار الاستغاثة برفع الصوت، و تجارون ترفعون أصواتكم مستغيثين.

الإعراب:

اثنين تأكيد لإلهين. و اياي مفعول مقدم لارهبون. و له خبر مقدم و الدين مبتدأ مؤخر، و واصبا حال من الدين و العامل بالحال خبر المبتدأ المحذوف. و ما بكم (ما) اسم موصول مبتدأ، و بكم صلة، و من نعمة حال من ضمير بكم، فمن الله خبر لمبتدأ محذوف أي فهو من الله، و الجملة خبر (ما) الموصولة. و إذا فريق (فريق) فاعل لفعل محذوف أي فإذا يشرك فريق منكم.

المعنى:

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ). من القواعد المعروفة عند الفقهاء: ان الضرورة تقدر بقدرها، و ان ما زاد عن الحاجة و الضرورة فهو لغو.. و هذه القاعدة يمكن تطبيقها على شريك الباري، و ذلك بأن فرض وجود مدبر حكيم أمر محتوم لا مفر منه في نظر العقل، حيث لا يمكن تفسير الكون، و تعليل ما فيه من نظام و انسجام إلا بوجود مدبر حكيم، و مع هذا الفرض لا يبقى أي داع لفرض إله آخر في نظر العقل، بل العقل يرفضه و ياباه. انظر دليل التوحيد و الأقسام الثلاثة في ج ٢ ص ٣٤٤.. ثم ان لوحداية الله آثارا و لوازم أشار سبحانه الى بعضها بقوله:

١- **(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ)** دون معارض و منازع لأنه هو خالق السموات و الأرض و ما فيهما.

٢- **(وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا).** المراد بالدين هنا الانقياد و الطاعة، و معنى

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٢١

الواصب الدائم، وإذا كان الله خالق كل شيء و مالك كل شيء و جب الثبوت و الاستمرار في طاعته دون سواه.

٣- (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) لأنه خالق كل شيء مباشرة و بكلمة كن، أو بالواسطة.

(ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ). المؤمن الحق

يثق بالله و يعتمد عليه في جميع الأحوال: أما التاجر فيلجأ إليه ساعة العسرة، و يتجاهله عند الميسرة، و مر نظير هذه الآية مع التفسير في سورة يونس الآية ١٢.

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ). المراد بالكفر هنا كفران النعم، و منها كشف الضر، و اللام في ليكفروا للعاقبة مثل لدوا للموت

و ابنوا للخراب، و المعنى ان الله انعم عليهم، فكانت نتيجة انعامه و تفضله كفرانهم بانعمه (فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ

تَعْلَمُونَ) عاقبتكم الوخيمة، و تندمون حيث لا ينفع الندم.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٥٦ الى ٦٠]

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) و يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا

يَشْتَهُونَ (٥٧) و إِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أ

يُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ

وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٢٢

اللغة:

يستعمل القرآن كلمة البشارة في الخبر السار و الخبر المؤلم، قال في الآية ٢٥ من سورة البقرة: «وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا و

عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ». و قال في الآية ٣ من سورة التوبة: «وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ». و كظم غيظه

حبسه، و الكظيم المغموم الممتلى غيظا، و لكنه لم ييده. و يتوارى يستخفي.

و الهون الهوان و الذل. و المثل الصفة.

الإعراب:

و لهم ما يشتهون (لهم) خير مقدم، و ما يشتهون مبتدأ مؤخر. و ظل من أخوات كان ترفع الاسم، و تنصب الخبر، و

وجهه اسمها، و مسودا خبرها.

و هو كظيم حال من الوجه أو من صاحبه. و على هون متعلق بمحذوف حالا من فاعل يمسكه.

المعنى:

(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ).

و او الجماعة في يجعلون للمشركين. و لما لا يعلمون (ما) اسم موصول، و المراد بها الأصنام، و الواو في لا يعلمون

تعود الى الأصنام تنزيلا لها منزلة العاقل، كالواو و (هم) في قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا و

هُمْ يَخْلُقُونَ - ٢٠ النحل»، و جاء هذا التنزيل و الاستعمال وفقا لعقيدة المشركين، و المعنى ان المشركين جعلوا نصيبا

من أموالهم للأصنام التي هي جماد لا علم له و لا شعور، و يجوز أن تكون واو يعلمون للمشركين مثل واو يجعلون، و

يكون المعنى ان المشركين جعلوا نصيبا من أموالهم للأصنام، و هم يجهلون ان الأصنام لا نصيب لها في أموالهم و لا في

غير أموالهم .. ولكن في إرادة هذا المعنى شيء من التكلف لحاجته الى تقدير كلام محذوف .. و مر نظير هذه الآية في سورة الأنعام الآية ١٣٦ ج ٣ ص ٢٦٩.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٢٣

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ). سمعوا ان لله ملائكة، فتوهموها إناثا بل بناتا لله تعالى عما يصفون، فأضافوا اليه ما يكرهونه لأنفسهم، ولهم البنون الذين يحبون، قال تعالى: «أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا - ٤٠ الاسراء». وفي بعض التفاسير ان العرب الذين اعتقدوا هذا هم خزاعة كنانة.

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ). هذا كناية عن شدة همه و حزنه بالبت، و تقول العرب لمن لقي مكروها: اسود وجهه. و على الرغم من ان هذه عادة جاهلية، و قد ندد بها القرآن و سفه أهلها- فإن كثيرا من المسلمين يكرهون البنات، و تسود وجوههم إذا بشروا بالأنثى.

(يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ). كان الرجل في الجاهلية إذا ظهرت آثار الطلق بامرأته اختفى الى أن يعلم بالمولود، فإن كان ذكرا ظهر و ابتهج و ان كان أنثى حزن، و فكر ما ذا يصنع بهذا المولود المشئوم: **(أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ؟)**. فيقيه متحملا المذلة و المهانة **(أَمْ يَدْسُهُ فِي الْغُرَابِ)** حيا؟. و يروى ان بعض العرب كانوا يدفنون البنات و هن أحياء، و بعضهم كانوا يرمونها من شاهق، و آخرون يذبحونها، و منهم من كانوا يغرقونها، إما للغيرة و الحمية، و إما خوفا من الفقر و الاملاق كما أشارت الآية ١٥١ من سورة الأنعام: «و لا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم و إياهم». انظر ج ٣ ص ٢٧١ و ٢٨٣.

و روي ان رجلا قال: يا رسول الله: ما أجد حلاوة الإسلام منذ أسلمت، فقد كانت لي في الجاهلية ابنة، فأمرت امرأتي أن تزنيها، فأخرجتها إلي، فانتهيت بها الى واد بعيد القعر، فألقيتها فيه، فقالت: يا أبتى قتلتني، فكلما ذكرت قولها لم ينفعي شيء ..

و قد يظن ان الدافع على هذه القسوة الجهل و تخلف البيئة عن الحضارة و المدنية، و لكن نحن الآن في عصر الفضاء، و مع هذا يلقي المستعمرون و الصهاينة قنابل النابالم في فيتنام و فلسطين على الشيوخ و الأطفال و النساء .. يلقونها لا للغيرة و الحمية و لا خوفا من الفقر و الاملاق، بل لزيادة الأرباح، و تكديس الثروات و تراكمها، فأى الفريقين أقبح و أسوأ؟ أهل الجاهلية، أو المستعمرون و الصهاينة في عصر

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٢٤

العلم و الإشعاع؟ **(الْأَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)** و يخترعون و يفعلون. و نحن على يقين ان كل من لجج و تمادى في الغي ستدور عليه في النهاية دائرة السوء.

(لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

المثل الصفة، و للظغة صفة السوء، و هي الظلم و السلب و الفساد، و قتل الأطفال و الأبرياء، و لله الصفة العليا، و هي الوحدانية و العدل و العظمة، و جميع صفات الجلال و الكمال. و تجدر الإشارة الى أن الغرض من ذكر الله تعالى مع ذكرهم هو الرد على قولهم: لله البنات و لهم البنون.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٦١ الى ٦٤]

وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ السُّنْتَهُمُ الْكُذْبَ أَنْ لَهُمُ الْحَسَنَىٰ لَا جَرَمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ وَأَنْهُمْ مُّفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤)

اللغة:

مفراطون بفتح الراء مع تخفيف الطاء أي معجلون، و بكسر الراء مع التخفيف من الافراط أي متجاوزون الحد، و بكسر الراء مع التشديد من التفريط أي مقصرون.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٢٥

الإعراب:

ضمير عليها عائد الى الأرض، و هي مفهومة من سياق الكلام، و لفظ دابة يشعر بها. و الكذب مفعول تصف. و المصدر من ان لهم بدل من الكذب فكأنه قال: و تصف السنتهم ان لهم الحسنى، و يجوز ان يكون مجرورا بياء محذوفة أي بان لهم الحسنى. و المصدر من ان لهم النار مجرور بفي محذوفة أي لا شك في ان لهم النار. و لتبين منصوب بان مضمرة و المصدر المجرور متعلق بانزلنا، و هو بمعنى المفعول من أجله، و هدى و رحمة مفعول من أجله، أي و أنزلنا عليك الكتاب هدى و رحمة.

المعنى:

(وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ). ظلم الإنسان خالقه بجحوده له، و بنسبة الشريك و الولد اليه، و أيضا ظلم الإنسان القوي أخاه الضعيف، فاستعبده و سلبه قوته و مصدر حياته، و أيضا ظلم نفسه بالكبرياء و الطغيان و الغرور، و مع هذا لم يعاجل الله العاصين بالعقوبة، و لما ذا يعاجل؟ هل يخشى الفوت، أو يتعجل التشفي، أو يخاف التوبة من العصاة، و هو الذي أمرهم بها، و حثهم عليها؟ و قيل: إنما أخرهم ليراجعوا التوبة. و ليس هذا ببعيد عن حلمه و كرمه، و في معنى الآية قوله تعالى: «وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُوَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَّ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا» ٥٨ الكهف.

(فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ). تقدم تفسيره في ج ٢ ص ١٧١ فقرة: «الأجل محتوم». **(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ)** لأنفسهم من البنات و الشركاء في الرياسة **(وَتَصِفُ السُّنْتَهُمُ الْكُذْبَ)** و هو قولهم: **(أَنْ لَهُمُ الْحَسَنَىٰ)** أي الجنة. و افتروا على الله بأن له شركاء و بناتا، ثم كذبوا بأن لهم عنده الجنة فكذبهم سبحانه بقوله:

(لَا جَرَمَ) لا شك في **(أَنْ لَهُمُ النَّارُ وَأَنْهُمْ مُّفْرَطُونَ)** أي معجلون اليها.
(تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا - رسلا-: إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ) يا محمد، فلم يستجيبوا

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٢٦

لرسلهم، و أعرضوا عنهم و آذوهم، كما أعرض عنك و آذاك مشركو قريش، فهون عليك و لا تحزن **(فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ)** و هي كفر و ضلال، و طغيان و فساد **(فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)**. لقد تولى الشيطان



أمور الطغاة في الحياة الدنيا بعد أن أسلموه الزمام، فقادهم إلى المآثم والمهالك، وكان جزاؤه و جزاؤهم عند الله جهنم و ساءت مصيرا. قال الامام علي (ع): «ان أجل الإنسان مستور عنه، و أمله خادع له، و الشيطان موكل به، يزين له المعصية ليركبها، و يمينه التوبة ليسوفها، حتى تنجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها» أي يموت على الضلال و المعصية، و هذه هي ميتة السوء بالذات.

(وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِلتَّبِينِ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ). الخطاب لمحمد (ص) و الكتاب القرآن، و هو هدى لمن طلب الهداية و رحمة لمن أَرادها، و هو الحكم الفصل في كل عقيدة و شريعة، و كل قول و فعل ..

اللهم اجعلنا من المستمسكين بعروته، و المهتدين بهدائته.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٦٥ الى ٦٩]

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَ رِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَ أَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكَ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٢٧

اللغة:

العبرة العظة. الفرث ما يبقى من المأكول في الكرش بعد الهضم، و يسمى بالثفل أيضا. السائغ ما سهل مروره في الحلق. و للسكر معان منها الخمر. و يعرشون يرفعون من الكروم و السقوف. و الذلل جمع الذلول، و هو الطائع المنقاد.

الإعراب:

أعاد سبحانه على الأنعام ضمير التانيث في الآية ١٣٨ من سورة الأنعام: «وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا». فكيف أعاد سبحانه الضمير على الأنعام هنا مذكرا حيث قال: **(نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ)؟** و أجابوا عن ذلك بأن الضمير هنا يعود الى بعض الأنعام و هو الإناث لأن الذكور لا لبن فيها. أما في سورة الأنعام فإن الضمير يعود اليها جميعا، لا الى بعضها دون بعض. و من ثمرات النخيل على حذف مضاف أي عصير ثمرات النخيل و الأعناب، و الجار و المجرور متعلق بمحذوف أي نسقيكم من عصير ثمرات النخيل، و ضمير منه في «تتخذون منه» يعود الى العصير. أن اتخذني (أن) مفسرة بمعنى أي. و ذللا حال من السبل، أو من ضمير اسلكي العائد الى النحل.

المعنى:

(وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) سماع تدبر و تعقل للماء و فوائده، و هذه الآية و التي بعدها من الآيات الكونية التي كررها القرآن بقصد التنبيه الى دلائل التوحيد و البعث،

ومرت هذه الآية بسورة البقرة الآية ٢٢ و ١٦٤، وسورة الأنعام الآية ٩٩، وسورة الرعد الآية ١٩، وسورة ابراهيم الآية ٣٢، وبالسورة التي نفسرها الآية ١٠.

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ). ذكر سبحانه بعض فوائد الأنعام في الآية ١٤٢ من سورة الأنعام: «ومن الأنعام حمولة وفرشا» وقال في الآية ٨٠ من سورة النحل،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٢٨

وهي السورة التي نفسرها: «وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين». و أجمع الآيات لفوائد الأنعام ما مر مع التفسير في أول هذه السورة، وهو قوله تعالى:

«وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفْعٌ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْبِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ».

و ذكر، جلت حكمته، هنا من فوائد الأنعام اللبن بالخصوص، وقال:

انه يخرج من بطون بعض الأنعام أي الإناث- انظر فقرة «الإعراب»- وانه مستخلص من بين فرث و دم، و الفرث ما يبقى في الكرش بعد الهضم، و يقول العارفون: ان الحيوان يأكل النبات، و بعد الهضم تطرد امعاؤه الفضلات الضارة الى الخارج، و تمتص العصارة النافعة التي تتحول الى دم يسري في العروق و الغدد حتى إذا وصل بعض هذا الدم الى الغدد التي في الضرع تحول الى لبن خالص سائغ للشاربين.

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَ رِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ). الظاهر من السكر هنا كل شراب مسكر خمرا كان أو غيره .. و لكن الآية لا تومي من قريب أو بعيد الى حكم المسكر، و انه كان حين نزول هذه الآية حلالا أو حراما، و انما حكمت الآية عن عادة الناس من انهم يتخذون من ثمرات النخيل و الأعناب شرابا مسكرا، أما الرزق الحسن فالمراد به التمر و الرطب و الزبيب و العنب و الخل و الرب، و ما الى ذلك. و جاء في بعض الروايات ان المقصود بالسكر في الآية ما كان حراما و بالرزق ما كان حلالا ..

و تكلمنا مفصلا عن الدليل على تحريم الخمر عند تفسير الآية ٢١٩ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٢٨. و في الجزء الرابع من كتاب فقه الإمام جعفر الصادق، باب الأطعمة و الأشربة.

(وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) المراد بالوحي هنا الفطرة التي منحها الله للنحل (أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) أي مما يرفع الناس من الكروم، قال الرازي: النحل نوعان: نوع يسكن في الجبال و الغياض، و لا يتعهده أحد من الناس، و هو المراد بقوله: «ان اتخذي من الجبال بيوتا و من

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٢٩

الشجر» و نوع يسكن بيوت الناس، و يكون في تعهدهم، و هو المراد بقوله «و مما يعرشون».

(ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) و الزهر و النبات التي تشتهين (فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا) ادخلي الطرق التي ذللها و عبدها الله لك (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ) و هو العسل تلقيها من الفم كالريق (مُخْتَلَفٌ لَوَانُهُ) بياضا و حمرة و صفرة تبعا للمرعى (فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) كفقير الدم، و سوء الهضم، و التهاب الفم و الرثة و المثانة، و أمراض الكبد، و ما الى ذلك



مما ذكره الأطباء **(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)** في خلق الله و ما فيه من بدائع و عجائب تدل على وجود حكيم عليم.

و قد وضع أهل الاختصاص المؤلفات في تدبير النحل و تعاونها و نظامها المحكم في عيشها و بناء بيوتها و الدفاع عن نفسها، و أشرنا فيما سبق الى أنه اكتشف مؤخرا ان النحل عند ما ترتفع درجة الحرارة يبدأ البعض منها بنقل الماء في خراطيمه بينما يقوم البعض الآخر برشه داخل الخلية، و يهز البعض الآخر أجنته ليصنع تيارات من الهواء، فيتبخر بسرعة، و مع التبخر تنخفض درجة الحرارة. و هذا المثال وحده يعني عن كل ما كتب في هذا الباب.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٧٠ الى ٧٤]

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعَنَمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ شَيْئًا وَ لَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٣٠

اللغة:

أردل العمر أخسه و أحقره، و هو الهرم. و ما ملكت أيمانهم العبيد و المماليك. و الحفدة جمع حافد مثل كفرة و كافر، و الحافد و الحفيد ابن الابن، و السبط يكون ابن الابن و ابن البنت، و لكنه غلب على ابن البنت مقابل الحفيد. و رزق السماء المطر، و رزق الأرض النبات. و فلا تضربوا لله الأمثال أي لا تجعلوا له أشباها و نظائر في شيء.

الإعراب:

فهم فيه سواء مبتدأ و خبر. و شيئا بدل من «رزقا» و يجوز أن يكون مفعولا مطلقا ليملك أي لا يملك شيئا من الملك أو شيئا ملكا.

المعنى:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ). للإنسان أدوار و أطوار يمر بها من الطفولة الى المراهقة و الشباب، و من الشباب الى الشيخوخة و الهرم، و لكل دور سببه الطبيعي المباشر، و يسند اليه تعالى لأنه خالق الطبيعة و الكون.. و أردل العمر هو الهرم الذي يضعف معه الجسم و العقل و الذاكرة، و بقية الحواس الظاهرة و الباطنة، و متى ضعف عضو من أعضاء الشيخ أو حاسة من حواسه انتهت أمرها، و لا يرجى عودتها الى الحال السابقة، بل تزداد ضعفا و وهنا مع الأيام، و بالخصوص الذاكرة، حيث يفقدها

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٣١

تماما، و يرجع الى ما كان أيام الطفولة، حتى كأنه لم يتعلم شيئا من الدروس، و لا مر بشيء من التجارب.

(وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ

سَوَاءٌ أَفْبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ. لقد توهم البعض ان ظاهر الآية يدل على ان الرزق هو بقضاء الله وقدره، وانه تعالى هو الذي جعل هذا غنيا، وذاك فقيرا.. ولكن الآية بعيدة كل البعد عن هذا المعنى، لأنها قد جاءت للرد على المشركين، و توضيح ذلك ان المشركين جعلوا لله شركاء.

فرد عليهم سبحانه بأنكم لا ترضون أيها المشركون أن يكون عبيدكم شركاء لكم في أموالكم، وأن تكونوا وإياهم سواء في أرزاقكم و أملاككم، وإذا لم ترضوا لأنفسكم المساواة بينكم وبين عبيدكم فيما تملكون، فكيف صح في افهامكم أن يكون عبيد الله شركاء له في خلقه؟. فهل شأن الله تعالى دون شأنكم في ذلك؟.

و بكلام آخر ان الله سبحانه احتج عليهم بمنطقهم و مقاييسهم، و قال لهم: أنتم سادة بزعمكم، و لكم عبيد لا يملكون معكم شيئا، لأن العبد لا يملك مع سيده شيئا.. إذن، بأي منطق قلتم: ان الأصنام أو غيرها من عبيد الله تملك معه أو عنده شيئا؟.

و تسأل: ان قوله تعالى: **(وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ)** ظاهر في ان التفضيل في الرزق بقضاء الله و قدره؟.

الجواب: لقد كررنا القول: ان اضافة الرزق و غير الرزق الى الله تعالى انما هو من باب اسناد الشيء الى سببه الأول، و لتنبية الأذهان الى ان الله هو خالق الكون و ما فيه، و تكلمنا عن الرزق و فساد الأوضاع في ج ٣ ص ٩٤، و أيضا تكلمنا بعنوان: «هل الرزق صدفة» في ج ٣ ص ١٣١، و بعنوان: «الإنسان و الرزق» عند تفسير الآية ٢٦ من سورة الرعد.

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا). من جنسكم، لا من جنس أدنى أو أرفع، ليتم الانس للجانين، و يحصل التعاون و المشاركة في الحياة من كل الجهات، و أوضح تفسير لهذه الجملة قوله تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً» - ٢١ الروم.

(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً). بعد أن ذكر سبحانه نعمة الزواج

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٣٢

ذكر نعمة الأولاد، و هم كالأموال زينة الحياة الدنيا **(وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ)** مأكلا و مشربا و ملبسا و مسكنا و مركبا، كل أولاء بالاضافة إلى الأزواج و الأولاد و بعد هذه النعم كلها **(أَفِيَالِبَاطِلٍ يُؤْمِنُونَ)**. المراد بالباطل هنا الشركاء، و الايمان بها نسبة النعم اليها بالانفراد أو الاشتراك مع الله **(وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)** حيث يأكلون رزقه و يعبدون غيره.

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ شَيْئًا وَ لَا يَسْتَطِيعُونَ). رزق السماء الغيث، و رزق الأرض النبات و المعادن، و المراد بما لا يملك رزقا الأصنام، و معنى لا يستطيعون ان الأصنام لا تملك بالفعل: و ليس لها القدرة و القابلية للتملك. **(فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ)** بجعل الأشباه له و النظائر:

«لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» - ١٠ الشورى **(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)**. و من أجل علمه تعالى و جهلكم يجب ان لا تفعلوا و لا تقولوا شيئا لا ما علمكم الله بلسان انبيائه و رسله.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٧٥ الى ٧٧]

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَ مِنْ رِزْقَانَاهُ مَنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدَ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَ هُوَ كُلُّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا



يُوجِّهَهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٣٣

اللغة:

الأبكم الأخرس. و الكل الثقل أي ان هذا الرجل لا يكسب شيئاً، بل هو ثقل و حمل على من يعوله و يتولى أمره. و المراد بالساعة هنا الوقت الذي تقوم فيه القيامة.

الإعراب:

عبدا بدل من «مثلاً». و رزقا مفعول به لرزقناه لأن المراد بالرزق هنا المال المرزوق، و ليس الحدث الذي هو المصدر بدليل إعادة ضمير منه عليه. و رزقنا بمعنى أعطينا و لهذا تعدت الى مفعولين. و سرا و جهرا مصدران مكان الحال أي مسرين و جاهرين، أو مكان المفعول المطلق أي إنفاقا سرا و إنفاقا جهرا. و رجلين بدل من «مثلاً» واحدهما مبتدأ و ابكم خبر، و الجملة مستأنفة. و أين للاستفهام عن ظرف المكان، و قد تتضمن معنى الشرط فتجزم فعلين مجردة من (ما) مثل أين تذهب أذهب، أو ملحقة بها (ما) كما في هذه الآية. و أو هو أقرب أي بل هو أقرب.

المعنى:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَا حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ). بعد أن ذكر سبحانه في الآية السابقة ان المشركين جعلوا لله أشباها و أندادا- ذكر هنا مثالين يقرب بهما الى افهام المشركين ان الله لا ند له و لا ضد، و خلاصة المثال الأول الذي تضمنته هذه الآية ان مثلكم في مساواة هذه الأصنام مع الله أيها المشركون تماما مثل من سوى بين عبد لا يملك شيئاً، و يعجز عن كل شيء، و بين حر غني كريم ينفق سرا و علانية و لا يخشى أحدا على الإطلاق .. و إذا رفض العقل و الفطرة هذه المساواة بين هذا الحر القادر و بين ذاك العبد العاجز فكيف صح في افهامكم ان تساوا بين الله القادر على كل شيء، و بين الأصنام التي ما هي بشيء؟.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ) جملة معترضة

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٣٤

القصد منها انه لا أحد يستحق الحمد و الشكر و العبودية الا الله وحده **(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)** ان الحمد لله لا لسواه.

(وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) هذا هو المثال الثاني، و خلاصته ان الأخرس العاجز الكل لا يكون مساويا للناطق القادر- اذن- فكيف ساويتم أيها المشركون في العبادة بين الله الجامع لجميع صفات الجلال و الكمال و بين الأحجار التي ليست بشيء؟.

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ). كل سر عنده تعالى علانية، و كل غيب عنده شهادة، و نحوه قوله تعالى في الآية المتقدمة ٧٤ **(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)** ..

(وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ). هذا تعبير ثان عن قوله:

انما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .. و فيه تهديد لمن خالف و عاند **(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)**. و لا أحد

يملك معه شيئا ان أراد أن يهلك المشركين و الخلق أجمعين.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٧٨ الى ٨٣]

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظُلُمًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بِاسْمِكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٣٥

اللغة:

يطلق الجو على ما بين الأرض و السماء، و على البر الواسع، و في كتب اللغة ان جو كل شيء بطنه و داخله. و سكننا أي السكون و الاستقرار في البيت و اليه أيضا، و المراد باليوم الوقت، و بالظعن السفر، و بالاقامة الحضر، و الأصواف من الغنم، و الأوبار من الإبل، و الأشعار من المعز، و الأثاث هنا متاع البيت كالفرش و الثياب و غيرها، و لا واحد له من لفظه، و المتاع ما يتمتع به الى حين. و ظلال جمع ظل، و هو الفيء، و كان في بلاد العرب من أعظم النعم لشدة حرها. و الأكنان جمع كن، قال الطبرسي: و هو الموضع الذي يستتر صاحبه فيه، و يقال: كنت الشيء في كنه أي صنته، و أكننته أي أخفيتته، و كل ما لبسته من قميص أو درع و نحوه فهو كن. و السرابيل واحدها سربال، و هو القميص. و البأس الشدة، و المراد به هنا الحرب، و لباس الحرب الدرع.

الإعراب:

أمهات أصلها أمات لأنها جمع أم، و زيدت الهاء للتأكيد كما قال الطبرسي، أو للفرق بين من يعقل و ما لا يعقل كما قال غيره. و جملة لا تعلمون شيئا حال من ضمير المخاطب في أمهاتكم. و شيئا مفعول مطلق أي علما، و يجوز أن يكون مفعولا به، و يكون تعلمون بمعنى تعرفون. و أثاثا مفعول لفعل محذوف أي و جعل لكم أثاثا و متاعا. فإن تولوا جواب الشرط محذوف أي فإن تولوا لم يلزمك شيء لأن الذي عليك هو البلاغ، و قد أدبته و قمت به.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٣٦

المعنى:

ذكر سبحانه في هذه الآية طرفا من الدلائل على وجود الخالق الحكيم لهذا الكون، و هذه الدلائل هي في نفس الوقت من نعم الله تعالى على عباده، منها:

مع الماديين:

١- (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا) يخرج الإنسان من بطن أمه جاهلا لا يعلم شيئا بطبيعة الحال، و لكن الله سبحانه زوده بأداة المعرفة الحسية، و هي السمع و البصر، و أداة المعرفة العقلية أيضا، و هي العقل و

الفطرة التي عبر عنها بالأفئدة.

وقال الماديون: ان المادة الصماء العمياء هي التي انشأت لنفسها أسماء و أبصارا و أفئدة، و نجيبهم أولا بأن فاقد الشيء لا يعطيه، و ثانيا إذا كانت الحياة و الإدراك من خصائص المادة و لوازمها و جب أن يكون لكل مادة سمع و بصر و فؤاد لأن عموم السبب يستدعي عموم المسبب.

و إذا قالوا: ان في المادة نوعا من الأجسام وجد على نحو خاص بحيث يلزمه حتما أن يكون الجسم سميعا مبصرا مدركا، إذا قالوا هذا قلنا لهم: إما أن تقولوا ان المادة بما هي هي تنشى الحياة و الإدراك، و إما أن لا تقولوا ذلك، و على الأول يجب أن لا يكون شيء في المادة الا و هو وحي مدرك، و على الثاني يجب أن لا توجد الحياة في المادة على الإطلاق .. و كل من الفرضين أو الالزامين باطل بالحس و الوجدان، لأن المشاهد بالعيان ان بعض المادة جامد، و بعضها حي غير مدرك، و بعضها حي و مدرك .. و هذا التقسيم و التفاوت دليل قاطع على ان وراء المادة قوة عليمه حكيمة و هي التي منحت الحياة و الإدراك لبعض أفراد المادة دون بعض و أوجبت التمييز و التفاوت فيما بينها.

الكون اكبر من الصواريخ:

٢- (لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٣٧

فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ). المراد بمسخرات مهيئات للطيران، و بالإمساك عدم السقوط على الأرض، و مثله قوله تعالى: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ - ١٩ الملك» .. و من الواضح ان الله سبحانه يجري الأمور على أسبابها، و قد اشتهر على كل لسان ان الله إذا أراد أمرا هيا أسبابه، فمعنى قوله تعالى: ما يمسكهن الا الله .. و الا الرحمن انه تعالى خلق للطير جناحين، و زوده بجميع المعدات اللازمة للطيران بين السماء و الأرض، قال تعالى: «وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا - ٢ الفرقان» .. و قال: «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ - ٤٩ القمر». و هذا الخلق و التقدير و التدبير دليل واضح و قاطع على وجود الخالق المدبر.

و تسأل: لقد اخترع الإنسان طائرة تفوق سرعتها سرعة الصوت، بل اخترع صواريخ تقطع بالساعة آلاف الأميال، و تنطلق الى القمر و المريخ، و اخترع الأقمار الصناعية التي تدور حول الأرض و القمر، و تتحدث من هناك الى العلماء بلغتهم عما تسمع و ترى، فأين الطيور من هذه المخترعات؟.

و غريب ان يسأل عاقل مثل هذا السؤال، و يدهش لهذه المخترعات، و يذهل عن العقل الذي اخترعها و أوجدها .. و بالأصح يذهل عن خالق هذا العقل الذي أوجد هذه المخترعات .. و لو أنصف الإنسان لنظر الى نفسه و عقله، فإنه أعظم من اختراع الصواريخ و الأقمار الصناعية، لأنه هو مخترعها و مبدعها .. بل لو أنصف لنظر الى خلق الكون فهو أعظم من خلق الإنسان الذي اخترع الصاروخ و القمر الصناعي، قال تعالى في الآية ٥٧ من غافر: «لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». و خلق الإنسان أكبر من خلق الصاروخ و الأقمار الصناعية بملايين المرات.

هذا، الى ان الحديث منذ بدايته انما هو عن الطير، و الطير من الأحياء، و الطائرة و الصاروخ و القمر الصناعي من الجماد، فالنقص بشيء منها في غير محله ..

و من الواضح المؤكد ان علماء الصواريخ و معهم علماء الانس و الجن لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابة، و لا خلية من

جناح ذبابة: «لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ» - ٧٣ الحج».

و تجدر الاشارة الى ان الله سبحانه أسند اليه إمساك الطير في الجو لأنه تعالى

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٣٨

هو السبب الأول الذي خلق الطير و زوده بمعدات الطيران .. و أنكر الأشاعرة وجود الأسباب الطبيعية بشتى أنواعها و أشكالها، و قالوا: كل الأفعال تسند الى الله مباشرة و بلا واسطة، سواء أظهرت هذه الأفعال من طير أم حشرة أم حيوان أم انسان أم من الطبيعة .. فلا علاقة على الإطلاق بين الإحراق و النار، و لا بين الري و الشرب، و لا بين الشبع و الأكل .. و لكن الله يوجد الإحراق عند مماسة النار للجسم، و يوجد الري عند شرب الماء، و الشبع عند أكل الطعام .. و يكفي لرد هذا القول انه يخالف الحس و الوجدان، و ان اللازم له أن يكون الإنسان تماما كالحيوان و الجماد، لا يوصف بطيب أو خبيث، و بمجرم أو بريء، و انه لا يستحق مدحا و لا ذما، و لا ثوابا و لا عقابا، لأن المفروض ان الله هو الفاعل و الإنسان ظرف للفعل، تماما كالإناء الذي يوضع فيه ماء.

٣- (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا). و المراد بالسكن هنا الفعل و الاستقرار في البيوت، و المقصود من هذه البيوت ما يؤخذ من الحجر و الخشب و الحديد و الاسمنت (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ).

تستخفونها أي حملها خفيف عليكم، و الظعن السفر، و الإقامة الحضر .. بعد أن ذكر البيوت الثابتة ذكر البيوت المتنقلة مع الإنسان من مكان الى مكان كالخيم، و ذكر سبحانه الجلود، و لم يذكر الكتان و القنب و نحوه، لأن الجلود كانت هي الغالبة في بلاد العرب .. و مهما يكن فإن قوائم البيت من أي نوع كانت فإنها تدل على وجود خالقها و صانعها .. أعجبتني هنا عبارة لفقيه يتفصح، أنقلها بالحرف الواحد، قال: «كل ما علاك فأظلك فهو سقف، و كل ما أقلك فهو أرض، و كل ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار، فإذا انتظمت و اتصلت فهو بيت».

احترام البيت في الشريعة:

و البيوت بشتى أنواعها من نعم الله تعالى على عباده، و لا يعرف قدرها إلا الذين لا بيوت لهم، و للبيت حرمة في الشريعة الاسلامية، من ذلك أن لا يدخل الإنسان بيتا حتى يستأذن أهله، قال تعالى: «فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا» - ٢٨ النور.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٣٩

و قال الفقهاء: من تطلع في بيت انسان من ثقب أو شق باب، و نحوه فلصاحب البيت أن يزرجه أولا، فإن أصر فله أن يضره، أو يرميه بحصاة و ما أشبهه، فإذا تضرر المتلصص المتجسس فلا شيء على صاحب البيت، فقد جاء في الحديث النبوي: «من اطع عليك، فحذفته بحصاة، ففقت عينه فلا جناح عليك». و قال الإمام جعفر الصادق (ع): عورة المؤمن على المؤمن حرام ..

و من اطع على مؤمن في منزله فعيناه مباحتان للمؤمن في تلك الحال.

٤- (وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ) أي و جعل لكم من أصوافها الخ، و الصوف من الغنم، و الوبر من الإبل، و الشعر من المعز، و الأثاث معناه في الأصل الكثرة، يقال: أثّ النبات يثث إذا كثر، و المراد



بالاثاث هنا ما يحتاج اليه المرء من فرش أو لباس و نحوه، و المتاع كل ما ينتفع الإنسان به في مصالحه و قضاء حوائجه، و قوله: إلى حين اشارة الى ان متع الحياة كلها مؤقتة لا دوام لها و لا قرار.

فكيف بنعمة الذهب الأسود؟

- ٥- (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظُلَالًا). الظلال جمع ظل، و هو الفيء الذي يقي من حر الشمس.
- ٦- (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا). الأكنان جمع كن من كهف و ثقب، و نحوه مما يقي من حر الشمس، و كل ما يحتاج اليه المرء فهو نعمة إذا وجدته حتى فيء الغمامة، و الثقب في الجبل.
- ٧- (وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ). و هنا حذف تقديره و البرد، و انما حذف للعلم به (وَسَرَابِيلٌ تَقِيكُمْ بِأْسُكُمْ). هذا كناية عن الدرع و المغفرة و غير ذلك (كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْلُمُونَ). و المراد بالإسلام هنا الاستسلام و الانقياد للحق و العمل به، و المعنى انه تعالى أنعم عليهم بالبيوت و الأثاث و المتاع و السرابيل و الظل و بالكن ليشكروه و يتقوه، و لا يعثوا في الأرض مفسدين.
- و إذا امتن سبحانه على عرب الجاهلية بفيء الغمامة و الشجرة، و بالثقب في الجبل و نحوه، و اعتبر، جلت عظمته، هذا الظل، و هذا الثقب من إتمام النعمة عليهم

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٤٠

و طالبهم لقاء ذلك بالشكر و الانقياد للحق، و هدهم ان عصوا و تمردوا، إذا كان الظل نعمة و الثقب فضلا فكيف بالذهب الأسود الذي يتدفق أبحرا في البلاد العربية؟ و كيف بالفئة التي تتحكم به، فتبني بئمنه ناطحات السحاب، و تقتني الجواري و العبيد، و تمتلك لرفاهيتها أسطولا من الطائرات و السيارات، و تملأ الأرض إسرافا و فسادا؟.

لقد امتن الله على الماضين بالأنعام و الخيل و البغال و الحمير، و بالبيوت من الحجر و الجلد، و بالاثاث من الصوف و الوبر و الشعر، و بالسرابيل تقي من الحر و البرد، بل امتن عليهم بالظل و الثقب، و طالبهم أن يشكروا و يتذكروا، فكيف بالمترفين المنحرفين في هذا العصر الذين يسكنون الفيلات، و يوثقونها بمئات الألف، و يكيّفون أجواءها كما يشتهون من دفء أو رطوبة، و حولهم خيام اللاجئيين و أكواخ المشردين؟. و مع هذا يدعون الايمان بالله و اليوم الآخر.

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) يا محمد، و علينا الحساب، و قد أدت أنت الرسالة على أكمل الوجوه، و سنوفيهم نحن حسابهم و جزاءهم. و تقدمت هذه الآية في سورة آل عمران الآية ٢٠ ج ٢ ص ٣٠، و في الآية ٤٠ من سورة الرعد (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا). المراد بمعرفتهم إياها انهم يتنعمون بها، و بإنكارهم انهم يسندونها الى غير الله، أي انهم يأكلون رزق الله، و يعبدون سواه (وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) يجوز استعمال كلمة الأكثر في معناها الظاهر، و يجوز أيضا استعمالها بالجمع.

و المراد بها هنا كل من بلغه رسالة محمد (ص) و أنكرها عنادا للحق و تمردا عليه.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٨٤ الى ٨٩]

و يَوْمَ نَبِّئُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا لَهُمْ يَسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُهُمْ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨)

و يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بَشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٤١

اللغة:

المراد بالشهيد هنا الشاهد لهم أو عليهم. و لا يستعقبون أي لا مجال لهم غدا أن يطلبوا الرضا من الله بقول أو فعل. و السلم الاستسلام و الانقياد. و التبيان البيان.

الإعراب:

يوم نبعث (يوم) مفعول لفعل محذوف أي اذكر يوم نبعث. و جملة انكم لكاذبون بدل من القول في قوله: فآلقوا اليهم القول. دناهم عذابا (عذابا) تمييز لأنه بمعنى زاد عذابهم. و جئنا بك شهيدا (شهيدا) حال من كاف الخطاب. و تبياننا حال، و يجوز أن يكون مفعولا من أجله أي أنزلناه ليبين للناس كل شيء و ليهديهم و ليرحمهم.

المعنى:

(و يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا). هذا تهديد

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٤٢

و وعيد لمن أشار سبحانه اليهم في الآية السابقة بقوله: (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا). و وجه التهديد ان الله يجمع الناس غدا، و يأتي بكل نبي يشهد على أمته أو لها، و متى شهد عليها يأخذ الله بقوله و شهادته، و لا يؤذن لها بالرد و الاعتذار، قال تعالى: «هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَ لَا يُؤْذِنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ» - ٣٥ المرسلات. **(و لَاهُمْ يَسْتَعْتَبُونَ).** المراد بالاستعتاب طلب الرضا، و المعنى لا يطلب من المشركين أن يسترضوا الله بقول أو فعل، لأن الآخرة دار حساب و جزاء لا دار أعمال و استرضاء.

(وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفْ عَنْهُمْ وَ لَاهُمْ يُنظَرُونَ). المراد بالذين ظلموا كل ظالم، سوا أظلم خالقه بالجحود أو الشرك، أم ظلم غيره بالاعتداء، أم ظلم نفسه بتعرضها للتهلكة، فإنه يعذب على ظلمه و ذنبه جزاء وفاقا بلا زيادة أو نقصان، و بلا تأخير أيضا.

(وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ). ضمير القوا يعود الى آلهة المشركين، و ضمير اليهم يعود الى المشركين أنفسهم، و تدل الآية بظاهاها على ان الله يحشر معبود المشركين صنما كان أو غيره لالقاء الحججة على من اتخذها إلهًا، و ان المشركين حين يرون آلهتهم التي كانوا يعبدون يقولون لله: هؤلاء الذين كنا ندعوهم شركاء لك، و ان الآلهة ترد عليهم بلسان الحال أو بلسان المقال: انكم أيها المشركون لكاذبون و مفترون في جعلنا شركاء لله. و غير بعيد أن تكون هذه الحكاية لقول المشركين و آلهتهم كناية عن تكشف الحقائق غدا، و انه لا مجال للكذب و التدليس.

(وَ الْقَوْمَ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ). ضمير القوا يعود الى المشركين و آلهتهم و انهم يستسلمون و يتقادون لأمره تعالى **(وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ).** و كل مفتر في هذه الحياة تعود عليه مفترياتهم بالخزي و العذاب في اليوم العصيب. **(الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ).** فسدوا بكفرهم بالحق، و

أفسدوا بصددهم الغير عن الحق، فاستحقوا عقابين: أحدهما على الفساد والثاني على الإفساد: «وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَاتَّقَالُوا مَعَ أَثْقَالِهِمْ» - ١٢ العنكبوت.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٤٣

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ). تقدم هذا المعنى في الآية ٨٤ و اعاده في الآية ٨٩ تهديدا للذين كذبوا محمدا (ص). **(وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ)**. الخطاب لمحمد (ص)، و هؤلاء اشارة الى أمته. و تسأل: ان محمدا (ص) رسول الله الى الناس أجمعين بنص الآية ٢٧ من سبأ: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)**.

فإذا كانت رسالة محمد في الدنيا عامة للجميع فينبغي أن تكون شهادته في الآخرة على الناس عامة أيضا، وإذا كانت شهادته في الآخرة على أمته فقط فينبغي أن تكون رسالته خاصة بأمته فقط؟.

الجواب: لا تلازم بين عموم رسالته في الدنيا وعموم شهادته في الآخرة، لأن رسالة الإسلام تبلغها أمة محمد (ص) من بعده لكل الأمم في كل زمان و مكان و النبي يشهد على أمته انها أهملت و لم تبلغ الرسالة للأجيال.

(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ). الخطاب من الله لنبية محمد، و المراد بالكتاب القرآن، و فيه بيان كل شيء يتصل بالعبادة و الشريعة و الأخلاق و العبر و العظات **(وَهُدًى وَرَحْمَةً)** لمن طلب الهداية و الرحمة **(وَبَشْرَى الْمُسْلِمِينَ)**.

المراد بالبشرى الجنة، و بالمسلمين كل من استسلم للحق و عمل به.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٩٠ الى ٩٣]

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِتَسْئَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٤٤

اللغة:

كل ما يلتزمه الإنسان باختياره من فعل أو ترك فهو عهد عند أهل العرف، و لا يكون عهدا يجب الوفاء به شرعا الا إذا كان العهد لله و مقرونا باسمه تعالى:

مثل عاهدت الله، و علي عهد الله. و نقض اليمين الحنث بها. و المراد بتوكيدها هنا عقدها، و يجوز تأكيدها بالالف، و لكن بالواو أولى لأنها الأصل. و كفيلا ضامنا الوفاء. و أنكاثا بفتح الهمزة جمع نكث بكسر النون بمعنى منكوث أي محلول و منقوض. و الدخل في كلام العرب كل ما هو غير صحيح كما في تفسير الطبري. و أربى أكثر و أوفر.

الإعراب:

أنكاثا حال مؤكدة من غزلها. و قيل: منصوب على المصدرية. و دخلا مفعول من أجله لتتخذون. و المصدر من أن تكون

أمة مجرور بباء محذوفة أي بكون أمة.

المعنى:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ). أمرت هذه الآية بثلاث خصال حميدة، ونهت عن ثلاث خصال قبيحة، أما الثلاث الحميدة فهي:

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٤٥

العدل، والإنسان العادل هو الذي ينصف الناس من نفسه، و يعاملهم بما يجب أن يعاملوه. والإحسان، وهو جامع لكل خير، والناس يفهمون من كلمة محسن من يتبرع بماله أو بسعيه في سبيل الخير. وإيتاء ذي القربى، وهو من الإحسان، و خصه تعالى بالذكر تنويها بفضله و عظمته. أما الخصال الثلاث القبيحة فهي الفحشاء كالزنا واللواط والخمر والميسر والكذب والبهتان، وأظهرها الزنا، قال تعالى: «وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا - ٣٢ الاسراء». و الخصلة الثانية من الخصال القبيحة هي المنكر، وهو كل ما ينكره العقل والشرع. و الخصلة الثالثة البغي، وهو الاعتداء على الناس بالفعل أو القول، و حكمه عند الله غدا حكم الشرك بالله، بل أشد، لأن الشرك اعتداء على حق الله فله إسقاطه، أما البغي فهو اعتداء على حق الله و حق الناس. و يطلق المنكر على الفحشاء، و الفحشاء على المنكر، و هما معا على البغي.

(يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ). المراد بوعظه سبحانه أمره بالخصال الحميدة الحسنة، ونهيه عن الخصال القبيحة السيئة، و الغرض من هذا الوعظ أن نكون مؤمنين أتقياء، و طيبين أصفياء. و نقل الرواة عن ابن مسعود أن هذه أجمع آية للخير و الشر في كتاب الله.

و قال عثمان بن مظعون: أسلمت استحياء من رسول الله، و ما قر الإسلام في قلبي حتى نزلت هذه الآية، فأمنت بمحمد (ص) و أتيت عمه أبا طالب، فأخبرته بأمره، فقال: يا آل قريش اتبعوا محمدا ترشدوا، فإنه لا يأمركم إلا بمكارم الأخلاق.

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ). إعطاء العهد لله يكون على نحوين: الأول أن يقطع الإنسان على نفسه عهدا لله تعالى أن يفعل شيئا معيناً أو يتركه، كما لو قال: أعاهد الله أن أفعل كذا، أو أترك كذا. النحو الثاني أن يؤمن بالله، لأن من آمن به فقد أعطاه عهداً أن يأتمر بأمره، و ينتهي بنهيه، و كل من العهدين يجب الوفاء به، و المراد هنا بعهد الله العهد الأول.

(وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا). الايمان جمع يمين، و المراد بتوكيدها عقدها، لأن اليمين تنعقد إذا لم تكن على معصية، و لا تنعقد بحال إذا كانت

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٤٦

على معصية. و قيل: أن المراد بتوكيدها تشديدها و تغليظها، و هذا اشتباه، حيث يصير المعنى على هذا أن اليمين التي لا تشدد فيها لا يجب الوفاء بها.. مع العلم بأن كل يمين متى تمت يجب الوفاء بها سواء أ تشدد الحالف و أغلظ بيمينه و عزمه، أم لم يتشدد و يغلظ.

(وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا). كل من حلف بالله فقد جعل الله كفيلاً و ضامناً الوفاء، فإن أخلف فقد خان الله بالذات، و استحق العقاب و العذاب **(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)** فمن و في بعهد و يمينه أثابه ثواب المطيعين، و من نكث و خان عاقبه عقاب العاصين.



وتجدر الإشارة الى ان كلا من العهد و اليمين ينحل بطبعه إذا كان تركه خيرا من فعله، فمن حلف بالله أو عاهده أن لا يأكل اللحم - مثلا- و كان في الترك منفعة صحية له، إذا كان كذلك انعقد العهد و اليمين، فلو طرأ على صحته ما يستدعي أكل اللحم ينحل العهد و اليمين، و يأكل اللحم و لا شيء عليه، و قد جاء في الحديث: «إذا رأيت خيرا من يمينك فدعها».

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَصَتْ غَزَلَهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا). بعد قوة أي بعد ابرامه .. و كل شيء ينقض بعد فتله و ابرامه فهو نكث، غزلا كان أو حبلا، و قد شبه سبحانه ناقض العهد و الايمان بناقضة الغزل بعد ابرامه. و قيل: كان بمكة امرأة حمقاء تغزل صوفها في الصباح، و تنفضه في المساء، و ان الله شبه بها ناقض اليمين، و مهما يكن فإن الآية تؤكد لقوله تعالى: **(وَلَا تَنْقُضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا)**.

(تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ). حذف من الكلام همزة الاستفهام الانكاري، و التقدير أ تتخذون الخ. و الدخل هو الشيء الفاسد و المفسد، و منه المكر و الخديعة، و أربى أي أكثر، و المعنى لا تجعلوا ايمانكم وسيلة للغدر و الخيانة، و ذلك بأن تحلفوا للذين هم أكثر منكم و أقوى ليطمئنوا اليكم، و يثقوا بكم، و أنتم في نفس الوقت تضمرون أن تنقضوا الايمان، و تركوا الذين حلفتهم لهم متى رأيتهم أقوى منهم عدة، و أكثر عددا، و يتلخص المعنى بكلمة واحدة: لا تغدروا.

(إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ). ضمير به يعود الى أمره بالوفاء بالعهد و اليمين،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٤٧

و المعنى ان الله تعالى يكلف العباد بتكاليف لطيع من أطاع مختارا، و يعصي من عصى مختارا، ثم يجازي الله كلا بما يستحق، و تكلمنا مفصلا عن معنى الاختبار من الله عند تفسير الآية ٩٤ من سورة المائدة ج ٣ ص ١٢٦ **(وَلِيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)**. يعيد الله العباد يوم القيامة ليطيرون المبتطل من المحق، و يكافئ كلا بما يستحق.

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً). أي ان الله سبحانه لو أراد أن يكره الإنسان على الايمان لكان الناس كلهم أمة واحدة، و لكنه ترك الإنسان و ما يختار، إذ لو سلبه الحرية و الاختيار لكان شأنه شأن الحيوانات و الحشرات، و تقدم الكلام عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ١١٨ من سورة هود، و الآية ٣٤ من سورة الأنعام.

(وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). لا شك و لا ريب عند العقل ان الله لا يضل و لا يهدي أحدا قهرا عنه، و لو الجاه الجاه إلى الضلالة و الهداية لما صح أن يسأل و يحاسبه، مع انه قال صراحة، و بلا فاصل **(وَلِتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)**، و معنى الآية ان الله سبحانه يعتبر الإنسان ضالا بعد ان يسلك مختارا طريق الضلال، و يعتبره هاديا متى سلك سبيل الهداية، تماما كما يميتة إذا انتحز: و ينجيه إذا لم يلق بيده الى التهلكة. و سبق الكلام عن الهدى و الضلال عند تفسير الآية ٢٦ و ٢٧٢ من سورة البقرة ج ١ ص ٧٠ و ٤٢٦ و الآية ٨٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٩٩.

[سورة النحل (١٦): الآيات ٩٤ الى ١٠٠]

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَ

لِنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٤٨

اللغة:

النفاذ الفناء ضد البقاء. وإذا قرأت القرآن أي إذا أردت قراءة القرآن مثل إذا أكلت فقل باسم الله. والمراد بالسلطان التسلط. ويتولونه أي يطيعونه.

الإعراب:

فتزل منصوب بأن مضمرة بعد الفاء لأن الفعل وقع جوابا للنهي، و تذوقوا عطف على فتزل. وانما مركبة من كلمتين: ان التي تنصب الاسم وترفع الخبر، و ما اسم موصول، و هي اسم ان، و عند الله صلة الموصول، و هو ضمير فصل لا محل له من الاعراب، و خير خبر ان. و ما عندكم مبتدأ، و ينفذ خبر. و ضمير لنحيينه يعود الى من عمل صالحا باعتبار لفظة (من) المفردة، و ضمير نجزيينهم يعود اليها باعتبار معناها، و هو الجمع هنا.

المعنى:

قال سبحانه في الآية ٩١: (وَلَا تَقْضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا). و قال في الآية ٩٢: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ إيمَانَكُمْ

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٤٩

دَخَلًا بَيْنَكُمْ). و قال في الآية ٩٤، و هي التي نفسرها: (وَلَا تَتَّخِذُوا إيمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ). فما هو الغرض من هذا التكرار؟ هل هو التأكيد و الاهتمام بالوفاء، أو هناك غرض آخر؟

نقل الرازي عن المفسرين ان الله سبحانه نهى أولا عن نقض اليمين الناس أجمعين، دون أن يقصد جماعة معينين، ثم نهى جماعة بالخصوص، و هم الذين بايعوا محمدا (ص) على الإسلام.

و هذا التفصيل بعيد عن مدلول الآيات، لأن النهي فيها عن نقض اليمين ورد مطلقا غير مقيد ببيعة أو غيرها .. و الأولى في الجواب ان تكرار النهي هنا انما ساغ و حسن، لأن الله سبحانه عقب بعد كل نهى بجملة أفادت معنى جديدا، فقال بعد النهي الأول: (وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) فذكر بقوله هذا الحالفين بأنهم جعلوا الله ضامنا للوفاء بايمانهم، فعليهم أن لا ينكثوا، و الا فقد خانوا الله بالذات .. و قال بعد النهي الثاني: «انما يبلوكم به» و هذا تذكير للحالفين أيضا بأنه يمتحنهم و يختبرهم ليستحقوا الثواب الذي يريده لهم. و قال بعد النهي الثالث: (فَتَزَلْ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا) و هذا تهديد و وعيد لمن ترك الحق الى الباطل و الهدى الى الضلال.

(وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ). كل من صد عن سبيل الله و الحق و جب ردهه بالوعظ و الإرشاد أولا، فإن تاب و أناب فذاك و الا و جب جهاده و ساغ أسره و قتله، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فله

عذاب عظيم.

(وَلَا تَسْتُرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا) عهد الله هو الالتزام بالحق والعمل به، ومنه الوفاء بالعهد واليمين، والمراد بالثمن القليل المنفعة الدنيوية، وان كثرت، والمعنى لا تؤثروا منافعكم الخاصة على الحق، فتبيعه بالمال أو الجاه أو بأي متاع من هذه الحياة، فإن الدنيا بما فيها ليست بشيء في جنب ما أعدده الله للمطيعين والمحسنين **(إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ)** من المنافع الدنيوية بالغة ما بلغت كيفا وكما **(إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)** الفرق البعيد بين المنفعة الأخروية والدنيوية، ثم بين سبحانه وجه الفرق بينهما بقوله: **(مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ)**. وليس من شك ان الدائم أفضل وأشرف من الزائل .. و فوق هذا فإن المنفعة الدنيوية ترافقها الآلام

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٥٠

و المنغصات .. إذا اهلولى منها جانب أمر منها جانب، أما المنفعة الاخرية فخالصة من كل شائبة.

(وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). ان الدعوة الى الحق، والثبات عليه وعليها يستدعيان الأذى من المبطلين بطبيعة الحال .. فمن صبر على البلاء في سبيل الحق، وثبت على جهاد أعدائه الى النهاية أثابه الله ثواب الصابرين المجاهدين.

و تسأل: ان قوله تعالى: **(وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)**. ان قوله هذا يومئذ الى انه تعالى يجزي الصابرين بالثواب على أحسن أعمالهم، أما أعمالهم الحسنة والسيئة فإنه لا يجزيهم عليها بشيء، فهل هذا المعنى هو المراد من الآية؟.

الجواب: ان أعمال الإنسان تنقسم الى طاعات واجبة ومستحبة، ومعاص، ومباحات، وليس من شك ان أحسنها الطاعات، وأقبحها المعاصي، والله سبحانه يثيب الصابرين على جميع ما يفعلونه من الطاعات، ومنها الصبر في طاعة الله، وهو أفضلها وأشرفها، أما المباحات فلا يستحق فاعلها ثوابا ولا عقابا .. فالمراد بأحسن ما كانوا يعملون الطاعات بشتى صورها وأشكالها، وليس المراد الصبر فقط. أجل، ان الله سبحانه صرح بأنه يجزي الصابرين على حسناتهم، وسكت عن سيئاتهم، وفي هذا السكوت وعد أو شبه وعد بأنه تعالى يغفرها برحمته وفضله.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). في هذه الآية جهات:

١- لقد دلت على ان كلا من الذكر والأنثى يقاس بعمله عند الله، وانه لا فضل للرجل على المرأة إلا بالتقوى، فان اتقت هي وأطاعت، وعصى هو ولم يتق فهي خير منه وأكرم عند الله .. وتقدم الكلام عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ٢٢٨ من سورة البقرة بعنوان: «بين الرجل والمرأة» ج ١ ص ٣٤٣.

٢- دلت الآية أيضا على ان الايمان مع العمل الصالح سبب للأجر والثواب، أما أحدهما دون الآخر فلا يستحق صاحبه الثواب .. ولكن الجمع بين هذه الآية، وبين قوله تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ» يقتضي ان الله سبحانه يعوض على الكافر المحسن بالصحة أو المال أو الجاه أو طول العمر في الدنيا،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٥١

أو بتخفيف العذاب عنه في الآخرة. وسبق الكلام عن ذلك بعنوان: «الكافر وعمل الخير» عند تفسير الآية ١٧٨ من

سورة آل عمران ج ٢ ص ٢١١.

٣- اختلفوا في الحياة الطيبة التي ذكرها سبحانه بقوله: **(فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً)**. اختلفوا: هل تحصل هذه الحياة في الدنيا أو في الآخرة؟ .. و غريب ان يختلف المفسرون في ذلك، و هم يشاهدون بالحس و العيان ان الدنيا جنة الكافر، و سجن المؤمن، و يتلون بل يشرحون قوله تعالى: «وَلَوْ لَا اَنَّ يَكُوْنَ النَّاسُ اُمَّةً وَّاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَّ مَعَارِجَ عَلَيَّهَا يَظْهَرُونَ وَّ لِيُوتِيَهُمْ اَبْوَابًا وَّ سُررًا عَلَيَّهَا يَتَكَوَّنُونَ وَّ زَخْرَفًا وَّ اِنَّ كُلَّ ذٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَّ الْاٰخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ - ٣٥ الزخرف». و من أجل هذا نرجح ان المراد بالحياة الطيبة هنا الجنة، و ان قوله: و لنجزينهم اجرهم الخ عطف تفسير على قوله: فلنحيينه و تأكيد له، و مثله قوله تعالى: «اِنَّمَا يَفْتَرِي الْكٰذِبُ الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِآيٰتِ اللّٰهِ وَّ اُولٰٓئِكَ هُمُ الْكٰذِبُوْنَ - ١٠٥ النحل».

(فَاِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطٰنِ الرَّجِيْمِ). الخطاب للنبي (ص)، و التكليف للعموم، و المعنى ان من اراد ان يقرأ القرآن فليقل قبل القراءة: اعوذ بالله من الشيطان الرجيم، و في تفسير الرازي ان مالكا و داود الظاهري قالا: الاستعاذة بعد قراءة القرآن، لا قبلها جمودا على ظاهر اللفظ، و مهما يكن فان الاستعاذة من الشيطان قبل القراءة أو بعدها مستحبة، و ليست واجبة بالاتفاق.

(اِنَّهٗ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰنٌ عَلٰى الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا وَّ عَلٰى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ اِنَّمَا سُلْطٰنُهٗ عَلٰى الَّذِيْنَ يَتَوَلَّوْنَهٗ وَّ الَّذِيْنَ هُمْ بِهٖ مُشْرِكُوْنَ). ضمير انه ليس له يعود الى الشيطان، أما ضمير به مشركون فيجوز ان يعود على ربهم لتقدم ذكره، و يجوز ان يعود على الشيطان، على معنى انهم اشركوا بسبب طاعتهم للشيطان، و المعنى ان الشيطان لا سبيل له على الإنسان إلا بالوسوسة و الإغراء بفعل الحرام، و لا يستجيب له الاضعاف القلوب و الايمان. و تقدم نظيره مع التفسير في الآية ٢٢ من سورة ابراهيم و الآية ٣٩ و ما بعدها من سورة الحجر.

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٠١ الى ١٠٥]

وَ اِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَّ اللّٰهُ اَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ قَالُوْا اِنَّمَا اَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوْحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا وَّ هُدًى وَّ بَشْرًا لِّلْمُسْلِمِيْنَ (١٠٢) وَّلَقَدْ نَعْلَمُ اَنَّهُمْ يَقُوْلُوْنَ اِنَّمَا يَعْلَمُهٗ بَشَرٌ لِّسٰنِ الَّذِيْ يُلْحِدُوْنَ اِلَيْهٖ اَعْجَمِيٌّ وَّ هٰذَا لِسٰنٌ عَرَبِيٌّ مُّبِيْنٌ (١٠٣) اِنَّ الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِآيٰتِ اللّٰهِ لَا يَهْدِيْهِمُ اللّٰهُ وَّ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ (١٠٤) اِنَّمَا يَفْتَرِي الْكٰذِبُ الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِآيٰتِ اللّٰهِ وَّ اُولٰٓئِكَ هُمُ الْكٰذِبُوْنَ (١٠٥)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٥٢

اللغة:

التبديل رفع شيء مع وضع غيره مكانه، و روح القدس جبريل، و المراد باللسان هنا اللغة. و الإلحاد الميل. و الفرق بين الأعجم و العجمي ان الأعجم من لا يفصح و ان كان عربيا، و العجمي هو المنسوب الى العجم.

الإعراب:

قالوا جواب إذا، و جملة و الله أعلم معترضة بين إذا و جوابها. و لسان الذي يلحدون اليه مبتدأ، و خبره أعجمي.

المعنى:

(وَ اِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَّ اللّٰهُ اَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ قَالُوْا اِنَّمَا اَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ). ضمير قالوا يعود الى

المشركين الذين كذبوا محمدا (ص)، و ضمير أنت موجه منهم اليه .. ان الله سبحانه خلق الخلق، و هو العليم الحكيم بما يصلحهم و يفسدهم، و قد تستدعي الحكمة و المصلحة ان يشرع سبحانه لعباده حكما لأمد معين، فيفعل، حتى إذا انتهى الأمد ارتفع الحكم المحدود به، و شرع - جلت حكمته - حكما آخر مكانه على وفق المصلحة أيضا .. و هذا هو

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٥٣

المراد من قوله: «و إذا بدلنا آية مكان آية». و كان المشركون، حين يرون هذا التبديل، يقولون لمحمد (ص): انك تفعل ذلك من تلقاء نفسك، و تنسبه الى الله كذبا و افتراء، و الله سبحانه يعلم بأنه هو الذي أنزل هذا التبديل على رسوله الصادق الأمين، و يعلم انهم هم المفترون بقولهم للرسول الأعظم: «انما انت مفتر».

و أوضح تفسير قراته لهذه الآية ما روي عن ابن عباس انه إذا نزلت آية في شدة، ثم نزلت آية الين منها قال كفار قريش: ان محمدا يسخر بأصحابه، اليوم يأمر بأمر، و غدا ينهى عنه، و انه لا يقول هذه الأشياء الا من عند نفسه، فأنزل الله تعالى: و إذا بدلنا آية مكان آية الخ. و تكلمنا عن النسخ عند تفسير الآية ١٠٦ من سورة البقرة ج ١ ص ١٦٩.

(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدًى وَ بَشْرًا لِلْمُسْلِمِينَ). روح القدس هو

جبريل، و سمي بذلك لأنه نزل بالقدس، و هو القرآن من عند الله على محمد (ص). و نظير هذه قوله تعالى في الآية ٨٩ من هذه السورة: (و نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بَشْرًا لِلْمُسْلِمِينَ). و ذكرت الآية هنا للرد على المشركين الذين نسبوا التبديل إلى النبي، و ذكرت هناك بمناسبة قوله تعالى ما معناه ان الله يوم القيامة يبعث من كل أمة شهيدا، و يبعث محمدا ليشهد على أمته انه قد بلغها القرآن الذي هو تبيان لكل شيء.

(و لَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ). اتهم المشركون محمدا (ص) بأنه تعلم القرآن من غيره، و نسبه الى الله كذبا و افتراء .. و ليس من شك ان هذا من حرب الدعايات الكاذبة يعلنها المفسدون في الأرض على مصلح يثور عليهم و على فسادهم و افسادهم .. و قد تطورت اليوم أساليب الدعايات ضد المخلصين و المصلحين، و بلغت النهاية في الدقة و الأحكام، حتى انخدع بها كثير من الأبرياء الأصفياء.

(لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ). هذا رد لقول المشركين عن محمد (ص): «انما

يعلمه بشر»، و يظهر من هذا الرد انهم أضافوا التعليم الى رجل معين، و ان هذا الرجل كان أعجميا يعجز عن الإفصاح

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٥٤

بالكلام، و لذا قال تعالى: ان القرآن ذو بيان و فصاحة فكيف يمكن أن يصدر عن أعجمي؟ .. ان فاقد الشيء لا يعطيه. ردد هذا الافتراء أعداء الإسلام في حياة محمد (ص)، و رددوه من بعده أيضا، و ما زال كثير من المبشرين النصراري يجترونها هذا الافتراء جاهلين أو متجاهلين بأن في القرآن علوما و فنونا و حكما لم يكن لها في ذلك العهد عين و لا أثر .. و لو افترض وجودها فلا يمكن أن يجمعها و يعلمها واحد، و لو علمها لتجاوزت شهرته شهرة أرسطو الذي أسماه العرب بالمعلم الأول .. مع العلم بأنه ما ادعى أحد ان رجلا كان في عهد رسول الله يجمع علوم القرآن.

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ). المراد بآيات الله الدلائل الناطقة بوجوده، و

المعجزات الشاهدة بنبوّة الأنبياء، و الأحكام المنزلة من الله عليهم، أما الهداية فالمراد بها هنا الثواب، و المعنى ان الله

سبحانه لا يثيب، بل يعاقب من يكفر بآياته بشتى أنواعها.

الكاذب الكافر:

(إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) ولا بالبعث والحساب والجزاء كالمشركين الذين قالوا لمحمد (ص) ما قالوه **(وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ)**. انهم يجرون على الكذب وعلى جميع المفساد والآثام لأنهم لا يخشون عقابا على الكذب، ولا يرجون ثوابا على الصدق.

و تسأل: ان قوله تعالى: «انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون» يغني عن قوله:

«و أولئك هم الكاذبون». فما هو القصد من هذا التكرار؟

و أجاب المفسرون بأن القصد منه التنبيه الى ان صفة الكذب فيهم ثابتة راسخة تماما كما تقول لمن عرف بالكذب: كذبت و أنت الكاذب أي ان دأبك و شأنك الكذب.

سؤال ثان: قال سبحانه: **«إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ»**. وهذا حصر للكاذب بالكافرين مع ان كثيرا من الكافرين أصدق و أوثق في أحاديثهم من كثير من الذين يؤمنون بالله و اليوم الآخر؟

الجواب: ان المسلم الكاذب مؤمن بالله نظريا، و كافر عمليا، فهو بوصفه

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٥٥

مؤمنا نظريا و فكريا يعامل في الدنيا معاملة المسلم، و بوصفه كافرا في عمله و فعله يعامل في الآخرة معاملة الكافر لهذه الآية، و لما روي عن النبي من انه سئل:

هل يكذب المؤمن؟ فقال: لا. ثم قرأ هذه الآية.

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٠٦ الى ١١١]

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) وَأُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَابْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تَجَادَلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)

اللغة:

شرح بالكفر صدرا أي اعتقده عن طيب نفس. و استحبوا الحياة الدنيا أي آثروها و قدموها، و لا جرم لا شك. و المراد بفتنوا هنا ابتلوا. و تجادل عن نفسها تدفع عنها و تسعى في خلاصها.

الإعراب:

ذكر الطبرسي وجهين لإعراب (من) في قوله تعالى: **(مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ)**.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٥٦

و ذكر الرازي أربعة أوجه، و اختار ان محلها النصب مفعولا لفعل محذوف أي أعني من كفر بالله، أما نحن فنختار ان محلها الرفع بالابتداء، و الخبر محذوف تقديره من كفر بالله من بعد إيمانه فعليهم غضب الله، و هذه الجملة تدل عليها الجملة الموجودة في نفس الآية، و من شرح مبتدأ، و فعليهم غضب من الله خبر.

وصدرا تمييز محول عن فاعل لأن أصله من انشرح صدره للكفر، وقال الرازي: صدرا مفعول، وأصله صدره، وحذف الضمير للعلم به. والمصدر من انهم في الآخرة مجرور بمحذوف أي لا جرم في انهم، وضمير (هم) فصل والخاسرون خبران. ثم ان ربك للذين هاجروا خبرها جملة ان ربك لغفور رحيم. وان ربك من بعدها توكيد لأن ربك للذين هاجروا الخ.

المعنى:

(مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ). تدل هذه الآية على الاذن بالتفوه بكلمة الكفر للنجاة من القتل، على ان يكون لافظها مؤمنا حقا و صدقا. وجاء في تفسير الرازي: «أكره أناس على كلمة الكفر، منهم عمار و أبواه ياسر و سمية، و صهيب و بلال و خباب و سالم، و قد عذبوا، فأما سمية فربطت بين بعيرين، و وخزت في قلبها بحربة فقتلت، و قتل ياسر، و هما أول قتيلين قتلا في الإسلام، و أما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها. فقال بعضهم: يا رسول الله ان عمارا كفر. فقال الرسول الأعظم (ص)، كلا، ان عمارا مليء ايمانا من قرنه الى قدمه، و اختلط الايمان بلحمه و دمه ..

فأتى عمار رسول الله (ص) و هو يبكي، فجعل الرسول يمسح عينيه و يقول:

«ما لك؟ ان عادوا لك فعد بما قلت». و تقدم الكلام عن التقية عند تفسير الآية ٣٠ من سورة آل عمران.

(وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) بعد ان ذكر سبحانه من آمن واقعا، و أظهر الكفر للنجاة من القتل، و انه معذور عند الله - بعد هذا ذكر من كفر ظاهرا و واقعا، لا لشيء الا رغبة في الكفر، و لا جزاء لهذا الا غضب الله و عذابه الأليم **(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى**

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٥٧

الآخرة) ذلك اشارة الى غضب الله و عذابه، و استحباؤا آثروا، و المعنى ان الله سبحانه يطرد الكافرين من رحمته، و يعذبهم بناره لأنهم آثروا الحياة و زينتها على الآخرة و نعيمها. و قوله تعالى: ذلك بأنهم استحباؤا الخ. صريح في ان العلة لعذابهم و غضب الله عليهم هي استحباؤا الدنيا على الآخرة، و معنى هذا ان كل من آثر الهوى على الحق، و العاجلة على الآجلة فهو عند الله مثل الكافر و المشرك من حيث استحقاقه الغضب من الله و العذاب.

(وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) بمعنى انه لا يعتبرهم مهتدين بعد ان استحباؤا الكفر على الايمان بطبيعة الحال. و أيضا لا يهديهم بمعنى انه لا يثيبهم .. و ليس من شك انه قد هداهم بمعنى انه اقام لهم الأدلة الكافية الوافية على وجوده و نبوة أنبيائه: «و أما ثمود فهديناهاهم فاستحباؤا العمى على الهدى - ١٦ فصلت».

(أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ سَمَعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ).

تقدم نظيره مع التفسير في سورة البقرة الآية ٦.

(لَا جَرَمَ) لا شك (أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ). و لا خسران أعظم من غضب الله و عذابه.

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ). بعد ان ذكر سبحانه حكم من آمن في الواقع، و كفر في الظاهر مكرها، بعد هذا ذكر هنا من كان قد آمن برسول الله، و لكنه بقي بمكة و لم يهاجر معه الى المدينة، و أعطى المشركين بعض ما أرادوا منه، ثم تاب و هاجر و جاهد بين يدي رسول

الله، و صبر على جهاد المشركين و الفاسدين، و قد بين سبحانه حكم هذا بقوله: **(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ)**. و ضمير بعدها يعود الى فعلتهم التي يدل عليها السياق، أو الى توبتهم مع الهجرة و الجهاد و الصبر. و في كثير من التفاسير ان هذه الآية نزلت في جماعة من أصحاب رسول الله (ص) كانوا قد تخلفوا بمكة، و لم يهاجروا مع رسول الله، فاشتد المشركون عليهم، حتى فتن البعض منهم عن دينه، و جاروا المشركين، ثم ندموا، و خافوا ان لا تقبل لهم توبة، فانزل الله هذه الآية.

(يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا). المراد بالنفس الأولى الإنسان،

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٥٨

و بالنفس الثانية ذاته، و المعنى ان كل انسان يوم القيامة يدفع عن نفسه، و لا يهتم بغيره: **(لِكُلِّ امْرِيٍّ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ - ٣٧ عيس)**. **(و تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ)**. و نظيره قوله تعالى: **(وَلْتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ - ٢٢ الجاثية)**. و قوله: **(لَتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى - ١٥ طه)**. و قد تكرر هذا المعنى في عشرات الآيات.

[سورة النحل (١٦): الآيات ١١٢ الى ١١٣]

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ (١١٣)

اللغة:

الرزق الرغد الواسع، و أنعم جمع نعمة.

الإعراب:

قرية بدل من (مثلا). و رغدا حال من رزقها أي واسعا.

المعنى:

اختلف المفسرون في المراد بالقرية المذكورة في الآية: هل هي قرية معينة و موجودة بالفعل، او انها فرضت على هذه الصورة لضرب المثل بها؟. و نقل

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٥٩

الرازي عن أكثر المفسرين ان المراد بها مكة المكرمة .. و مهما يكن فإن هذه الأوصاف تنطبق على مكة و أهلها، فان الناس يأمنون فيها على أنفسهم و أموالهم، و لا يخافون الغزو و السلب و النهب، كما كان يخاف سائر العرب، و لا يحتاج أهلها ان ينتجعوا الى البلدان، لأن الرزق كان يأتيها من كل مكان استجابة لدعوة ابراهيم (ع): **(فَأَجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ - ٣٧ ابراهيم)** و قد كفر أهل مكة بأنعم الله حيث كذبوا محمدا (ص)، و هموا بقتله، حتى اضطروه الى الهجرة من بلده.

و أصاب أهل مكة الجوع بدعاء رسول الله (ص) عليهم، حيث قال: **(اللهم أشد وطأتك على مضر، و اجعلها عليهم سنين كسني يوسف)**. فاستجاب الله دعوته، و أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف و الكلاب و العظام المحرقة و القراد و الوبر معجوناً بالدم، و كان أحدهم ينظر الى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع، أما الخوف فقد زلزلت بهم الأرض سرايا رسول الله (ص).

[سورة النحل (١٦): الآيات ١١٤ الى ١١٩]

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ لِيَآئِهِ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلٍ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السُّنْتِكُمْ الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلٍ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٦٠

الإعراب:

الكذب مفعول لتصف، وهو مبالغة في كذبهم لأن المعنى ان السنتهم تعرف الناس بحقيقة الكذب، فهو تماما مثل قولك: وجهه يصف للناس الجمال. والمصدر المنسب من لتفتروا بدل من لما تصف مع اعادة حرف الجر لأن وصفهم الكذب هو افتراء على الله. و متاع قليل خبر مبتدا محذوف أي بقاؤهم متاع قليل.

المعنى:

(فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ لِيَآئِهِ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلٍ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ). تقدم نظيره مع التفسير في الآية ١٧٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٦٤، والآية ٥ من سورة المائدة ج ٣ ص ١٨.

(وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السُّنْتِكُمْ الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ). كان أهل الجاهلية يحللون ويحرمون من عند أنفسهم، وينسبون ذلك الى الله تعالى، من ذلك انهم كانوا يحللون الميتة و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير الله، و يقولون ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا و محرم على أزواجنا، و ما الى ذلك مما ذكر في سورة الأنعام الآية ١٣٧ و ما بعدها، فنهاهم الله سبحانه عن هذا، و قال هو كذب و افتراء **(لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ)** و كل من أسند الى الله حكما أو قولاً أو أي شيء من غير دليل قاطع فقد افتري على الله الكذب **(إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْلِحُونَ)** كيف و قد غضب الله عليهم و أعد لهم عذاباً أليماً؟ **(مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)** و كل منافع الدنيا لا تعدل أيسر عذاب من الآخرة فكيف إذا كان الیما عظیماً؟: «نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ - ٢٣ لقمان».

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٦١

(وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلٍ). الخطاب لمحمد (ص) يذكره الله فيه بما أنباه به في الآية ١٤٦ من سورة الأنعام: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ» .. **(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)** لأنهم عصوا الله، و تجاوزوا حدوده، فعاقبهم بهذا التحريم، كما جاء في الآية ١٥٨ من سورة النساء: «فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ».

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمَلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) مر
نظيره مع التفسير في الآية ٥٥ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٩٧.

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٢٠ إلى ١٢٤]

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِنِعْمَةِ اجْتِبَاءِهِ وَهُدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤)

اللغة:

قانتا مطيعا. و حنيفا مستقيما مائلا عن الباطل إلى الحق. و اجتباه اختاره و اصطفاه.

الإعراب:

أمة خبر كان و قانتا و حنيفا و شاكرا اخبار متعددة لكان. و حنيفا حال من ابراهيم.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٦٢

المعنى:

بعد أن أشار سبحانه في الآيات السابقة إلى المشركين و أنهم حللوا ما حرم الله، و حرموا ما أحل، احتج عليهم بإبراهيم الذي يقدره، و يوجبون الاقتداء به، و قد وصفه بالصفات التالية:

١- **(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)** و اختلفوا في تفسير الأمة، و نقل الرازي أربعة أقوال، أرجحها قولان: الأول ان ابراهيم كان يعدل أمة بما فيها. الثاني انه كان إماما، و مهما يكن فإن المراد بالأمة هنا انه كان عظيما «١».

٢- **(قَانِتًا لِلَّهِ)** أي مطيعا له.

٣- **(حَنِيفًا)** مستقيما متبعا الحق تاركا الباطل.

٤- **(وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)**. هذا رد على المشركين الذين يدعون أنهم على ملة ابراهيم.

٥- **(شَاكِرًا لِنِعْمِهِ)** قد أخلص الشكر لله فيما أنعم عليه.

٦- **(اجْتِبَاءَهُ)** اختاره للنبوته.

٧- **(وَهُدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)** و هو دين الإسلام، لا اليهودية و لا النصرانية: «ما كان إبراهيم يهوديا و لا نصرانيا و لكن كان حنيفا مسلما و ما كان من المشركين - ٦٦ آل عمران».

٨- **(وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً)** و هي تعظيم جميع أهل الأديان له، و اعترافهم بنبوته.

٩- **(وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)** تلبية لدعوته حيث قال: «رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَّ الْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ - ٨٢ الشعراء».

(ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ). هذا دليل



(١). قال صاحب «روح البيان» عند تفسير هذه الآية: جاء في الحديث «الحسين سبط من الأسباط» أي أمة من الأمم لأن السادات من نسل ولده زين العابدين. ثم قال صاحب «روح البيان»: ان جماعة في زمانه قالوا الحسين نبي .. ونحن لم نسمع بهذا من قبل. ولا ريب انه كفر و الحاد.

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٦٣

على ان الإسلام وديانة ابراهيم شيء واحد في العقيدة ونبذ الشرك، فمن يدعي انه على دين ابراهيم، وهو ينكر نبوة محمد (ص) فقد ناقض نفسه بنفسه من حيث يريد أو لا يريد.

و تسأل: ان محمدا (ص) سيد الأنبياء، فكيف يؤمر بمتابعة غيره من الأنبياء؟

الجواب: ان الغرض من المتابعة هنا هو الرد على المشركين الذين يعترفون بدين ابراهيم، وينكرون دين محمد (ص) مع انهما شيء واحد .. هذا، الى ان الأمر بالمتابعة للأسبقية، و من الواضح ان الأسبقية لا تستدعي الأفضلية في كل شيء.

(إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ). ضمير فيه يعود الى السبت، كما هو الظاهر من السياق، و جعل هنا

بمعنى فرض، و السبت على حذف مضاف أي فرض الله تعظيم السبت و ترك العمل فيه على اليهود وحدهم، و ما

فرض تعظيم السبت على أحد قبلهم و لا بعدهم .. و قيل في سبب ذلك ان جماعة منهم رفضوا الجمعة، و أبوا الا

السبت، فاستجاب الله لهم على شريطة أن لا يصطادوا فيه، فقبلوا الشرط، و خالفوه كما هو شأن اليهود في كل زمان و

مكان .. و مهما يكن فإن الله سبحانه لم يبين وجه اختلاف اليهود في السبت: هل اختلفوا في جواز العمل فيه، أو اختلفوا

في السبت نفسه، فمنهم من قال: هو العيد، و منهم قال: بل غيره العيد؟. و الأرجح انهم اختلفوا في تحريم الصيد فيه

بطريق الاحتيال الذي اشرنا اليه عند تفسير الآية ١٦٤ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٤١٠ لأنهم جميعا كانوا متفقين على

ان السبت عيد.

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ). و حكمه انذاك هو ان يثيب المطيعين، و يعاقب

العاصين.

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٢٥ الى ١٢٨]

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ

أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَ إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَ اصْبِرْ وَ مَا

صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ

(١٢٨)

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٦٤

الإعراب:

بمثل، قال أبو البقاء الباء زائدة. و لئن اللام تدل على قسم محذوف. و لهو خبر اللام واقعة في جواب القسم و الجملة

سأد مسد جواب القسم و جواب الشرط.

و الا بالله على حذف مضاف أي الا بعون الله.

المعنى:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) و ترشدنا هذه الآية الى ما يلي:

١- ان الدعوة يجب ان تكون للحق خالصة من كل شائبة، فأى انسان يدعو الى غير الحق فدعوته فساد و ضلال، و اعظم الناس جرما من اتخذ من الدعوة الى الله و الحق وسيلة لتدعيم جاهه و كيانه كما يفعل طلاب الزعامة و الرئاسة من رجال الدين و الدنيا.

٢- أن تكون الدعوة بالحكمة و الموعظة الحسنة، و من الواضح ان قوام الحكمة العلم و العقل، فبالعقل يميز الداعي بين الحق و الباطل، و الخير و الشر، و بالشئ يعرف أحوال المخاطبين و الطريقة التي ينبغي أن يخاطبهم بها من اللين و الشدة، أما الموعظة الحسنة فمنها، بل من أحسنها، أن يخاطب المرشد المخطئ بأسلوب يشعر

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٦٥

منه تلقائيا انه مخطئ، و من الحمق أن يفاجئه بالتأنيب و التوبيخ، و قديما قيل:

التلويح أبلغ من التصريح. و بكلمة ان الموعظة الحسنة هي التي تحقق الغرض المطلوب كما قال تعالى: «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» - ٣٣ فصلت.

٣- الجدل بالتي هي أحسن، و ذلك بأن يكون الغرض منه اظهار الحق، و اقناع المنكر، لا مجرد افحامه و التغلب عليه. **(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)**. بعد ان أمر الله نبيه الأكرم ان يبلغ بالحكمة، و يجادل بالأحسن قال له: هذا ما عليك، أما هداية الناس فانت غير مسؤول عنها .. و في هذا النص إيماء الى ان الحماس في الدعوة لا يحسن في كل الأمور و على كل حال، قال تعالى: «وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ» - ٢٨ الكهف.

(وَ إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ). هذا مثل قوله تعالى: «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ» - ١٩٤ البقرة. و قال جماعة من المفسرين: ان هذه الآية مدنية أدرجت في سورة مكية، و ان السبب لنزولها ان المشركين مثلوا بقتلى المسلمين في وقعة أحد، و بالخصوص حمزة بن عبد المطلب، فإنهم شقوا بطنه، و أخذت هند ام معاوية كبده فلاكته، و جدعوا أنفه و صلّموا أذنيه و قطعوا مذاكيره، فقال المسلمون: لئن أمكننا الله من المشركين لنمثلن بالأحياء فضلا عن الأموات، فنزلت الآية.

(وَ لئن صبرتُمْ لهوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ). بعد أن أشار سبحانه الى ان القصاص لا يجوز إلا بالمثل قال: الأفضل العفو و كظم الغيظ و مثله قوله تعالى: «وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» - ٤١ الشورى.

(وَ اصْبِرْ وَ مَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ). أي بعونه تعالى و توفيقه، و الخطاب لمحمد (ص) و المراد به العموم. و تكلمنا عن الصبر عند تفسير الآية ١٥٥ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٤٣.

(وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ). ما من أحد يدعو الى الخير الا و يلاقي الأذى و العنت من أهل الشر دينيا كان أو زمنيا، و قد أوصى

تفسير الكاشف، ج ٤، ص ٥٦٦

سبحانه كل من دعا و يدعو الى سبيله أن لا يحزن لتكذيب من كذب و اعراض من أعرض عن دعوته، لأن العاقبة لمن اتقى **(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا)** محارمه خوفا منه **(وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)** بجهاد الباطل و أهله، و بالعفو عن الناس

فيما يعود الى الحق الخاص دون العام.

تم تفسير هذا المجلد في الليلة الثامنة من المحرم سنة ١٣٨٩ هـ الموافق ٢٧ آذار سنة ١٩٦٩ م، وكتبت الملمزمة الأخيرة منه في مدرسة المقدس السيد الشيرازي بسامراء، والحمد لله رب العالمين، و صلى الله على محمد وآله الطاهرين.